الوحدة الإسلامية

أو التقريب بين المذاهب السبعة

وكتاب الأخوة الدينية ونصوص علمية
وآراء علماء المسلمين من المذاهب الإسلامية

جمع وترتيب

عبد الكريم الشيرازي

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠

الوحدة الاسلامية

أو التقريب بين المذاهب السبعة

الوحدة الإسلامية

أو التقريب بين المذاهب السبعة

وثائق خطيرة وبحوث علمية
لأعاظم علماء المسلمين من السنة والشيعة

جمع وترتيب
عبد الكريم بي آزار الشيرازي

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠

الطبعة الثانية

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات:

بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة - ملك الاعلمي - ص.ب ٧١٢٠

الهاتف : ٨٣٣٤٥٣ - تلفاكس : ٨٣٣٤٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل

أراد الله — رحمة بالمسلمين — أن يتيح لهم فرصة علاج مشكلة من أعقد مشاكلهم وهي التفرق المذهبي الذي قاسى منه المسلمون قروناً وقروناً .

ان المذاهب الاسلامية مع كونها مدارس فكرية تزيد الفقه الاسلامي ثراء وغنى ، والفكر الاسلامي تعمقاً وجلاء ، فإن تدخل الحكام المغرضين رغبة في تثبيت سلطانهم تارة وتحكم السياسات الخبيثة رغبة في سحق المعارضين تارة اخرى قد جعلت من بعض الخلافات المذهبية مشكلة خطيرة زادها تعقيداً حملات الأقلام المأجورة ونزعات النفوس المريضة ومغالطات تجار المذهبية ، فإذا بهذه المشكلة تعصف بالاخوة الدينية وتزلزل الوحدة الاسلامية زلزالاً يهدم كيان الامة .

ثم جاء الاستعمار — وما أدراك ما الاستعمار — ذلك الاستعمار الأجنبي الذي استغل هذه الفرقة المذهبية في تثبيت سلطانه وتدمير ما بقي من دعائم الوحدة بين المسلمين لينهب خيرات البلاد ويستعبد عباداً خلقهم الله ليكونوا أحراراً .

وكان رائدهم القاعدة المعروفة « فرّق تسد » ليزيدوا من الخلاف بين امة التوحيد ويستحكموا حكمهم ما شاء لهم أن يحكموا .

ولكن الله أراد المسلمين غير ذلك وحدث ما لم يكن بحسبان وأن الله على ما يشاء لقدير .

قامت الحرب العالمية الثانيــة وابتلى الله المستعمرين بعضهم ببعض فدمّروا بلادهم بأنفسهم وخربوا كل عامر فيها ، ثم خرجوا من هذه الحرب — منتصرين أو منهزمين — محطمة جسومهم ، مشوهة نفوسهم ، ذاهلة عقولهم ، يهيمون مشردين بين الخراب والدمار في طول بلادهم وعرضها .

وكانت هذه هي فرصة ذهبية أتاحها الله المسلمين كي يعالجوا أخطر مشاكلهم قبل أن يسترد المستعمرون أنفاسهم ويفيقوا من ذهولهم ويحكموا قبضتهم على البلاد الاسلامية من جديد .

وانتهز نفر من كبار رجال الدين من المصلحين والمفكرين هذه الفرصة ولبّوا دعوة رجل مصلح قدّر الله له حمل الرسالة وتلاقوا في القاهرة وكوّنوا جمعيـــة اسلامية قوية سموها: «جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية» لا لتدعو الى دمج المذاهب وجعلها مذهباً واحداً كما تصور كثيرون ، ولا لتغلب مذهباً على آخر بأن تجعل من السني شيعياً أو من الشيعي سنياً كما وقع في وهم من هاجمونا من الفريقين ولا لتبحث تنازل أي مذهب عن جزء مما فيه لصالح الفريق الآخر حتى يتلاءما ولا لإلغــاء المذهبية كما يقترح بعض الناس ظناً منهم بأن هــذا سبيل الخلاص من المشكلة من أساسها .

وإنما جاءت تدعو الى التقريب بين أرباب المذاهب الاسلامية الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التي يجب للمسلم أن يؤمن بها ليكون مسلماً .

* * *

والحق ان الاقدام على عمل كهذا في ذلك الحين كانت مجازفة خطيرة لأن

الوضع آنذاك كان يثير الشجن فالشيعي والسني كل كان يعتزل للآخر وكل كان يعيش على أوهام ولدتها في نفسه الظنون أو أدخلتها في روعه سياسة الحكم والحكام وساعد على بقائها قلة الرغبة في المطالعة والاطلاع .

كانت الكتب المشحونة بالطعن والتجريح تتداول بين أبناء كل فريق وتروج في كل محيط حتى لو تكلمت عن طوائف وعقائد لا وجود لها على الاطلاق .

وكان أهل السنة يتصورون الشيعة من الغلاة ، مع أن الشيعة تكفّر الغلاة وتعدهم من النجاسات .

وكان الشيعة يتصورون أهل السنة من النواصب أي الذين يناصبون لأهل البيت العداء ، مع أن كل تابع للسنة يحب أهل البيت ويكرمهم غاية التكريم .

إذا كان هذا موقف كل من الفريقين إزاء الفريق الآخر ، القطيعة والهجوم ، فإن موقف الوسيط أو المصلح بينهما كان أصعب وأسوأ ، إذ كلا الفريقين رغم خلافهما كانا متفقين للهجوم على من يريد الاصلاح بينهما .

ومع كل ذلك وفي هذا الجو المليء بالتهم والافتراءات قام هؤلاء النفر من الذين **لا يخافون في الله لومة لائم** ، بهذا الواجب ، وتكونت جماعة التقريب مع شعار : « **إن هذه امتكم امة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** » .

واتخذت لها في القاهرة داراً صارت مركزاً لتلاقي الأفكار ومصدراً للتحول الاصلاحي الاسلامي في تاريخ المذاهب الاسلامية .

وقد اتفق أعضاء التقريب أول ما اتفقوا على مبدأ أسامي ، أن يلتف المسلمون جميعاً حول العقائد والاصول المتفق عليها ، وأن يعذر بعضها بعضاً فيما وراء ذلك من امور لا تكون شرطاً من شروط الايمان ولا ركناً من أركان الدين ولا إنكاراً لما هو معلوم من الدين بالضرورة .

لقد اتفقوا على أن المسلم هو من يعتقد بالله رباً ، وبمحمد نبياً ورسولاً ، لا نبي ولا رسول بعده ، وبالقرآن كتاباً ، وبالكعبة قبلة وبيتاً محجوباً ، وبالأركان

الخمسة المعروفة ، وبالإيمان بالبعث والجزاء ، وبالعمل بما هو ضروري في الدين ، وكانت هذه الأركان — التي ذكرنا لا على سبيل الحصر — هي موضع اتفــاق بين المجتمعين من ممثلي السنة بمذاهبهم الأربعـــة المعروفة وبين ممثلي **الشيعة** بمذهبيها **الامامية والزيدية** .

إنهم جميعاً يتفقون على هــذه الاصول ، والخلاف الأساسي المميز بين هؤلاء وهؤلاء إنمـــا هو اختلاف الرأي في أمر **الولاية والخلافة** هل تكون بالنص كما يقول الشيعة ، أم تكون بالانتخاب كما يقول أهل السنة ؟ ولم يكن أحـــد من الفريقين يرى أن هذا أصل من اصول الدين ، يكون نفيه أو إثباته منشئاً للكفر أو الإيمان .

ومع احتفــاظ كل فريق برأيه في مسألة **الولاية والخلافة** واحتفاظه بمذهبه الشيعي أو السني ، هم يتفقون فيما وراء ذلك ، وإن كانت هنــاك خلافات فهي خلافات اجتهادية أو كلامية لا تضر بوحدة المسلمين .

ذلك لأنهم جميعاً يتفقون على أن مصادر الأحكام واحــــدة هي الكتاب والسنة ، فليس فيهم من يقول : هــذا أمر به الله أو رسوله ونحن لا نلتزم به . وليس فيهم من يقول : كلفنـــا الله ورسوله أن نؤمن بكذا ونحن لا نؤمن به . وإنما يقولون : هذا أمر به الله ورسوله، أو هذا لم يأمر به الله ورسوله ، أو هذا من المواضع التي يسوغ فيها الاجتهاد .

فالخلاف بينهم إنما هو في الصغرى لا في الكبرى .

وعلى ذلك فلا ضير على المسلمين من أن يختلفوا ، ما دام خلافهم في دائرته العقلية المعقولة والاجتهادية المقبولة ، وإنمـــا الضرر أن يفضي بهم الخلاف الى القطيعة والى الخروج على ما تقضي به الاخوة في الدين .

وحين أفضى الخلاف المذهبي بالمسلمين الى القطيعة واستبد الهوس المذهبي فيهم ببعض النفوس حتى استباح المسلم دم أخيه ، رأينا بعض المصلحين في مختلف

العصور كل يحاول بقدر طاقته أن يوقف تيار العداء الجارف ويخفف من حدة التعصب ، لكنها كانت محاولات فردية تتراجع أمام هوس التعصب أو تنزوي أمام هجمات المخالفين ، ثم في الغالب تموت وتختفي بموت اصحابها وتزول .

ثم جاءت **دعوة التقريب** يحملها نفر من المصلحين ذوي المكانة في بلادهم والصدارة في مذاهبهم ومراكز فوق مستوى الشبهات ، فكوّنوا جماعة منهم استماتت في صد تيار التعصب المذهبي واستطاعت بتوفيق الله أن تحرز نجاحاً ملموساً في ربع قرن من الزمان وأن تعود بأرباب المذاهب المتناصرين الى طريق التفاهم من جديد ، ومن آثار نجاحها كانت تلك الفتوى التاريخية الصادرة من مشيخة الأزهر أعلى المراكز الدينية والعلمية عند أهل السنة **على جواز التعبد بمذهبي الامامية والزيدية** وهما من مذهب الشيعة .

* * *

وأما عوامل نجاح **دعوة التقريب** فكثيرة أهمها :

١ ــ ان **دعوة التقريب** قامت على أساس علمي مدروس وما يقوم على أساس العلم يبقى ، لأن العلم يبحث عن الحقائق الثابتة ، خلافاً لما يقوم على العواطف والظروف الوقتية فإنه بزوال أسبابها يزول .

٢ ــ ان **دعوة التقريب** لم تكن دعوة فردية وإنما حملتها جماعة كل واحد له مركزه العلمي وله تأثيره في المجتمع الذي يعيش فيه .

٣ ــ ان عدداً من الشخصيات المرموقة في العالم الاسلامي أيدت واعتنقت دعوة هذه الجماعة وآزرتها الى أبعد الحدود من هؤلاء في محيط الشيعة **الامام الأكبر البروجردي من قم** وكان رضي الله عنه المرجع الأعلى الشيعي **والامام محمد الحسين آل كاشف الغطاء** كبير مراجع النجف الأشرف بالعراق **والامام السيد عبد الحسين شرف الدين** أعظم مراجع الشيعة بلبنان **والامام السيد**

صدر الدين الصدر من مراجع التقليد بقم وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين . وكان تأييد هؤلاء الرجال له أعظم الأثر في قبول علماء الشيعة ، هذه الدعوة بقداسة وتكريم .

ومن هؤلاء في محيط أهل السنة الامام الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر والمرجع الأعلى للافتاء وأفقه فقهاء عصره ، والشيخ الامام مصطفى عبد الرازق والامام الشيخ محمود شلتوت .

وانضمامهم الى الجماعة طمأن علماء الأزهر وهدأ من ثورة الحكام في مصر الذين كانوا يسيئون الظن بأي نشاط ديني واسع النطاق .

والزعيم الاسلامي الشهير المرحوم الشيخ حسن البناء مؤسس ومرشد الاخوان المسلمين ، وكان وجوده في جماعة التقريب له أبعد الأثر في شباب مصر عامة وفي شباب الجمعيات الاسلامية في أنحاء العالم الاسلامي .

٤ — إن جماعة التقريب جعلت مقرها في القاهرة وكان هذا له تأثيره فإن القاهرة هي عاصمة أهل السنة وهي مقر الأزهر الشريف وجوها يلائم هذه الدعوة جو السماحة القاهرية .

٥ — إن جماعة التقريب كانت تهدف الى إيجاد التعاون بين المسلمين في مختلف بلادهم ، ولهذا تباعدت عن السياسة المتقلبة حتى لا ترتبط ببلد دون بلد واعتبرت رسالتها فوق كل السياسات . وفي ظل هذا السلوك مرّ عليها أكثر من ربع قرن لم تتعرض فيه لأية هزات برغم ما وقع من أحداث وتقلبات في مصر وغيرها من البلدان .

٦ — إن الدول التي كانت تغذي سياسة التفرقة ، شغلت بالحرب الساخنة بينها حيناً وابتليت بالحرب الباردة بينها أحياناً ، وكان هذا من عوامل نجاح أية فكرة إصلاحية وقفت لها تلك الدول بالمرصاد .

تلك كانت أهم أسباب نجاح **دعوة التقريب** ، ذلك النجاح الذي لا نرى له مثيلاً في التاريخ المذهبي طوال أربعة عشر قرناً من الزمان .

أما عن منطلق **دعوة التقريب** فيرجع ذلك الى حوادث مؤلمة آخرها حادثة — قد يراها اناس بسيطة — ولكنها هزّت كيان عالم مسلم من اسرة دينية عريقة يتمتع بكل شرائط الدعاة المصلحين .

أما الحادثة الأخيرة فقتل حاج ايراني بريء افتراء وبهتاناً في الحج وفي مكة المكرمة بالذات ولولا سوء الظن الطائفي لما شهدت بعض المتعصبين عليه ولمـــا استشهد بريئاً طاهراً .

وأما العالم المسلم فهو **المجاهد محمد التقي القمي** لقد رأى في هذه الحادثة أن العداوة المذهبية قـــد جاوزت كل الحدود وإلا فكيف يقتل مسلم بيد مسلم في مكان قدّسه الله **ومن دخله كان آمناً** فهاجر من بلده وطاف بالبلاد الاسلامية يلتقي بعلمـــاء المذاهب المختلفة ويناقشهم ويحاججهم ويدعوهم الى العمل للتقريب بين المسلمين، ونترك الكلام هنا للامام الأكبر **الشيخ محمود شلتوت** شيخ الجامع الأزهر الأسبق في مقدمته لقصة التقريب التي تعد تاريخاً لهذه الدعوة المباركة :

« كنت أود لو كتب قصة التقريب أحد غير أخي **الامام المصلح**
« **محمد التقي القمي** ليستطيع أن يتحدث عن ذلك العـــالم المجاهد
« الذي لا يتحدث عن نفسه ولا عما لاقاه في سبيل دعوته وهو أول
« من دعا الى هذه الدعوة وهاجر من أجلها الى هذا البلد بلد الأزهر
« الشريف فعاش معها والى جوارها منـــذ غرسها بذرة مرجوة على
« بركة الله وظل يتعهدها بالسقي والرعاية بمـــا آتاه الله من عبقرية
« واخلاص وعلم غزير وشخصية قوية وصبر على الغير وثبات على
« صروف الدهر حتى رآها شجرة سامقة الاصول باسقة الفروع
« تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويستظل بظلها أئمـــة وعلماء

« ومفكرون في هذا البلد وفي غيره ولكني أعود فأقول من هو « أدرى بالدعوة من داعيها الأول » .

وهكذا نشأت الفكرة وأصبحت دعوة وهكذا تكونت الجماعة وهكذا تحدد الطريق الى الغاية المبتغاة وكان لا بد بعد ذلك من منبر يتحدث الى الناس من فوق أئمة التقريب فأصدرت الجماعة بعد عامين من قيامها اختمرت فيها الفكرة ونضجت ، أصدرت مجلة رسالة الاسلام وجعلتها تحت إشراف لجنة علمية من خيرة الباحثين والكتاب فقدمت كنوزاً ثمينة من البحوث والمقالات ، وان هناك من الكتاب والباحثين والعلماء لا تجد لهم مقالاً إلا ما يوجد في رسالة الاسلام كتبه خصيصاً لهذه الرسالة ، وان مستواها الرفيع وقراءها الممتازين وهم نخبة علماء الاسلام في الوطن الاسلامي الكبير يشجعهم لإنتاج بحوثهم وثمار تفكيرهم لهذه المجلة .

وبما أن كتّاب هذه المجلة كانوا علماء وباحثين من أعلى المستويات من السنة والشيعة على السواء امتازت رسالة الاسلام وتفردت بأنها لم تقتصر على بحوث فريق واحد بل انها تشمل أحسن ما أنتجه جهابذة علماء الفريقين وأنها صارت بحق مجلة اسلامية عامة لا طائفية خاصة كشفت أستار كثير مما كان يخفى وجلت للناس حقائق كانت تصعب على كثيرين وقدمت للعالم الاسلامي ثقافة اسلامية موحدة بدلاً من الثقافة الطائفية المخرقة ، وبحوثها تعد سنداً تاريخياً يرجع اليه .

وبعد مآل هذا الأثر الخالد يمكننا تقسيمه الى أقسام علمية وإصلاحية ، تاريخية وأدبية وتفسيرية .

وهذا الكتاب مقتطف من أحسن مقالاته العلمية والاصلاحية وقد قسمناه الى سبعة أبواب :

الباب الأول : في كيفية إنشاء دعوة التقريب وأهدافها .

الباب الثاني : حول وحدة اسلامية .

الباب الثالث : في طريق استعادة المسلمون وحدتهم وتناصرهم .

الباب الرابع : حول التقارب في مسائل هامة .

الباب الخامس : حول الاجتهاد في السنة والشيعة .

الباب السادس: حول مصادر الشريعة وأسباب الاختلاف فيها .

الباب السابع : وهو الباب الأخير نقدم اليكم مقالاة علمية وإصلاحية من أئمة المفكرين والمصلحين .

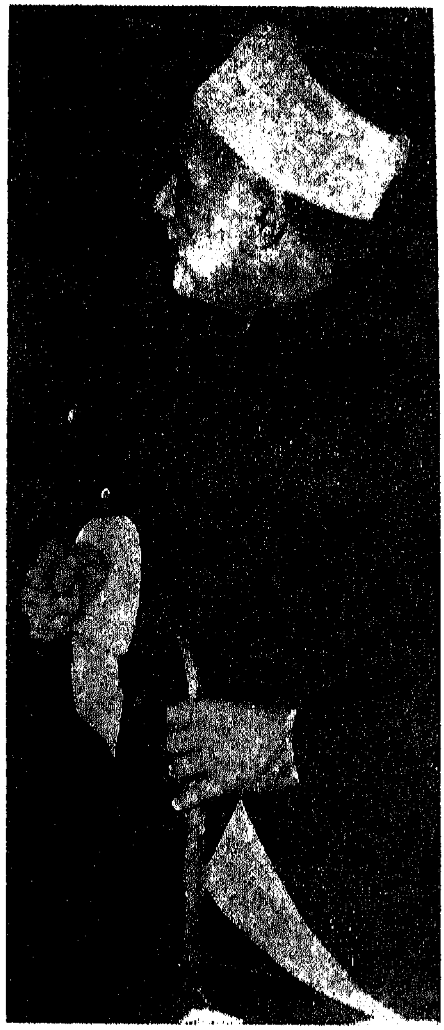
ونحن إذ نقدم هذا الكتاب نسأل الله أن يسدد خطانا ويوفقنا الى أداء هذه المهمة الجليلة إنه الموفق .

أبريل ١٩٧٥ **عبد الكريم بي آزار الشيرازي**

المقدّمـــة

الإمام الأكبر شلتوت يتحدث عن التقريب ويشير الى فتواه التاريخية بجواز التعبـد على مذهب الشيعة الإمامية ويقول :

« للمسلمين أن يفخروا بأنهم أسبق من غيرهم عملاً في تقريب مذاهبهم »



الامام الأكبر شلتوت

أحسنت دار التقريب صنعاً ، إذ فكرت في إصدار كتاب تسجل فيه قصة هذه الفكرة الاسلامية ، وتذكر أطوارها وتاريخها ومـا صادفها من تأييـــد المؤيدين ، أو معارضة المعارضين ، حتى أصبحت من الحقائق العلميـة الثابتة في تاريخ الفكر الاسلامي ، وسرى بها روح من الاصلاح والمحبـــة والاخوة بين المؤمنين تحقيقاً لقول الله جل شأنه :

« إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .



شيخ الأزهر يستمع الى تقرير سكرتير لجنة التقريب بين المذاهب الاسلامية

ولقد كنت أود لو أستطيع أن أكتب هذه القصة بنفسي لاسجل فيها ألواناً من المشاعر والأفكار التي مرت بي في فترات مختلفة من العصر الذي عشته في جوها ، والذي عاصرت فيه اخوة أعزاء ، أحببتهم وأحبوني في الله وناظرتهم



حلقة اخرى من اجتماع بعض رجال التقريب في دار التقريب ، ويبدو من اليمين :

١ ـ الزعيم الاسلامي الشهير المرحوم الشيخ حسن البناء مؤسس ومرشد الاخوان المسلمين . ٢ ـ علي مؤيد إمام الشيعة الزيدية في اليمن . ٣ ـ الامام الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر والمرجع الأعلى للافتاء . ٤ ـ أمجد الزهاوي من كبار علماء العراق . ٥ ـ الحاج أمين الحسيني من فلسطين . ٦ ـ الشيخ الآلوسي . ٧ ـ محمد التقي القمي مؤسس التقريب .

وناظروني بحثاً عن الحقيقـة والتماساً لآفاق من العلم الذي من واجب المؤمنين أن يلتمسوها ، وأن يرودوا لأهليهم أوديتها .

كنت أود لو أستطيع ذلك بنفسي لاسجل لمحات كنت ألمحهـا في فكرة تعرض ، أو رأي ينفذ ، أو اجتماع يعقـد ، أو بحث ينشر ، أو رسالة ترد ، أو وفد يفد ...

فإن **دعوة التقريب** هي دعوة التوحيـد والوحدة ، وهي دعوة الاسلام والسلام ، وإن اسلوبها الذي تنتهجه لهو الاسلوب الحكيم الذي أمر الله به رسوله الكريم إذ يقول :

« ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

واذا اتجهت العقول الى البحث في اخلاص وتضامن ، لا همّ لهم إلا ابتغاء الحق ، لمعت أمامها الأضواء ، وسرت اليها أشعة الهداية الربانية وكان لها قبسات ، وكان لها لمحات واني لأرجع ان قوله تعالى :

« **واتقوا الله ويعلمكم الله** » .

يشغل الأمر بالتجرد عن كل هوى من شأنه أن يخل بتقوى الله حين يتجه المرء الى محراب العلم ملتمساً أن يفيض الله عليه من نفحاته .

ان المتقي لله في مقام ابتغاء العـلم هو ذلك الذي لا تأخذه عصبية ، ولا تسيطر عليه يميناً أو شمالاً دون قصده .

كنت أود لو أستطيع ذلك بنفسي لاصور فكرة الحرية المذهبية الصحيحة المستقيمة على نهج الاسلام ، والتي كان عليها الأئمـة الأعلام في تاريخنا الفقهي ، اولئك الذين كانوا يترفعون عن العصبية الضيقة ، ويربئون بدين الله وشريعته عن

الجمود والخمول ، فـلا يزعم أحدهم أنـه أتى بالحق الذي لا مرية فيه ، وان على سائر الناس أن يتبعوه ، ولكن يقول كما كان يقول الأئمة الأولون :

« هذا مذهبي وما وصل اليه جهدي وعلمي ، ولست أبيح لأحد
« تقليدي واتباعي دون أن ينظر ويعلم من أين قلت ما قلت ، فان
« الدليل اذا استقام فهو عمدتي والحديث اذا صح فهو مذهبي » .



الامام المصلح محمد تقي القمي

وكنت أود لو كتب قصة التقريب أحد غير أخي الامام المصلح **محمد تقي القمي**، ليستطيع أن يتحدث عن ذلك العالم المجاهد الذي لا يتحدث عن نفسه، ولا عما لاقاه في سبيل دعوته، وهو أول من دعا إلى هـــذه الدعوة وهاجر من أجلها إلى هذا البلد، **بلد الأزهر الشريف**... فعاش معها وإلى جوارها منــذ غرسها بذرة مرجوة على بركة الله، وظل يتعهدها بالسقي والرعاية بمـا آتاه الله من عبقرية وإخلاص، وعلم غزير، وشخصية قوية وصبر على الغير، وثبـات على صروف الدهر، حتى رآهـا شجرة سامقة الاصول باسقة الفروع تؤتى أُكلها كل حين بإذن ربها، ويستظل بظلها أئمة وعلمـاء مفكرون في هذا البلد وفي غيره، ولكني أعود فأقول:

من هو أدرى بالدعوة وظروفها من داعيها الأول ؟...

لقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم، وأسهمت منذ أول يوم في جماعتها، وفي جو نشاط دارها بامور كثيرة، كان منها تلك الفصول المتتابعة في **تفسير القرآن الكريم** التي ظلت تنشرها مجلتها « **رسالة الاسلام** » قرابة أربعة عشر عاماً حتى اكتملت كتاباً سوياً أعتقـــد أنه تضمّن أعز أفكاري، وأخلد آثاري، وأعظم ما أرجو به ثواب ربي، فإن خير ما يحتسبه المؤمن عنـــد الله، هو ما ينفقه من الجهد الخالص في خدمة كتاب الله.

ولقد تهيأ لي بهذه الأوجه من النشاط العلمي أن اطل على العالم الاسلامي من نافذة مشرفة عاليــة وأن أعرف كثيراً من الحقائق التي كانت تحول بين المسلمين واجتماع الكلمة وائتلاف القلوب على اخوة الاسلام، وأن أتعرف الى كثير من ذوي الفكر والعلم في العالم الاسلامي، ثم تهيأ لي بعد ذلك، وقد عهد إليّ بمنصب مشيخة الأزهر أن أصدرت فتوى في جواز التعبد على المذاهب الاسلامية الثابتة الاصول المعروفة المصادر، المتبعة لسبيل المؤمنين، ومنها مذهب الشيعة الإمامية « الاثنا عشرية ».



مشهد من استقبال علماء الشيعة من مؤسسي التقريب وفتوى التاريخية في بلدة خراسان
وإهداء الفتوى بمكتبة الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام

وهي تلك الفتوى المسجلة بتوقيعنا في دار التقريب التي وزعت صورتها الزنكغرافية بمعرفتنا ، والتي كان لهـا ذلك الصدى البعيد في مختلف بلاد الامة الاسلامية ،وقرّت بها عيون المؤمنين المخلصين الذين لا هدف لهم إلا الحق والإلفة ومصلحة الامة .

وظلت تتوارد عليّ الأسئلة والمشاورات والمجادلات في شأنهـــا وأنا مؤمن بصحتها ، ثابت على فكرتها اؤيدها في الحين بعد الحين فيما أبعث به من رسائل للمستوضحين ، أو أرد به على شبهة المعترضين ، وفيما أنشىء من مقال ينشر ، أو

دار التقريب بين المذاهب الاسلامية

مكتب شيخ الجامع الأزهر

يحفظ بدار التقريب

بسم الله الرحمن الرحيم

نص الفتوى
التي أصدرها السيد صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر
في شأن جواز التعبد بمذهب الشيعة الامامية

قيل لفضيلته :

أن بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم لكي تقع عباداته ومعاملاته على وجه صحيح أن يقلد أحد المذاهب الأربعة المعروفة وليس من بينها مذهب الشيعة الامامية ولا الشيعة الزيدية ، فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأي على اطلاقه فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الأمامية الأثنا عشرية مثلا .

فأجاب فضيلته :

١ ـ ان الاسلام لا يوجب على أحد من أتباعه اتباع مذهب معين بل نقول : ان لكل مسلم الحق في أن يقلد بادئ ذي بدء أي مذهب من المذاهب المنقولة نقلا صحيحا والمدونة أحكامها في كتبها الخاصة ولمن قلد مذهبا من هذه المذاهب ان ينتقل الى غيره ـ أي مذهب كان ـ ولا حرج عليه في شيء من ذلك .

٢ ـ ان مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الأمامية الأثنا عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب أهل السنة .

فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك ، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة ، فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابعة لمذهب ، أو مقصورة على مذهب ، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى يجوز لمن ليس أهلا للنظر والأجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم ، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات .

محمود شلتوت

\=== \=== \===

السيد صاحب السماحة العلامة الجليل الأستاذ محمد تقي القمي
السكرتير العام
لجماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية

سلام الله عليكم ورحمته أما بعد فيسرني أن أبعث الى سماحتكم بصورة موقع عليها بامضائي من الفتوى التي أصدرتها في شأن جواز التعبد بمذهب الشيعة الأمامية ، راجيا ان تحفظوها في سجلات دار التقريب بين المذاهب الاسلامية التي أسهمنا معكم في تأسيسها ووفقنا الله لتحقيق رسالتها .

والسلام عليكم ورحمة الله ،،

شيخ الجامع الأزهر

محمود شلتوت

صورة الفتوى بتاريخ ١٧ ربيع الاول ١٣٧٨ (هـ) من القاهرة

حديث يذاع ، أو بيان أدعو بـه الى الوحدة والتماسك والالتفات حول اصول الاسلام ، ونسيان الضغائن والأحقاد ، حتى أصبحت والحمد لله حقيقة مقررة ، تجري بين المسلمين مجرى القضايا المسلمة بعد أن كانت المرجفون في مختلف عهود الضعف الفكري ، والخـلاف الطائفي ، والنزاع السياسي يثيرون في موضوعها الشكوك والأوهام بالباطل .



كبار علماء الأزهر مجتمعين بدعوة من دار التقريب ، ويبدو في الصورة العلامة الشيخ مرتضى آل يس ممثلاً علماء النجف الأشرف ، والشيخ عبد المجيد سليم ، والشيخ محمود شلتوت

وها هو ذا **الأزهر الشريف** ينزل على حكم هـذا المبدأ ، مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة فيقرر دراسة فقـه المذاهب الاسلامية سنيها وشيعيها دراسة تعتمد على الدليل والبرهان ، وتخلو من التعصب لفلان أو فلان ، كما انـه اهتم في تكوين **مجمع البحوث الاسلامية** بأن يكون أعضاؤه ممثلين لمختلف المذاهب الاسلامية .

وبهذا تكون الفكرة التي آمنا بها وعملنا جاهدين في سبيلها قد تركزت الآن وأصبحت رسالة الدار محل التقدير والتنفيذ .



صورة من اجتماعات علماء الامامية والزيدية والحنفية والحنبلية والشافعية والمالكية في دار التقريب

وكنت أود لو أستطيع أن أتحدث عن الاجتماعات في دار التقريب حيث يجلس المصري الى جانب الايراني ، او اللبناني او العراقي أو الباكستاني ، أو غير هؤلاء من مختلف الشعوب الاسلامية ، وحيث يجلس الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي بجانب الامامي والزيدي حول مائدة واحـدة تدوي بأصوات فيها علم وفيها

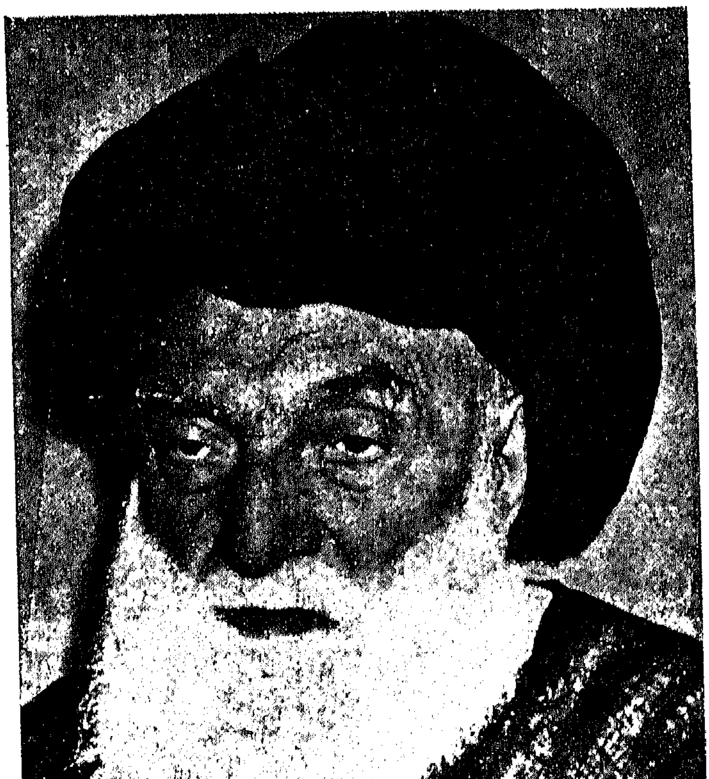
أدب ، وفيهـــا تصوف ، وفيها فقه ، وفيها مع ذلك كله روح الاخوة وذوق المودة والمحبة وزمالة العلم والعرفان .



يبدو في الصورة مولانا السيد عبد العليم الامام الأكبر للمسلمين في الهند في الوسط ويجانبه كل من الاستاذ الشيخ عبد المجيد سليم ومحمد علوبه باشا ، ويجانبهما اثنان من علماء الزيدية ، وشخصيات إسلامية اخرى

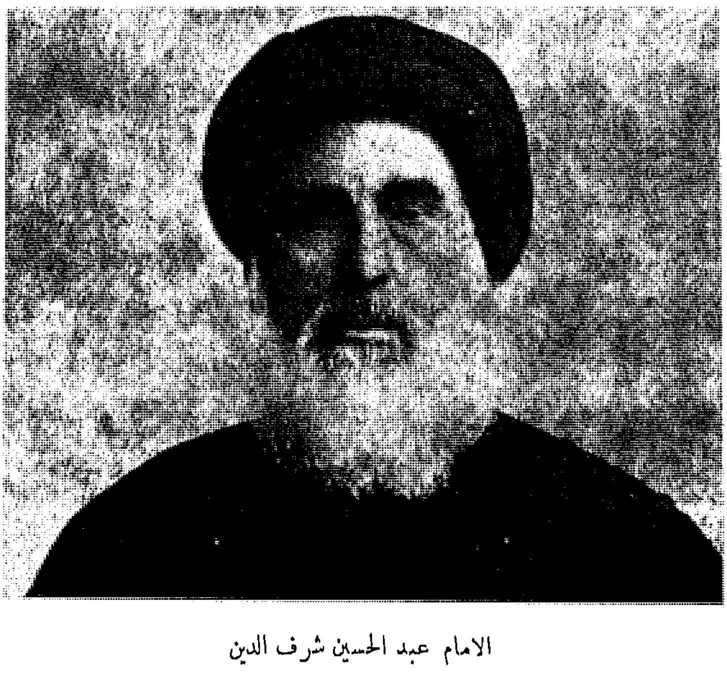
وكنت أود لو أستطيع أن ابرز صورة كصورة الرجل السمح الزكي القلب ، العف اللسان رجـــل العلم والخلق المغفور له **الاستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق** ، أو صورة كصورة الرجل المؤمن القوي الضليع في مختلف عـلوم الاسلام ، المحيط بمذاهب الفقـه اصولاً وفروعاً الذي كان يمثل الطود الشامخ في ثباته ، والذي أفاد منه **التقريب** في فترة ترسيخ مبادئه أكبر الفائدة المغفور له

استاذنا الأكبر الشيخ عبد المجيــد سليم رضي الله عنه وأرضاه ، أو صورة كصورة ذلك الرجل الذي حنكته التجارب واحتضنته محــافل العلم والرأي المغفور له الاستاذ محمد علي علوبه ، جزاه الله عن جهاده وسعيه خير الجزاء .



الامام الأكبر السيد حسين البروجردي

ولعلي أيضاً كنت أستطيع أن أتحدث عن صور لكثيرين ممن وهبوا أنفسهم لهذه الدعوة الاسلامية وإبراز محاسن الاسلام ، وغير هؤلاء كثيرون ممن سبقونا الى لقــاء الله من أئمة الفكر في شتى البلاد الاسلامية الذين انضموا الى التقريب وبذلوا جهودهم لنشر مبــادئه ، وساجلناهم علماً بعلم ، ورأياً برأي ، وتبادلنا وإياهم كثيراً من الرسائل والمشروعات والمقترحات ، وفي مقـدمتهم المغفور له **الامام الأكبر الحاج آغا حسين البروجردى** أحسن الله في الجنــة مثواه . أو المغفور لهما **الامامان الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء**، والسيد **عبد الحسين شرف الدين الموسوى** رحمهما الله .



الامام عبد الحسين شرف الدين

لقد تلقى اولئك الأعلام **دعوة التقريب** في أول نشأتها ، ففتحوا لها قلوبهم وعقولهم ، وأصفوها أكرم جهودهم حتى ذهبوا الى ربهم راضين مرضيين وإن لهم لتاريخاً يُذكر ، وفضلاً يجب أن يسجل ويؤثر ، وغير هؤلاء كثير ولسنا بصدد العدد والاحصاء .



يبـدو في الصورة : ١ ـ الشيخ المراغي الرئيس الأسبق للجامع الأزهر . ٢ ـ الشيخ الفحام السكرتير الأول للأزهر. ٣ ـ الشيخ اللبان رئيس كلية اصول الدين . ٤ ـ الشيخ عبدالمجيد سليم مفتي الديار المصرية . ٥ ـ العلامة القمي مؤسس دار التقريب بالقاهرة

ولقد ذهب هؤلاء الى ربهم راضين مرضيين ، وإن لنا لإخوة آمنوا بالفكرة، ولا يزالون يعملون في سبيل دعمها ، وهم أئمـــة الاسلام وأعلام الفكر في شتى الأقطار الاسلامية ، أطال الله أعمارهم ، وسدد في سبيل الحق خطاهم .

« من المؤمنين رجـــال صدّقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا » .

وإذا كان هـــذا جانباً من جوانب التأييد والتلاقي حول فكرة التقريب ، فان جانباً آخر من الحرب والمعارضة قابل هـــذه الدعوة ، وحاول أن يصد عنها ، شأن كل دعوة إصلاحية حين يتصدى لها الذين لم يألفوها ، فلقيت بذلك دعوة التقريب نصيباً كبيراً من المعارضة لها، والهجوم عليها بقدر أهميتها وعظم هدفها ، وكان هذا النصيب متعدد الأشكال والأنواع .

كان الجو السائد عند بدء الدعوة مليئاً بالطعون والتهم، مشحوناً بالافتراءات وأسباب القطيعة وسوء الظن من كل فريق بالآخر ، حتى عُدّ تكوين الجماعة بأعضائها من المذاهب المختلفة **السنية الأربعة** ، **والامامية** ، **والزيدية** ، نصراً مبيناً أهاج نفوس الحاقدين ، ووجهت الدعوة لا من فريق واحـــد بل من المتعصبين أو المتزمتين من كلا الفريقين ، السني الذي يرى أن التقريب يريد أن يجعل من السنيين شيعة ، والشيعي الذي يرى أننا نريد أن نجعل منهم سنيين ، هؤلاء وغيرهم أساءوا فهم رسالة التقريب فقالوا : انها تريد إلغاء المذاهب ، أو إدماج بعضها في بعض .

حارب هذه الفكرة ضيقو الافق، كما حاربها صنف آخر من ذوي الأغراض الخاصة السيئة ، ولا تخلو أية امة من هـــذا الصنف من الناس ، حاربها الذين يجدون في التفرق ضماناً لبقائهم وعيشهم ، وحاربهـــا ذوو النفوس المريضة وأصحاب الأهواء والنزعات الخاصة ، هؤلاء واولئك ممن يؤجرون أقلامهم لسياسات مفرقة لهـــا أساليبها المباشرة وغير المباشرة في مقاومة أية حركة إصلاحية ، والوقوف في سبيل كل عمل يضم شمل المسلمين ويجمع كلمتهم ..

كانوا يهاجمون الفكرة كل على طريقته، ويسممون الجو بقدر استطاعتهم بغية القضاء على تلك الدعوة الواضحة المبادىء والأركان ، القائمـة على العلم والدراسة والبحث ، الداعية الى فتح المجال أمام الدليل من أي أفق طلع ...

كنت أود لو أستطيع أن أبرز هـذه النواحي كلها في قصة التقريب أكتبها بنفسي وأتتبع تفاصيلها كما لابستها وعشت ظروفها ، ثم أتتبع مجلة « **رسالة الاسلام** » التي أدت أمانتها ، وأحسنت سفارتها وكانت معرضاً لآراء العلماء من كل فريق ، يدونها بالبحوث وينظرها كل منهم حريصاً عليها ، فتزدان بهـــا مكتبة الشيعي كما تزدان بها مكتبة السني، وينهل من معارفها الغربي كما ينهل من معارفها الشرقي ، ولكن حسبي أن أكتب هذه المقدمة مشيراً بهـــا الى بعض جوانب هذه القصة .

وإنا لنحمد الله سبحانه أن أصبحت فكرة التقريب نقطة تحول في تاريخ الفكر الاصلاح الاسلامي قديمه وحديثه ، وأنها أثرت تأثيراً بعيد المدى .

وانه ليحق للمسلمين أن يفخروا بأنهم كانوا أسبق من غيرهم تفكيراً وعملاً في تقريب مذاهبهم وجمع كلمتهم ، وقـد نجحوا في ذلك بفضل إخلاص القائمين على أمر هذه الدعوة ، وسلامة تفكير المسلمين .

وإنا لنسأل الله تعالى دوام النجاح لهذه الدعوة حتى يعود للاسلام مجـــده وللمسلمين عزهم ، ويتحقق فيهم وصف الله عز وجل :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » .

« قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني » .

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » .

والسلام عليكم ورحمة الله .

الباب الأول

دعوة التقريب

- رجال صدقوا ...
- رسالة الامام يحيى
- بيان للمسلمين
- فكرة التقريب
- القافلة تسير
- نقطة على الحروف
- أدب الدعوة الى الحق
- التقريب بين المذاهب الاسلامية

رجـــال صدقوا

لحضرة صاحب السماحة العـــالم
الجليل الاستاذ محمـــد تقي القمي
السكرتير العـــام لجماعة التقريب

تتميز حقبة من الزمن عن سواها بما يقع فيها من أحداث ، وكلما ازدادت أهمية تلك الأحداث ، ازداد الاهتمام بزمن وقوعها .

ويتميز رجال عن غيرهم بمـا يصدر عنهم من أفكار وأعمال ، وكلما كانوا أبعد أثراً ، كانوا أبقى ذكراً ، حتى ليسجلهم التاريخ في الخالدين .

وتتميز فكرة عما عداها بما يترتب عليها من آثار قد تصل بها إلى مرتبـــة المبادىء الضرورية التي تفرض وجودها ويكتب لها البقاء .

وقد أراد الله أن يكون ربع القرن الأخير من الزمان ظرفاً لحدث تاريخي في الإسلام يميزه عن غيره من الأحقاب .

كما أراد سبحانه أن يجتمع في هــــذه الحقبة القصيرة نفر من المصلحين ، قلما يجتمع نصف عددهم في قرن من الزمان ، وأن يحملوا فكرة إصلاحية كانت أمل كثير من المصلحين منذ قرون ، وأن يكونوا أقوياء لا يخافون في الله لومة لائم .

وأراد الله لفكرة أصيلة مدروسة ممحصة أن تطلع على العـــالم الإسلامي في

صورة دعوة إصلاحية دينيـــة تعالج أعظم داء ابتلى به المسلمون ، وهو التفرق المذهبي ، وأن تصبح هذه الدعوة نقطة انطلاق ومبـــدأ تحوّل فكري لعالمنا الإسلامي في وقت يحتاج فيه إلى اجتماع كلمة أبنائه كي يتمكنوا من نشر رسالتهم على هذا العالم المضطرب .

صحيح أن ربع القرن الذي انقضى من عمر **دعوة التقريب** – وفيه سنوات التمهيد – ليس شيئاً يذكر في عمر الدعوات ، فإن خمسة وعشرين عاماً في عمر الدعوات ليست إلا كساعات أو أيام في عمر الانسان ، إلا أن مـــا تم فيها من أعمال ، وما انجز فيها من امور خلدت هذه الحقبة من الزمن .

فما السر في ذلك ؟

السر هو إيمان القائمين على هذه الدعوة وملاءمتها للفطرة السليمة .

والإيمان يصنع ما يشبه المعجزات ، إنه يمنح صاحبه من القوة ما يتخطى به كل عقبة ، ويتغلب به على كل صعوبة .

ففي هـــذه الحقبة من الزمن اجتمع نفر من المصلحين من مختلف المذاهب ، ومن شتى البلاد ، وتفاهموا رغم اختلاف مذاهبهم وديارهم، ولم يكن للتعصبات المذهبية عليهم تأثير، ولا كان في أعماق تفكيرهم رواسب، واتفقوا على العمل، وأفرغوا فيه جهدهم ، فأخذت الدعوة لون المدرسة الفكرية العلميـــة التي تقوم بذاتها وبدراساتها ، ولا ترتبط بذوات الأشخاص أو بمراكزهم ، ولا تتأثر ببقاء الأشخاص أو زوالهم ، وبمعرفة الناس بهم أو جهلهم إياهم ، حتى ان بعض من تفانى في خدمة هذه الفكرة ثم اختاره الله إلى جواره، لم يعرف الناس إلى الآن عنهم شيئاً .

لم يكن الحال يوم بدأت فكرة التقريب كما نحن عليه الآن ، كان سلطان التعصب قوياً يتحدى أي إنسان يروج لمثل هـــذه الفكرة ، وكان عامة الناس لا يطيقون أن يسمعوا عن التقريب بين الشيعة والسنة، إذ الشيعة في زعم بعض

السنيين هم الغلاة وأصحاب مصحف خاص ، والسنة في زعم بعض الشيعة هم النواصب والمجسمة ، وإذا كان الخاصة وهم أئمة الفكر والدين قد عرفوا الحقائق ، فإن أحداً منهم لم يقدم على عمل إيجابي ، خوفاً من الشائعات التي كانت تلصق بكل فريق وتصدق عند الفريق الآخر ، وخوفاً من أنصاف العلماء أو أشباه المثقفين الذين لا يعرفون غير كتب مذهبهم ، ولا يقرؤن سواها ، ولهم تأثيرهم المباشر في عامة الناس .

فلم يكن بد إذن من تهيئة الجو قبل الإقدام على أي عمل إيجابي ، والتمهيد للفكرة قبل الخروج بها على الناس ، وهكذا مرت فكرة التقريب بمراحل ثلاث: **مرحلة التمهيد ، ومرحلة التكوين ، ومرحلة التنفيذ .**

وهناك رجال عاشوا في التقريب منذ المرحلة الاولى ، وآخرون بدؤا مع المرحلة الثانية ، والأحياء من هؤلاء وأولئك لا يزالون يجاهدون في هذه الدعوة وأعمالهم تتحدث عنهم ، أما الذين سبقونا إلى رحمة ربنا فإن علينا نحوهم واجباً يقتضينا أن نشير إلى بعض ما قاموا به ونقدمه للتاريخ .

وما دام فقيدنا الأخير ، **فقيد الاسلام شلتوت** ، بجانب عضويته الدائمة في التقريب منذ سبعة عشر عاماً ، قد تولى مشيخة الأزهر في السنوات الخمس الأخيرة ، فإننا سنذكر في هذه العجالة شيوخ الأزهر الشريف الذين خدموا فكرة التقريب ، سواء من كان في جماعتنا وتولى مشيخة الأزهر ، أو من لم يكن رسمياً من أعضاء الجماعة .

إن الذين أسهموا من شيوخ الأزهر بطريق مباشر أو غير مباشر في **دعوة التقريب** أربعة ، هم المغفور لهم : **محمد مصطفى المراغي ، ومصطفى عبد الرازق ، وعبد المجيد سليم ، ومحمود شلتوت** ، والأولان لم يكونا رسمياً من أعضاء الجماعة ، لكنهما كانا يؤمنان بالفكرة إيماناً عميقاً ، وقد وقف أحدهما بجانبها وهي في مرحلة التمهيد ، ووقف الثاني بجانبها وهي في مرحلة التكوين .

أما **الشيخ المراغي** فكان على رأس الأزهر حين جئنا إلى مصر أول مرة

سنة ١٩٣٨ داعين لفكرة التقريب ، وكان رحمـــه الله شيخاً وقوراً ، قوي الشخصية ، متزن الفكر ، واسع الافق ، لمست فيه أول ما لقيته إيماناً بالفكرة ، إلا أنه كان بحكم مركزه لا يستطيع أن يدعو إليها بنفسه ، بل أنـه وهو إمام أهل السنة لم يكن يستطيع أن يظهر بمظهر المؤيد لفكرة كهذه أمام الجو الذي كان يسود الأزهر ، وبالتالي يسود هذا البلد العزيز .

لكنه رحمه الله عرف كيف يخدم الفكرة ، ففتح أمامنا المجـــال لإلقاء محاضرات في الأزهر وخارجه ، وسهّل لنا الاتصالات الشخصية برجال الأزهر للتفاهم ، وكان يجمعنا بمن يعرف فيهم الميل إلى التقريب من العلمـاء الذين يعترف بعلمهم ، وحسن استعدادهم لدراسة الفكرة ، وكنا على اتفاق في أن المسألة دقيقة ، وأن أية فكرة لا يمهد لهـا يقضى عليها في مهدها ، ثم استقر الرأي فيما بيننا على أن يقوم الأزهر بعمل شيء في مناسبة عيده الألفي الذي أزمع عقـده بعد ثلاث سنوات من ذلك الحين ، إلا أن اتساع الحرب العالمية الثانية حال دون عمل شيء ، وإن لم يقض على ما وصلنا إليه من تفاهم .

وانتقل **الشيخ المراغي** إلى رحمـــة ربه ، بعد أن أسهم بصورة فعّالة ، في إيجاد التعارف الشخصي ، والإتفاق على النقط الأساسية ، وتهيئة الجو عند بعض القادة من علمـــاء الدين ، وفي مقدمتهم الشيخان : **مصطفى عبد الرازق ، وعبد المجيد سليم .**

وإذا كانت الحرب قـــد أطاحت بكثير من المثل ، وهدمت بيوتاً وبلاداً ونفوساً وأرواحاً ، إلا أنها لم تعصف بما ثبته الله في قلوب علماء مؤمنين من تفاهم وتعاطف فظلت عامرة بهذه المعاني إلى أن عدنا لمصر سنة ١٩٤٦ ، وقد أكسبتنا مرحلة التمهيد تجارب خرجنا منها بأن الإتصالات الشخصية التمهيدية لا بد أن تسبق كل دعوة ، وأن أية فكرة يراد لهـــا البقاء يجب أن تخرج من النطاق الشخصي ، وتوضع على أكتاف جماعة من المؤمنين العاملين بحيث إذا غـاب فرد حل مكانه سواه .

وفي تلك الفترة بدأت مرحلة التكوين ، وكان **الشيخ مصطفى عبد الرازق** شيخاً للأزهر ، واستقر الرأي على أن يكون هو بجانب الدعوة في خارج الجماعة يساندها إذا توتر الجو ، وأن يكون **الشيخ عبد المجيد سليم** في الجماعة ، وكان يرى أن عبد المجيد سليم هو شيخ العلماء وأفقههم بلا منازع .

وقد وقع ما كان يخشاه ، فإن المتعصبين ما إن سمعوا بتكوين الجماعة حتى هاجوا وماجوا ، وشوّهوا الفكرة عند المسئولين ، وأدخلوا في روع السلطات كثيراً من الظنون والأوهام ، وهنا يقف **مصطفى عبد الرازق** حين استفحل الأمر ، يقف أمام المسئولين مدافعاً عن سلامة الفكرة ، وسلامة العاملين لها وقيمهم وشخصياتهم ومراكزهم في مصر وفي البلاد الاخرى ، ولولا هذا الموقف الصريح من هذا الرجل المؤمن الصادق لقضي على الفكرة في بدء مرحلة التكوين.

كذلك كان له رحمه الله فضل اختيار بعض الأعضاء من علماء الأزهر ، وذكر بعض النقط في القانون الأساسي للجماعة . ووقف معنا يومئذ داخل الجماعة شيخنا **الامام عبد المجيد سليم** بجهده وجهاده وعلمه وإيمانه .

وبعد مدة وجيزة ذهب **الشيخ مصطفى عبد الرازق** إلى ربه ، وكأنما كان عليه رسالة أداها ومضى .

وظن بعض المتعصبين المتربصين أن وفاة **الشيخ مصطفى عبد الرازق** فرصة للهجوم ، لكن أعضاء الجماعة ، وفي مقدمتهم **عبد المجيد سليم** ، صمدوا للهجوم وصدُّوه ، ومن ذلك الحين لازم عبد المجيد سليم التقريب وجعله همه ورسالته ، فلما اختير بعد سنوات شيخاً للأزهر ، احتفظ بعضويته في الجماعة ، وكثيراً ما كان يوقع خطاباته بصفته « **شيخ الأزهر ووكيل جماعة التقريب** » ، وفي عهده فتحت صفحة جديدة في علاقات السنة والشيعة ، فهو الذي افتتح الكتابة إلى علماء الشيعة وتلقى ردودهم ، وهو الذي بدأ تحويل الأزهر إلى جامعة إسلامية عامة بدل كونها قاصرة على المذاهب الأربعة الخاصة ليحقق الوارد في القانون

الأساسي لجماعة التقريب بالنسبة للجامعات الإسلامية، وهو الذي أدخل — لأول مرة — في قانون **الأحوال الشخصية** المصرية بعض ما كان يرجح في نظره من **فقه الامامية**، وهو الذي اقترح على دار التقريب طبع **تفسير مجمع البيان**.

ثم ترك رحمه الله مشيخة **الأزهر** ولم يترك **جماعة التقريب** ولا دارها حتى فارق الحياة، فعم الحزن كل من عرف مكانة الرجل العلمية والدينية، وبقي التقريب برجاله يشق طريق دعوته، متوكلاً على الله، ومحتسباً عنده فقد هذا الإمام الجليل.

وكان **الاستاذ الأكبر محمود شلتوت**، من أعضاء جماعة كبار العلماء، وأستاذاً بالجامعة الأزهرية يوم اشترك في تكوين هذه الجماعة، وظل مع زملائه في الفكرة يقوم بواجبه نحو التقريب، وهو الذي اقترح في أحد جلساتنا أن يعتبر السنة والشيعة المشتركون في الجماعة **مذاهب إسلامية** لا طوائف أو فرقاً، ثم أسندت إليه وكالة الأزهر فلم تشغله عن الإسهام في التقريب، وهو الذي كتب المقدمة العلمية المعروفة **لتفسير مجمع البيان**، كما كان يكتب تباعاً في تفسيره في « **رسالة الاسلام** »، ثم أسندت إلى الفقيد مشيخة الأزهر، وإذا كانت فتواه المشهورة بشأن المذاهب الإسلامية، وجواز اتباع مذهب الإمامية قد صدرت حين توليه مشيخة الأزهر، فإن هذا كان مجرد ميقات زمني لصدورها، على سنة التدرج في التنفيذ لا في الفكرة والمبدأ، ذلك بأن هذه الفتوى كانت منبثقة عن مبدأ علمي ثابت مدروس من أول الأمر، هو أساس من اسس التقريب، فهي في المعنى ليست فتوى رجل واحد، وإنما هي فتوى كل اولئك الرجال الذين حملوا أمانة التقريب، وفي مقدمتهم **الاستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم**.

وذهب **شلتوت** إلى ربه، واهتز العالم الإسلامي لوفاته، ولأول مرة في التاريخ الإسلامي يظهر جلياً اشتراك السنة والشيعة في الأسى على شيخ للأزهر، ذلك لأنه كان يعمل لفكرة التقريب، وتوحيد كلمة المسلمين، ونحن نؤمن

ببقاء الله وحتمية الموت ، إلا أن هــذا لا يعفينا من الحزن الشديد لفقد زميل عزيز ، وعالم جليل ، ومجاهد من الطراز الأول .

ولقد لفت نظرنا معنى تردد في كثير من البرقيات والرسائل والمقالات التي كتبت حول فقيدنا شلتوت ، فإن كثيرين ظنوا أن التقريب مؤسسة أزهرية ، وأن من يتولى أمر الأزهر يتصدر التقريب ، وكثرت أسئلة المنزعجين : ماذا بعد وفــاة الشيخ ، وماذا يكون الأمر إذا لم يكن الخلف على سيرة السلف ، ونحن مع شكرنا لهؤلاء المهتمين نريد أن نقول : **إن التقريب فكرة اصلاحية اسلامية مستقلة قائمة على البحث الصحيح والعلم** ، وإن الأزهر جامعة إسلامية رسمية لها رسالتها العلمية ، ويعتبر مناراً الدين ، وهذه الجامعة العتيقة خدمت الاسلام كثيراً ، وتخرج فيها كثير من العلماء ودعــاة الإسلام ، فمن الطبيعي أن تلتقي أفكار التقريب والأزهر ، مثل ذلك كمثل الأفكار الحسابية تصل دائماً إلى نتيجة واحدة ، وكمثل الخطوط المستقيمة إذا وضعتها فوق بعض انطبقت تماماً ، وهذا هو شأن الأفكار السليمة المنبثقة من مبادىء دينية ، لا سيما إذا كان الدين دين توحيد ، والدليل على ذلك أن دار التقريب أنشئت في **القاهرة بلد الأزهر الشريف** ، ومن أول من لبى هذه الدعوة عدد من أئمة العلم والدين من علماء الأزهر ، فموقف الأزهر الرسمي لا يؤثر في التقريب ، بل إن بعض الرسميين لم يحسنوا إدراك رسالة التقريب في كثير من الأحيان ، ولم يؤثر هــذا في سير التقريب ، ولم يمنعنا من احترام الأزهر ورجاله ، فإن موقف الأزهر الرسمي شيء ، وموقف علمائه شيء آخر .

إن التقريب يسير اليوم في طريقه ، وبين جماعته رجال مؤمنون سيقدمون بإذن الله لامتهم مثل ما قدم أسلافهم الصالحون .

وإن جهاد ربع قرن قــد بدل الحال غير الحال ، ولعل المتصلين بالتقريب لا يحسون بمدى التحول إلا إذا نظرنا إلى الأيام الاولى ونظرنا إلى ما نحن عليه الآن ، وسنجد أن بعض من كانوا في مقدمة المهاجمين لفكرة التقريب يسرهم اليوم

أن يسلكوا في أصحاب هذه الفكرة ، ونرى أن ما كان يعتبر من قبل وسيلة للهجوم ، يعتبر اليوم دليل تقدمية وإصلاح ، وإذا كانت دعوة التقريب قد نجحت ، فليس معنى هــذا أن أصحابها والمشتغلين بها قد استراحوا وزالت من طريقهم المصبيات ، كلا ، فما زالت النفوس المريضة ، والكتب المشحونة بالدس والقطيعة كثيرة قوية التأثير ، وأرباب التبشير والمتأثرون بهم لا يزالون يكتبون ، وتجار المذهبية لا يزالون منبثين ، والسياسات المفرقة لنا بالمرصاد .

هذه هي بعض مشاكلنا رغم المغالاة في التفاؤل عند بعض المتفائلين ، ومع ذلك نحن نرحب بالمعارضة ، فإن الدعوة لم نخسر منها شيئاً بل كسبت من ورائها الكثير ، وفي نفس الوقت نقول لمن تخالجهم بعض الشكوك : **إن الخطوات التي تمت لا رجوع فيها ، ونحن الى الأمام إن شاء الله سائرون ، وأن الذين تحرروا من سجن الضيق الفكري ، لن يعودوا الى سجنهم أبداً بعد أن أصبحوا قادة التحرر الفكري في محيط المسلمين ؟**

رسالة الامام يحيى الى العالم الاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم « قل هـــذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

الحمد لله الهادي الى السنن القويم وكل خير عميم بقوله عز وجل :

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » .

« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » .

« وأن هـــذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبُل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون » .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ذي الخُلُق العظيم المبعوث رحمة للعالمين من رب العرش الكريم .. بالشريعة السمحة الكافلة بخير الآخرة والاولى القائـــل : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) .. (المؤمنون كرجل واحـــد إن اشتكى رأسه اشتكى كله وان اشتكى عينه اشتكى كله) .. (يد الله مع الجماعـــة) .. (ولا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) .. (المؤمن أخو المؤمن يكنُف عليـه ضيعته ويحوطه من ورائه) ..

(لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة) .

وعلى آله المخصوصين برعاية التقديم والتكريم ، قرناء الذكر الحكيم ، الذين ورد فيهم (إني تاركٌ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا من بعدي أبداً كتاب



الامام يحيى يدعو المسلمين الى جمع الكلمة والاعتصام بالكتاب والسنة والتمسك بالعترة الطاهرة وترك الاختلاف والتفرق ونذكرها هنا بالمناسبة نص رسالته الى العالم الاسلامي كافة

الله وعترتي أهل بيتي ، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض) .. (أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجـا ومن تخلّف عنها غرق وهوى) .. (أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي) [١] .

وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة والأخبـار الشهيرة وعلى أصحابه الذين قاموا بنصرته وبإيضاح طريقـه المستقيم وبذلوا أنفسهم ونفيسهم في مرضاة الرب العليم .

أما بعد : فهذا بلاغ وافٍ ، وبيان شاف ، أردنا بـه نصح إخوان الدين وإيقاظ همم المسلمين وحررناه الى كل مطلع عليه من العلمـاء العاملين وإخواننا أهل الدين وفقهم الله لصالح القول والعمل وحرسهم بطاعته عن مزالق الزلل ، وحيّاهم بشريف السلام ، ورحمة الله وبركاته على الدوام .

انه قـد عُلِم ما دهى الاسلام والمسلمين من داء التفرق والاختلاف ، والمخاصمات التي أغلقت باب الوفاق والإئتلاف ، حتى فشل المسلمون وذهبت ريحهم وصاروا كأنهم أدنى عنصر في العالم غير مهاب الجناب ، ولا مصون من الاغتصاب ،الى أن طمعت في استئصالهم وإخضاعهم للدول الأجنبية ، وخصوصاً العرب .. الذين هم منشأ هذا الدين ومبدأ ظهوره ، وأُفق تجليات نوره ، وهم الذين أعز الله بهم الاسلام وملكوا أكثر العـالم وانفتحت لهم قاراته وحصين قصوره لما كانوا عليه من التوحيد .. ديانة وسياسة وعلماً وعمـلاً ، والتعاضد والتعاون لا يبغون عنه حولا ، ولا يرضون بسواه بدلا ، حتى خضعت لهم الرقاب ، وذلت لهم الصعاب ، وضربت بعزهم الأمثال ، وسعدت بصولتهم

---

(١) الأحاديث الثلاثة المذكورة : أخرجها الكثير من علماء السنة والمحدثين ومنهم الامام أحمد الطبراني ومسلم والسيوطي وغيرهم .

الأجيال . وقد استبان في هذا القرن شؤم التمزق والاختلاف ، وأنه السبب الوحيد لتمزيق الأجانب بلاد المسلمين ثم الأخذ والاختطاف وانهدام ذلك المجد الشامخ والعز الباذخ وحلّ بكثير من المسلمين ذوي العقول عظيم التأسف والندم ولكن بعد أن صاروا في أشراك الاقتناص وبعد زلة القدم .

وقد آن لنا معشر المسلمين أن ننظر لأنفسنا بعيون الاستبصار ، وأن نجيد آراءنا لما يكون به عزنا وشرفنا ورجوع أيامنا التي ارتقينا فيها صهوة كل عز وانتصار ، وليس لنا إلى ذلك من سبيل إلا باتباع ما أرشدنا اليه الرب الجليل، من الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق والتنازع واتباع صراط الله المستقيم، وترك اتباع السُّبُل المتفرقة المضلة عن سبيله ، كما جاء في الذكر الحكيم ، وإدارة كل شؤوننا على منهاج شريعة الله عبادةً ومعاملةً ودفاعاً ، وكفى بهَدْي الله لنا وسيلة إلى نيل كل مطلوب ، ورفع كل مخوف مرهوب .

ولقد قمنا بمقامنا هذا الحَرِج طلباً لخدمة الله بإصلاح ما نقدر عليه من أحوال المسلمين والدعاء إلى الله وطاعته بامتثال أوامره ونواهيه والانقياد لشريعته .

وقد حصل لنا في أكثر هذه البلاد المرام ، وترتيب الأعمال على ما يرضى الرب العلام ، ولم نزل نجدد الإرشاد إلى كثير من البلاد ، راجين الله تعالى أن يجمع كلمة المسلمين لما به حفظ دينهم وبلادهم وحوزتهم وعزهم وكيانهم .

والواجب علينا جمع الكلمة واتحاد الرأي وتوحيد الطريقة وعقد الولاء على الحقيقة ، حتى نكون كالجسم الواحد وكالبنان أو كالبنيان كما وصف به الرسول صلى الله عليه وعلى آله وصحبه .. أهل الإيمان .

وقد عممنا دعوتنا هذه ، التي هي دعوة حق ، إلى كل من بلغته ، وحررنا هذا الكتاب مع غيره إلى العلماء الأعلام، والرؤساء الفخام، والمشايخ والأفراد.. ندعوكم بدعوة الحق إلى ما أسلفناه في هذا الكتاب ونقول :

هلموا أيها الاخوان إلى ما به عز الدنيا والدين والوصول إلى الخير المستبين ، لنعمر امور ديننا ودنيانا على طريقة الأسلاف الذين هم اسوتنا ومقتدانا ، وليس المراد مُلكاً نشيّده ولا مالاً نستزيده ولا جاهاً نستفيده ، وإنمــا المراد اجتماع المسلمين بالحجة البيضاء والصراط المستقيم .

هلموا إلينا للعمل بكتاب الله وسنة رسول الله والسلف الصالح ، نحيي مـا أحيا الله ونميت ما أماته الله ، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر المخوف ، ونمنع التظالم ونأخذ على يد الظالم ، ونحقن الدماء ونعمل بشريعـــة خالق الأرض والسماء ، ونجري الأعمال على محور إرشادات ذي الجلال ، فكل من خالفها فهو الباطل المضمحل ، وما وافقها فهو الحق المستفحل .

بإرشادات الشريعة صلاح الدين والدنيا ، وقد خاب من عدل عنها . ولم يتم للسلف الصالح نصرة الدين وفتـــح الأقطار الشاسعة ، إلا بالعمل بإرشادات شريعة الله . ونقول أيضاً :

أيها العلماء الأعلام ، أنتم المكلّفون ببثّ ما علّمكم الله ونشرِه للنـــاس ، وثمرة العلم إنما هي العمل والإرشاد إلى ما به ذهاب البأس ، فقد أخذ الله عليكم ميثاقه الأكيد ، وألزمكم القيام بالتعليم والوعظ والنصيحة للعـــامة وإرشادهم للخير والمزيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتخويف من عقـاب الله والإنذار بسخطه ومقته على من أعرض عما أوجبـــه الله عليه . ولم يوجب الله على العامة السؤال بقوله سبحانه : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » .. حتى أوجب عليهم البيان بقوله تعالى : « وإذ أخــذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتُبيّنُنّه للناس ولا تكتمونه » ، وقـــال ﷺ : (لتأمرنّ بالمعروف ولتنهين عن المنكر أو ليُسلطنّ الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم) عهد الله أحق ما أُدّي ، فشمروا كثّر الله سوادكم عن ساق الهمة في هذا السبيل وبيّنوا وعِظوا وانصحوا لتفوزوا بالأجر الجزيل وأحيوا سنة السلف الصالح في هذا الجيل فقد قام بالدعوة الى آل محمد من السلف الصالح

من به يقتدي ويقتفى أثره وبنور إرشاده يهتدى .

واعلموا أن هـذا الذي ندعوكم اليه هو أمر محبوب عند كل بني الانسان خصوصاً عند الدول المتمدنة فانها تعتبر هـذا من الامور الواجبة على الأمم ، نسأل الله تعالى أن يأخـذ بنواصي الجميع الى مراضيه ويوفقنا الى سلوك السبيل الأقوم واجتناب معاصيه ويفتح لسماع نصيحتنا وإرشاداتنا أسماع كافة الاخوان إنه الكريم المنّان .

فهذا ما ندعوكم اليه ونأمركم بـه وهو معذرة الى الله وحجة عليكم عند الله ان اريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب والسلام عليكم .

٤ ذي القعدة الحرام سنة ١٣٤١ هـ.

المتوكل على الله يحيى

بيان للمسلمين

من حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
الشيخ عبد المجيد سليم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبي الأمين ، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين .

اللهم إنا نسألك التوفيق إلى ما فيه الخير والصلاح ، ونستعين بك في أمرنا كله ، ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

أما بعـــد : فإني أوجه إلى إخواني وأبنائي المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، هذه الكلمة ، تبصرة وذكرى لقوم يؤمنون ، وتجديداً للعهد بين **«جماعة التقريب»** وإخوانهم في كل طائفة على الإيمان وعمل الصالحات والتواصي بالحق والتواصي بالصبر .

★ ★ ★

يا أبناء الاسلام :

إن الله تعالى قد اصطفى لكم هذا الدين ، وجعله خاتمة الرسالات التي بعث بها أنبياءه ، وخصكم **بالرسول الأكرم** الذي بشر به الأنبياء من قبله ، يأمركم بالمعروف وينهاكم عن المنكر ، ويحل لكم الطيبات ويحرم عليكم الخبائث ، ويضع عنكم الآصار والأغلال .

لقد كان الناس قبل بعثة هذا الرسول الكريم يتخبطون في ظلمات الجهل والتعصب لغير الحق ، ويتقلبون في أودية الفساد والشر ، ويكتوون بنيران الظلم والبغي ، لا ألفة تجمعهم ، ولا سلطان يردعهم ، ولا نظام يعتصمون بحبله ، ولا عدل يفيئون إلى ظله ، شريعتهم القوة ، ورائدهم الشهوة ، وإلاههم الهوى ، ظلمات بعضها فوق بعض « **ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور** » (١) .

فلما تأذن ربنا الرحمن لينقذنهم من أنفسهم وأهوائهم ، وما ارتطموا فيه من حمأة الشرك والرذيلة والفساد والشر ، بعث فيهم هذا النبي الامي الذي يؤمن بالله وكلماته فأخرجهم به من الظلمات إلى النور ، وهداهم صراطه المستقيم ، ووجّه قلوبهم وأعمالهم إلى الخير والصلاح والتعاون على البرّ والتقوى ، وأعلمهم أنه خاتم النبيين ، ورسوله إلى الناس أجمعين ، لا يختص به جنس من الناس دون جنس ، ولا تقصر شريعته على زمن دون زمن « **قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا اله الا هو يحيي ويميت** » (٢) . « **وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً** » وأنزل عليه كتاباً عزيزاً « **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** » (٣) ربط به الفلاح في الدنيا والآخرة ، وجعله الهدى والشفاء لمن آمن « **قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى اولئك ينادَوْن من مكان بعيد** » (٤) .

---

(١) النور / ٤٠ .
(٢) الأعراف / ١٥٨ .
(٣) سبأ / ٢٨ .
(٤) فصلت / ٤٤ .

وبهذا كان نبينا محمد (ص) هو الرحمة المهداة والنور المبين ، وكان الكتاب الذي أنزل عليه من ربه هو العصمة والحبل المتين .

★ ★ ★

ولقد أتى على المسلمين حين من الدهر كانوا فيه عاملين بشريعتهم ، معتصمين بكتاب ربهم ، سائرين على سنة رسولهم ، فكانت لهم القوة والمنعة ، وكانوا أعزة بعزة الإيمان ، ترفرف عليهم أعلام السعادة والطمأنينة ، وتنظر اليهم الامم نظرة المهابة والتجلة ، ولا يفكر أحد في الاعتداء عليهم ، ولا يطمع طامع في أن يهتضم حقاً من حقوقهم ، بل فتحت أمامهم الآفاق ، وكانوا يغزون القلوب والأفكار بعدلهم ومبادئهم ، قبل أن يغزوا البلاد والديار بسيوفهم وكتائبهم .

كانوا يومئذ امة واحدة يؤمنون بالله ورسوله ، ولا يؤثرون شيئاً ولا أحداً على الله ورسوله .

كانوا إخوة متصافين متعاونين ليس أمامهم إلا هدف واحد ، اليه جميعاً يرمون : أن تكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

كان الإيمان في قلوبهم حقيقة ثابتة تظهر آثارها في الأقوال والأعمال ، لا يقولون إلا الحق ، ولا يسعون إلا في الخير ، ولا يأمرون إلا بالمعروف ، ولا ينهون إلا عن المنكر ، ولا يحبون إلا في الله ، ولا يبغضون إلا في الله .

كانوا كما وصفهم ربهم « **أشداء على الكفار رحماء بينهم** » [(١)] .

كانوا محبّين للحق ، مبغضين للباطل ، يكرهون المراء والجدال ، ولا يشغلون أنفسهم بما لا فائدة فيه من البحوث المتكلفة ، والظنون المتخوفة ، والتأويلات المحرفة ، فسلمت عقولهم من الشكوك ، وبرئت صدورهم من الأوهام ، وظل إيمانهم بالله ورسوله قوياً لا تشوبه الشوائب ، ولا تداخله الريب .

---

(١) الفتح / ٢٩ .

هكذا كان المسلمون الأولون من أصحاب رسول الله (ص) وهـذا هو سر نجاح الامة في أول أمرهـا ، وقوة شوكتها ، واتساع رقعتها ، وشدة هيبتها ، فلما أُصيبت بالتفرق واتباع الهوى ، ولم يعـد صوت الدين فيها ملء الأسماع والقلوب كما كان ، أدركها الضعف والتزلزل، وطمع فيها الأعداء، ورأوا الفرصة سانحة ليأخذوا منها بثأرهم ، فجعلوا يسددون لها السهام تلو السهام ، وكلما أُصيبت بسهم من سهامهم ازداد فيها طمعهم، واشتدت في القضاء عليها رغبتهم، وازدادت هي بذلك ضعفاً ، وازداد أهلها جزعاً وهلعاً .

ولقد طال عليها الأمد وهي في هذه المحنة، ولولا قوة بنائها ، وسلامة اسسها لهُدِّم ذلك البنيان، وانهارت تلك الأركان، ولكن الله جلّت حكمته يريد بذلك تمحيصها ، وإنه لأرحم من أن يسلمها للذين يبغون إهلاكها وإفناءها ، ومعاذ الله أن ييأس المؤمنون من رَوْح الله، فإن الله يحيي الأرض بعد موتها ، وإن الباطل والفساد مهما طال عليهما الأمد فهما إلى فنـاء وزوال ، وها هي ذي دلائل من الخير تبدو في آفاق الامة الإسلامية ، وتؤذن بأن شعوبها قـد ملّت حياة الذل والضعف ، ونهضت تبتغي حياة عزيزة كريمة تليق بمجدها السالف ، وما لها من غاية شريفة في هذا العالم ، وأنها قد أدركت أنْ لا شفاء لهـا من دائها ، ولا نهوض لها من عثارها إلا إذا عادت إلى شريعتها ، واعتصمت بحبل الله كما أمرها الله ، وتخلصت من آثار الخلاف البغيض والعصبية الجـاهلة ، فائتلفت على الحق قلوب أبنائها ، وتعاونت على الخير والبر شعوبها ، وبدت أمام الطامعين فيها امة واحدة يشعر قاصيها بما يشعر به دانيها ، ولا تترك في صفوفها ثغرة ينفـذ منها أعداؤها ، وإنا لنرجو أن تكون هـذه بوادر خير ونهضة وتباشير فجر جديد لعهد سعيد ، وما ذلك على الله بعزيز .

ولقد سرّني ما اتجه اليه زعماء المسلمين وصفوة مفكريهم من الدعوة إلى عقد مؤتمرات للنظر في أحوال الامة الاسلامية من جميع نواحيها، والعمل على توحيد

كلمتها ومناهج الإصلاح فيها ، وجهادها في سبيل حريتها ورفاهية شعوبها ، والتخلص من غاصبيها ومستعمري بلادها . فإن ذلك من أهم ما تعنى به (**جماعة التقريب**) ، وإن المسلمين إذا تعارفوا تكاشفوا ، وإذا تكاشفوا تواصفوا علاج أدوائهم ، وعلموا أن الفرقة ضعف ، وأن الخلاف المثير للأحقاد مَشْغلة ومَضْيعة ، وأن حسن الظن شرط في التعاون الصادق ، ويومئذ يعملون على أن يكونوا أمام أعدائهم ومشكلاتهم صفاً واحداً ، كشأنهم في صلاتهم واتجاههم نحو قبلتهم .

وإني لأرجو التوفيق والنجاح لهذه الدعوات ، وأسأل الله تعالى أن يهيىء للمسلمين من أمرهم رشداً ، وأن يوفق زعماءهم ورجال التوجيه فيهم إلى أن يؤمنوا إيماناً له آثاره العملية ، بأن صلاح امتهم إنما يكون بالعود إلى شريعتهم ، والذود عن دينهم ، والاعتصام بكتاب ربهم ، والتزام هدى نبيهم .

والسلام عليكم ورحمة الله .

فكرة التقريب

من المفتي الأكبر
فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ حسنين محمد مخلوف

إنني من المؤمنين **بفكرة التقريب** ، العاملين على أن يدرك المسلمون جميعاً مزاياها وما تؤدي اليه من جمع كلمتهم ، وتوحيد أهدافهم ، وظهورهم في العالم الحاضر بالمظهر الكريم اللائق بعظمتهم ، وسمو شريعتهم ، ونبل غايتهم ، كما كانوا في الماضي قبل أن تعدو عليهم عوادي الفتن ، وتجرفهم أمواج الضغائن والإحن .

إن الإسلام هو **دين الوحدة** كما هو **دين التوحيد** ، وقد حرصت شريعته الخالدة على أن تقر في الناس أسس التضامن والتكافل الاجتماعي ، والتعاون على البر والتقوى ، وعلى أن تنزع من بينهم أسباب العداوات والضغائن ، وما ينزغ به الشيطان بينهم ليفشلوا وتذهب ريحهم .

وهذه هي القواعد الخمس التي بني عليها هذا الدين المتين،ترمي كلها إلى توطيد أمر المسلمين على الوحدة والالفة واتفاق الغاية .

فالمؤمنون جميعاً يشهدون شهادة واحدة : **أن لا اله الا الله ، وأن محمداً**

رسول الله ، لا يختلف فيها مؤمن عن مؤمن ، وليس لها عند فريق منهم معنى يخالف ما عند الآخرين ، وهم ملتزمون بمقتضى ذلك أن يجعلوا الأمر كله لله ، فلا حكم إلا حكمه ، ولا تشريع إلا تشريعه ، ولا عبادة إلا له ، ولا قربى ولا زلفى إلا اليه ، وكل ما جاء عنه في كتابه ، أو صح عن رسول الله ﷺ فهو مقبول ، لا يسع مؤمناً أن يخرج منه ، أو يحيد عنه ، وإنما تختلف الأفهام في شيء ، وتتفق في شيء ، ويصح بعض المروى عند فريق ، ولا يصح عند فريق ، وقد قال الشافعي رضي الله عنه : « **أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس** » [١] .

وقد كان من فضل الله ورحمته وحكمته في تشريعه أنه لم يَدَعْ أصلا يريد أن يتعبد الناس به اعتقاداً أو عملا إلا وهو محكم مبين بياناً واضحاً في معناه ومبناه وطريق ثبوته ، حتى لا يبقى محلا لجدل ، ولا موضعاً لاجتهاد أو نظر ، ذلك شأن الاصول كلها ، لا تختلف فيه الأفهام ، ولا تدور مع الزمان والمكان ، ولا يقال فيها : هذا رأي فلان ، وتلك حجة فلان ، أما الفروع في العلميات أو العمليات ، وثبوت مروى فيها أو عدم ثبوته ، فتلك هي مواطن البحث والنظر ومجال التحقيق والآراء ، ومن ثم كانت مواطن خلاف ، لكلٍّ في شأنها وجهة هو موليها ، والأمر فيها خاضع لما يراه أهل التقدير والعلم بالأدلة والأحكام في كل زمان ومكان ، ولا ضير في ذلك على المسلمين ، بل هو أمر طبيعي فيه رحمة وسعة تتحقق بها المصالح ، وتستقيم امور الحياة .

ونعود إلى ما كنا فيه من استعراض **قواعد الاسلام الخمس** ، وبيان ما ترمي إليه من توطيد أمر المسلمين على الوحدة والإلفة فنقول : إن المسلمين جميعاً يقيمون الصلاة في أوقات خمسة مكتوبة ، ليست ستة عند فريق ، ولا أربعة عند فريق وهم متفقون عليها بأعيانها ، ومتفقون على أعداد ركعاتها ، وعلى قبلة

---

(١) أعلام الموقعين ج ١ ص ٧ .

المصلى فيها ، وقد شرعت فيها الجماعات والجمعات والصلوات العامة في المناسبات المشروعة ، كصلوات العيد والاستسقاء والكسوف ونحو ذلك من كل ما يراد به إشعار المسلمين بالوحدة والإلفة واتفاق المصالح والإستواء أمام ربوبية الله جلّ وعلا، دون تفرقة بين صغير وكبير، ولا بين غني وفقير، ولا بين صعلوك وأمير.

وكل مؤمن مكلّف بأن يؤدي زكاة ماله ليكون المؤمنون متكافلين متحابين يشعر فقراؤهم وأغنياؤهم بعاطفة المحبة والتعاون ، وتستل من بين مجتمعهم نوازع الحسد والبغضاء والقسوة والجفاء .

وهم جميعاً مكلفون بأن يصوموا شهراً معيناً في العــام ، يجتمع على صومه قاصيهم ودانيهم ، وبأن يحج مستطيعهم بيت الله الحرام ، فيجتمع حوله في كل عام أصنافهم وألوانهم كلهم يدعو الله بلسانه ، ويسأله من فضله وإحسانه .

أليست هــذه قواعد الإسلام التي بني عليها ؟ أو ليست كلها ترمي إلى **التوحيد والوحدة ؟**

ثم إننا نرى الإسلام كما يشرع أسباب التآلف والتجمع ، ينهي عن أسباب التقاطع والتفرق .

فهو لا يعتبر رابطة تربط المسلمين إلا رابطة الدين ، فلا جنسية ولا شعوبية ، ولا تفريق بالألوان أو اللغات أو القبائل « **إنما المؤمنون إخوة** » « **ليس منا من دعا الى عصبية أو قاتل عصبية** » « **لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى** » « **إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** »[1] .

وهو ينهى المؤمنين عن التعالي والتكبر ، وأن يسخر بعضهم من بعض ، أو

---

(١) الحجرات / ١٣ .

يلمز بعضهم بعضاً « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن، ولا تلمزوا أنفسكم، ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون »[1] .

وفي هـذه الآية إرشاد إلى أسمى التعاليم ، وأشرف الآداب العامة بين أفراد الامة وطوائفها ، وهي تشير إلى معنى في البشر لا يكاد يخلو منه إنسان ، ذلك هو اعتداد المرء بنفسه ، وغفلته عن عيوبه ، وميله إلى تحقير غيره والسخرية منه ، فهي تنهى عن هـذه السخرية ، وتعالج مبعثها في نفس فاعلها بإثارة الشك في مقاييسه وأحكامه ، وبيان أنه قد يكون مخطئاً فيحسب أنه خير من فلان بينما الواقـع أن فلاناً خير منه ، وهذا من شأنه أن يهذّب النفوس ، ويكفكف من غُلوائها ، ويقطع كثيراً من أسباب الحقد والضغائن ، ولو طبّقه أهل العـلم والرأي وأصحاب المذاهب فيما بينهم ، لما استطاع التعصب أن يطل برأسه ، ولما تراشق المختلفون بسهام التجهيل والتكفير والتضليل وأمثال ذلك مما هو منبعث عن الإعتداد بالنفس والسخرية من الآخرين .

كما أن هـــذه الآية تنهى عن اللمز والتنابز بالألقاب ، وتعتبر من يلمز أخاه لامزاً لنفسه ، وهذا معنى يجب أن نتنبه إلى ما يوحى بــه ، فإن المسلمين حين لمزت كل طائفة منهم اختها أصبحوا كلهم جرحى أمام خصومهم وأعداء ملتهم، فهم يحكمون على طوائفهم بمـــا يحكم به بعضهم على بعض ، فيحتقرونهم جميعاً ، وبهذا كان الذي يلمز أخاه إنما يلمز نفسه .

ثم هي تجعل ذلك كله خروجاً على الإيمان ، وتسميه فسوقاً ، وتطلب التوبة منه والإقلاع عنه وتحصر الظلم الكامل فيمن لم يتب منه « بئس الإسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون » .

---

(١) الحجرات / ١١ .

والقرآن ينهى عن الجدال والمراء ، ولا يحب الاشتغال بما لا يجدي من القول ولا يفيد في إصلاح حال ، وأول ذلك ما يؤدي إلى التفرق في الدين، والتشكك في قضاياه « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات » ، « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيَعاً لست منهم في شيء » (١) « وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب ، فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت . ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا واليه المصير ، والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد » (٢) .

هكذا ينهى الإسلام عن كل سبب يفضي بالمؤمنين إلى التنازع والتقاطع ، وقد كان رسول الله ﷺ ينكر على من يراه من المسلمين مشغولاً بشيء من ذلك، وكان أصحابه من بعده على سنته : آمنوا بما أنزل الله إيماناً ثابتاً ، ولم يلبسوا إيمانهم بجدل ولا سؤال عن كيف أو أين ، ولم يكلفوا أنفسهم البحث في أن الصفات عين أو غير ، ولا في معنى اليد أو الوجه ، وبذلك عاشوا متصافين متعاونين، فلما دخلت على الناس مسائل الاستواء والصفات والأعراض والذوات والصلاح والأصلح والكسب والخلق وأمثالها من القضايا النظرية الفلسفية التي لا يضر جهلها ، ولا الاختلاف في علمها ، افترقوا واحتربوا ونسوا العلم النافع والعمل الصالح ، وعرفوا الطائفية والعصبية ، وصاروا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ، وبذلك وهنت قواهم ، وانحلت عراهم ، وتمكن منهم أعداؤهم ، وجعلوا ينحدرون من سيء إلى أسوأ ، حتى صاروا أضعف الأمم علماً وجنداً ومالاً ومنزلة في العالمين .

---

(١) الأنعام / ١٥٩ .   (٢) الشورى / ١٤ .

فإذا بدا لنا أن شيئاً من هذه البحوث النظرية، والرياضات العقلية سيخرجنا عن أخوة الإسلام، ويقطع ما بيننا من أواصر الأرحام، ويحيلنا إلى امة متقاطعة متنافرة، وينسينا أهدافنا في الدعوة إلى الله وتبليغ دينه، والقيام بحقه، فعلينا أن نعرض عنه غير آسفين، وأن نلقى به في زوايا الإهمال والنسيان غير مترددين، وأن نعلم أن الله لن يسألنا يوم نقف بين يديه عن تلك المسائل التي لم يأمر بها رسوله، ولم يشتغل بها أصحابه، وإنما هو سائلنا عن ديننا وميراثنا الذي ورثناه عن نبيه : هل بلغنا رسالته، وأدينا أمانته، وبسطناه للعالم في صورته الصحيحة وجليناه في ثوبه الأبيض الناصع ؟ أو نحن تركناه وتخلينا عنه، وأعنا بظهرنا وأعمالنا عليه، حتى لعبت به الأهواء، وعبثت به الأعداء ؟

★ ★ ★

هذه بعض الخواطر التي تجول في نفسي كلما قرأت عن جهود جماعة **التقريب** ومجلتها القوية (**رسالة الاسلام**) وكم أنا مستبشر خيراً بهذه الجهود للإسلام والمسلمين، فإن إصلاح الأفكار، وتنقية الصدور من الأحقاد والأضغان، والدعوة إلى الالفة والاتفاق، والرجوع إلى الينابيع الاولى الصافية للدين، هي أساس نجاح الامة، وإفاقتها من غفوتها، ونهوضها من كبوتها .

أسأل الله تعالى أن يعينكم ويصلح بالكم، كما أسأله أن يهب امتنا العزيزة في مشارق الأرض ومغاربها من لدنه رحمة، ويهيء لها من أمرها رشداً « **إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم** » .

القافلة تسير

لحضرة صاحب السماحة العالم الجليل
الاستاذ محمد تقي القمي
السكرتير العام لجماعة التقريب

التطور سنّة من سنن الخليقة يقول به كل مفكر ، فالموحدون في توحيدهم ، والمتصوفة في تعبيراتهم ، وأرباب السلوك فيما يرون من التدرج في المنازل ، والطبيعيون في فلسفتهم الطبيعية ، كل اولئك يقرون التطور ، وهل ما دار في مسألة قِدم العالم وحدوثه ، وما قام بين المعتزلة والأشاعرة من خلاف معروف ، إلا ألوان من التفكير القديم يرجع كثير منها الى نظرية التطور !.

على أن هؤلاء واولئك رغم اختلافهم في آرائهم تبعاً لآفاقهم الفكرية ، يجمعون على أن التطور سير إلى الكمال ... فبعضهم يقول : إنه السير إلى الخير ، وبعضهم يقول : إنه السير إلى الإنسان الكامل ، وبعضهم يقول : إنه السير إلى الله .

والديانات السماوية كلها كانت أخذاً بيد الإنسانية نحو الكمال وسمواً بها من كامل إلى أكمل ، وتلك سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

والامم كالأفراد لا بد أن تخضع لسنة التطور ، وإذا كان الأصل في الإنسان

أن يتطور نحو الكمال ، فإن الامم كذلك تتحرك بطبيعتها في مدارج الرقي ، وتسعى بفطرتها نحو الكمال المنشود .

وإذا قيل : إن الفرد يتطور من طفولة إلى صبا فشباب ورجولة ، ثم إلى شيخوخة وهرم ، أي ضعف ووهن، قلنا : إن تطور الامم يكون في المعنويات لا في الماديات ، لأن ما يربط الأفراد بعضهم الى بعض بحيث يكوّنون امة ، إنما هي روابط معنوية . فما يقال إذن من أن للامم شباباً وشيخوخة غير صحيح ، لأن المعنويات لا تضعف في الإنسان اذا تنفس به العمر ، بل إنها تبلغ أقصى درجات الرقي في الفرد حين يشيخ .

إلا أن العوائق قد تعترض الامم فتحولها عن السير في طريق الكمال ، وتنحرف بها إلى السير نحو الإنحلال، وهذه حركة قسرية تكره فيها الامم على غير طبيعتها .

والامة الإسلامية سارت في طريق التطور سيراً طبيعياً،فامتصت الثقافات القديمة التي أوشكت أن تزول ، وحملت علم الحضارة ، وقدّمت للعالم زاد العلم والمعرفة ، وغزت بمبادئها الإمبراطوريات القديمة، ورفعت علم التوحيد في البلاد الوثنية والثنائية ، وأوجدت للإسلام عصراً ذهبياً كانت السماحة أكبر عون على ازدهاره ، ولا ندري إلى أي درجة من الرقي كانت تصل بالبشرية لو تركت في طريقها تسير .

لكنها ابتليت بأدواء وعوائق لم تعطلها عن السير فحسب ، بل حوّلتها عن مجرى التطور ، ودفعت بها إلى طريق الضعف والتفكك . وحين فقدت كثيراً من مقوماتها الشخصية ، لم تقوَ على صدّ أهواء حكامها ، فحطّموا وحدتها ، وفرّقوا كلمتها ، ثم جاء الاستعمار فزادها فرقة ، وعجّل بها إلى الإنحلال ، فأصبحت هزيلة ضعيفة يجتاحها التعصب الأعمى بعد أن كان يسيطر عليها التفكير الحر السليم ، وأصبحت بمرور الزمن تقدس الآراء وتعتبرها من المعتقدات ، وويل لامة تتحول فيها الآراء إلى معتقدات .

وهكذا توقفت الامة عن السير في طريق الكمال ، وغشيها سبات عميق ، وتركت معاول الهدم تعمل عملها في بنائها الشامخ ، رغم أن دينها هو بطبيعته دين الكمال ، جاء ليأخذ بيد الإنسانية نحو الوحدة والقوة والخير للبشر أجمعين .

وعوامل الهدم في الامم كمثل المخدر لا يمكن أن يدوم مفعوله ، ولا بد من تجديده ، والطريقة التي اتبعت في تجديد تخدير أمتنا الإسلامية هي تقوية الخرافات والاهتمام بالقشور لصرف الناس عن الدين الصحيح [1] .

قلنا إن المخدر لا يمكن أن يدوم أثره، ولا بد من فترة تنبه تعقب كل تخدير، ومن هنا بدأت الشعوب تحس أن بها أمراضاً ، وتدرك أنها تخلفت عن الركب ، وتلمس أن في العالم أقوياء وضعفاء ، وأن الضعيف لا وزن له ، وأن القوي يتحكم في مصير الضعيف ويرسم له خطته ، وأن التقاطع بين الشعوب الإسلامية حرمها الإنتفاع بما في اخوة أربعمائة مليون من قوة .

والتنبه للمرض أول خطوة نحو العلاج . ومن هنا بدأ المفكرون يحاولون إيقاظ الامة من سباتها ، ويكافحون للرجوع بها إلى التطور الطبيعي، وكثرت المحاولات وظهر الوعي ، ثم جاءت **فكرة التقريب ، وهي تتفق مع طبيعة التطور والعقل السليم واسس دين الاخوة والتوحيد .**

التقريب بين أرباب المذاهب الاسلامية الذين باعدت بينهم الآراء لا تمس العقائد التي يجب الايمان بها .

وحمل لواءها علماء من مذاهب أهل السنة الأربعة ومذهبي الإمامية والزيدية من الشيعة ، وبدأت تعالج التفرق بين اخوة في الدين ، كتابهم واحد، وقبلتهم واحدة ، وصلواتهم واحدة ، وحجهم واحد، يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً ، وبأنه أشرف المرسلين وخاتم النبيين ، وبأن ما جاء به لا بد أن يؤخذ به ، وبأن سنته من المصادر الحتمية للأحكام .

---

(١) راجع مقالنا : « الدين في معترك السياسة » .

وسارت فكرة التقريب هادئة مطمئنة ، يؤيدها الفاهمون في كل شعب ، وحملة الأقلام الذين يعتقدون أن لأقلامهم رسالة ويترفعون عن الدجل فيما يكتبون .

وكان طبيعياً وقد تركت الفكرة أثرها في النفوس أن يقف فريق من الناس يسألون أنفسهم: ماذا كسبنا من الماضي بما فيه من تخاصم وتطاحن،وماذا جرّت علينا النعرات الطائفية ، وأن يرغب المثقفون عما يقال لهم عن الطوائف، ويميلوا الى الاطلاع بأنفسهم على ما عند كل طائفة .

أمـا فريق المتزمتين فشأنهم ألا يعجبوا بمثل هذه الفكرة ، لأنهم لا يودون الرجوع الى النهج السوي ، ويفضلون البقاء على مـا هم فيه . وهؤلاء هم دعائم التفرق في كل عصر ، لأنهم يصورون كل مذهب بالصورة التي يرونها لا بصورته الحقيقية ، وما الشقاق بين المذاهب الاسلامية بنتيجة اختلاف على عقائد وآراء فيها ، بل من نتيجة مفتريات تقال عن أربابها .

ألم ينسب المتزمتون الى خمس المسلمين عقائدَ هم براء منها ؟ ألم يقولوا إن الشيعة تعتقـد بالحلول ؟ ألم يقولوا إن الشيعة تعتقد بأن الرسالة كانت لعلي وأن محمداً أخذها ؟ ألم يقولوا أن للشيعة قرآناً غير هذا القرآن ؟

ومثل هـذه المفتريات كانت تقال عن الشيعة بينما أسانيد الشيعة في متناول اليد وكان بالإمكان الاطلاع على أي كتاب شيعي أو السفر الى أي بلد شيعي للتأكد من أن هذا كذب وبهتان .

وها قد جاء دور الإصلاح،ووقف رجال باسم التقريب يتحدّوْن أي إنسان أن يأتي بسند واحد يثبت أن مذهباً واحداً من المذاهب الاسلامية المعروفـة يقرّ أمثال تلك الخزعبلات .

نحن لا نتكلم عن القرامطة والباطنية ولا عن غيرهم من الفرق البـائدة التي يقال أنهم كانوا كذا وكيت ، ولا نقف منهم موقف الدفاع ، وإنمـا نتكلم عن

الشيعة الذين يبلغون خمس المسلمين عدداً ، ويسكنون بالعراق وسوريا وإيران والهند واليمن وغيرها من البلاد ، ولهم فقهاؤهم وآراؤهم واجتهادهم ، ولهم مراكزهم الدينية وجامعاتهم العلمية ، وكتبهم تملأ المكتبات .

لقد جاء التقريب على أساس فكرة التعارف العلمي ، وأوجد مركزاً لمن يريد أن يعرف كثيراً أو قليلاً عن المذاهب الاسلامية المعروفة ، ولكن المتزمتين يحكمون على أي مذهب دون أن يتعبوا أنفسهم بالاطلاع على كتبه ، ويجحدون كل ترابط ثقافي ، ويلعنون كل اتصال يؤدي إلى التعارف ، ويحرصون على البقاء في أبراجهم العاجية وسط أوهامهم وظنونهم ، ويتناسون أنهم في عصر أبرز مظاهره سرعة المواصلات واتصال أجزاء العالم بعضها ببعض ، ويتجاهلون أن البشرية لم تعد تكتفي بالتعرف على ما في كرتنا الأرضية ، بل إنها تتطلع إلى اكتشاف في الأقمار والنجوم .

فهل يصح في مثل هذا العصر أن يقف جامدٌ في وجه التطور ، ويأخذ علمه عن الطوائف من قصص أشبه ما تكون بالأوهام والخرافات .

إن المتزمتين — ومن حسن الحظ أنهم قلة في كل شعب — من دأبهم أن ينفروا مما لم يألفوا ، وأن يقفوا في وجه ما لم يعرفوا ، وأن يحتفظوا بقديمهم لأنه تغلغل في نفوسهم فهم لا يرضون به بديلاً ، ولا يطيقون له تحويلاً ، كما أن من دأبهم أن يتلمسوا الأوهام في المعارضة إذا لم تسعفهم الحقائق . أليسوا يصرّون إصراراً عجيباً على أن التقريب محاولة لإدماج مذهب في مذهب ، أو تغليب مذهب على مذهب ، على الرغم من أن كل صوت من أصوات التقريب ، وكل نشاط يصدر عن التقريب ينادي بغير ذلك .

إن التقريب لأسمى من هذا وأجلّ شأناً ، إنه — على العكس مما يتخيلون أو يريدون أن يخيلوا للناس — ينادي بوجوب أن تبقى المذاهب ، وأن يحتفظ المسلمون بها ، فهي ثروة علمية وفكرية وفقهية لا مصلحة في إهمالها ولا في

إدماجها ، لكن شتان بين هـذا وبين إيجاد جو من الهدوء والثقة والصفاء بين المسلمين يرتفعون به عن الضغائن والجدل العقيم ، ويتفرغون بسببه إلى مـا هو أولى بهم من مشاركة الركب العـالمي ، بل من قيادة هذا الركب وتوجيهه لو استطاعوا .

ذلك ما يريده التقريب . وإن القـافلة تسير ، تسير مع ركب الحضارة والعلم الصحيح ، تسير مع التطور الى الحق ونحو الحق ، إنها في الواقع تسير الى الله ، وإن الله معنا « قل هـذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

نقط على الحروف
أو مزيد من الايضاح

— ١ —

طبيعي جداً أن يهتم المسلمون بفكرة التقريب هذا الاهتمام ، ويؤيدوها هذا التأييد ، أليسوا هم أول من جربوا أن الفرقة ضعف ، كما أن التكتل قوة ؟.

وطبيعي أيضاً لفكرة اتسعت دائرتها ، وامتدت آثارها ، وذاع صيتها في كل البلاد الإسلامية ، وبين الطوائف المختلفة ، أن تتساءل بعض الأقلام عنها ، وتستوضح نقطاً منها ، كما أنه من الطبيعي أن تجد أية فكرة في أولى خطواتها شيئاً من التحامل ، من قلة اعتادوا التسرع في الحكم ، وفي فكرتنا بالذات لعل الداعي مع التسرع هو التعصب الموروث ضد طائفة من الطوائف .

وطبيعي كذلك أن نسر بكل من هذا وذاك لأننا لسنا عن سنة الدعوات بغافلين ، ونرى أن في كل هذا لفتا للأنظار إلى دعوة هي في الواقع دعوة الفطرة وإلى فكرة هي فكرة الإسلام السليمة ، وأن شأن دعوة كهذه أن تتقبل بأقل تنبيه .

فكيفما كان فنحن نرحب بكل ما يكتب حول الفكرة ، ونفيد منه ، فإن كان سؤالاً سقنا جوابه ، وإن كان استيضاحاً أتينا ببيانه ، وإن كان تحاملا على طائفة إسلامية من الطوائف الذين شملتهم جماعتنا ، أحس المسلمون شدة الحاجة إلى فكرة التقريب ، وأحسسنا نحن ضرورة مضاعفة الجهد لنبين للناس ما غمض ونوضح من الامور ما استبهم .

ولئن تبارى أصحاب الأقلام المخلصة في تأييد فكرة التقريب ـ وما أكثرهم ـ ينصرونها ويشرحون أهدافها ، فإنها لا تزال بحاجة إلى مزيد من الإيضاح ، أو وضع النقط على الحروف كما يقولون .

وهذا ما قصدنا اليه في هذا البحث .

★ ★ ★

قال قائل منهم : ما دعوة التقريب هذه؟ وكيف يمكن التقريب بين المذاهب؟ أيريدون من كل طائفة أن تنزل عن بعض ما تراه لتقرب من الاخرى ، وهل ترضى الشيعة بأن تنزل للسنة عن كذا وكذا ، أو ترضى السنة بأن ترى رأي الشيعة في كيت وكيت ؟

وإني أقول لهذا القائل وأضرابه ما قلناه من قبل ، وما أعدنا فيه وأبدأنا مراراً : لا يا أخي ، فما هذه دعوتنا ، ولا إلى هذا قصدنا .

إنما دعوتنا أن يتحد أهل الإسلام على اصول الإسلام التي لا يكون المسلم مسلماً إلا بها ، وأن ينظروا فيما وراء ذلك نظرة من لا يبتغي الفلج والغلب ، ولكن يبتغي الحق والمعرفة الصحيحة ، فإذا استطاعوا أن يصلوا بالإنصاف والحجة البينة إلى الاتفاق في شيء مما اختلفوا فيه ، فذاك ، وإلا فليحتفظ كل

منهم بما يراه ، وليعذر الآخرين ويحسن الظن بهم ، فإن الخلاف على غير اصول الدين لا يضر بالإيمان ، ولا يخرج المختلفين عن دائرة الإسلام .

★ ★ ★

وقال قائل منهم : إن الطوائف الإسلامية مختلفة في بعض المسائل الجوهرية التي تجعل البعد بينهم شاسعاً ، والتقارب بينهم يكاد يكون مستحيلاً .

وإني أقول له : على رسلك ، إن الطوائف التي نعمل على التقريب بينها هي السنة بمذاهبها ، **والشيعة الامامية والشيعة الزيدية** ، فهل المسائل التي اختلف فيها هؤلاء مما كفّرت به طائفة صاحبتها ؟ ولا بد من « لا » فإن أحداً من علماء هذه الطوائف لم يرم طائفة منها بالكفر ، ولم يقذفها بالمروق عن الإسلام ، وما ذلك إلا لأن الخلاف إنما وقع في غير الاصول ، فليس صحيحاً أنه خلاف في مسائل جوهرية .

ولعل قائلاً يقول : ما هذه الاصول التي تجعلونها الحد الفاصل بين المسلمين وغيرهم ؟ فأذكر له بعضها على سبيل التمثيل ، لا على سبيل الحصر : فنحن جميعاً نؤمن بالله رباً ، وبمحمد صلى الله عليه وآله نبياً ورسولاً ، وبالقرآن كتاباً ، وبالكعبة قبلة وبيتاً محجوجاً ، وبأن الإسلام مبني على الخمس المعروفة ، وبأنه ليس بعده دين ، ولا بعد رسوله نبي ولا رسول ، وبأن كل ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله حق ، فالساعة حق ، والبعث حق ، والجزاء في الدار الآخرة حق ، والجنة حق ، والنار حق ... الخ وما اختلفنا فيه من شيء فحكمه إلى الله ورسوله أي اننا متفقون على اسلوب الخلاف ، فليس منا من يقول : هذا أمرٌ أمَرَ به الله أو رسوله ، ومع ذلك لا نلتزمه ولا نقول به ، وليس منا من يقول : كلفنا الله أو رسوله أن نؤمن بكذا ومع هذا لا نؤمن به ، وليس منا من ينكر معلوماً من الدين بالضرورة ، وإنما يقول المختلفون : هذا أمر به الله أو أمر به رسوله ، أو هذا لم يأمر به الله ولا رسوله ، أو هذا من المواضع التي يسوغ فيها الاجتهاد ،

فالخلاف إنما هو في إثبات أن الله أو رسوله أمر بهذا الشيء أو لم يأمرا به ، مع الاتفاق على أن أمرهما واجب الطاعة على المسلم ، وأن شريعة الله إنما ترجع إلى كتاب الله ، وسنة رسول الله .

وقد قلت إنني لست الآن بصدد استقصاء اصول الإسلام ، فإن كان أحد يعرف شيئاً من اصول الإسلام أنكرته إحدى هذه الطوائف فليدلنا عليه، وإن كان أحد يعرف أن إحدى هذه الطوائف زادت في اصول الإسلام ما ليس منها على سبيل اليقين ، مما تعد زيادته كفراً وخروجاً على الملة ، فليأت ببرهانه على ذلك إن كان من الصادقين .

بهذا يتبين أنه ليس من أغراضنا أن يتشيع سني، أو يتسنن شيعي، بل لو نظرنا إلى أصل التسمية في هذين الاسمين لوجدنا المسلمين كلهم شيعة لأنهم جميعاً يحبون أهل بيت الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعليهم ، ثم لوجدناهم كلهم أهل سنة لأنهم جميعاً يوجبون الأخذ بسنة الرسول متى وردت من طريق معتمد عليه، فنحن جميعاً سنيون ، شيعيون ، قرآنيون ، محمديون .

★ ★ ★

وقال قائل منهم : إن جماعة التقريب تريد أن تقرّب بين المذاهب الفقهية ، وذلك غير ممكن فإن الشافعية إذا اختلفوا مع الحنفية مثلاً في أن كذا من نواقض الوضوء أو ليس منها، لم يمكن حمل أحد المذهبين على الرجوع إلى الآخر، وإذا حكمنا بينهما فرجحنا رأي هؤلاء في مسألة ، ورأي اولئك في اخرى وهكذا ، لم نفعل أكثر من أننا زدنا مذهباً على المذاهب الموجودة فهو تشعيب لا تقريب .

وإني أقول لهـذا القائل : إننا لم نجعل من أهدافنا إدماج المذاهب الفقهية بعضها في بعض ، فإن الخلاف أمر طبيعي ، وهو في الفقه مبني على اصول

ومدارك كلها في الدائرة الـتي أباح الله الإجتهاد فيها ، فلا ضرر منه ، بل فيه خير وسعة ، وتيسير ورحمة .

وهبنا قصدنا إلى التوفيق فما ضرره ؟ ألم يقل الشافعي مثلاً : هذا قولي وما رأيته ، وإذا صح الحديث فهو مذهبي ، واضربوا بقولي عرض الحائط ، أو لم يرد مثل ذلك عن كل مجتهد ؟ بل أليست هذه هي القاعدة التي أوجبها الله علينا في كتابه إذ يقول : « فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » . فطلب إلينا عند الإختلاف أن نرد الأمر الى الله ورسوله ، والردّ الى الله هو العمل بكتابه ، والردّ الى رسوله هو العمل بسنته .

وهل لذلك من معنى إلا أن يعدل أحد المختلفين عن قوله المخالف لما تبين أنه قول الله أو رسوله الى قول صاحبه الموافق لهما ، وهل هـذا إلا سبيل المؤمنين « ومن يشاقق الرسول من بعـد ما تبين له الهدى ويتّبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصلِه جهنم وساءت مصيراً » .

إن كل مجتهد يرى أن مذهبه الفقهي صواب يحتمل الخطأ ، ومذهب غيره خطأ يحتمل الصواب ، وهـــذا أعظم ما يتصور من الإنصاف : إنصاف المرء لنفسه ، وإنصافه لغيره .

بيان ذلك أن المجتهد إذا غلب على ظنه بعد البحث في الأدلة أن حكم الله هو كذا وجب عليه الفتوى والعمل بـــه ، لأنه هو الراجح في نظره ، وغيره هو المرجوح وصريح العقل أن يتمسك بالراجح على المرجوح ، ولكنه مع هـــذا الإنصاف لعقله ونظره ، لا يفوته إنصاف غيره ، فيقول : إن ما رأيته وقلت به ليس هو اليقين الذي لا محيص عنه حتماً ، وإنمـــا هو ظني وما رجح لدي ، وهو محتمل للخطأ احتمالاً ضعيفاً ، ويجوز أن يكون غيري قد تبين أنه الراجح القوي فيجب عليه الأخذ بـه . فهذه هي خطة الإنصاف والسماحة ، وعليها كل

المجتهدين في الشريعة الإسلامية ، ومعنى هـذا أن هناك أملا كبيراً في أن يتفق فقيهان في بعض ما اختلفا فيه حين يدلي كل منهما بما عنده لصاحبه ، فيتكاشفان ويتراجعان .

وهل هذا إلا التقريب ؟

وقال قائل منهم : لقـد سمعنا أن من غايات التقريب أن يدرّس **مذهب الشيعة في الأزهر** .

وإني أقول له : إن من غايات التقريب أن يعرف المسلمون بعضهم بعضاً ، وإن أول من يجب عليهم التعارف هم العلماء وأهل الفكر في كل طائفة ، والعلم لا يصادر ولا يكتم ، فلا بأس على الشيعة أن يعلموا علم السنة ، وهم يدرسونه فعلا ، وكثيراً من مجتهديهم يتوسع في درسه ، ويتعمق في بحثه ، ولا بأس على أهل الأزهر أن يعلموا علم الشيعة ، بل ذلك واجبهم الذي يدعو اليه الإخلاص العلمي ، ولا يكون النظر تاماً إلا به ، أليس الأزهر جامعة علمية اعدت للدرس والبحث ، وشعارها الدليل وما يثبته النظر السليم ، أو ليست مقارنة المذاهب تدرس بالأزهر منذ عهد المغفور له الاستاذ الأكبر الشيخ المراغي ، وهي لا تتقيد بالمذاهب الأربعة ولا بمذاهب أهل السنة ، ولو تقيدت بذلك لمـا كانت مقارنة تامة ، بـل أليس الأزهر يدرّس في إحدى كلياته أقوال الفلاسفة والمعتزلة والجبرية وغيرهم فيحكم في آرائهم الحجة والبرهان ، ويأخذ بمـا يراه حقاً ، ويبطل ما يراه باطلا ، فهل يكون الفقه الشيعي الإمامي أو الزيدي أخطر من هذه المذاهب حتى يتحفظ في شأنه هذا التحفظ ؟

ثم ألم تأخذ **لجنة الأحوال الشخصية** ، في مصر بأحكام من هـذا الفقه ، وفيها صفوة من رجال الأزهر وكبار علمائه ؟

★ ★ ★

وفي الوقت الذي يقف فيه هؤلاء من التقريب هـذا الموقف ، فيرونه أملا

بعيداً ، ويتخيلون في طريقه ما شاء لهم الخيال من عقبات وأهوال ، لا يخلو التقريب من أفراد آخرين يقفون على طرف النقيض من هؤلاء ، فيقولون : لماذا تكتفون بالتقريب ؟ وكيف تبذلون في سبيله ما تبذلون من جهود ؟ هلا كانت دعوتكم إلى الإندماج والتوحيد ؟ أليست الاصول واحدة ، وقواعد البحث والنظر واحدة ؟

ولسنا الآن بصدد الرد على هذه الفكرة ، وبيان ما فيها من خطأ ، وما يدعونا الى رفضها وإبعادها — فقد نفرد لذلك فيما بعد مقالاً — وإنما نذكرها لنسجل هذا الاختلاف الواضح بين طرفي النقيض من الفريقين : هل التقريب جرأة واقتحام ، أو تقصير وإحجام ؟

★ ★ ★

الحق كل الحق أنه لا ضرر على المسلمين في أن يختلفوا ، فإن الاختلاف سنة من سنن الاجتماع ، ولكن الضرر كل الضرر في أن يفضي بهم الخلاف الى القطيعة والخروج على مقتضى الاخوة التي أثبتها الله في كتابه العزيز لا على أنها شيء يؤمر به المؤمنون ، ولكن على أنها حقيقة واقعة رضي الناس أم أبوا : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

— ٢ —

« لما حجّ **المنصور** قال لمالك : قد عزمت أن آمر بكتبك هذه التي صنفتها فتنسخ ، ثم ابعث في كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة ، وآمرهم بأن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه إلى غيره ، فقال : يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا ، فإن الناس قد سبقت اليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق اليهم ، وأتوا به من اختلاف الناس ، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم » .

هذا ما رواه التاريخ في ذلك الشأن الإسلامي الخطير ، وليست العبارة لي ، وإنما هي في كثير من الكتب المطبوعة المتداولة ، وقد نقلتها بنصها عن احدى

هذه الكتب [١] .

ترى هل كانت فكرة التقريب تشغل الأولين من العلماء المسلمين كما تشغلنا الآن ؟ وماذا كان موقف المنصور منها ؟ أكان لها أم عليها ؟ وماذا كان رأي مالك ، هذا الإمام العظيم الذي يتبع مذهبه ملايين المسلمين في كثير من شعوب العالم الاسلامي ؟ وما رأينا نحن في هذا ؟

أسئلة لا صعوبة في الجواب عنها :

فالمنصور شهد اختلاف العلماء في عصره ، وهو حاكم نظامي يهمه كما يهم سائر الحكام النظاميين أن يتوحد الناس في مملكته تحت قانون واحد ، يؤخذ به قاصيهم ودانيهم ، ويعمل به في كل ناحية من نواحي هذه المملكة المترامية الأطراف .

وهو من جهة اخرى لم يكن يحب هذا الضجيج الذي أثاره العلماء بجدالهم ونقاشهم ، وذهاب كل فريق منهم مذهباً يخالف صاحبه ، وتمسكه بهذا المذهب حتى يراه وحده هو الجدير بأن يتبع ، ويرى غيره فاسداً أو باطلا .

وهو من جهة ثالثة ، يريد أن يرضى **أهل الحجاز** ويصطنعهم ، ويتقرب إلى هذا الإمام العظيم امام دار الهجرة ، وقد بهره ما في كتابه من العلم المستمد من الرواية عن الرسول ﷺ ، وعن ثقاة أصحابه ، ليخالف بذلك عن سنة الامويين الذين كانوا لا ينظرون إلى أهل الحجاز نظرة المطمئن إلى ولائهم لسلطانهم ودولتهم .

هذه فيما ارجح وجهة المنصور فيما عَرَض على مالك ، ولعلها تتفق في بعض نواحيها مع وجهة القائلين بإدماج المذاهب الفقهية في مذهب واحد ، وليست **(جماعة التقريب)** منهم ، وإن فهم بعض الناس خطأ عكس ذلك .

---

(١) ص ١٤٥ ج ١ من كتاب « حجة الله البالغة » للدهلوي ، طبع مصر سنة ١٣٥٢ هـ .

وإني اكرر في هذا المقام ما قلته من قبل ، وما قاله غيري من أعضاء جماعة التقريب في مناسبات مختلفة ، من أنه ليس من أهدافنا أن ندمج المذاهب الفقهية بعضها في بعض ، ومن أننا — على العكس من ذلك — نرى في هذه الفكرة خطأ يدعونا إلى رفضها وإبعادها ، بل نراها في حكم المستحيل ما دمنا نلتزم كتاب ربنا ، وسنة رسولنا ، وأصول شريعتنا .

وهذا هو **الامام مالك** ، ينهى **المنصور** عن تنفيذ فكرته ، فيعدل عنها عدول من تبين له وجه الخطأ فيها ، فقد جاء في بعض ما روي من هذا الشأن ، أن **المنصور** حين سمع مقالة مالك أكبره وشكره ودعا له بالتوفيق .

إن **مالكاً** لم تستهوه هذه الفكرة ، وإن كان فيها كل التأييد لمذهبه ، ولم ينتهز الفرصة لقبول هذا الاقتراح ممن يملك تنفيذه وحمل الناس عليه بما له من قوة السلطان والحكم ، فلقد كان أجلّ من أن يخدعه هذا الإغراء عن الحق ، وأجلّ من أن يتعصب لنفسه أو لمذهبه في هذه القضية الأساسية ، وأجلّ من أن يكتم السلطان ما يجب عليه من النصح له وللمسلمين ، وإن فوّت عليه هذا النصح ما قد يحرص عليه كثير من الناس .

إن **مالكاً** قد أرجع المسألة إلى أصلها ، ولم ينظر إلى أواخر الأمر في هذا الخلاف بين علماء الشريعة ، وإنما نظر إلى أوائله ، فهذا الخلاف في أصله ليس صادراً عن الهوى والتعصب ، ولكنه صادر عن اصول الشريعة وأدلتها التي يجب على المسلمين أن يعولوا عليها في معرفة دينهم ، والتعبد بها شرعه الله لهم ، فالقرآن الكريم الذي هو المصدر الأول والأعظم للمسلمين ، قد نزل باسلوب كان من رحمة الله وفضله على خلقه أنه جاء قاطعاً في اصول العقائد وما لا يتغير بتغير الأزمان والأحوال ، محتملاً في كثير مما وراء ذلك من الامور والأحكام ، فكان ذلك من أول أسباب الخلاف تبعاً لاختلاف الأفهام ، وقواعد النظر ، وتقدير العلل والمصالح ، والسنة المطهرة لم تكن قد دونت ، وإنما اعتمد الناس على روايات تلقوها عمن حفظها ووعاها ، وكثير من هذه الروايات عن فعل فعله

الرسول ، أو قول قاله ، وربما حف بهذا الفعل أو بهذا القول قرائن وظروف تساعد على فهمه ، وربما خلا من ذلك ، وقد تأتي الرواية من طريق بلفظ غير ما جاءت به من طريق آخر ، وقد تبلغ الرواية هذا العالم ، أو هذا البلد ، ولا تبلغ غيرهما ، إلى غير ذلك مما كان ذا أثر ظاهر في الخلاف ، وقد اختلفت كذلك القواعد التي استنبطها العلماء لفهم الكتاب والسنة ، والأدلة التي رأى بعضهم أنها تقيد حكم الله ، ورأى غيره أن كتاب الله وسنة رسوله مغنيان عنها .

هذا ، على وجه الإجمال ، هو ما دعا إلى اختلاف العلماء ، وهذا هو ما قضت به الحكمة الإلهية ، ولو شاء الله لجاءت أحكام الشريعة ومسائلها جميعاً على نمط واحد ، ولكن الله جل جلاله علم أن أمر الناس لا يصلح على ذلك ، فلا يصلح في امور العقائد واصول الدين التي يدخل بها المرء في ربقة الإيمان ، ويخرج من هذه الربقة حين يخرج عنها ، لا يصلح في هذه أن يُترك الناس لعقولهم وأفهامهم وظنونهم ، فلذلك بيّنها بياناً واضحاً ، وجعلها من بين امور الدين وأحكامه حرَماً مقدساً ، لا يجوز أن تختلف فيها الأنظار ، ولا أن تكون مجالاً لتعدد الآراء ، وهدفاً لجدال المتجادلين ، ذلك بأنها حقائق أخبرنا الله تعالى بها ، وأوجب علينا أن نعتقدها ، ليس من شأنها أن تتغير بتغير الزمان ، أو تختلف باختلاف المصالح ، أو تتأثر باجتهاد المجتهدين ، وقد أُلحِق بهذه الاصول ما شابهها في عدم التأثر بالأزمان أو الأفهام من حقائق العبادات وصورها — في الجملة — واصول المعاملات وأنصبة الوارثين ، ونحو ذلك ، فكان هذا كله رحمة من الله وحكمة ، لأنه وقى الناس شر التفرق في الاسس والاصول ، ورسم لهم دائرة محدودة واضحة المعالم ، يُعْرَف من دخلها ومن خرج عنها ، وسما بالحقائق الواقعة عن أن تكون محل خلاف أو تنازع ، وألحقَ بها ما هو في حكمها من رسوم العبادة التي لا يُرجَع فيها إلا إلى ما يريده المعبود ، ومن دعائم المعاملة التي يجب في كل زمان ومكان أن تكون مرتكزة على أساس سليم من العدل والخلق الكريم .

أما الفروع التي لا يضرّ الاختلاف فيها ، سواء أكانت في الشؤون العملية أم في المسائل النظرية ، فلم يكن يصلح أمر النـاس على توحيدها ، والإلزام بصورة معينة منها ، ذلك بأن الله خلق العقول وجعل لهـا مجالاً هو النظر والتفكير والموازنة والترجيح والاستقراء والتتبع ، فإذا كانت الفروع كالاصول يقينيـة لم يبق للعقول مجـال ، ولذلك جاءت أكثر أحكام الفقه ظنية ، وكثر فيها الاختلاف والترجيح ، وأصبحنا نرى في كثير من المسائل الخلافيـة آراء الفقهاء التي تمثل جميع الصور المحتملة عقلاً .

وأمرٌ آخر هو أن صور التصرفات التي تقع بين الناس ، والقضايا التي تحدث فيهم ، لا تنتهي ولا تقف عند حد ، فكلما جاء جيل من النـاس جاءت معه أحداثه وتصرفاته وألوان نشاطه ، فإذا كان من قصد الشريعة أن تنص على كل حكم من لدن جاء محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة ، لما وسع الناس أن يحفظوها ، ولا سيما وقد أنزلت على قوم أميين في جزيرة صغيرة محدودة القدرة ، وفي زمان أقرب الى البدائية الاولى ، لم يكن العلم فيه قـد تقدم كعهدنا به اليوم ، فلم يبق إلا أن تضمّن الأدلة والمصادر المحدودة للشريعة ما يمكّن العقول من الاستنباط منها كلما دعا الى ذلك داع ، ولذلك وجدت المبادىء العامة ، والاصول الـتي يُرجع اليها ، وكان منها ما هو قطعي دائم ، ككون الشريعة يسراً لا عسراً ، وكون المعاملات مبنية على المصالح ، وكون العرف محكماً فيما لا نص فيـه ، ووجوب حفظ المـال والنفس والعرض والعقل والدين ، وغير ذلك من الكليات التي ترجع اليها الفروع والأحكام .

هـذا هو الوضع الحكيم الرحيم الذي جاءت عليه الشريعة الإسلامية ، ولم يكن من الحكمة ولا من الرحمة أن تجيء على وضع سواه ، بل إن ذلك غير ممكن في نفسه ، فلا نتصور أن يكون ، ولذلك أبى مالك أن يقبل ما عرضه عليـه صاحب السلطان ، لأنه يعلم أن كتابه الذي ألفه وجمعه ليس هو كل شيء في هذه الشريعة ، وليس هو الكلمة الفاصلة في كل أمر من امورها ، أو مسألة من

مسائلها ، فلغيره نظر كنظره ، وبحث كبحثه ، وجمع كجمعه ، وقد يكون عند غيره من العلم ما ليس عنده ، ولعله لو اطلع عليه لأخذ به ، ورجع عما كان قد اختاره ، وقد يُحمَل علمه الى قوم في بلد من بلاد المسلمين سبق اليهم من قبله علمٌ عن غيره أخذوا به ، وعرفوا أنه الحق ، فكيف يُحملون على غير ما يعلمون ، كل هذا دعا مالكاً رضي الله عنه الى أن يقول للمنصور ، وهو يعلل إباءه قبول ما عرضه عليه : « إن الناس قد سبقت لهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق اليهم وأتوا به من اختلاف الناس ، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم » .

في هذا التعليل الواضح تكمن نظرية التقريب القائمة على عدم الدعوة الى الإندماج المذهبي ، وفي الفقرة الأخيرة من عبارة هذا الإمام الجليل وهي قوله : « فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم » ، في هذه الفقرة تعبير عن الاسلوب الصحيح الذي يجب أن نسلكه للتقريب بين المسلمين ، فللناس أن يحتفظوا بما عندهم من العلم، ولهم أن يرجحوا ما شرح الله له صدورهم من الأفهام والروايات ما داموا مؤمنين باصول دينهم ومصادر تشريعهم ، غير خارجين على كتاب ربهم وسنة نبيهم ، ولا مشاقين للهدى من بعد ما تبين لهم ، ولا متبعين غير سبيل المؤمنين ، وبعد هذا يجب أن يعذر كل فريق أصحابه ، كما كان سلفنا الصالح يفعلون ، يجب أن يذكروا أن الخلاف الحر الشريف لا يفسد قضية الود والتعاون بين الأخ وإخوانه .

إن مالكاً حين أشار على صاحبه أن يدع الناس وما اختاروا لأنفسهم ، لم يشر عليه بذلك ، لأنه لا يعتد بأمر المسلمين ، ولا يعبأ بهم ، ولم يشر عليه بذلك ، لأنه ضن عليهم بأمر يعلم فيه صلاحهم ، ولكنه أشار عليه بذلك لأنه هو الخير كل الخير ، وهو الموافق لما أراده الله عز شأنه حين وضع شريعته هذا الوضع الحكيم الرحيم ، ولا يعقل أن يكون مالك قد أراد من ترك الناس وما اختاروا أن يتعصبوا لما عندهم ، وأن يحتربوا عليه فيما بينهم ، وأن يقطعوا في

سبيل التعصب له ما أمر الله به أن يوصل من اخوة الإيمان ، وتعاون الإسلام .

★ ★ ★

ولم ينفرد مالك رضي الله عنه بالنهي عن اتباعه في كل ما قال به ، وإلغاء ما سواه ، فقد حدّثنا التاريخ عن سائر الأئمة بمثل ما حدثنا به عن مالك :

فابو حنيفة رضي الله عنه، كان يقول: «لا ينبغي لمن لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي » ، وكان رضي الله عنه إذا أفتى يقول : هذا رأي النعمان بن ثابت — يعني نفسه — وهو أحسن ما قدرنا عليه ، فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب .

والشافعي رضي الله عنه كان يقول : إذا صح الحديث فهو مذهبي ، وقال يوماً للمزني : يا إبراهيم لا تقلدني في كل ما أقول ، وانظر في ذلك لنفسك ، فإنه دين .

وكان الامام احمد رضي الله عنه يقول : ليس لأحد مع الله ورسوله كلام ، وقال يوماً لرجل : لا تقلدني ولا تقلد مالكاً ، ولا الأوزاعي ولا النخعي ولا غيرهم ، وخذ الأحكام من حيث أخذوا من الكتاب والسنة .

ولقد كانت سيرة سلفنا هؤلاء في ثقة بعضهم ببعض ، وعذر بعضهم لبعض ، آية من آيات الله في الإخلاص وحسن النية ، والاحتفاظ بما ينبغي أن يكون بين أهل العلم والدين من اخوة ، « فكان بعضهم يصلي خلف بعض ، مثلما كان ابو حنيفة وأصحابه والشافعي وغيرهم رضي الله عنهم يصلون خلف أئمة المدينة ، وإن كانوا لا يقرأون البسملة لا سراً ولا جهراً ، وصلى الرشيد إماماً وقد احتجم فصلى الامام ابو يوسف خلفه ولم يعد ، وكان أفتاه الإمام مالك بأنه لا وضوء عليه ، وكان الامام احمد بن حنبل يرى الوضوء من الرُّعاف والحجامة ، فقيل له : فإن كان الإمام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ ، هل تصلي خلفه ؟ فقال :

كيف لا اصلي خلف الإمام مالك وسعيد بن المسيب ؟... وصلى الشافعي رحمه الله الصبح قريباً من مقبرة أبي حنيفة رحمه الله ، فلم يقنت تأدباً معه »[1] .

★ ★ ★

أما الشيعة – امامية وزيدية – فيرون بقاء باب الاجتهاد مفتوحاً إلى يوم الدين ، ولا يتبعون في عباداتهم ومعاملاتهم وسائر أحكام دينهم إلا ما فهموه من الكتاب والسنة . وما يأخذونه عن أئمتهم عليهم السلام لا يأخذونه بحكم الاتباع والتقليد ، ولكن على أنه رواية صحيحة صادقة لا شك فيها عن النبي ، وإذ كان ذلك هو مذهبهم ، الذي عليه سلفهم وخلفهم ، فإنه مما لا يتفق ومنطقه أن يعملوا على إدماج المذاهب بعضها في بعض ، أو على نصر مذهب منها على مذهب وتعطيل ما سواه ، فالمذاهب كلها لديهم سواء ، وكل ما جاء فيها فهو في نظرهم أقوال لقائليها ، وصلوا اليها باجتهادهم ، فما وجدوه صحيحاً قبلوه ، وما لم يكن كذلك في نظرهم عذروا قائليه ، واتبعوا ما أداهم اليه اجتهادهم.

★ ★ ★

من هذا يتبين أن **دعوة التقريب** ليست بِدْعاً في الدين ، ولا حدثاً في العلم ، وإنما هي تجديد وتنظيم لأمرٍ وفاقٍ مع شريعة الحكمة والرحمة : أن نأتلف حول اصول ديننا ، ولا نتفرق كما تفرّق الذين من قبلنا ، وأن يكون خلافنا فيما وراء ذلك خلاف المنصفين المهذبين « **الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولوا الألباب** »[2] .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٥٩ ج ١ .
(٢) الزمر / ١٨ .

أدب الدعوة الى الحق

لحضرة المجــاهد الاسلامي الكبير
السيد محيي الدين القليبي التونسي

في الحفل الذي أقامه المركز العــام للاخوان المسلمين بالقاهرة تكريماً لسمو الأمير سيف الاسلام الحسن رئيس وزراء اليمن ، سمعت هــذا الأمير الوزير يقول في كلمة الشكر التي أجاب بهـا خطباء الحفل الذين نوّهوا بشأنه ، وتمنوا لبلاده على يديه كل خير ، ووضعوا أصابعه على كثير من نقط هـذا الخير الذي تمنوه لليمن وأهل اليمن ، سمعته يقول في جوابه : **ان التناصح واجب بين المسلمين يؤديه بعضهم لبعض ، ولكني أرى أن أداء النصيحة في لين ولطف ودون تحمس وشدة مما يؤدي الى الأخذ بها ، والعمل بمقتضاها .** ...

كلمة صريحة صحيحة أدلى بها هــذا الأمير لا تختص بالموضوع الذي قيلت فيه ، ولكنها تعم كل الناصحين والهداة ، فالمسلم الداعي الى الخير والناصح لأخيه هو مدفوع بالحب الذي يملأ قلبه ، والذي صيّره يحب لأخيه ما يحب لنفسه من السير على الصراط السوي للوصول الى الهدف الأسمى ، والحب عادة لا تصحبه الشدة ولا القسوة ، وإن مظهره اللطف والعطف واللين ، وليس بعـد أدب الله

أدب ، ولا وراء هداية كتابه هداية : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** »[١] .

فلو التزم المسلمون في تناصحهم وهداية بعضهم لبعض ، هذا الأدب العالي ما وقعت الخصومة بينهم ، ولا اتسع نطاق الفتنة والخلاف حتى أضحت مهاترة وحرباً انهار بها الكيان الإسلامي دولة وعقيدة ، فلقد رأيت وسمعت في رحلتي الأخيرة التي قمت بها في **الشرق العربي** من أقوال وأعمـــال بعض العلماء الذين يلبسون لباس الهداية والنصح ما يبرأ منه الإسلام ، وحتى أبسط مظاهر الخلق الكريم ، رأيتهم يدعون للدين بما يهدم الدين ، وينصحون للمسلمين بما يثير الفتنة بين المسلمين ، ويحمل كل منهم من الحقد الذي يفيض بـــه قلبه ولسانه للطائفة المخالفة له ما لا يحمله للمستخفين بالدين ولأعداء الإسلام والمسلمين من المستعمرين وكأن هؤلاء معاول الاستعمار تعمل لهدم ما بقي من كيان هذا العالم الإسلامي، وتفريق ما تجمع من شتاته بإيقاظ الفتنة المذهبية والنعرات الطائفية بين المسلمين والاحتجاج بتخريف العامة والدهماء وتزييف وتحريف من على شاكلتهم من أشباه العلماء ، وما كان أغنى المسلمين وهم اليوم فريسة بين براثن الاستعمار عن هـــذا الاستهتار ، ورأيت لو أنني نصحت لهؤلاء وهؤلاء بعنف ، وحاولت صدهم عما هم فيه بشدة لنفروا ، ولأصبحت طرفاً ثالثاً في الخصومة ، ولكنني أخذت بأدب الله في الدعوة إلى ما أمر من اخوة واتحاد ، فاستجاب النـــاس إلى ما دعوتهم اليه وكفوا عن التقاذف بالتهم، وأخذوا في التقارب بصفاء وود ، وتلك مهمة المسلم خصوصاً في هذه الحالة وهذا الزمان .

* * *

لقد افترق المسلمون في فجر تاريخهم ، واكتووا بنـار تلك الفتنة . افترقوا في السياسة ، واختلفوا في نظام الحكم ، ولكن لارتباط السياسة بالدين ، انتقل

---

(١) النحل / ١٢٥ .

الخـــلاف من نظام الدولة الى العقيدة ، وتطور التباين في الرأي الى مهاترة وخصومة ، ثم الى حروب سالت فيها الدماء وأهدرت كرامات وانتهكت حرمات تفككت بها وحدة ، وانهارت بها قوة ، ولا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن السبب الأكبر في كل ذلك هو الخروج عن الأدب الذي أدّبنا الله به في الدعوة إلى الله وإلى ما أنزل من الحق ، والأخذ بما تمليه الشهوة والعاطفة اللتين هما مرتع الشيطان من الاعتداد بالنفس والتعصب للرأي ، وأخـــذ المخالف بالشدة ، والتسرع في رميه بالضلال ، بل بالفسوق والعصيان والكفر ، فيقوم بذلك بين المختلفين سد من العداوة والبغضاء يحول بين الهداية ووصولها إلى القلب فينعدم أثر التناصح .

ولقـــد وجد على مر العصور علماء انتهازيون حول كل حكومة قامت على نظرية من نظريات الحكم المختلف فيها ، كانوا يخدمون ركابهـا ، ويتقربون اليها بتدعيم مذهبها الذي قامت عليه ، وابتكار صور له من نصوص الدين ، طمعاً في مالها وجاهها ، وفي الوقت نفسه يتقربون إلى العـامة بمجاراتهم في إشاعة الفتنة وقالة السوء ضد مخالفيهم ،فاستحكم بعملهم هذا الخلاف بين الحكومات ،واشتعلت نار الفتنة بين الطوائف ، ولا يمكن أن يكون غير هذا إذا تولى العـامة ومن في منزلة العـــامة من العلماء التحدث في الدين بالشهوة لا باليقين ، ولو رجعنا إلى المكتبة الاسلامية مثلاً وأحصينا الكتب التي أُلفت في تغذية الخلاف بين المسلمين إلى جانب الكتب التي تعمل على إصلاح ذات البين ، لاتضح لنـــا كيف كانت عوامل الشر أقوى وأعظم بكثير من عوامل الخير ، ولعلمنا علم اليقين السر في بقاء الخلاف بين المسلمين على أشده إلى اليوم ككائن حي ، ينمو ويقوى خصوصاً إذا احتضنته أيدي أعداء الإسلام رغم أن المسلمين فقـدوا الدولة التي اختلفوا على نظامها ، والسلطان الذي تنازعوا عليه ، وضعف الدين الذي نقـــلوا اليه الخلاف وتفرقوا فيه ، وأخيراً فقدوا وجودهم وتخطفهم الناس ، فهم على كثرتهم العددية غثاء كغثاء السيل ، لا يملك أحدهم حرية إدارة بيته فضلاً عن بلاده

وأمته . والمسلمون هم الذين هيّأوا أنفسهم لهذا المآل بمضيهم في الخلاف ومحافظتهم عليه وتغذيتهم لأسبابه ، ولقد شعر غير واحد من المسلمين الصادقين بخطورة الحالة التي آل اليها العالم الاسلامي امة ودولة وعقيدة، فأجمعوا وتجمعوا لوضع حد الماضي بما فيه ، واستئناف حياة جديدة تبتدىء بتوحيد قلوب أهل التوحيد حول الاصول العليا للاسلام ، وأن تكون الدعوة للحق بالحق ، وبما أدبنا به الحق تعالى ، وهدانا اليه في محكم آياته من وسائل تتفتح بها القلوب ، وتقبل عليها النفوس، وأن ما عدا ذلك من تراث كل طائفة من طوائف المسلمين لها أن تحتفظ به ، وليس لها أن تجادل أو تجادَل فيه ، وأن يكون الخلاف في الرأي خلافاً علمياً طاهراً نقياً لا يدعو إلى الخصومة ، ولا يورث الحقد والبغضاء بين المتخالفين يجب اليوم أن نتحد ونتعاون لبناء الوحدة التي أرادها الله والامة التي شهد الله لها بالخير ، وأن نبرز الاخوة الاسلامية في أجلى مظاهرها ، وقد أمرنا الله بالمحافظة عليها ، وأنذرنا عواقب تركها ، وأن نعمل بقلوب مخلصة على إنقاذ الكيان الاسلامي من الاستعباد ، ونقيم الدولة التي تحمي العقيدة ، وتؤدي رسالتها لخير الإنسانية .

يجب أن نعمل جاهدين على توحيد القلوب في الأجيال الحاضرة بالدعاية وبكل وسائلها ، وفي الأجيال المقبلة بالتعليم وعلى الخصوص في المعاهد الدينية الاسلامية ، وهنا تتجلى مهمة القائمين عليها في هذا الأمر وما يجب عليهم من انتقاء الكتب وتطهيرها من لوثة الخلاف المفرق، والجدل والاتهامات التي تورث الأحقاد بين أهل الدين الواحد الموحد ، وأن تلهم الذين وكل اليهم أمر تربية هذا الجيل أن ينشئوه على التسامح وسعة الصدر واحترام الآراء ، وتقدير العقائد ، وإن الدين الإسلامي الذي أمرنا أن نحسن ونقسط ونبرّ بأهل الأديان الاخرى ، لا يمكن، بل لا يسمح لنا أن نكون حرباً على إخواننا في الدين، وهذا التوجيه يكون له بدون شك الأثر الفعال في البعث الاسلامي الجديد الذي أصبحنا نلمسه في وعي المسلمين العام ، وحسن اتجاه كثير من قادتهم .

وإني كما ابتدأت هذا الحديث بكلمة الأمير الوزير اليمني أختتمه بكلمة الزعيم الاسلامي العظيم **ابي القاسم آية الله الكاشاني** التي سمعتها منه في مجلس جمعني وإياه **بدمشق** ، وقد سأله أحد الحاضرين عن رأيه في الخلاف بين **السنة والشيعة** ، وكان الحاضرون في هذا المجلس عدداً كثيراً من الطائفتين ، وظن السائل أنه أحرج الزعيم بهذا السؤال ولكنه أفحمه إذ قال له : أنا مسلم ، لا أعرف إلا الاسلام الذي جاء به محمد من عند ربه وهو الذي يجب أن يتحد عليه المسلمون ، أما ما عدا ذلك فلكلٍّ أن يحتفظ بها عنده لنفسه ، وإن كل المسلمين يجب أن يتحدوا اليوم لمقاومة الاستعمار بقلب رجل واحد ، وأن يعتصموا بحبل الله كما أمرهم الله ، وألا يتفرقوا ، فحالة المسلمين أخطر مما نتصور ، ووجوب اتحادهم للإنقاذ والخلاص هي أوكد من كل شيء الآن .

تلك هي آرائي التي اكتسبتها من مدرسة القرآن .

التقريب بين المذاهب الاسلامية ودراسة علم التوحيد

لفضيلة الاستاذ الجليل
الشيخ عبد المتعال الصعيدي

— ١ —

التقريب بين المذاهب الاسلامية غاية من أسمى الغايات ، وهي السبيل إلى عودة المسلمين إلى سابق مجدهم ، لأن التقريب بين مذاهبهم يوحد بينهم ، ويعيد عهد الإخاء الذي مكّن لهم في الأرض ، بما كان لهم فيه من طهارة وقداسة ، جذبت الناس إلى دينهم ، ونشرته بسرعة فائقة في سائر أنحاء الأرض .

ولكن هذه الغاية لا يمكن أن نصل اليها ما دامت **دراسة علم التوحيد** باقية على حالها القديم ، بل لا بد أن نعيد تدوينه من جديد ، لندرس فيه الفرق الإسلامية دراسة جديدة تقرّب بينها ، وتجعل منها فرقاً متصافية متحابة ، لا يفرّق بينها الخلاف في الرأي ، ولا يجعل فرقة منها تنظر بعين العداء إلى الفرقة الاخرى ، لأنها ضالة أو فاسقة في نظرها ، إلى غير هذا من الأوصاف التي تكيلها كل فرقة للاخرى في ذلك العلم ، ولا يمكن أن يكون التقريب بين المذاهب معها خالصاً ظاهراً وباطناً .

لقد نشأ علم التوحيد بين الخصام والعداء ثم شبّ وشاخ بينهما ، حتى تأصلت فيه جذورهما ، فكانت أول مسألة أثيرت فيه مسألة مرتكب الكبيرة ، أثارها الخوارج والسيوف تلمع في أيديهم ، والخصام بينهم وبين جمهور المسلمين قد بلغ غايته حتى كانوا يرعون دم الذمي ، ولا يرعون دم أخيهم المسلم ، لأنهم كانوا يرون أن مرتكب الكبيرة كافر مستباح الدم ، مع أن كفره لو سلم لا يبلغ في القبح مبلغ غيره من الكفر .

ثم ثارت هذه المسألة بين **الحسن البصري** وتلميذه **واصل بن عطاء** ، ففرّقت بينهما ، وجعلت التلميذ ينابذ استاذه ويخاصمه ، ويعتزل مجلسه إلى مجلس آخر يكون له فيه أشياع ينابذون ويخاصمون أشياع استاذه ، وقد كان واصل يرى في مرتكب الكبيرة أنه ليس بمؤمن ولا كافر ، وإنما هو منزلة بين المنزلتين ، يعني أنه فاسق ، ولكنه كان يرى أنه مخلد في النار كما كان يرى الخوارج ، فيكاد الخلاف بينه وبينهم يكون لفظياً ،وقد قيل إن الحسن البصري كان يعد مرتكب الكبيرة منافقاً ، فإن صحّ هذا عنه عُدّ منهم ، لأنه لم يكن يوافقهم في جعل عليٍّ ومعاوية ونحوهما من مرتكبي الكبائر ، فكان يحفظ للصحابة صحبتهم ، ولا يتنكر لهم كما تنكر الخوارج ونحوهم .

ثم جاءت مسألة **الكلام** و **خلق القرآن** في **علم التوحيد** بعد مرتكب الكبيرة ، فزادت فيه النار اشتعالاً ، وكانت وقوداً صالحاً لنار الخصومة بين المعتزلة ومن يخالفهم فيها من أهل السنة وغيرهم ، ولا سيما في عهد **المأمون** ومن أتى بعده من ملوك **بني العباس** إلى **المتوكل** ، إذ تعصّبوا **للمعتزلة** على غيرهم من الفرق ، وكالوا بكيلين للرعية التي قاموا بالحكم فيها ليكيلوا لها كيلاً واحداً ، فكان كل من يقول بخلق القرآن له حظوتهم ،وكل من لا يقول به يعزل من وظيفته في القضاء وغيرها وينال ما ينال من العذاب والسجن ، حتى انقسمت الرعية على نفسها انقساماً شنيعاً ، ونال أهل السنة من الأذى ما لم ينله المخالفون للعباسيين في دينهم .

فلما جاء **المتوكل** بعد اولئك الملوك قلب **للمعتزلة** ظهر المحن ، وظاهر أهل السنة عليهم ، فكال **للمعتزلة** بمثل ما كانوا يكيلون به لغيرهم ، ويقال إنه كان يظاهر فريقاً مخصوصاً من أهل السنة ، وهم فريق الحشوية الذين كانوا يحسبون من أهل السنة في ذلك العهد .

وقد مكث ذلك الخصام قائماً بين أهل السنة والمعتزلة وغيرهم من الفرق الإسلامية إلى أن ظهر **أبو الحسن الأشعري** ، وكان تلميذاً **لأبي علي الجبائي** من **المعتزلة** ، وقد مكث أربعين سنة يأخذ علم التوحيد عليه وعلى غيره من علماء هذه الفرقة ، ثم انقلب عليهم مرة واحدة ، فكان شديداً في انقلابه عليهم ، إذ انقطع عن الناس في بيته خمسة عشر يوماً ، ثم خرج بعدها إلى المسجد الجامع بالبصرة ، فصعد المنبر وقال : معاشر الناس ، إنما تغيبت عنكم هذه المدة ، لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة ، ولم يترجح عندي حق على باطل ، ولا باطل على حق ، فاستهديت الله تبارك وتعالى ، فهداني إلى ما أودعته في كتبي هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده ، كما انخلعت من ثوبي هذا ، وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به ، ودفع الكتب للناس ، فمنها كتاب اللمع ، وكتاب أظهر فيه عوار المعتزلة سماه : كشف الأسرار وهتك الأستار ، وغيرها من كتبه .

وفي رواية أنه رقى كرسياً في الجامع ونادى بأعلى صوته : من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا اعرّفه بنفسي، أنا فلان ابن فلان، كنت أقول بخلق القرآن ، وان الله لا تراه الأبصار ، وأن أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة ، مخرج لفضائحهم ومعايبهم .

فزادت الخصومة اشتعالاً في علم التوحيد ، ولا سيا أن **أبا الحسن الأشعري** لم يمكنه التخلص من كل آثار المعتزلة ، بل بقي في مذهبه قليل من آثارهم ، ولم يتجاف التأويل في بعض الآيات المتشابهة ، كما كان يتجافاه القدامى من أهل السنة فوقع بهذا بين نارين ، وقامت خصومة شديدة بينه وبين المعتزلة والقدامى من أهل السنة وغيرهم، وانتصر **الملك طغرلبك السلجوقي** للكرامية في خراسان

وغيرها من مملكته الواسعة على أتباع **الأشعري** ، فمدّبهم وشرّدهم ونفاهم من مملكته ، ففرّوا منها إلى غيرها من البلاد ، كما فرّ إمام الحرمين إلى بلاد الحجاز ، وكذلك غيره من أئمة الأشعرية .

فلما ظهر أمر **الأشعرية** في عهد **الوزير نظام الملك** أخذوا يكيلون لغيرهم الصاع صاعين ، حتى ظهر مذهبهم وطغى على غيره من المذاهب ، ولا سيما مذهب المعتزلة الذي تربى إمام الأشعرية على أساتذته ، فقد كان الأشعرية أقسى عليه من غيره من المذاهب ، حتى امحى أثره بينهم ، ولم يمكن أحداً أن يأخذ بشيء منه عندهم ، ولا يزال أمره على هذا الحال إلى عصرنا الحاضر ، لأن كتب الأشعرية هي التي تدرس الآن في علم التوحيد ، ولا تزال على حالتها من يوم أن وضعت فيه ، فلا مجال فيها لغير مذهب الأشعرية ، ولا يلقى فيها غيره شيئاً من الإنصاف ، لتهدأ نار تلك الخصومة ، وتضعف حدة ذلك الخلاف ، ويكون هناك مجال للصلح والوفاق .

— ٢ —

لم يقتصر الأمر في **علم التوحيد** على ما سبق من الخصومات التي قامت بين أصحابه من مبدئه الى منتهاه ، بل تجاوز الأمر هذا الى ما هو أخطر منه ، فعمل أصحابه على أن يقيّموا الخصومة فيما بينهم على أساس من الدين ، لتكون خصومة مشروعة لا إثم فيها ، بل يثاب أصحابها عليها ، وكان هذا بأن ضيقوا في أمر هذا العلم ، وجعلوه لا يتسع لأكثر من مذهب واحد ، يكون صاحبه هو الطائع الناجي ويكون من عداه هو العاصي الهالك ، وبنوا هذا على حديث اشتهر فيما بينهم ، من غير أن يبحثوا في صحته من جهة سنده ، ومن جهة ملاءمته لطبيعة الإسلام ، وانسجامه مع أصوله المعلومة منه بالضرورة .

وهذا **أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي** صاحب كتاب **(الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم)** يجعل الباب الأول من كتابه في بيان ذلك الحديث المأثور في افتراق الامة ، وبيان الفرقة الناجية من فرقها ، فرواه من ثلاث طرق ، ثم رتب عليه ما أراده من وضعه في الباب الأول من كتابه ، وهذه طرقه الثلاث في روايته :

١ — أخبرنا **أبو سهل بشر بن أحمد بن بشار الاسفرايبني** ، قال : أخبرنا عبد الله بن ناجية ، قال : حدثنا وهب بن بقية ، عن خالد بن عبد الله ، عن محمد ابن عمر ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق امتي على ثلاث وسبعين فرقة .

٢ — أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي بن زياد السندي العدل الثقة ، قال : أخبرنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار ، قال : حدثنا الهيثم بن خارجة ، قال : حدثنا اسماعيل بن عياش ، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، عن عبد الله ابن يزيد عن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله ﷺ : ليأتين على امتي ما أتي على بني إسرائيل ، تفرق بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين ملة ، وستفترق امتي على ثلاث وسبعين ملة ، تزيد عليهم ملة ، كلهم في النار إلا ملة واحدة ، قالوا : يا رسول الله ، وما الملة التي تنقلب ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي .

٣ — أخبرنا القاضي أبو محمد عبد الله بن عمر المالكي ، قال : حدثنا أبي ، عن أبيه ، قال : حدثنا الوليد بن مسلم ، قال : حدثنا الاوزاعي ، قال : حدثنا قتادة ، عن أنس ، عن النبي عليه السلام ، قال : إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن امتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة .

ثم ذكر بعد رواية هذه الطرق أن للحديث الوارد في افتراق الامة أسانيد كثيرة ، وقد رواه عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة ، كأنس بن مالك وأبي

هريرة ، وأبي الدرداء ، وجابر ، وأبي سعيد الخدري ، وأبي بن كعب ، وعبدالله ابن عمرو بن العاص ، وأبي أمامة ، وواثلة بن الأسقع .. وغيرهم .

ثم ذكر أن النبي ﷺ لا يريد من الفرق المذمومة التي هي من أهل النار فرق الفقهاء الذين اختلفوا في فروع الفقه ، مع اتفاقهم على اصول الدين ، لأن المسلمين فيما اختلفوا فيه من فروع الحلال والحرام على قولين :

أحدهما : قول من يرى تصويب المجتهدين كلهم في فروع الفقه ، وفرق الفقه كلها عندهم مصيبون .

والثاني : قول من يرى في كل فرع تصويب واحد من المختلفين فيه ، وتخطئة الباقين من غير تضليل منه للمخطىء فيه .

فلا يريد النبي ﷺ عنده بالفرق المذمومة ، إلا فرق أصحاب الأهواء الضالة الذين خالفوا الفرقة الناجية في أبواب العدل والتوحيد ، أو في الوعد والوعيد ، أو في بابي القدر والاستطاعة ، أو في تقدير الخير والشر ، إلى غير هذا من الأبواب التي اتفق فيها على أصل واحد أهل السنة والجماعة من فريقي أصحاب الرأي وأصحاب الحديث ، وخالفهم فيها أهل الأهواء الضالة من القدرية وغيرهم من فرق الضلال ، وبهذا صح عنده تأويل ذلك الحديث إلى هذا النوع من الاختلاف ، دون الأنواع التي اختلفت فيها أئمة الفقه من فروع الأحكام في أبواب الحلال والحرام ، وليس فيما بينهم تكفير ولا تضليل فيما اختلفوا فيه من أحكام الفروع .

ولكن ما يراه **ابو منصور البغدادي** من صحة هذا الحديث غير مسلم له ، فقد قال ابن حزم في كتابه ــ **الفصل** ــ : ذكروا حديثاً عن رسول الله ﷺ ، أن القدرية والمرجئة مجوس هذه الامة ، وحديثاً آخر : تفترق هذه الامة على بضع وسبعين فرقة كلها في النار حاشا واحدة . وهذان حديثان لا يصحان أصلاً من طريق الإسناد ، وما كان هكذا فليس بحجة عند من يقول بخبر الواحد ، فكيف من لا يقول به ؟

وقال ابن الوزير في كتاب – **العواصم والقواصم** – : إياك أن تغتر بزيادة « كلها في النار إلا واحدة » فإنها زيادة فاسدة ، ولا يبعد أن تكون من دسيس الملاحدة .

ومما طعن به في سند ذلك الحديث أن فيه محمد بن عمرو الليثي ، وهو ممن أخرج له الشيخان في المتابعات فقط ، ومثله لا يحتج بحديثه إذا لم يتابع ، وقد قال فيه الذهبي : محمد بن عمرو لم يحتج به منفرداً ، ولكن مقروناً بغيره ، وكذلك في بعض سنده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، وفي بعضه كثير بن عبدالله ، وفي بعضه عباد بن يوسف ، وراشد بن سعد ، وفي بعضه الوليد بن مسلم ، وفي بعضه مجاهيل كما يظهر من كتب الحديث .

على أن ذلك الحديث قد أخرجه صاحب مسند الفردوس بزيادة تناقض الزيادة السابقة « **كلها في النار إلا واحدة** » ، فقال : أخبرنا أبو ثابت بن منصور ، أخبرنا جعفر بن محمد بن الحسين الأبهري ، حدثنا صالح بن أحمد الحافظ ، حدثنا ابراهيم بن محمد بن يعقوب ، حدثنا الحسن بن زولاق ، حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا يحيى بن يمان ، عن ياسين الزيات ، عن سعد بن سعيد أخي يحيى ، عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : **تفترق امتي على بضع وسبعين فرقة ، كلها في الجنة إلا الزنادقة .**

وقد قال **الشمس محمد بن احمد البشاري المقدسي** في كتاب – **أحسن التقاسيم** – بعد أن عدّد الفرق وذكر حديث « اثنتان وسبعون في الجنة وواحدة في النار » ، وحديث « اثنتان وسبعون في النار وواحدة ناجية » : هذا أشهر ، والأول أصح إسناداً .

ولكن بعض من ينتصر لزيادة « كلها في النار إلا واحدة » رأى أن يوفق بين الحديثين ، حتى لا تبطل هذه الزيادة بالمعارضة بينهما ، فحمل أحدهما على الإبتداء ، والآخر على الإنتهاء ، يعني أن هذه الفرق تدخل النار كما يدخلها سائر العصاة ، ثم تخرج منها وتدخل الجنة كما يدخلونها بعد تعذيبهم على عصيانهم ،

وبهذا يصح أن يقال في هــذه الفرق « **كلها في الجنة إلا الزنادقة** » لأنهــا تدخل الجنة في نهاية أمرها ، أما الزنادقة فيخلدون في النـــار ، لأنهم يخفون الكفر ويظهرون الإسلام ، وهذا التوفيق إنما يقبل بعد صحة الحديث الذي وردت فيه تلك الزيادة «كلها في النار إلا واحدة» فإذا لم يكن صحيحاً كما سبق لم يقبل حمل الآخر عليه ، لأنه لا يقبل حمل صحيح على غير صحيح .

ثم إن تفرقة **أبي منصور البغدادي** بين المختلفين في الاصول والمختلفين في الفروع غير مقبولة ، لأنه بنى هذه التفرقة على أن ما اختلف فيه أئمة الفقه ليس فيه بينهم تكفير أو تضليل، ومثل هذا لا يصح أن يبنى عليه تفرقة بين الفريقين لأن تكفير بعض المختلفين في الاصول لبعض ، أو تضليل بعضهم لبعض ليس في شيء من الصواب ، وكان الواجب أن يقتصر ما بينهم على الإقناع بالدليل ، من غير أن يطعن أحدهم في الآخر بكفر أو تضليل ، وهذا هو ما تسعى اليه الآن جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية، فإذا وصلت إلى هذا — وستصل اليه إن شاء الله تعالى — جرى الخلاف بين المختلفين في الاصول كما يجري بين المختلفين في الفروع ، فلا يكون بينهم طعن في العقائد ، ولا يكون هناك وجه لتلك التفرقة التي ذهب اليها **أبو منصور البغدادي** ، وقامت على أساسها دراسة علم التوحيد، كما قامت على أساس ذلك الحديث السابق ، وكلاهما غير صحيح .

— ٣ —

إذا أردنا أن نعرف حقيقة حكم الإسلام في خلاف الفرق في الاصول ، وجب أن نعرف : هل هناك ما يقتضي وجود هذا الخلاف ؟ لأنـــه إذا كان هناك ما يقتضي وجود الخلاف في الاصول ، وجب أن يقبل الخلاف بين الفرق فيها ، كما يقبل في الفروع ، فـلا يكون هناك فرْق بين ما يقبل الخلاف من اصول الدين وفروعه ، بل يجب أن ينظر إلى الخلاف في البابين نظرة واحدة ، لأن قبول الخلاف في أحدهما دون الآخر ، يكون تحكماً غير مقبول .

وقد ذكر ابن رشد في كتاب — فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الإتصال — أن معرفـة الله تعالى هي السعادة التي دعت اليها الحكمة والشريعة ، وقد أمر بها كل مسلم من الطريق الذي تقتضيه طبيعته من التصديق ، لأن طباع النـــاس في التصديق متفاضلة ، فمنهم من يصدق بالبرهان ، ومنهم من يصدق بالدليل الجدلي ، ومنهم من يصدق بالدليل الخطابي، لأنه ليس في طبع كل واحد منهم أكثر من ذلك ، ثم ذكر أنه لما اختصت شريعتنا بدعوة الناس من هـذه الطرق الثلاث ، عمّ التصديق بها كل إنسان ، إلا من يجحدها عناداً بلسانه ، أو من لم تتقرر عنده طرق الدعوة فيهـــا إلى الله لإغفاله ذلك من نفسه ، وخصّ النبي ﷺ بالبعث إلى الأحمر والأسود ، لتضمن شريعته طرق الدعوة إلى الله تعالى ، كما جاء في قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة

وجادلهم بالـتي هي أحسن » فالحكمة إشارة إلى البرهان ، والموعظة إشارة إلى الدليل الخطابي ، والجدال بالتي هي أحسن إشارة إلى الدليل الجدلي .

وقد اقتضى هـذا أن تختلف نصوص القرآن إلى محكم ومتشابه ، كما اقتضاه نزول القرآن في أعلى درجات البلاغة ، لتدخل بلاغته في إعجازه ، كما يدخل غيرها من وجوه الإعجاز ، ولا بد في البلاغة من استعمال أساليب المجـــاز والإستعارة والكناية ، وما إلى هذا من أساليبها ، وهـذه الأساليب كثيراً ما تقتضي وجود قسم المتشابه في نصوص القرآن .

وهذا المتشابه من نصوص القرآن هو الذي اقتضى وجود الخلاف بين المسلمين في الاصول ، كما يشير الى هذا قوله تعالى : « **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب واخر متشابهات فأما الذين فيقلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويله، وما يعلم تاويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا وما يذكر الا اولو الألباب** » [١] ، وقد اختلف العلماء في تأويل المتشابه، ففريق يمنعه لأنه يقف على قوله «إلا الله» فيكون مما استأثر الله بعلم تأويله، وعلى الراسخين في العلم أن يؤمنوا به من غير تأويل ، وربما يشهد لهذا قوله : « فأما الذين في قلوبهم زيـغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » ، وفريق لا يمنع التأويل لأنه يقف على قوله : « والراسخون في العلم » فيكون الراسخون في العلم ممن يعلم تأويل المتشابه ، ويجوز لهم أن يذهبوا إلى تأويله اذا لم يكن قصدهم بـه ابتغاء الفتنة ، وإرادة تفريق كلمة المسلمين ، وإيقاع العداوة والخصام بينهم ، وإنما يكون قصدهم الوصول الى الحقيقة ، والإجتهاد في معرفة المقصود من المتشابه .

وجمهور المسلمين الآن يذهب الى جواز تأويل المتشابه، ويرى أنه إذا تعارض دليل النقل، ودليل العقل ، وجب تأويل دليل النقل بمـــا يوافق دليل العقل ، والتأويل اجتهاد في النص ، فيجب أن يباح لمن يبلغ رتبة الاجتهاد من العلماء ،

---

(١) آل عمران / ٧ .

وأن ينظر الى المجتهد فيه كما ينظر الى المجتهد في الفروع ، وأن يقبل الخلاف فيه كما يقبل الخلاف فيها ، لأن إباحة الاجتهاد في شيء تقتضي إباحة الخلاف فيه ، إذ لا يباح الاجتهاد إلا فيما لا يقين فيه بدليل نقلي أو عقلي ، وعند فقد اليقين يأتي الخلاف ويتشعب الرأي ، ولا يليق بسماحة الدين أن يضيق في مثل هذا الخلاف ، لأنه لا يعلم فيه الحق بيقين ، فيكون من التحكم الإلزام فيه برأي من الآراء ، بل يكون لكل مجتهد رأيه فيه ، فإن كان مصيباً في الواقع فهو مأجور ، وإن كان مخطئاً في الواقع فهو معذور ، ولا يحرم من أجر على اجتهاده ، وتكون ميزة المصيب عليه أنه يؤجر أجرين : أجر على اجتهاده ، وأجر على صوابه .

وقد بلغ من تسامح القائلين بالتأويل ، وهم جمهور المسلمين ، أن ذهبوا الى أنه لا كفر مع التأويل ولو خرق الإجماع ، وقد أشار ابن رشد الى هذا في كتابه السابق ، فذكر أنه إذا كان في الشرع أشياء أجمع المسلمون على حملها على ظاهرها وأشياء أجمعوا على تأويلها ، وأشياء اختلفوا فيها ، فهل يجوز أن يؤدي البرهان الى تأويل ما أجمعوا على ظاهره أو ظاهر ما أجمعوا على تأويله ؟ ثم أجاب عن هذا بأنه لا يصح ذلك إذا ثبت الإجماع بطريق يقيني ، وإذا كان ظنياً فقد يصح ، ولهذا قال الغزالي وإمام الحرمين : إنه لا يقطع بكفر من خرق الإجماع بالتأويل في أمثال هذه الأشياء .

ثم ذكر أنه مما يدل على أن الإجماع لا يثبت في النظريات بطريق يقيني كما يثبت في العمليات — الفروع — أنه لا يمكن ثبوته في مسألة ما في عصر ما إلا إذا كان ذلك العصر محصوراً عندنا ، وكان علماؤه معلومين عندنا بأعيانهم وعددهم ونقل الينا في المسألة مذهب كل واحد منهم بالتواتر ، وصح عندنا اتفاقهم على أنه ليس في الشرع ظاهر وباطن ، وأن العلم بكل مسألة لا يصح أن يكتم عن أحد ، وأن الناس طريقهم واحد في علم الشريعة ، وقد نقل عن كثير من الصدر الأول خلاف ذلك ، كما نقل عن علي رضي الله عنه أنه قال : حدثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟ فكيف يتصور مع هذا

إجماع في مسألة نظرية، ونحن نعلم أنه لا يخلو عصر من علماء يرون أن في الشرع أشياء لا يصح أن يعلم حقيقتها إلا أهل التأويل، وهم العلماء الراسخون في العلم، وهذا بخلاف العمليات — الفروع — لأن الناس كلهم يرون إنشاءها لجميع الناس على السواء ، فيكفي في ثبوت الإجماع فيها أن تنتشر المسألة فلا ينقل الينا فيها خلاف .

وقد ذكر ابن تيمية أن عدم الفرق في الاجتهاد بين الاصول والفروع هو قول السلف كأبي حنيفة والشافعي والثوري والظاهري وغيرهم — منهاج السنة النبوية ج ٣ ص ٢٠ — وقد ذهب اليه بعدهم عبيد الله بن حسن العنبري ، وحجتهم في هذا أن النبي ﷺ قال : « إذا اجتهد الحاكم فاصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد » وأي حاكم أحق بهذا من الذي يحكم على الوجود بأنه كذا أو ليس كذا ، وما إلى هذا من المسائل العويصة في الاصول ، وهؤلاء الحكام هم العلماء الذين خصّهم الله تعالى بالتأويل، والخطأ المصفوح عنه هو الخطأ الذي يقع منهم ، والخطأ الذي يقع من غيرهم إثم محض ، لأنه ليس من أهل التأويل مثلهم . وهذا إلى أن التصديق بالشيء من جهة الدليل القائم بالنفس اضطراري لا اختياري، وإذا كان من شرط التكليف الاختيار فالمصدق بالخطأ لشبهة عرضت له معذور إذا كان من أهل العلم .

وبهذا يكون الخطأ على قسمين : خطأ يعذر فيه من هو من أهل النظر فيما أخطأ فيه ، كما يعذر الطبيب الماهر إذا أخطأ في صناعة الطب، وخطأ لا يعذر فيه أحد من الناس ، فإذا وقع في مبادىء الشريعة فهو كفر، وإذا وقع فيما بعد المبادىء فهو بدعة ، وهذا الخطأ هو الذي يكون في الامور التي تؤدي جميع أصناف الأدلة إلى معرفتها فتكون معرفتها ممكنة لجميع الناس ، كالإقرار بالله تعالى والنبوات والسعادة والشقاء الاخرويين ، فالجاحد لها كافر معاند بلسانه دون قلبه، أو بغفلته عن معرفة دليلها ، لأنه إذا كان من أهل البرهان فقد جعل له سبيل إلى التصديق بها بالبرهان ، وإن كان من أهل الموعظة فقد جعل له

سبيل إلى التصديق بها بالموعظة ، وإن كان من أهل الجدل فقد جعل له سبيل إلى التصديق بها بالجدل .

وإذا كان هــذا شأن الخلاف في مسائل الاصول ، وإذا كانت فرقها ناجية أصابت أو أخطأت ، فإنه يجب أن يكون الجدال بين هذه الفرق بالتي هي أحسن ، فلا يتعدى الإقناع بالدليل إلى إثارة الفرقة والخصام ، ومحاولة التفريق بين المسلمين ليضعف أمرهم ، ويتمكن أعداؤهم منهم ، لأن من يقصد إلى هــذا لا يكون مسلماً بل كافراً ، ومن يفعله من غير قصد يكون آثماً لأنه يضر المسلمين بفعله ، ولا يصح أن يعذر فيما يضر به غيره .

وكذلك لا يصح أن يتعدى الجدال بين الفرق حد الإقناع بالدليل إلى الطعن في الدين، والحكم على المخالف بفسق أو إثم، لأنه لا فسق ولا إثم في ذلك الخلاف، بل يكون الآثم والفاسق فيه هو من يحكم على المخالف بالإثم والفسق .

وقـد سنّ القرآن الكريم سنة دعوة المخالفين في الدين من المشركين وغيرهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، فأمرنا أن نجادلهم بالتي هي أحسن ، فقال تعـالى : **«ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن»**(١). وقال تعـالى : **« ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن »** (٢) . ولا شك أن الموافقين لنا في الاسلام أولى بهذه المعاملة الكريمة عند الخلاف في أمر من امور الدين ، فيجب أن يدعو بعضنا بعضاً بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجب أن يجادل بعضنا بعضاً بالتي هي أحسن حتى لا يفرق بيننـا الخلاف في الرأي ، ولا يثير بيننا شيئاً من العداوة والخصومة ، ومن ميزة الاسلام أنـه لم يجعل الخلاف بين النـاس في الدين سبباً من أسباب العداوة بينهم ، فلم يرضَ للمسلمين أن يعادوا غيرهم لمجرد الخلاف في الدين ، ولهذا قال الله تعـالى : **« لا ينهاكم الله عن الذين**

---

(١) النحل / ١٢٥ .   (٢) العنكبوت / ٤٦ .

لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين » [١] . ولا شك أن فرق المسلمين أولى بالموادة فيما بينهم ، لأن الخلاف فيما بينهم لا يبلغ ما يبلغه الخلاف بينهم وبين غيرهم .

ويجب أن يكون هـذا أيضاً شأن الفرق الناجية من المسلمين مع الفرقة غير الناجية ، وهي فرقة الزنادقة ، والهـاء في زنادقة عوض من الياء في **زنديق** ، **والزنديق** فارسي معرب ، كان أصله عندهم – **زنده كرد** – **وزنده** : الحياة ، **وكرد** : العمل ، أي يقول بدوام الدهر ، ويقال له في العربية : ملحد ، ودَهري بفتح الدال ، فإذا أرادوا معنى السن قالوا دُهري بضمها ، وقـال **القاموس** : الزنديق بالكسر من الثنوية ، أو القائل بالنور والظلمة ، أو من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية ، أو من يبطن الكفر ويظهر الإسلام ، وهـذا المعنى الأخير هو الذي يناسب عندي الحديث السابق : « تفترق امتي على بضع وسبعين فرقة ، كلها في الجنة إلا الزنادقة » لأن الزنادقة بالمعنى الأخير يمكن أن يعدوا من فرق المسلمين بحسب ظاهرهم ، بخلاف المعـاني التي قبل المعنى الأخير ، والزنديق بهذا المعنى يرادف كلمة منافق ، وقد ظهر المنافقون في عهد النبي ﷺ ، فكان يقبل منهم ظاهرهم ويجري عليهم أحكام المسلمين ، ولا يكلف نفسه التفتيش عن عقـائدهم ، بل كان يقول : « **امرت ان آخذ بالظاهر ، والله يتولى السرائر** ». وقد روى **عدي بن الخيار** أن رجلاً سارّ رسول الله ﷺ ، فلم ندرِ ما سارّه حتى جهر رسول الله ﷺ ، فإذا هو يستأذنه في قتل رجلين من المنافقين ، فقـال رسول الله ﷺ : أليس يشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : بلى ، ولا شهادة له ، قـال : أليس يصلي ؟ قال : بلى ، ولا صلاة له ، فقال النبي ﷺ : **اولئك الذين نهاني الله عنهم .**

---

(١) الممتحنة / ٨ .

ولا ينافي هــذا ما ورد في سورة التوبة من التشدد في أمر اولئك المنافقين ، لأن هذا كان في شأن فريق منهم كان يكيد للاسلام والمسلمين ، ويقوم بالتجسس عليهم لأعدائهم ، ولا يكتفي بما يبطنه من الكفر ، فيخون وطنه كما يخون دينه ، وخيانة الدين بإبطان الكفر يمكن الإغضاء عنها في الدنيــا ، ولا يمكن الإغضاء عن خيانة الوطن بذلك الشكل ، لأن خيانته لدينه بإبطان الكفر يعود ضررها على نفسه ، وخيانته لوطنه يعود ضررها على غيره ، فلا يصح أن يغضى عنها كما يغضى عن الاولى .

التقريب واجب إسلامي

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الدكتور محمود فياض
استاذ التاريخ الاسلامي بكلية اصول الدين بالأزهر

وقد كان هذا البحث صدى لقول الله جل شأنه : « **إن هذه امتكم امة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون** » (١) .

ولعل القارىء الكريم قد لمس الحقائق الرائعة التي عبّر عنها القرآن العظيم ، بدعوته إلى الوحدة ، وحدة المعبود ، ووحدة الأصل ، ووحدة الامة ، ووحدة الأهداف ، وقد رأى القارىء كيف ينطق القرآن — صريحاً — بتكليف الامة الإسلامية بمختلف التكاليف ، ويقرر مسئوليتها عما كلفت به ، مسئولية حقيقية ، تشمل الفرد بوصفه فرداً ، وبوصفه عضواً في الامة ، وأن أفراد الامة متضامنون في تحمل هذه المسئولية ، واحتمال تبعاتها .

ورأى القارى أن أولياء الأمر في هذه الامة هم علماؤها وقادة الفكر فيها ، وأنهم أول من تقع عليهم المسئولية ، وأنهم محاسبون أمام الله ، وأمام ضمائرهم ، وأمام الامة ، عن سعادة المجموعة التي من شأنهم أن يوجهوها إلى الخير بوصفهم

---

(١) الأنبياء / ٩٢ .

عنوان الامة ، وأهل القدرة على الاستتباع ، والقدوة الحسنة للمؤمنين بعد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأهل القيادة الرشيدة ، الذين يتوخون صالح الامة ، ويعملون على توجيهها إلى ما فيه صلاح الجميع ، فهم هداة يجلسون على أرفع مكان فوق القمة ، «يقولون الحق لا يسألون الناس عليه أجراً ، ويأمرون بالعرف ، وينهون عن النكر ، ليس عليهم سلطان إلا لرب العالمين في الأمر والنهي ، فإن قصّر هؤلاء القادة ، أو أهملوا واجبهم فهم آثمون أو غاوون « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين » .

على أن تقصير القادة — إن أعذر بعض أفراد الامة — لا ينجي الامة نفسها من المسئولية العامة التضامنية التي تجمع أفرادها فيما يشبه سلسلة متساوية الحلقات لا يدرى أين طرفاها ، لأن الإسلام يسر لا غموض في مبادئه ، وليس فيه أسرار يختص بها العلماء والقادة دون العامة «ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدكر».

ولقد أهمل قادة الفكر الإسلامي واجبهم ، ولم يؤدوا للامة ولا لله ما عليهم ، في عصور مضت — معذورة أو غير معذورة — طبعت بطابع الجمود ، وخيّم عليها الهوى ، وتحكمت فيها الشهوات السياسية ، فاستخدم العلم فيها لتركيز الدول ، وتأييد مذاهب الحكام في إسراف بعيد عن حقائق الدين ، وروح الإسلام ،فتفرقت الامة شيعاً وأحزاباً **«كل حزب بما لديهم فرحون»**(١) فاحتزبت في سبيل سيادة بعض عناصرها لا في سبيل الله ، ونقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، وقطعت الأرحام ، وسادت فيها العصبيات الجنسية وحلّت محل الاخوة الإسلامية ، كما ساد التعصب المذهبي وحل محل الحرية الفكرية التي قررها القرآن العظيم ، وأطلت السياسة من ثغرات الأهواء على أهل العلم فرسمت لهم مناهج البحث لتأييد ما يريدونه ، بدل أن يوجه العلماء بأبحاثهم أهل السياسة

---

(١) الروم / ٣٢ .

إلى وسائل الخير وسبل الإصلاح، فحجروا على العقول وقيّدوها بما يشبه العقيدة، وزعموا أن للاجتهاد باباً فأغلقوه، حتى لا ينظر أحرار الفكر من خلاله في صوالح الامة، فجعلوا الدين إرثاً وتقليداً، لا عقيدة يؤمن بهـا المسلم عن طريق الفكر والاقتناع وبذلك يصدق قول القائل: «إن المسلمين غير مؤمنين» وصح وصف **الامام الشيخ محمد عبده** المتعلمين بـ «أنهم يتعلمون كتباً لا علماً» ووقف رجال المذاهب الإسلامية جامدين على مذاهبهم حتى خُيّل جمودهم لبعض الغربيين أن هذه المذاهب في الإسلام تشبه الأناجيل في المسيحية، أي أنـــه خلاف في جوهر الدين وحقائقه الأصلية، لا في الأعراض والفروع.

ولعل القارىء الكريم يشاركني في القول: بأن صلاح هذه الامة الإسلامية اليوم منوط بصلاح علمائها، وقادة الفكر فيها، فهم منها بمثابة القلب. إن صلح صلح الجسم كله، وإن فسد فسد الجسم كله، وإنــه لفرض على علماء الإسلام وقادة الفكر فيه، أن يعملوا على جمع شتات امتهم ولمّ شعثها في هـــذه الأيام العصيبة، الـــتي تحيطهم فيها الأخطار من كل جانب، ليتعارف المتناكرون، ويتواصل المتقاطعون، وليعودوا يداً على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم، متعاونين على رفع لواء الإسلام وإعزاز مكانة بنيه بين الامم، وإن أيسر وسيلة لجمع الكلمة هو التقريب بين المذاهب الإسلامية.

وقد سأل سائل: وكيف يمكن هـــذا التقريب مع اختلاف المذاهب في الاصول والفروع. لا في الفروع فقط؟

ولعله قد خيل للبعض أن المراد بالتقريب هو مزج الآراء، وإدماج المذاهب حتى تكون مذهباً واحداً، وما كان لعالم، أو جمـاعة من العلماء، أن يحجروا على عقول دعاها الله الى النظر في ملكوته، أو يقصروا الناس على إحدى طرائق الفهم، أو بعض وسائل النظر! وإذن فما هو التقريب؟ إنه دعوة إلى التعاون على البر والتقوى وإصلاح أحوال المسلمين، بتوجيه طاقتهم العامة وجهـــة

واحدة ، تحقق سعادة الجميع ، أو تؤمنه من أخطار خارجية ، وجزى الله عنا خيراً **الامام الشيعي الجليل الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء** ، فقد وضع – في بيانه القيم للمسلمين – الامور في نصابها ، وجلى معنى التقريب تجلية تدفع كل لبس في الفهم ، فأغناني عن كل ما أعددته في معنى التقريب ، شكر الله للعلامة الكبير غيرته المحمودة على الملة والامة ، فما أروع كلمات الحق التي أرسلها لتبسيط دواعي الخلف بين المسلمين ! إذ يقرر أن الخلاف بين المذاهب ليس خلافاً على جوهر الدين واصوله ، وإذن فهو خلاف في الفروع لا يستوجب القطيعة ، ولا يحل معه التنابز ، هو خلاف معتاد يقع دائماً بين الإخوة على الوسائل الموصلة للهدف الذي ينشدونه ، وهو واقع بين المذاهب الشيعية المختلفة. كما هو واقع بين المذاهب السنية المختلفة ، فهناك خلاف بين الامامية ، وغيرهم ، وخلاف بين الإمامية « الإثني عشرية » والزيدية ، كما أن هناك خلافاً بين أرباب هذه المذاهب كلٌ في دائرته ، وكذلك يوجد هذا الخلاف بين المذاهب السنية – القائم منها اليوم والمندثر – على أساليب تعقل الأوامر والنواهي ، ودلالاتها ومفهوماتها وإيحائها ، لا على صدق الأوامر والنواهي أو كذبها . ولهذا وجدنا الشيء الواحد يأخذ صفة الوجوب في مذهب ، بينما يأخذ في غيره صفة الجواز أو الندب ، أو الاستحسان ، فكما أننا لم نسمع أن مذاهب السنة تختلف على الاصول ، فنحن نعتقد أن الخلاف بين مذاهب الشيعة في جملتها كذلك ليس على الاصول .

ومن هذا الطراز – اختلاف الفهم وتعقل النصوص – الخلاف بين الشيعة وأهل السنة حول الإمامة ! ويجب أن يكون كذلك – ما دام الجميع يؤمنون بالاصول الكبرى التي تؤلف حقيقة الدين كما ينطق به القرآن صراحة ، وهو عند الجميع واحد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإذا كان هذا الخلاف بين الطائفتين الكبيرتين ، يماثل الخلاف بين مذاهب كل منهما ، فكيف يسمح المسلمون من الطرفين لخلاف طبعي على غير الاصول وجوهر الدين ، أن يقطع

بينهم أرحاماً أمر الله أن توصل ؟ وكيف يجعلون من مذاهب علمائهم في النظر أدياناً تفرق وحدة الامة ، وتلقي بها قطعاً ممزقة بين أيدي أعدائهم ، أعداء الله ورسوله وكتابه الكريم ؟؟

ثم ما ذنبنا اليوم ، حتى نحمل أوزار قطيعة دفع اليها جمود الفكر ، والبعد عن روح الإسلام ، بتحكيم الدنيا في الدين ، وتفسير نصوصه الصحيحة ، أو وضع نصوص باطلة مجاراة لأهواء رجال السياسة أو تقرباً إلى الحاكمين ، « ولا تزر وازرة وزر اخرى » ؟ لقد آن لنا أن نقوم بتصفية هذه التركة المثقلة بالمغارم ، عن طريق التواصل والتراحم والتعاون على البر والتقوى ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر .

ولعل مهمتنا تسهل إذا عرفنا اليوم ، أن الإمامة لم تعد فارقاً جوهرياً بين الشيعة والسنة ، بل ولا فارقاً ثانوياً ، في ظلال القوميات الحديثة ، التي يستحيل علينا أن نلغي عدها عند الحساب ، وكل ما نرجوه أن نوفق في الدعوة إلى تآخيها لا إلى تلاشيها ، ونقولها صريحة ، إن الإمامة كانت فارقاً جوهرياً فيما مضى بين المتنازعين على سيادة الامة الاسلامية ، وقد ذهبوا جميعاً إلى ربهم ، وعنده وحده حسابهم ، و إنا لنرجو أن يكونوا كما قال الخليفة الرابع في أخيه الخليفة الثالث : (أرجو أن أكون أنا وعثمان يوم القيامة ممن قال الله فيهم : « ونزعنا ما في صدورهم من غلّ ، إخواناً على سرر متقابلين ») . وكل ما يمكننا أن نقوله بعد ذلك : أن الخلافة فارق تاريخي بين حزبين من أحزاب المسلمين تنازعوا الحكم فيما بينهم، فخرج الحكم منهم إلى غيرهم . أما اليوم فليؤمن الشيعة بإمامهم، ما حلا لهم الإيمان به، فهم مسلمون، ولا ينقض إيمانهم بإمامهم هذا أصلاً من الاصول الخمسة التي يتفق عليها كافة المسلمين . وليؤمن السنيون بحرية الإمامة ، وجعلها وكالة عن الامة ونيابة عنها في تدبير امورها ، تكلها إلى أهل الدين والعلم والكفاية والقدرة على سياستها بالدين ، وإيمانهم هذا لا ينقض أصلاً من الاصول الخمسة التي يتفق عليها المسلمون كافة. ولا شك أن ما يتفق عليه

الجميع من اصول للدين تلزم الجميع ، وأن مـــا يختلفون فيه لا يلزم إلا من يراه ويؤمن بصحته ، والحكم لله الواحد القهار .

فحق على المسلمين الذين ينشدون عزتهم اليوم ، أن يلبوا داعي « جمـــاعة التقريب بين المذاهب الاسلامية » لإعلاء كلمة الله ، والتعاون فيما بينهم على قمع الفساد والإلحاد والاستعمار ، فان الخلاف بينهم لا يخـــدم الإسلام بل يهدمه ، ولا يحقق فيهم سوى ما اكتووا بناره من ذل وعبودية لغير الله رب العـالمين : « ولا تنـازعوا فتفشلوا وتذهب ريحـكم » [١] . « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعـد ما جاءتهم البينات » [٢] . « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء » [٣] . ألا وإن من يلبي نـداء « جماعة التقريب » فقد لبى داعي الله ، ومن حاربها فقد حارب داعي الله، والله غالب على أمره .

ومـا لا شك فيه أن كل دعوة للتفريق بين المسلمين ، وإثارة أسباب الخلاف من جديد بين الطوائف الاسلامية ، خيانة لله ولرسوله وآله ، وللقرآن العظيم ، وللامة الاسلامية ، فكل مثير للخلاف ، داع للفرقة ، حتم علينا أن نتشكك في نواياه ، وأن نعمل على ردعه سيما في هذا الزمان الذي تهدد أرض المسلمين فيه من كل جانب بالجيوش والمبادىء ، وإلا كنا مفرطين تحق علينا كلمة العذاب .

بمناسبة ما قرأته حديثاً من المؤلفات الصادرة عن بعض علماء الطائفتين السنة والشيعة ، احب أن الفت النظر إلى الحقائق الآتية :

أولاً : ذكر الامام الشيعي ابو الحسين محمد بن نوبخت في كتابه فرق الشيعة عشرات من الفرق الشيعية التي بادت وانقرضت ، وحكم عليهـــا الإمام النوبختي بالمروق من الدين ، ومع ذلك تنوقلت آراء هذه الفرق المتباينة ، ونسبها كثير

---

(١) الأنفال / ٤٦ . (٢) آل عمران / ١٠٥ . (٣) الأنعام / ١٥٩ .

من الكتاب إلى الشيعة مطلقة من غير تقييد وهذا ظلم كبير ، لأن آراء هـذه الفرق تنـاقض تماماً المعتقدات الإماميـة ، كذلك ينسب البعض بعض آراء **الاسماعيلية** الحاليـة إلى « **الشيعة** » وهو ظلم بلا شك ، ويؤسفنا أن يقع بعض أهل العلم في هـذا الخطأ ، ولا يتحرى الدقة في إضافة الآراء إلى أصحابها ، مع أنه من السهل الآن تمييز آراء كل فرقة عن آراء غيرها ، فليس عسيراً إذن التعرف إلى آراء الإمامية في كافة المسائل المتفق عليها أو المختلف فيها .

ثانياً : أن عهد التأليف الحقيقي عند المسلمين كان في ظلال حكم **العباسيين** ، وقد كان حكمهم دنيوياً أكثر منه دينياً ، وكان ملكاً لا خلافة ، وكانت أسباب تدعيم الملك العباسي أهم بكثير من توخي حقائق العلم ، وأحكام الدين ، وكان الخلاف بين العباسيين وبني عمومتهم العلويين قـد بلغ مداه ، وتفنن كل فريق في تجريح الآخر ، فروى ما يسقط منزلته بين المسلمين ، وقد وجـد الفريقان من العلماء من فسد دينه وضميره ، فروى كذباً لكل فريق ما يشتهي ، حتى ان الإمام **ابن تيمية** (١) ليقول عن **يوسف بن قزاوغلي** ، المعروف **بسبط ابن الجوزي** ، **صاحب مرآة الزمان** : إنه كان يروي لكل من الشيعة وأهل السنة مـا يناسب مذهبه ، حسب الحاجة ووفرة الأجر . وتحت يدي (قائمة) تحوي أسماء أكثر من ألفي رجل ، من الطرفين ، حدثوا وكذبوا وفجروا ، لوجه الشيطان . ورجاء المال ، والتقرب من السلطان ، وإلى جانب هؤلاء الرواة الكذابين كان جمـاعة النساخ ، الذين ينسخون الكتب بالأجر لمن يرومها ، وكان جل هذه الطائفة من غير ذوي الدين ، وكثيراً مـا دسوا في الكتب ما ليس منها ، حسب حاجة من يدفع الأجر .

فإذا كان ذلك كذلك وجب على أهل العلم الذين يبحثون عن تاريخ الفرق واصول مذاهبها ، أن يكونوا شديدي الحذر ، وأن يتوخوا الدقة التامة ، وأن

---

(١) منهاج السنة ، ج ٢ ص ١٣٣ .

يحتاطوا أشد الحيطة في نسبة الآراء والحكم عليها، وأن يقـــارنوا بين المرويات ويبحثوا أسانيدها، فانه لذلك وضع السلف الصالح قواعد علم الجرح والتعديل.

ثالثاً: إذا جرينا على طريقة التنابز، وتزييف ما عند أهل السنة من مرويات وما عند الشيعة من مرويات، خرجنا في النهاية، وليس معنا أهل سنة ولا شيعة، وتعذر علينا أن نتفق على صحة شيء، سوى القرآن الكريم، الذي حفظه الله، فسلم للمسلمين من الدس والكيد والتزوير، فليكن هو قبلتنـــا، وداعينا إلى الوحدة، ولنعبد الله على ضوء ما فيه، ولنجعله أساساً لمعاملاتنا، ولنحكمه في كل امورنا، وهو هادينا إلى أمثل سبل العزة إن شاء الله. أما فيما يتعلق بالفروع والجزئيات، فليقتنع كل فريق بمـا صح عنده — إن شاء — من حديث الرسول ﷺ، غير متعرض لما صح عند أخيه، بما يثير الفرقة والقطيعة، فالمسيحيون يختلفون في جوهر دينهم اختلافاً كبيراً، ومع ذلك يسارع **الكاثوليك** إلى نجدة **البروتستانت**، ويسارع **الأنجلكان** إلى حماية المسيحية عامة، وما منعهم خلافهم الجوهري على ذات الإله وحقيقـة الدين من أن يكونوا إلبا على الإسلام والشرق منذ القرن الحادي عشر الميلادي إلى الآن، فهل نعتبر؟ فان هذه ذكرى لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا!

رابعاً: إن دراسة التاريخ في هـذا العصر تلعب دوراً خطيراً في تربيـــة الشعوب، وبعثها وتوجيهها إلى المثل العليا، وقـــد عنى الغربيون بذلك عناية كبرى، فربوا شعوبهم تربيـة تاريخية جعلتهم قوامين على البشرية آماداً طويلة، فهل فكـر قـــادة الفكر الاسلامي فيما يحققه «التاريخ» من «**التقريب**»؟ أرجو مخلصاً أن يتاح التعاون بين العلماء على كتابة التاريخ الاسلامي من جديد، وأرجو أن يهتم المسؤولون عن التعليم في بلاد الاسلام، بتعديل دراسة منهج التاريخ بعيداً عن العصبية المفرقة.

الباب الثاني

الوَحْدة الإسْلاميّة

- سعي قديم في توحيد المذاهب
- الوحدة الاسلامية
- وحدة المسلمين
- الاسلام دين الوحدة

سعي قديم في توحيد المذاهب

لفضيلة الاستاذ الجليل
الشيخ عبد المتعال الصعيدي

قد يشتبه على بعض الناس الفَرْق بين ما تسعى اليه الآن **جماعة التقريب** بين المذاهب الإسلامية ، وبين سعي قديم **لعبد الله المأمون** سابع ملوك العباسيين في توحيد هذه المذاهب ، ويظن أن الأول مثل الثاني امنية لا يمكن تحقيقها ، لأن الاختلاف بين الناس أمر فطري فيهم ، فقد خلقهم الله تعالى بعقول متفاوتة في الفهم ، مختلفة في التكوين ، وهذا إلى أن كثيراً من المسائل الدينية ليس من الضروريات التي لا تختلف فيها العقول ، ولا تتعدد الأنظار ، وكل هذا يدعو إلى الخلاف في مسائل الدين ، ويجعله مما لا مندوحة عنه فيها ، فإذا كان هذا شأن الخلاف في الدين ، فإنه يكون شأن المذاهب التي تتفرع عنه ، ولا يكون هناك سبيل إلى توحيدها .

والحقيقة أن ما تسعى اليه الآن جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية غير ما سعى اليها فيها قديماً عبد الله المأمون ، فإنها تسعى إلى التقريب بين أصحابها من الطوائف الإسلامية على النحو الذي في المادة الثانية من قانونها الأساسي لبيان أغراضها ، وهذا هو بيان أغراضها كما جاء في هذه المادة :

(أ) العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الاسلامية «الطوائف الاسلامية» الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التي يجب الايمان بها .

(ب) نشر المبادىء الاسلامية باللغات المختلفة ، وبيان حاجة المجتمع الى الأخذ بها .

(جـ) السعي الى ازالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين والتوفيق بينهما .

فجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية بمقتضى الفقرة الاولى والثالثة من هذه المادة ، لا تسعى إلا إلى جمع كلمة المسلمين التي فرقها الخلاف السياسي لا الديني ، لأن الخلاف السياسي هو الذي فرق كلمتهم ، وجعل بعضهم يعادي بعضاً على أسبابه وغاياته من امور الدنيا ، كالوصول إلى الحكم ومناصبه ، والظفر بالرياسة ومظاهرها ، وما إلى هذا من وسائل الجاه الذي يطغى على الدين ، فيستخدم أهله في أغراضه ، ويفرق كلمتهم في الوصول إلى مآربه ، لأنه لا يصل اليها إلا بتفريق الكلمة ، وانقسام المسلمين إلى طوائف متعادية .

ولا شك أن الخلاف الديني ليس في شيء من امور الخلاف السياسي، لأنه إذا مشى في وضعه الصحيح لم يوجب تفرقة في كلمة المسلمين ، ولم يحدث عداء بينهم، لأنه لا يدور في أصله على مطمع من مطامع الدنيا كما يدور الخلاف السياسي، وإنما يرجع في أصله إلى تفاوت عقول البشر ، وإلى أن كثيراً من النصوص الدينية ليست دلالتها قطعية ، وكثيراً منها ورد بطريق الآحاد ، وهذا يجعلها ظنية في متنها ودلالتها معاً ، ولهذا اغتفر الشارع خطأ المجتهد فيه ، بل جعل لمن اجتهد فيه فأخطأ أجراً على اجتهاده ، ولم يميز المصيب عليه إلا بأجر آخر على وصوله إلى الصواب ، ولا شك أن مثل هذا الخلاف الذي تسامح فيه الشارع يجري سمحاً بين المسلمين ، لأنه يجب عليهم أن يغفر بعضهم لبعض فيه ، كما غفر فيه الشارع لهم ، لأنهم لا شأن لهم في الدين أكثر من شأن الشارع ، فهو صاحبه في

الحقيقة ، وهو الذي له حق الثواب والعقاب فيه ، فيجب أن نترك أمر الحساب على الخلاف فيه اليه وحده ، وأن يكون علاج أمره بيننا بالتي هي أحسن .

وهذه هي سنة **جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية**، فهي تعمل على جمع كلمة أرباب هذه المذاهب بالتي هي أحسن ، وتسعى إلى إزالة ما يكون بينهم من نزاع بطريق السلم ، ليحل الصفاء محل الجفاء ، وتجتمع الكلمة بعد التفرقة ، مع بقاء كل فريق على مذهبه إن إراد ، لأنه لا يدخل في غايتها توحيد هـــذه المذاهب ، ولا حمل المسلمين على مذهب واحد منها ، اللهم إلا إذا أراد بعض الطوائف الرجوع عن مذهبه من نفسه ،لأن مثل هذا لا تمانع فيه جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، لأنها تترك الباب مفتوحاً في ذلك ، فمن شاء بقي على مذهبه من المسلمين ، ومن شاء رجع عنه إلى مذهب آخر من المذاهب الإسلامية وإذا كان الإسلام لا يرى أن يترك الناس الكفر إلى الإيمان بوسائل القهر ، وإنما هي الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإنه لا يرى من باب أولى أن يترك مذهب فيــه إلى مذهب آخر بوسائل القهر ، وإنما هي الدعوة أيضاً بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلا تحسن هنا إلا إذا كان فيها فائدة ترجى ، أما إذا كانت بحيث تزيد في شقة الخلاف ، وتقضي على ما بين المسلمين من صفاء ، فإنه يجب العدول عنها ، حرصاً على مصلحة المسلمين ، وإيثارهم لجمع كلمتهم .

أما **عبد الله المأمون** فإنه سار في طريق آخر غير هــذا الطريق المأمون ، ورأى أن يعقد للفرق الدينية مجالس مناظرة ، ليدور فيها البحث فيما بينهم من خلاف ، ويعرف كل منهم ما عند الآخر من دعوى ودليل ، ويزول الخلاف بينهم بالإقناع والاقتناع ، فأمر يحيى بن أكثم قاضي قضاته — وكان من أهل السنة — أن يجمع من أجل هذه الغاية وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد ، فاختار له من أعلامهم أربعين رجلا ، فلما حضروا ، جلس المأمون لهم ، وسأل عن مسائل ، وأفاض في فنون الحديث والعلم،فلما انفض ذلك المجلس قال ليحيى ابن أكثم : يا أبا محمد ، إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا بتوفيق من الله وتأييده

على إتمامه سبباً لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين ، إما شاك فيتبين ويتثبت فينقاد طوعاً ، وإما معاند فيرد بالعدل كرهاً .

ولا شك أن المأمون حينما سار في هذا الطريق الذي يتعذر فيه الوصول إلى غايته من جمع المسلمين على مذهب واحد لم يكن له بد من الالتجاء فيه إلى تلك الوسيلة ، وهي حمل من يراه معانداً على ترك مذهبه بالكره ، وهي وسيلة كثيراً ما يساء استعمالها ، وكثيراً ما تؤدي الى امور لا يقرها الإسلام ، ولا سيما أن الخلاف إنما يكون في امور نظرية يصعب إثبات العناد فيها ، وإنما هو التعصب الذي يجعل كل فريق من المختلفين يرى في الآخر أنه يخالفه عن عناد ، ويجعله يستحل بهذا حمله على رأيه بوسائل الإكراه : من سجن أو تعذيب أو نحوهما من الوسائل ، ومثل هذا يزيد الخلاف حدة ، ويؤدي إلى عكس المقصود منه ، فلا تجتمع به كلمة ، ولا تزول به تفرقة ، وقد استحل المأمون بهذا لنفسه أن يحمل أهل السنة بوسائل الكره على القول بخلق القرآن ، فزاد الخلاف حدة بين المسلمين وجعل الدولة في عهده لا تهتم إلا بحمل الناس كرهاً على هذا القول ، فانصرفت به عن كثير من الامور النافعة ، وضيعت زمناً لا يستهان به في فتنة تضر ولا تنفع .

على أنه إذا كان العناد في الكفر لا يصح أن يتخذ وسيلة لتركه بالإكراه ، فإنه لا يصح أن يتخذ العناد في مذهب إسلامي وسيلة لتركه بالإكراه من باب أولى ، ولا شيء في المعاند في مذهبه إلا أنه لا يكون له فيه عذر عند الله تعالى ، ولا يكون شأنه فيه كشأن من اجتهد فأخطأ ، لأن من اجتهد فأخطأ يؤجر على اجتهاده كما سبق ، أما المعاند فلا أجر له في عناده ، وإنما هو آثم مستحق لعقاب الله تعالى ، فيجب أن يترك لهذا العقاب الاخرى ، ولا يصح أن يحمل على ترك مذهبه بعقاب دنيوي ، وهكذا شأن الكافر المعاند ، فلا يصح أن يحمل على ترك الكفر الذي يعاند فيه بشيء من العقاب الدنيوي ، لأن الله تعالى حينما قال في الآية (٢٩) من سورة الكهف : « **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء**

فليكفر انا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا » .

لم يذكر إلا عقاب الآخرة لمن يشاء البقاء على الكفر ، فاذا لم يفد فيه عقاب الآخرة لم يفد فيه عقاب الدنيا من باب أولى ، لأنه لا يؤمن به إلا إيماناً ظاهراً لا فائدة فيه ، ويكون عقابه عليه أشد من عقابه على بقائه في الكفر ، لأنه يكون من المنافقين الذين يوضعون في الدَّرْك الأسفل من النار .

على أن الله تعالى حينما حكم بأنه لا إكراه في الدين في الآية — ٢٥٦ — من سورة البقرة ، فقال فيها : « **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » .**

ذكر في الآية عقب هذا الحكم أن الرشد قد تبين من الغيّ ، وفي هذه الحالة يكون من بقي على الكفر معانداً ، لأن الحق قد تبين له ، وبهذا لا يكون هناك إكراه على ترك الكفر عند تبين الحق والعناد فيه ، كما لا يكون إكراه على ترك الكفر عند عدم تبين الحق ، ولا شك أن هذا من الوضوح بمكان ، وإن غفل عنه الجمهور وادعوا أن نفي الإكراه في الدين منسوخ بآيات القتال ، مع أن القتال في الإسلام إنما شرع لحماية الدعوة الاسلامية ، ولم يشرع لإلجاء الناس عليها .

فلتَسِرْ **جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية** في طريقها الآمن ، وبمجلتها التي تعتمد في دعوتها على الوسائل السلمية التي اعتمد عليها الاسلام ، وإنها لناجحة في دعوتها بتوفيق الله تعالى .

الوحدة الاسلامية

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل
الشيخ محمد أبو زهره وكيل كليـــة
الحقوق بجامعة القاهرة

— ١ —

١ — إن من نافلة القول عنـــد من يعرفون الحقائق الاسلامية أن نقول لهم : إن المسلمين امة واحدة، بل لعلهم يعدون ذلك من الفضول الذي لا يجوز الكلام فيه ، لأنه بديهية من البديهيات المقررة في الاسلام ، ولأنه أمر معلوم من الدين بالضرورة لا يمارى فيه مؤمن، ولا ينبغي أن يجادل فيه مسلم ، ولكننا في عصر غربة الاسلام ، صارت حقائقه غريبة ، حتى انها في بيانها لتحتاج إلى استئناس لتزول غربتها ، وتذهب وحشتها ، بل نحن في حاجة إلى أن نبينها وندافع عنها غير وانين ولا متهاونين ، ولا بد أن تنفر منا طائفة تحمل الدعوة اليها ، وتحث الناس عليها ، فانه لا عزة للاسلام إلا بهـا ، ولا قوة للمسلمين إلا بوجودها ، إذ أن من المقررات الثابتة أن هـــذه الامة لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها ، ولا تستطيع أن تعود إلى ماضيها العزيز الكريم إلا إذا أخذت بالأسباب التي قام عليها ذلك الماضي ، وإنه لا عزة لهذه الامة التي جمعها الإيمان إلا بأن تستمد من صدر تاريخها قوة وإيماناً ، ومن دينهـا الجامع بينها قوة وتثبيتاً ، وذلك يكون

إذا تلاقت أقاليمها وآحادها على أمر جامع لا يتفرقون فيه ولا يختلفون .

٢ — وإذا كنا قد أهملنا في الماضي فعلينا أن نستيقظ في الحاضر، وقد تأدى بنا إهمالنا إلى أن التهمنا ذئاب الإنسانية إقليماً ، إقليماً، وأن صرنا نهباً مقسوماً بين الناس ، يختلفون في أمرنا أو يتفقون ، ونحن لا حول لنا ولا طول، يستشار أعداؤنا فينا، ونحن نترقب ما يفعلون مستسلمين غير مغيرين، يشحذون السيوف ونحن نرى بريقها ولا نحسب أنه تصوب الينا أولاً وبالذات .

ولقــد استيقظ النائم من سباته ، وتنبهت المشاعر ، وتحركت النفوس ، ولكن في الدوائر الإقليمية والنزعات الوطنية ، وإن ذلك محمود في ذاته على أنه خطوة لا غاية ، وعلى أنه سير في الابتداء ، وليس هو غــاية الانتهاء ، وأنه كان أمراً لا بد منه ، لأن أعداء الإسلام ما كانوا يسمحون بأن نجتمع ، وهم قابضون على النواصي في كل امة إسلامية ، ومــا كانوا يسمحون بأن نتلاقى على مائدة الاسلام ، وهم يرون فيها انتهاء استغلالهم وذهاب استعمارهم ، فكان الطريق للخلاص أن يتحرك كل إقليم في موضعه ، حتى يخلع الربقة ، فإذا تخلص الجميع أمكن أن يتلاقوا على عزة وحرية وأن يتدبروا شؤونهم ودينهم الذي ارتضوا ، وأن يسمعوا صوت الحق يناديهم بندائه الخالد إلى يوم القيامة : « يا أيهــا الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا ، واذكروا نعمــة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم امة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، واولئك هم المفلحون، ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم » .

٣ — ولقــد كنا معشر المسلمين في غمرة ، حتى صرنا وقود الحروب نُؤكل فيها ولا نأكل ، وتستغل كل قوانا ولا ننتفع بشيء من امورنا ، وتستنزف كل

خيراتنا ، ولا ننـال منها إلا النزر اليسير الذي يجود به علينا المتحكمون فينا ، فأرادونا زرّاعاً وهم الحاصدون ، وأرادونا صنّاعاً وهم المثرون ، حملونا على ترك مبادىء ديننا مبدأ مبدأ ، ونزعوا من قلوبنا حب الجهاد ، وألقوا فيها الوهن وحب الدنيا الضئيلة التابعـة ، وذلك بما كانوا يبثونه بيننـــا ، وما يغرون به كبراءنا ، حتى صار أمر هـذه الامة سَدَدَاً بَدَدَاً ، وصارت القيادة فيها إلى الجهلاء بأمر دينهم .

وكانت تلك حالنا في حروبهم التي يشنها بعضهم على بعض ، غير أن الله أفاض علينا بنعمة الاعتزاز من بعد ، وأذهب عنا الاغترار بهؤلاء الذين كانوا يسوموننا الهوان ، ويذيقوننا عذاب الهون بما كسبنا وبما أهملنا . فإنه بعد الحرب العالمية الاولى أخذت عقول الشعوب تتنبه ، وعزائمها تتحرك ، وكانت مغالبة بينها وبين الغالبين من جهة اخرى ، وبينها وبين الذين أقامهم الغالبون ستاراً يحكمون الشعوب بأسمائهم ومن جهة اخرى : يتحكمون في الرقاب بسلطانهم الوهمي الذي ليس من الدين ، ولكن الشعوب إذا تحركت لا ترجع ، فلما جاءت الحرب الثانية وقادونا اليها وليس لنا فيها ناقة ولا جمل ، ولم تستطع الشعوب فكاكاً من حكمها لأن مقاليد الامور لم تكن بأيدي ممثليها ، ولكنها في هذه الجولة لم تكن كالاولى وهم فيها كانوا شراً مما كانوا ، فقد أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم في بقعة من أرض الإسلام ، ومزقوا أهلها كل ممزق ، وتركوهم يأكلهم العرى والجوع بلا مأوى يؤويهم ، ولا أرض يستقرون فيها ، فكان ذلك كالمبضع يقطع في جسم حي قد ذهب منه المخدر أو كالسكين تقطع في إنسان حي تكونت له إرادة وعزيمة ، فعلم المسلمون حينئذ أن هذا ابتداء وأنه لا بد من أن يقطع على اولئك السبيل حتى لا يصلوا إلى نهاية الطريق فإنها الموت المخبوء ، ثم عندئذ علموا أنه لم يعد للاستضعاف موضع في إرادتهم ، وأن من يريد الحياة يحيا ، ومع اليأس والقنوط الفناء ، وأن موتاً في سبيل الحق هو عين البقاء ، وأن حياة في الذل هي

عين الفناء ، فكيف وهو الفناء المؤكد بدرت بوادره ، وظهرت مظاهره ، ولقد تنبهوا فوجدوا قول الحق الخالد : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين في الأرض . قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها،فاولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فاولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفواً غفوراً ، ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة،ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيماً » .

٤ — وفي نهاية هذا المعترك الفاصل بين النوم واليقظة ، وبين الاستخذاء والاستعلاء نهضت الأقاليم الإسلامية ، فاستقل بعضها استقلالاً كاملاً ، واستقل بعضها استقلالاً نسبياً اختفت فيه يد الأجنبي ، وإن كان له عمل وراء الستار ، ولكن الشعوب لها إرادة ، وتريد الإسلام وعزته ، وتريد الاستقلال الكامل وحريته .

وإن هذا العصر هو العصر الذي تتجمع فيه الدول ، ويحس كل إقليم أنه مأكول إن لم يكن في جماعة من الدول، وأنه مغلوب على أمره إن لم يتجه مختاراً الى تجمع دولي ، وقد بدت التجمعات الدولية ، والأحلاف العسكرية التي يريد كل حلف فيها أن يكون المسيطر في الحروب ، والغالب عندما تشتعل النيران ، وتلاقت التجمعات في جمعين : شرق وغرب ، فهل لنا نحن المسلمين أن نتلاقى في تجمع روحي لا يبنى على الغلب وحب السلطان ، ولكن يبنى على الإيمان وطاعة الديان ؟!

إن هذا التجمع ليس أمراً ضد الفطرة كتلك التجمعات التي تبنىعلى مقاومة الفطرة ، ولكنه نداء الفطرة ، ونداء الحقيقة الخالدة التي نطق بها القرآن في قول الله تعالى : « **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً**

وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير »[١] .

٥ – إنه قد تكونت دول إسلامية تحكم شعوباً إسلامية ، وقطعت أصابع الأجنبي من بعضها ، واستقرت في بعضها ، ولكن قطعها لا يحتاج الى مجهود حربي ولا الى ثورة عنيفة ، وإنما يحتاج فقط الى تغليب المصلحة الحقيقية على المصلحة الوهمية ، والعقيدة الاسلامية على المطامع الأشعبية ، والنفس الحازمة الضابطة على النفس الأمّارة بالسوء التي يسيطر عليها الهوى ، يحتاج الى ضبط للأهواء ، ويحتاج الى اعتزاز بالاسلام وحده : « **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** » .

وإنه قد آن لنا أن نتجمع لأن الاسلام يدعو الى هذا التجمع ، ولأننا إن لم نجتمع بشعار الاسلام وحده ، وذهب كل إقليم الى تجمع لا يحمل شعار الاسلام تقع الحروب بين المسلمين ، ويقاتل المسلمون إخوانهم من المسلمين تحت ظل لواء غير لواء الاسلام ، ولم يكن ذلك أمراً يتوقع فقط ، ولكنه أمر ثابت قد وقع ، ففي الحرب العالمية الاولى قاتل كثيرون من المسلمين جنود الأتراك المسلمين ، ولم يكونوا في ظل اسلامي إذ يقاتلون ، بل كانوا يقاتلون في ظل أعداء الاسلام. والله يقول : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

٦ – إذن فلا بد من أن يجتمع المسلمون ولا يختلفوا ، وأن تتكون منهم امة واحدة ، كما قال تعالى : « **وإن هذه امتكم امة واحدة** » ، ولا نقصد بأن نكون امة واحدة أن تحكمنا حكومة واحدة ، فان ذلك لا يمكن أن يتحقق ، ولكن يمكن أن يتحقق منا تجمع واحد ، أو جامعة إسلامية واحدة ، على ما سنشير الى ذلك في موضعه .

وإن الامة الاسلامية تقوم الروابط فيها على وحدة الدين والعقيدة ، ووحدة المبادىء الخلقية ، والعبادات ، وكل يوم يمر يشعر المؤمن بالوحدة الاسلامية إن

---

(١) الحجرات / ١٤ .

أدى العبادات اليوميـــة على وجهها ، فتلك الوحدة في قلبه آناء الليل والنهار بالصلوات الخمس إذ يؤديها المسلمون جميعاً الى قبلة واحدة ، فاذا تصوّر المسلم عند أداء الصلاة أنه واحد من الوف الالوف يتجهون الى مثل اتجـــاهه ، ويولون وجوههم شطر بيت الله الحرام ، علم أين تكون مثابته ، وأين تكون جماعته . إنه عندئذ يدرك أنه لبنة في بناء مجتمع كبير يضم أقطاراً من الشرق والغرب ، ويقوم على الفضيلة والاتجاه الى الله تعـــالى . وإنك لترى ذلك المظهر السامي في الصوم ، وتراه في الحج أوضح إشراقاً وأعظم نوراً ، إن أدركت القـــلوب معنى العبادة .

٧ — وإن قيـــام الاجتماع الاسلامي على مبادىء الفضيلة والأخلاق هو أمثل الطرق لتكوين الجماعات الدولية ، ولا يعـــد الاجتماع العنصري أو الاقتصادي أمثل المجتمعات لتكوين الامم ، وذلك لأن الجماعة الواحدة لا تتكون منها امة إلا إذا اتحدت المشاعر والأهواء والمنازع النفسية ، ولا تتكون هـــذه المشاعر تحت سلطان تبادل المنافع فقط ، وذلك لأن تبادل المنافع يكون عند قيامها ، ويزول عند زوالها ، ولا تتحد النفوس في هـــذا الظل العارض الذي يتغير بتغير الأحوال والأزمان ، ولم يعرف أن امة تكونت من مجرد التبادل الاقتصادي ، أو الاشتراك في المنفعة المادية .

وإنـــه بالموازنة بين تكوين الامم بالعنصرية وتكوينها بالدين يتبين أن السير بالإنسانية في مدارج الرقي ، وقيام العلائق البشرية على اسس من المودة والفضيلة إنمـــا يكون تحت ظل الدين لا تحت ظل العنصرية ، لأن العنصرية تفرض دائماً تفضيل عنصر على عنصر ، وهي شكل من أشكال التجمع الحيواني ، إذ تجتمع فصيلة من الفصائل لتقاتل اخرى ، وتحتـــاز مكاناً تقيم فيه لتغالب الآخرين ، فليس التجمع الانساني على أساس العنصرية إلا بقية من بقايا الحيوانية المتناحرة في الانسان ، وإنا لنرى ذلك واضحاً في الامم التي تعـــامل الشعوب على أساس

ألوانها ، وليست فكرة الامم الملونة والامم البيضاء إلا صورة لتحكم العنصرية ، وبقية من بقايا الحيوانية المتناحرة ، بل هي أخص ظواهرها .

أمـا الاجتماع باسم الاسلام فهو اجتماع لا يقوم على المغالبة ، بل على الاخوة العامة ، والمودة الراحمة التي يحث عليها ذلك الدين القويم ،فهذا الاجتماع الاسلامي يكوّن امة تتحد فيها المشاعر نحو الفضيلة والمثل العليا التي تنزع بالروح الانساني نحو الملكوت الأعلى ، ويخضع فيها الانسان لخالق الأكوان وحده ، وعنـــدئذ يعلو ابن الانسان عن المغالبة إلا إذا اعتدى عليه ، فعندئذ يؤذن له في القتال لدفع الفساد وإقامة مصالح العباد ، ولقد قال تعالى : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ... ولولا دفع الله النــــاس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيَع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرنّ الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز » .

٨ ــ وإنه في الوحدة التي يكون أساسها الدين الإسلامي تكون العدالة الحقيقية التي لا تفرق بين جنس وجنس ، ولا لون ولون ، وإنما التفرقة في توزيع العدالة تكون في العنصرية ، وإن في أمريكا لعبرة لاولي الأبصار ، فبينا نجد الحريات للبيض مكفولة ، والرق قد الغى ، نجد ظلماً يقع على السود لا يقل عن ظلم الجاهلية الاولى ، وما دُوّن من حقوق لهم إنما هو خطوط مسطورة على قراطيس ليس لها في العمل مظهر يثبت وجودها .

والعلو في المجتمعات التي تقوم على الدين الإسلامي تربط بين آحادها مبادىء فاضلة تقوم على أساس فعل الخير والتقوى لا على أساس نيل الدم ، وتقوم على أساس احترام الكرامة الإنسانية التي هي حق مشترك لكل إنسان ،لا على أساس كرامة السلالة .

وإن قيام الجماعات على أُسس دينية يترتب عليه أن يقل التناحر بين أهل الأرض إذا أخذوا بمبادىء الأديان .

وإذا كان التاريخ يحكي تناحراً بين الناس باسم الأديان ، فليس ذلك ناشئاً عن الدين نفسه ، إنما هو ضلال الفهم ، فقد يتحول الدين في نفوس بعض الذين لا يدركون حقائقه إلى معنى يشبه الجنسية أو العنصرية ، وفي هذا الحال لا يكون التناحر منبعثاً من ذات الدين ولا من مبادئه ، بل من العنصرية التي لبست لبوس الدين ، والدين منها براء ، وقد يكون التناحر من خطأ الفهم للحقائق الدينية ، فيتحول في نفوس المنتحلين له إلى عصبية تشبه عصبية النسب ، ويختفي في النفس معنى الخير ، وسمو الفضيلة .

وليس هذا هو اجتماع أهل الإسلام ، إنما اجتماع أهل الإسلام الذي نطيع فيه القرآن هو الخاضع لقول الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

٩ — هذه حقائق مقررة تشير إلى معنى الاجتماع في الإسلام في جامعة إسلامية ، وإنه لا عصبية فيها ولا عنصرية ولا جنسية ولا إقليمية ، ولكن على أي شكل تكون الوحدة الجامعة اليوم ؟ أتكون على الشكل الأول في صدر الإسلام ، أم تكون على شكل جديد يلائم روح العصر مع تحقق معنى الوحدة على أكمل وجه ، على أننا إن تأثرنا بروح العصر ، ففي شكل الوحدة ، لا في جوهرها ، فلسنا ممن يخضعون أحكام الإسلام لروح العصر ، ولكن الإسلام أمرنا بالقيام بحقائق مقررة ، وترك لنا أساليب تحقيقها فنجتهد في تعرف أنجعها وأقربها توصيلاً لهذه الحقائق ، فمن روح العصر نستمد الطريق الموصل ، وما يمكن أن يكون عليه شكل الوحدة ، ولا نسوغ لأحد كائناً من كان أن يتحكم في أي حقيقة شرعية باسم روح العصر فحقائق الإسلام ثابتة مستقرة لا تقبل التغيير ولا التبديل .

١٠ — ويجب أن يُعلم علماً يقينياً كما أشرنا أن الوحدة التي نبتغيها لا تمس سلطان ذي سلطان يقوم بالحق والعدل في المسلمين ، ولا شكل الحكم في الأقاليم الإسلامية ، فلكل إقليم أسلوب حكمه ما دام يؤدي إلى إقامة الحق والعدل فيه ويحقق المعاني الإسلامية السامية وإنما معنى الجامعة الإسلامية أن نعتبر أنفسنا

مهما تناءت الديار مرتبطين بروابط وثيقة تمتد جذورها في أعماق أنفسنا وهي أحكام الإسلام، وشعائره وعبادته وعقائده، إذ هو دين الوحدة الجامعة الشاملة كما هو دين التوحيد الخالص من كل شرك أياً كان نوعه، وأياً كان مظهره.

ويتحقق معنى الوحدة في ثلاثة امور جامعة :

أولها : أن تتحد مشاعرنا جميعاً في الاحساس بأننا اخوة بحكم الاسلام، وأن الاخوة الاسلامية فوق الجنسية والعنصرية، وأن نتذكر أن أول حكم تكليفي نفذه النبي ﷺ بعد الهجرة هو الاخوة الاسلامية في نظام الاخاء الذي قام به، فقد آخى بين المهاجرين والأنصار، وآخى بين الأنصار بعضهم مع بعض، وآخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض،وذلك ليشعر الجميع بأن الاخوة الاسلامية هي التي تجمع، وغيرها يفرق، وإن أسباب هذه الاخوة قائمة، والعقائد والتكليفات وحدها كافية لذلك، ولقد قال **السيد جمال الدين الأفغاني** باعث النهضة الاسلامية في العصور الحديثة : «أما وعزة الحق وسر العدل لو ترك المسلمون أنفسهم بما هم عليه من عقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم لتعارفت أرواحهم، وائتلفت آحادهم، ولكن والأسفاه تخللهم المفسدون الذين يرون كل السعادة في لقب لا أمر فيه ولا نهي. هؤلاء هم الذين حولوا أوجه المسلمين عما ولاهم، وخرجوا على ملوكهم حتى تناكرت الوجوه وتباينت الرغائب».

الأمر الثاني : وحدة ثقافية ولغوية واجتماعية تجمع بين المشاعر والأحاسيس حتى يقرأ كل مسلم ما يقرؤه الآخر، ويحاربوا كل ما فيه هدم للإسلام ويتفقوا على ما فيه رفع له، وإعزاز للمسلمين، وأن يكون المجتمع الاسلامي قائماً على مبادىء الاسلام الصحيحة.

الأمر الثالث : ألا يكون من إقليم إسلامي حرب على إقليم آخر، أياً كانت أساليب هذه الحرب، سواء أكانت بالاقتصاد أم كانت بالسيف، فهي في كلا شكليها توهين لقوى الاسلام وإضعاف لشأنه، وقد امرنا بأن نصلح بين المسلمين إن تنازعت منهم طائفتان، وامرنا بأن يكون كل مسلم في حاجة أخيه المسلم،

فقد قـال ﷺ : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله ، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه .

هذا تمهيد وقد نتكلم من بعد على شكل هذه الوحدة الجامعة .

— ٢ —

١ — ذكرنا في مقالنا السابق أن **الوحدة الاسلامية** هي الغـاية التي يجب أن يطلبها كل مؤمن ، ومن لم يؤمن بأن المؤمنين امة واحدة فقد عـــاند نصوص القرآن ، وخالف حكمته وجانب دعوته ، ودخل في ضمن من يشاقون الله ورسوله والمؤمنين ، وقد قال تعالى : « **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا** » .

وإذا كنا قـد تفرقنا في الماضي ، فعلينا أن نتدارك أمرنا في الحاضر ، وإذا كانت العنصرية قد فرقتنا ، فالانضواء تحت لواء القرآن يجمعنـــا . وإذا كانت الطائفية التي نبذها الاسلام ، ونعاها على اليهود والنصارى من قبل قـد جعلت تفكيرنا الديني والسياسي لا يعدوها ، فالاتجاه صوب القرآن هو الذي يهدينا للتي هي أقوم ، وهو الذي يجذبنا نحو العزة والرفعة ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

٢ — ولئن تقصينا أسباب الافتراق لنتلافاها ونبعـــدها لنجدنّها في امور تتعلق بتلك العنصرية الجنسية ، والأهواء الفكرية ، فانها هي التي تقطع ما أمر الله تعالى بوصله ، وتفرق ما أوجب سبحانه وتعالى جمعه ، وتبـــدّد ما ألزمنا سبحانه وتعالى بحفظه وصيانته .

لقد قال النبي ﷺ : افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة ، وافترقت

النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق امتي على ثلاث وسبعين فرقة . ولقد قال بعض علماء السنة في هذا الخبر: « حديث افتراق الامة الى سبعين فرقة رواياته كثيرة يشد بعضها بعضاً ، بحيث لا تبقى ريبة في حاصل معناه » .

وسواء أكان العـــدد قد قصد به الكثرة غير المحدودة ، أم أنه يدل على الإحصاء فمن المؤكد أن الافتراق قد وقع ، ولم يكن خلافاً مجرداً في النظر ، بل صار افتراقاً في المنزع والفِكر ، والاحساس والشعور ، وقد أدى كل هذا إلى شقاق، حتى لقد صار المسلم ينظر إلى المسلم الذي يفارقه في المنزع الفكري نظرة الخصم المتربص لا المخالف الذي يتجه كلاهما لطلب الحقيقة في شرع الله تعالى ، وإن التعصب للفكرة المذهبية قد أضل صاحبه حتى صار يهمه نصرتها بدل أن ينصر لب الدين وأصل اليقين .

٣ — ولقد حفظ التاريخ من أثر ذلك في الماضي مـا قوض شمل الإسلام ، وجعل بأس المؤمنين بينهم شديداً ، حتى لقد وجدنا المذابح تقام بين فرقتين ، لأن كلتيهما تعتقد أن الاخرى على ضلال ، ولقد حدث والتتار غير المسلمين يدقون أسوار بغداد دقاً ويذبحون المسلمين في طريقهم ولا يلوون على شيء إلا هدموه إن كان الخلاف على أحده ، والمذابح على أشدها بين السنيين والشيعيين، حتى لقد ذكر المؤرخون في ذلك أقوالاً وأقاويل .

وما أشبه اولئك الذين يقاتلون في سبيل فكرة لهم في فهم الدين ليست من لبه ولا من حقيقته بابن آدم الذي قتل أخاه في سبيل قربان يتقرب به إلى الله تعالى ، كما حكى قصته القرآن الكريم ، إذ قال تعالى : « واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لاقتلنك. قال إنما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليك لاقتلك ، إني أخاف الله رب العالمين ، إني أُريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ، فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه ،

قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فاوارى سوأة أخي فأصبح من النادمين » .

وإذا كان التشبيه غير كامل فلأنه لم يوجد في المتنازعين من لم يبسط لسانه في شأن أخيه، ولم يرسل الله الينا مثل هذا الغراب ليجعلنا نشعر بالندامة على الفرقة والإيمان بأن السلامة في الاجتماع .

٤ — لقد كنا في الماضي نختلف بدوافع العنصرية ، أو بدوافع المنازع الفكرية ، أو بدوافع من رواسب خلقتها القرون الماضية السابقة على الإسلام ، أما الآن فإننا نختلف لأن الذين يريدوننا مختلفين يبعثون فينا أسباب الخلاف ، ولأننا نتخذ من غيرنا ولاية يتولاها ، ونصرة نبتغيها والقرآن الكريم ينادينا بصوت الخلود القوي : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون، ها أنتم اولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم ، إن الله عليم بذات الصدور ، إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ، إن الله بما يعملون محيط » (١) .

٥ — هذه إشارات إلى حقائق ثابتة كنا نقرأ عنها ، ولكن في رحلتنا إلى باكستان في الندوة الإسلامية العالمية التي دعت اليها جامعة بنجاب والتي انعقدت في لاهور ، رأينا رأي العين ما كنا نتخيله ولا نخاله في هذه الأيام حقيقة واقعة ، رأينا في أهل باكستان تقوى وصبراً وإيماناً واحتساباً للنية في كل شيء، رأيناهم دعاة إلى الإسلام في كل البقاع والأصقاع ، ورأينا فيهم شيوخاً يستسقى بهم عند الجدب ، ورأينا قلوباً تشرق بنور الحق ، واولئك هم الكثرة الكاثرة ، ولكن وجدنا مع قلة قد مُكّن لها بأسباب تتصل بالماضي ، تتكلم باسم الإسلام ، وتوهم الناس أنها تعلن حقائقه ، وما هي من الإسلام في شيء ، وإن لهم لأقوالاً

غريبة ، وأفكاراً عجيبة ، وأهواء لا تتسع لحق ، لقد رأينا منهم من يدعي لنفسه الاجتهاد في الإسلام ، ويذكر أن آيات المواريث قد انتهى حكمها ، وإذا قيل له إن للاجتهاد شروطاً أدناها أن يعرف العربية ويتقنها ، سخر من القائل ، واستهزأ به « الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون »[٢] .

ومنهم من يقول ان القرآن وحده هو الحجة ، والسنة ليست بحجة ، ويندفع وراء غيّه ، فيدّعي أن الصلاة التي يصليها المسلمون اليوم ليست هي المطلوبة ، وهكذا يستهزىء بما لا يعرف .

ومنهم من ينكر أن القرآن كتاب أحكام ، فليس فيه نُظم مقررة للاسرة .

ومنهم من يدّعي أن الناس جميعاً يدخلون الجنة لا فرق بين مسلم وغير مسلم ، ويقف مباهياً الناس قائلاً : حجتي قوله تعالى : « **ورحمتي وسعت كل شيء** » ، ونسي أن عقاب المذنب من الرحمة ، وأن قانون الرحمة لا يقتضي مساواة المسيء بالمذنب ، والعادل بالظالم ، فهل يستوي الأعمى والبصير ، وهل تستوي الظلمات والنور ، وهل يستوي الذين يعملون والذين لا يعملون ، وهل يستوي العامل والخامل ؟؟؟ إن الرحمة لا تسمح بهذه المساواة ، فكيف تكون من الرحمة وهي تناقضها ؟

٦ ــ وإن اولئك المنحرفين هم الذين يفرقون الجماعات الاسلامية ، فحيثما حللت أرضاً اسلامية ما شعرت إلا أنك بين أهلك وذويك ، حتى اننا لنحس بصلة الاخوة والألسنة تصعب التفاهم بيننا ، ولكن الأرواح تتفاهم ، وحواجز اللغة إن منعت فحفظ القرآن والحديث النبوي يجمع ويقرّب ، بل يوحد . وبينما يحس المؤمن باللقاء الروحي مع أخيه المؤمن ، نجد اولئك الذين اشربوا حب

---

(١) آل عمران / ١١٦ .
(٢) البقرة / ١٥ .

الفرنجة وتقليدهم قد باعدوا ، وتحس وأنت تخاطب أحدهم ولو كان يعرف العربية كأن هوة ساحقة تحاجز بينك وبينه فلا تلتقيان .

ولقد كان ضعف إيمان هؤلاء ، وقوة اقتناعهم بالاتصال بغير المسلمين وحسبانهم أن ذلك هو التقدم ، وأنه مسايرة العمران ، وأنه النجاة في صحراء الحياة ، وأنه المعبر الى العزة ، سبباً في أنهم لم يتطلعوا الى الرابطة التي تربطهم بأهل القبلة ، ولم يعرفوا أن الاسلام دعا الى الاخوة الاسلامية العامة في مثل قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة »، ومثل قول النبي ﷺ : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله) الى آخر ما روي من أحاديث وما يتلى من آيات ذكرنا بعضه في مقالنا السابق .

وإن هؤلاء وأشباههم هم الذين يقفون في سبيل الوحدة ، وهم في كل بلد إسلامي ، وإن كان ظهورهم على أشكال وألوان مختلفة ، فلهم طابع واحد مشترك ، أو فكر واحد مميز ، أو أمر واحد جامع ، ذلك أنهم يتبعون سياسة غير المسلمين ، وهي سياسة مفرقة غير جامعة ، لا تريد المسلمين قوة في الأرض دافعة أو مانعة ، ولا امة واحدة جامعة ، بل يريدونهم أوزاعاً وأشتاتاً متفرقين لكي لا يكونوا قوة للاسلام ، بل ليكونوا قوة لهم .

٧ — ولا شك أن أول طرائق الوحدة ألا يقف هؤلاء محاجزين ، وألا تكون في أيديهم مقاليد الحكم ، ولكن قد يكون من وراء ذلك فتنة في الأرض أو فساد كبير ، والفتن دائماً غير مأمونة العواقب ، فقد تؤدي الى غير الغاية ، وقد تعكس الأمر في النهاية . ولذلك ندع أمرهم ونتجه الى شعوبهم ، وهم في مغالبة فكرية معهم ، وكلٌ يحارب الآخر فكرياً بما في يده من قوة ، فعلماء الاسلام ومَن وراءهم الكثرة من العامة يحاجونهم بالقرآن وآياته البينات ، واولئك يحاجونهم بعلم الغرب وما فيه من إنكار للحقائق الاسلامية . وإذا أمحل بهم الدليل ، وسقطت من أيديهم الحجة قالوا : ليس في الاسلام رجال دين ، ليدعوا لأنفسهم علم ما لم يعلموا وصدق ما يقولون ، وليزيلوا من أمامهم من يقف

في وجوههم وكتاب الله في احدى يديه ، وفي الاخرى سنة رسول الله ﷺ .

٨ — ولا نريد أن نترك هذه الدعوى من غير أن نقف وقفة قصيرة عندها ، فقد سمعناها في مؤتمر لاهور من الحاضرين الذين كانوا يمثلون ذلك التفكير ، ونقلوها عن إمامهم المتشيع محمد إقبال . وفي الحق إن كلمة « **ليس في الاسلام رجال دين** » كلمة حق يراد بها باطل ، نعم ليس في الاسلام رجال كهنوت أقوالهم حجة من غير سند من النصوص ، ولا دليل مستمد من الوحي النبوي ، والهدى المحمدي ، وليس في الاسلام وساطة بين العبد والرب ، وان الدعاء يتجه الى الله تعالى من غير طريق أحد من البشر ، كما قال تعالى : « **ادعوني أستجب لكم** » وكما قال تعالى : « **وإذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون** »[1] . وليس في الاسلام توبة إلا لله تعالى الذي يغفر الذنوب وحده ، فلا يملك أحد من الناس غفرانها ، فهو سبحانه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، ولم يكن ذلك لرسول ، ولا لغيره ممن دونه الذين لم يصلوا الى منازل الرسالة او الى قريب منها .

هذا كله حق ، ولكن الباطل الذي يريده الذين يرددونها أنه ليس في الاسلام علماء قد تخصصوا في فقه الدين بلغوا رتبة الاستنباط فيه ، ومعرفة ما يخفى على العامة من أحكام لا تعرف إلا بالعلم بدقائق اللغة ، والعلم بالسنة ، وفقه الصحابة وأوجه الاستنباط المختلفة ، والعلم بالناسخ والمنسوخ ، وما أجمع عليه العلماء وما اختلفوا فيه وأوجه الاختلاف . لقد أنكر اولئك الذين يشككون في الحقائق الاسلامية ، ويُدخلون في الدين ما ليس منه ، وجود علماء على هذه الشاكلة لكي لا يقف أحد في سبيلهم كما نوّهنا . وذلك الإنكار مناف للحقائق التاريخية والنصوص الدينية ، فان الله سبحانه وتعالى يقول : « فلولا نفرَ من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم » . ولقد دعا

---

(١) البقرة / ١٨٦ .

النبي ﷺ لابن عباس أن يفقهه في الدين ، ولقد قال ﷺ : « نضر الله عبداً سمع مقالتنـــا فوعاها ، ونقلها كما وعاها ، فرُبَّ حامل فقه لا فقه له ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه » . فقد فرض عليه الصلاة والسلام أن النـــاس منهم الفقيه ، ومنهم من ليس بفقيه ، والفقهاء فيهم مراتب ، والناس في عهـد الصحابة والتابعين من بعدهم كان منهم المستفتي ، ومنهم المفتي ، ومنهم الفقيه المستنبط ، والعامي المتبع . ولقـــد قسم الشافعي العلم الى قسمين : علم عامة ، وهو اصول الدين وما علم منه بالضرورة ، وعلم خـــاصة وهو علم الاستنباط والاجتهاد وتعرف الأحكام من النصوص والبناء عليها ، وليس علم الاسلام بدعاً في ذلك ، فالقوانين الوضعية لا يعلم دقائقها النـاس جميعاً ، بل فيهم المتخصص المتعمق فيها ، وفيهم المدرك لها الفاهم لاصولها ، وفيهم من هو دون ذلك .

وبعد هذه الاستطرادة نعود الى الكلام في القواعد التي تقوم عليها الوحدة.

٩ – وإن الوحدة الحقيقية بلا شك هي الوحدة النفسية والفكرية والإحساس بالجامعة العامة التي تجمعنا كما أشرنا ، وهذه الوحدة توجب أن يعرف المسلمون بعضهم بعضاً ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قـــد خلق الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا كما قال تعالى : « يا أيهـا الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقـاكم » (١) فانه أولى بالتعارف أهل القبلة ، وهم يدينون بدين الوحدانية ودين الوحدة ودين الاجتماع ، وهم امة واحدة بحكم القرآن ، ولقد آخى النبي ﷺ بين سلمان الفارسي وبعض العرب ، وبين بلال الحبشي وعربي ، ليبين أن الاخوة الاسلامية فوق الاخوة الجنسية ، والاجتماع الإقليمي .

وقد كان المسلمون في الصدر الأول امة واحدة في الواقع كما كانوا امة واحدة بحكم الشرع وبحكم القرآن ، وهدى النبي ﷺ ، وكان النبي ﷺ يقول :

---

(١) الحجرات / ١٠ .

« **ليس منا من دعا الى عصبية** » وبيّن أن من دعا الىعصبية إقليمية أو جنسية أو نسبية فإنما يكب وجهه في النار . وقد تفاخر قوم أمام سلمان الفارسي بأنسابهم وهو صامت لا يتكلم ، حتى حركوه بالسؤال ، وقالوا له : ابن مَن أنت ؟ فقال : أنا ابن الاسلام ، فجمجموا وما تكلموا ، لأنه بيّن لهم النسب الذي يجب أن يتلاقى عنده أهل الإيمان ، فبلغت تلك الكلمة الحكيمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فبكى من فرط تأثره بصدقها ، وقال: **وأنا ابن الاسلام** وكررها ثلاثاً .

١٠ — ولم ينتثر عقد المسلمين إلا من وقت أن تحركت الشعوبية ، وأراد كل شعب أن يحيي أرومته ، ويعلن قوميته ، وكان ذلك في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، وأخذت تلك الحركات تنمو وتتسع وتزيد ، حتى قامت اللغات القديمة ، وتكونت الدول الاسلامية المختلفة ، وصار الارتباط بالخلافة الاسلامية الجامعة ذاهباً ضعيفاً ، وإسمياً لا حقيقياً ، وتفرق أمر المسلمين ، وأخذت تلك الدول يحارب بعضها بعضاً ، وأصبح الملوك يقودون شعوبهم إلى الحرب ، لا في لقاء الأعداء ، ولكن في ضرب الاخوة من أهل الاسلام ، ولم يجد **الصليبيون** في القرن السادس من يقاومهم ، فانقضوا على الأرض ، واقتطعوها ، ولم تقف في وجههم إلا آخر الدولة **السلجوقية** ، ثم تولى من بعدهم **صلاح الدين الأيوبي** وجمع شمل البلاد الاسلامية المتقاربة .

١١ — ولم تلبث الدولة التي جمعها أن تفرقت من بعدها ، وتقطعت أوصالها حتى انقضّ التيار كالصخرة من أعلى الصين إلى البلاد الاسلامية ، فتجمعت البلاد العربية المتقاربة ، وردّتهم ، وفلّت حدتهم ، وخضدت شوكتهم .

وهكذا استمر التاريخ في سيره نحو التفريق ، والاجتماع النسبي عند الشدة ، وما دمنا قد صرنا في وسط الكتل المتجمعة عند الشرق والغرب ، وكل كتلة تريدنا لها تبعاً ولا تريدنا جمعاً منفصلاً له كيانه ، وقد تبين من تاريخنا وديننا

وجوب اجتماعنا ، فلا بد أن نجتمع ، وإذا كان بعض أسباب التفريق ما ذكرنا ، فأول أسباب الاجتماع إزالة أسباب الافتراق، بعد العهد به ، وما جد في عهدنا ، ففي الماضي كانت حوزات الملوك هي تفرق الوحدة ، وفي الحاضر يفرق الوحدة هذه الحوزات إلى حد ما ، وتلك الآراء المنحرفة التي يلقننا إياها الغربيون ، واتبعها بعضنا ، وأكد التفرق في الحاضر جهل كل شعب إسلامي حال غيره من الشعوب الاسلامية .

١٢ — ولذا نرى أول خطوات الوحدة من الناحيــة العملية ينحصر في امور ثلاثة :

أولها : التوحيد الفكري والنفسي بين الشعوب الاسلامية في ظل هيئة علمية تجمع الفكر الاسلامي وتقف على دراسته في مـــاضيه ، وتعنى بتعرف الأحكام الشرعية لما يجد في شؤون الحياة ، والقرب ما بين الطوائف الاسلامية .

وثانيها : العمل على منع النزاع بين الأقاليم الاسلامية .

وثالثها : أن يعرف المسلمون أنفسهم ، وذلك بلغة جامعة بينهم ، هي لغة القرآن والسنة وهي العربية ، فإحياؤها إحياء للوحدة وتعميمها تعميم لها . والله في عون الجميع .

– ٣ –

١ – بيّنا في المقال السابق أثر الوحدة الثقافية في تكوين **الوحدة الاسلامية**، وقررنا أنه يجب أن تكون ثقافتنا إسلامية موحدة تتصل بمصادر الدين، وتتلاقى على مائدتها من غير تفرقة طائفية، ولا انحياز مذهبي، وأنه لا بد في تحقيق هذه الغاية، التي تعد أمثل الغايات وأقواها تأثيراً، من إنشاء معاهد تجمع في دراستها المذاهب الاسلامية كلها من غير تفرقة بين مذهب ومذهب، كما أنه لا بد في تكوينها من تلاقي أهل المذاهب جميعاً في صعيد واحد، لكي تزول النفرة القائمة، واعتبار المذاهب الاسلامية كلها تراثاً إسلامياً خالداً، نعنى جميعاً بفحصه والاقتباس منه.

٢ – والآن ننتقل إلى عنصر آخر من عناصر **الوحدة الاسلامية**، وهو التعارف الاسلامي: إن الاسلام دعا إلى التعارف المطلق بين بني الانسان، فأولى ثم أولى أن يتحقق التعارف بين أهله، وقد قال تعالى: « **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم** »[١].

ولقد عمل أعداء الاسلام في توسيع الهوة بين المسلمين، وتجهيل بعضهم لبعض، وإن علينا وقد استيقظنا من مراقدنا، أن نتخذ الأهبة، وأن نعلم أن وحدتنا في نقيض ما كان يعمل أعداؤنا، وإنه لمن العار علينا كل العار، أن

(١) الحجرات / ١٣.

نعرف بلدان اوروبا وأمريكا، وأماكن قوتها، ولا نعرف شيئاً عن بلاد الاسلام. فالمصري لا يعرف الباكستان ولا إيران ، ولا الأقاليم الاسلامية في الهند ، أو في الصين ، أو في روسيا ، أو في اوروبا ، فلا يعرف حالهم الدينية ، ولا حالهم الاجتماعية والاقتصادية ، ولا ينابيع الثروة في بلادهم ، ومصادر قوة الاسلام فيها .

وإن سبل التعارف الإسلامي ميسرة سهلة لمن يريدها ، ولمن يحتسب النية في سلوكها ، وإنا نحصرها في امور أربعة : أولها : المدارس ، وثانيها : تنظيم الرحلات ، وثالثها : الحج ، ورابعها وهو عمدتها : اللغة .

٣ — وإنه لتحقيق الأمر الأول يجب أن تكون كل المدارس الإسلامية مشتملة في مناهجها على تاريخ كل بلد إسلامي ، وأحواله الاجتماعية ، ونظم الحكم فيه ، واقتصاده ، وجغرافيته ، فيدرس ماضيه وحاضره ، يعلم ذلك الناشىء إجمالاً ، ويفصل له في معاهد عليا تدرس فيها الأقطار الإسلامية ، فأقسام الجغرافيا في كليات الآداب بالجامعات الإسلامية يجب أن يكون منها قسم للتعمق في دراسة جغرافية البلاد الإسلامية ، وأقسام التاريخ يجب أن يكون فيها قسم لدراسة تاريخ البلاد الإسلامية بلداً بلداً ، وأقسام اللغات يجب أن تعنى بدراسة اللغات في البلاد الإسلامية .

٤ — وإنه يجب تسهيل الرحلة إلى البلاد الإسلامية ، وبدل أن نذهب إلى أوروبا وأمريكا لنلهو ونلعب ونفسد ديننا ، ونحل عراه عروة عروة ، نذهب إلى البلاد الإسلامية ، وفيها المصطاف والمشتى ، وفيها الإيمان والتقوى ، فلا تكون رحلاتنا عبثاً لاهياً ، بل تكون إيماناً هادياً ، وإنه لتحقيق تلك الوسيلة من وسائل التعارف يجب أن تيسر المواصلات ، وتتكون من الأقاليم الإسلامية شبكة مواصلات في البر ، والبحر ، والسماء ، فالسيارات تتصل إن أمكن اتصالها ، والقاطرات تُوَصَّل إن أمكن وصلها ، والجاريات في البحار تتنقل

بالموانىء الإسلامية ، حاملة أهل الحق ليتلاقوا على نور الله تعالى ، والطائرات تقطع أجواء الفضاء ، ليصل بين أهل الوحي الذين يلتمسون النور من السماء .

٥ — **والحج** سبيل رسمه رب العالمين ومنزل القرآن لنتعارف ونتحاب على مائدة الرحمن الروحية ، وقد كان المسلمون الأولون يتخذون منه سبيلاً للتعارف والدراسات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكان هذا اقتداء بالنبي ﷺ وأصحابه والأئمة الراشدين .

فالنبي ﷺ ألقى خطبة الوداع التي استعرض فيها خلاصة دقيقة للأحكام الإسلامية في عرفة ، والأئمة الراشدون كانوا يتولون بأنفسهم رياسة موسم الحج ، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطـــاب يتخذه طريقاً لتعرف أحوال المسلمين ، وأحوال الولاة، ويلتقي بجميع ولاة الأقاليم فيه،ويتبادل معهم الرأي والشورى في شئون المسلمين ، واتخاذ التوصيات اللازمة لإدارة دفة الحكم في الأقاليم عامة ، وفي كل إقليم خاصة .

وعلماء الحديث كانوا ينتهزون فرصة الحج ليتبادلوا الرواية ، والتقاء التلاميذ بشيوخهم ، وأخذ الأقران بعضهم عن بعض ، والفقهاء يتلاقون في موسم الحج ، ويتذاكرون مسائل الفقه ، وكل فقيه يعرض على صاحبه كثيراً مما يسأل عنه في مدرسته ، ومـا ينتهي اليه ، فيلتقي أبو حنيفة بمالك ، ويتذاكرون ، ويقول **ابو حنيفة في مالك** : ما رأيت أسرع منه بجواب صحيح ، ويقول **مالك في ابي حنيفة** : إنه لفقيه، ويلتقي **ابو حنيفة بالاوزاعي** ، ويتذاكرون، ويلتقي **ابو حنيفة بالامام محمد الباقر** ، وابنه **الامام جعفر الصادق** ، ويلتقي الإمام أحمد بالإمام الشافعي .

وهكذا كان **الحج** في الماضي سبيل التعارف الإسلامي ، وإنه يجب علينا أن نعود به إلى ما كان عليه السلف الصالح ، فنجمع فيه بين العبادة والنسك ، وبين

المصلحة العامة للمسلمين، وليتحقق قوله تعالى : « ليشهدوا منافع لهم، ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام »[١] .

وإن تنظيم الحج بحيث يكون سبيلاً من سبل التعارف يقتضي عملاً من الحكومة الإسلامية القائمة على سدانة البيت الحرام والمسجد النبوي، فان عليها أن تتعرف بالعلماء الذين يقومون بفريضة الحج، وتقيم ندوات علمية بينهم، فالفقهاء يجتمعون في ندوات تتدارس الفقه ، والاقتصاديون يجتمعون في ندوة تتدارس الإقتصاد الإسلامي ، والسبيل إلى نموه ، وكذلك المهندسون والأطباء ، وبذلك يشهد المسلمون منافع لهم وينفذونها .

اللغة العربية :

٦ — وإنه لا يمكن أن يتحقق تعارف حقيقي بين المسلمين إلا إذا وجدت لغة جامعة ، بحيث ينزل المسلم في أي إقليم إسلامي ، فلا يتعذر عليه الخطاب ، ولا يحتاج الى مترجم . ولا نقصد بذلك محو اللغات القومية التي انبعثت مع الشعوبية في القرون الخوالي ، حتى لا تتحرك العصبيات الإقليمية التي يحاول أعداء الإسلام محاربة الوحدة بتأجيجها ، إنما نقصد أن يتعلم المسلم المثقف بجوار لغة بلاده القومية لغة إسلامية هي الجامعة بين المسلمين . وإننا نرى الشباب المثقف في البلاد الإسلامية يتعلم مع لغة قومه لغتين اوروبيتين أو أكثر ، فلو قلنا إن على المسلم المثقف أن يستبدل بإحدى هاتين اللغتين لغة تجمع بينه وبين إخوانه المسلمين ، ويستطيع التخاطب بها معهم ، لا نكون قد قلنا شططاً ، ولا نكون قد اعتدينا على قوميته . إننا ننزل في أي إقليم إسلامي فنجد من يستطيع التكلم بالانجليزية ، ويتحدث بها مباهياً مفاخراً بها ، بل متعصباً لها ، ولا نريد أن نلغي هذه اللغة بالنسبة لهؤلاء المتعصبين لها ، بل نقول لهم تعلموا معها لغة

(١) الحج / ٢٨ .

تمكن إخوانكم المسلمين من أن يخاطبوكم . أفليس من العار أن يلتقي المسلم المغربي بالمسلم الهندي فلا يستطيع أحدهما أن يخاطب الآخر إلا إذا توسّط بينهما اللسان الانجليزي ؟ أوليس غريباً أن يدعو ربه باللغة العربية ، ويخاطب أخاه المسلم بالانجليزية ؟

إن وجود لغة جامعة أمر لا بد منه، وأي اللغات تكون هي اللغة المختارة؟ إن البداهة تقول إنها العربية ، ولسنا ندعو علم الله اليها تعصباً للعرب ، ولكن ندعو اليها لأنها لغة القرآن ، ولغة السنة ، ولغة العبادة الإسلامية . فهل من المسلمين من يصلي بغير قراءة الفاتحة ؟ وهل من المسلمين من يكبّر بغير اللغة العربية ، ومن يتلو القرآن متعبداً بتلاوته بغير العربية ؟!!

لقد أوجب **الامام الشافعي** على كل مسلم أن يعرف قدراً من العربية يصحح به أمر دينه ، وبنى ذلك على نزول القرآن بلغة العرب ، وإن ذلك القول يتفق مع المعاني الإسلامية ، لأنه لا يسوغ لشخص أن يقرأ الفاتحة ويتعبد بما اشتملت عليه ، من غير أن يعرف معناها ؟ وكيف يقول في ابتداء صلاته وحركاتها **« الله أكبر »** من غير أن يعرف معناها ؟ وكيف يسوغ لخطيب يخطب على المنبر باللغة العربية لمن لا يفهمونها ؟

لذلك نجد أن اللغة العربية هي اللغة التي تجمع شمل المسلمين ، ولسنا نقول ذلك تعصباً للغة العربية كما أشرنا ، بل تعصباً للاسلام، لأن العربية لغة الإسلام، ومن لا يفهمها لا يفهم الإسلام .

وإن اللغة العربية ليست هي لغة العبادة الإسلامية ولا القرآن والسنة فقط، بل هي لغة التراث الإسلامي كله ، فالفقهاء على شتى مناهجهم قد دوّنوا آراءهم باللغة العربية ، وكذلك علماء الكلام والتصوف والتفسير ، وإن ترك اللغة العربية ترك لكنوز الإسلام الفكرية، وكيف يسوغ لنا أن نترك علوم عبدالقاهر

الجرجاني والأصفهاني والغزالي والرازي والرضي والجصاص ، وغيرهم من كبار علماء المسلمين في الشرق والغرب ؟

نعم إن بعض آثار العلماء كان بغير اللغة العربية ،ولكنه نادر بالنسبة للمدوّن باللغة العربية .

٧ – وإن هذا التعارف الإسلامي الذي ذكرنا بعض أسبابه ، يغذيه وينميه التقريب الثقافي الذي ذكرناه في مقالنا السابق ، وإن العناصر كلها متضافرة يقوي بعضها بعضاً . ولننتقل الى العنصر الأخير ، وهو السياسي .

الوحدة السياسية والاقتصادية :

٨ – إن هذا العنصر ثمرة لمعاني الدين ، وثمرة للعنصرين السابقين ، وإنا نتصدى له من غير أن نتعرض للسياسة الإقليمية ، لأنه حيث تكلم المتكلم فيها تحركت شكوك ، وفي ثغرة الشكوك يجد العدو الباب الذي يؤرّث منه العداوة بيننا .

ولكن مع هذا لا بد من الكلام في الوحدة والسياسة . ولا نوغل في السبيل، بل نكتفي بأن نقرر بأنه يجب أن يكون للمسلمين وحدة سياسية ووحدة اقتصادية ، وأن يتكون من المسلمين كتلة متحدة كالجسد الواحد ، ويتحقق معنى قوله ﷺ : « **مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر** » ، وقوله ﷺ : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا** » .

وقد يسأل سائل : على أي شكل تكون الوحدة السياسية ؟ وقبل الإجابة عن هذا السؤال نقرر ما ذكره القرآن والسنة بالنسبة للروابط التي تربط المسلمين بعضهم ببعض ، وهي واجبات متفق عليها بين المسلمين .

٩ – وأول هذه الواجبات أن نعمل على أن تكون ولاية أهل الإيمان للمؤمنين ، فلا نتولى أعداء الإسلام ، ولا نجعل لهم ولاية قائمة على المسلمين ، أو

أي بقعــة من بقاعهم ، فان الله تعالى يقرر أنه لا يصح للمؤمن أن يمنح ولايته لأعداء المسلمين ، فقد قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين ، إنمـا ينهاكم الله عن الذين قـاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون »[1] .

فـلا يصح لإقليم اسلامي أن يوالي من أخرجوا المسلمين من ديارهم ، أو أخرجوا طائفـة منهم من ديارهم ، ولا الذين ظاهروا وعاونوا على إخراجهم ، ولا الذين يضطهدون المسلمين ، ويريدونهم مغنماً يغنمونه ، ويريدون أن تكون أرضهم مستراداً لجيوشهم ينقضون منها على أعـدائهم ، لتكون أرض الإسلام طعمة للنيران .

١٠ ــ وثاني هذه الواجبات أن يمتنع كل رئيس لإقليم اسلامي ، أو ملك من ملوك الإسلام ، أن يجعل الثقـة الذي يثق به في رسم سياسته غير مسلم ، فان ذلك منهى عنه بنص القرآن الكريم ، فقد قال تعالى : « يا أيهـا الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودّوا ما عنتّم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ، قد بيّنـا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ، ها أنتم اولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنّا ، وإذا خلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم إنه عليم بذات الصدور ، إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ، إن الله بما يعملون محيط »[2] .

١١ ــ وثالث هـذه الواجبات أن المسلمين مجتمعين عليهم بمقتضى الاخوة الإنسانية العـامة التي أثبتها الإسلام أن يفضوا النزاع الذي يقع بينهم بأنفسهم ،

---

(١) الممتحنة / ٨ .
(٢) آل عمران / ١١٨ .

وألا يتركوا فئة منهم تبغي على الاخرى ، فقد قال تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » (١) . ويقول سبحانه في آية اخرى : « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم إن كنتم مؤمنين » (٢) .

وإن هذا بلا شك يوجب أن يكون المسلمون امة واحدة كما قال تعالى : « وإن هذه امتكم امة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (٣) . وأنه يجب أن تتكون من بين المسلمين جماعة تمثلهم ، وتحل المشاكل التي تثور بينهم ، وتقضي بالحق في كل ما ينجم بين الجماعات الإسلامية ، ولا يترك القوي يلتهم الضعيف .

١٢ ـــ والواجب الرابع : أن المسلمين جميعاً عليهم أن يعتبروا الاعتداء على أي إقليم إسلامي اعتداء على المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وأن كل شبر في أرض إسلامية لكل مسلم فيه حق يوجب عليه أن يدافع عنه ، فمن اعتدى على إقليم إسلامي فقد اعتدى على المسلمين أجمعين ، ومن أخذ شبراً من إقليم فقد انتقص من أرض المسلمين جميعاً .

ولقد قاتل النبي ﷺ الرومان لأنهم قتلوا بعض الذين دخلوا في الإسلام من المسلمين ، ولقد قال النبي ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه » وإن هذا هو مقتضى الولاية التي تربط المسلمين بعضهم ببعض، وإن القرآن قد صرح بوجوب نصرة أي جماعة مؤمنة تستنصر عامة المسلمين ، ولقد قال تعالى : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا اولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم

---

(١) الحجرات / ٩ . (٢) الأنفال / ٨ . (٣) الأنبياء / ٩٢ .

يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر »[١] .

١٣ — والواجب الخامس على المسلمين: أن يعملوا على منع إذلال المسلمين، فيجب على المؤمنين أن يقاتلوا الذين يذلون بعض المؤمنين ويستضعفونهم، حتى يخرجوهم من ربقة الذل إلى الحرية ، ليكونوا مع المؤمنين قوة ، ولتكون كلمة الله هي العليا ، وليمنع المسلمون من أن يفتنوا في دينهم الذي ارتضوا ، ولقد قال تعالى : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً ، واجعل لنا من لدنك نصيراً »[٢] .

وإن هذا الواجب يتقاضى كل إقليم من أقاليم الإسلام أن يتضافر مع غيره لإخراج الظالمين من أي أرض من أراضي الإسلام، إذ أنهم يسومون أهلها الخسف والهوان والذل ، ويفرضون عليهم الطغيان ، وإنا إن لم نفعل لا نكون آخذين بمبادىء الإسلام ، ولا نكون امة واحدة ، ولا مطيعين للقرآن .

١٤ — هذه واجبات يجب أن تتحقق ، لأنها حكم الديان ، نطق بها القرآن ، وأي شكل من الأشكال تتحقق فيه هذه المعاني ندعو اليه ، وإنا ندعو إلى الحد الأدنى ، ولا ندعو الى الحد الأعلى ، فلا ندعو الى تكوين دولة إسلامية ، لأن الأقاليم الإسلامية في بقاع الأرض ليست متجاورة متلاصقة ، ولا توجد حاضرة تصلح قطباً تدور عليه أحكام الدولة ، ولأن كل إقليم له طابعه الذي يمتاز به ، ويحتاج الى أحكام ونظم مناسبة ، وفوق ذلك لا يصح أن ندعو إلى دولة واحدة ، حتى لا ينزعج أحد، فلا يخشى ملك على حوزته، ولا رئيس على صولته، وحتى لا يجد الأعداء منفذاً ينفذونه ، فتموت الوحدة في مهدها .

---

(١) الأنفال / ٧٢ . (٢) النساء / ٧٥ .

ولذا نرى أن تكون الوحدة في شكل جامعة إسلامية ، أو كومنلوث إسلامي .

وسواء أكان هذا أم كان ذاك ، فإنه يتحقق في هذه الوحدة اتحاد السياسة الخارجية في كل الأقاليم الاسلامية ، بحيث يوالي كل إقليم إسلامي من يوالي المسلمين وبحيث يعتبر الاعتداء على أي دولة إسلامية اعتداء على الامة الإسلامية كلها ، كما أنه يجب أن تحل المشاكل التي تقع بين الأقاليم الإسلامية بعمل المسلمين ، ويجب أن تقاطع كل دولة تعتدي على إقليم إسلامي أو تحاول الاعتداء عليه .

وإنه يجب أن تكون أحكام الجامعة الإسلامية أو ما يشبهها في دائرة المبادىء الخمسة التي قررها الإسلام ، وهي التي تعتبر ثابتة في هذا الدين بالضرورة ، وتكون قرارات هذه الجامعة أو ما يكون على شكلها نظاماً يتبع ولا يكون أقوالاً تردد ، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه .

اقتصاد اسلامي :

١٥ — ولا يدعم الوحدة إلا **اقتصاد اسلامي** ، لأن قوى الامم في هذه الحياة تقوم على الاقتصاد ، والعالم الآن يُسيّره الاقتصاد ، فهو الذي يبعث الحروب ، إذ الحروب الكثيرة الآن ليست إلا نزاعاً على ينابيع الثروة ، فحيث كانت الينابيع اشرأبت الأعناق ، وتحركت المطامع ، وكان التناحر على الوصول إليها ، أو الإستحفاظ عليها ، ولقد صارت ينابيع الثروة التي في أرض المسلمين وملكهم موضع تنافس أعدائهم ، يلقون إليهم بفتاتها المتساقط ، ويجعلون من المسلمين آلات الاستغلال ، فهم مسخرون ، والنتائج لغيرهم ، وما يبقونهم إلا لهذه السخرة .

ولا يرفع عنا ذلك النير الثقيل إلا التعاون الاقتصادي بين الأقاليم الإسلامية ،

وإني لا أستطيع أن أرسم منهجاً اقتصادياً ، لأني لست من أهل الخبرة في ذلك ، ولكني أضع الرغبات الآتية :

أولا : نعمل على استغلال الثروة الإسلامية مجتمعين لا متفرقين ، فأهل الخبرة الذين يدرسون ويفحصون يكونون من المسلمين ، وإن لم يكن منهم من يستطيع وأريد الإستعانة بأهل خبرة من غيرهم فمن الدول التي لم تعرف بالطمع في ينابيع الثروة الإسلامية ، وليست عندها الطاقة للسيطرة عليها .

ثانيا : تكون الشركات الاستغلالية ،سواء أكانت تجارية أم كانت صناعية برؤوس أموال إسلامية ، لأن الأجانب لا يريدوننا إلا مسخرين ، ولا يلبثون إلا قليلاً ، حتى يتخذوا أموالهم سبيلاً للتحكم فينا ، كذلك فعلوا في الماضي ، ويريدون أن يعيدوه في الحاضر .

ثالثا : يجب أن يكون هناك ارتباط نقدي بين الأقاليم الإسلامية بحيث يسهل التعامل ، ولا يمحى النقد الإقليمي ، بل يكون لكل بلد نقده ، ولكن يكون هناك نقد جامع تنسب اليه النقود الإقليمية بمقاديرها ، وتكون لذلك مصارف ، لا يكون عملها القرض بفائدة ، بل يكون عملها تسهيل التعامل بين المسلمين .

رابعا : يجب أن تزول كل الحاجزات الجمركية بين الأقاليم الإسلامية ، فإنها تكون إتاوات ظالمة ، تعوق التعاون ، وتقطع الوحدة وتمزقها .

خامسا : يكون للأقاليم الإسلامية حق الأولوية في التعامل ،فلا تجلب بضاعة وفي أحد الأقاليم الإسلامية ما يغني عنها ، ولو كانت دونها ، ولا تصدر بضاعة يحتاج اليها إقليم إسلامي .

سادسا : يجب أن يكون باب الهجرة مفتوحاً بين كل البلاد الإسلامية لتعمر

كل أراضيها،وتستغل خيراتها، فإن بعض الأقاليم الإسلامية قد ازدحم بالسكان، حتى بلغ حد الكظة، وبعضها أرضه لا تجد من ينتفع بها ، وإذا فتح باب الهجرة وأنس كل مسلم بأخيه المسلم في أي بقعة من أراضي الإسلام قامت الوحـــدة الاقتصادية،وانتفع المسلمون بكل ما عندهم من ينابيع الثروة **زراعية**،**وصناعية ومعدنية** ، **وانسانية**، وبذلك يعمرون أرضهم، ويعم الخير، ونجيب قوله تعالى: « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » [1] .

---

(١) المائدة / ٢ .

وحدة المسلمين

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ علي الخفيف
استاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول (*)

لقد ألّف الإسلام حين ظهر بين قلوب من اتبعوه واتخذوه ديناً لهم، فجعل منهم جماعة متآلفة يعاون بعضهم بعضاً وينصره ويؤازره ، حتى كان لهم من ذلك يوم ظهروا بمكة وهم قلة مستضعفة، منعة حفظتهم من شرور أعدائهم وقوة أظهرتهم وردت عنهم كيد خصمائهم ، ولولا ذلك لقضي عليهم في مهدهم وانتهى أمرهم في أول عهدهم .

ثم بدا ذلك التآلف بينهم بعد هجرتهم إلى المدينة المنورة أجلى مظهراً وأوسع مجالاً وأبعد أثراً ، وأشد قوة ، بما عقد بين المهاجرين والأنصار من الاخوة والولاء والمعاونة في السراء والضراء والمشاركة في الأموال والمناصرة في القتال ، والتعاون على النهوض والظهور والعمل لنشر دعوة الإسلام ، والوصول إلى ذلك الغرض السامي الذي دعاهم اليه دينهم الجديد ، وهداهم إلى صراطه رسولهم الصادق الأمين .

وطبيعي أن يؤلف الإسلام بين أتباعه فيجعل منهم أمة قوية متحدة متماسكة

(*) فضيلة الاستاذ الشيخ علي الخفيف أحد الأعضاء المؤسسين لجماعة التقريب .

إذا ما تمكن من قلوبهم واستولى على مشاعرهم وسيطر على أفكارهم ، وذلك بسبب ما يدعوهم اليه من وحدة الفكر وسمو الغرض، والسعي إلى تحقيق الغاية المنشودة التي لأجلها جاء ولتحقيقها شرع ، ومـا لهذا الدين من الأثر البالغ في العواطف والمشاعر والأفكار .

إن أية فكرة تبدو فيعتنقها من يستصوبها لا تلبث أن تصير جامعة بين أنصارها تربطهم برباطها ، وتجمعهم بجامعتها فيعرفون بها ، ويتعاونون في سبيل نصرتها والدفاع عنها ، والدعوة اليها ، فمـا بالك برابطة ينشئها دين قيم يدعو إلى الإيمان بإله واحد ، والتوجه الى جهة واحـدة ، والسعي الى تحقيق غرض سام واحد ، يتطلب تحقيقه تعاون من يبتغيه ، ومؤازرة بعضهم بعضاً ، ووقوفهم أمام معارضيهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

دعا الإسلام إلى الوحدة لأنها طبيعته وركنه الذي تقوم عليه دعوته الدينية العامة الموجهة الى الناس أجمعين . ولقـد استجاب لها المسلمون في أول عهدهم فأكسبتهم قوة وعزة وغلبة عزّت بها الدعوة الدينية فانتشرت وانتصرت وصدت من عارضها ، فتفتحت أمامها الطرق ، واتسع لها الافق ، وعمت بلاد من كان يعارضها ويدفعها ويقف في طريقها بما كان له من قوة ومال وجاه ورجال .

عني الإسلام كثيراً بتقوية تلك الوحـدة ، وإحكام تلك الرابطة حتى جعلها اخوّة بين المسلمين تنمحي فيها الفوارق ، وتختفي فيها الطبقات ، ويتساوى فيها جميع الأفراد في منازلهم وحقوقهم وواجباتهم ، كما يتساوى الاخوة في ذلك من الاسرة الواحدة .

أراد الإسلام أن يحمل لهـذه الوحدة وتلك الرابطة ما لرابطة الاخوة من القوة والمكانـة والحرص على صيانتها ، والبعد بها عن أن تتعرض لمعاول الهدم والتفريق وأسباب الخصومة والنزاع ، فنزل قوله تعالى في سورة الحجرات : « إنما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله » بياناً لمنزلة هذه الرابطة

وإيجاباً لصيانتها بالإصلاح بين أفرادها إذا ما اشتجر بينهم خلاف ، أو عصفت فيهم ريح فرقة ، وليس أدل على مكانتها من أن يعدها الله نعمة يمتن بها عليهم ، ويدعوهم إلى الحرص عليها ، ويحذرهم من الفرقة بعد اعتصامهم بها ، إذ يقول في سورة آل عمران : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » وإذ يقول فيها أيضاً: « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم » .

لم يكتف الرسول في بيان حقيقة تلك الرابطة ومـــا تستلزمه من حقوق وواجبات بما جاء به الكتاب العزيز من إجمال ، بل فصل فيها القول فأشار إلى أنها مساواة في الحقوق ، ومساواة في المنزلة لا تعرف فيها السيطرة ولا سيادة الطبقات، فقال :« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره وكونوا عباد الله إخوانا » وقال : « لا يبيع أحدكم على بيع أخيه ولا يخطب على خطبته حتى يذر » وكان عليه الصلاة والسلام لا يكاد يذكر حقاً لمسلم على مسلم أو يوصي مسلماً بمسلم إلا جعل ذلك أثراً من آثار اخوتها التي أضفاها الإسلام عليها .

تلك روح تظهر أن وحدة المسلمين وتآخيهم نتيجة حتمية لاعتناق هذا الدين على وجهه الصحيح ، وأن تلك الوحدة لا تتم إلا بزوال الفوارق بينهم من ناحية الوطن والجنس والسلطان ، فلا يكون للمسلمين إلا وطن واحد هي الأرض التي تقلهم وتضمهم مهما اتسعت أنحاؤها ، وتعددت جهاتها ، وتباعدت أقطارها ، ثم لا يكون لهم نسب ينتسبون اليه سوى الإسلام ، ولا جنسية تجمعهم إلا جنسية الإيمان ، ولا سلطان يحكمهم سوى القرآن تقوم عليهم بسلطانه حكومة تنفذ فيهم أحكامه ، وترفع فيهم أعلامـه ، وتهذبهم بأخلاقه ، وتهديهم بإرشاده ، وتزكيهم بتعاليمه ، وتربيهم على مبادئه .

إن رابطة الوطن على ما لها من القوة والسلطان الآن يجب أن تقوم على أن الوطن وطن واحد بالنسبة إلى جميع المسلمين ، فالإسلام لا يفرق بين أوطانه ،

ولا يجعل لكل جماعة من جماعاته وطناً تختص به وتتعصب له وتدفع عنه دون غيره ، فليس للوطن في واقع الأمر حدود إلا ما يجعله أهله حداً له وغاية ينتهي اليها ، فكثيراً ما تضيق الأوطان وتتسع تبعاً لرغبات ساكنيها ونتيجة لبسط سلطانهم وانقباضه ، والوطن كما يصح ألا يجاوز السكن يصح أن يتسع حتى يعم القرية أو المدينة ، كما يصح أن يتجاوز ذلك إلى بعض المزارع والقرى المجاورة ، وأن يمتد الى أكثر من ذلك امتداداً لا ينتهي إلا الى الحدود التي يصطلح عليها. لهذا كانت فكرة الإسلام في الوطن وفي تحديده بالحدود التي ينتهي عندها سلطان الإسلام فكرة مستقيمة لا يجافيها الواقع ولا المنطق ، فبها يتسع ، وفي سعته قوته ومنعته وعظمته ووفرة ثروته ، وقدرته على دفع العدوان ، ورد الأطماع ، ومحق الطغيان ، وما عهدنا بما فعلته روسيا في الحرب الأخيرة ببعيد، فقد كانت سعة وطنها أول عامل في انتصارها في هذه الحرب ، كما كانت سبب انتصارها يوم غزاها نابليون منذ قرن أو يزيد ، وبها تقوى الجامعة وتشتد الرابطة لقيامها عندئذ على عدة روابط تعاضد هذه الرابطة مثل رابطة الدين ورابطة الثقافة ورابطة الشريعة ورابطة الحكومة والسلطان ، وإذا انحصر الوطن وضاق ففي ذلك ضعفه وضآلته وسبب توجه الأطماع اليه والسيطرة عليه.

على أن فكرة الجامعة الوطنية في ذاتها لا تصلح في جميع الأحوال لتكوين امة متحدة متآلفة ، فقد كان العرب قبل الإسلام يستوطنون موطناً واحداً هو جزيرة العرب التي حبتها الطبيعة بحدود وفواصل طبيعية تفصلها عن غيرها من البلاد ، ثم لم يؤلف بينهم هذا الوطن ، بل كانوا على الرغم من تجاورهم ووحدة جنسيتهم قبائل متعادية متباغضة ، تكثر بينهم المنازعات والمناحرات حتى أصبحوا فريسة للحروب والثورات والفتن ، وكذلك كانت يثرب بلداً واحداً عجز عن أن يجعل من أهله وسكانه — الأوس والخزرج واليهود — جماعة مؤتلفة متحابة ، بل ظلوا حياتهم متباغضين متخاذلين متقاتلين ، حتى كانت لهم في العرب أيام حروب معروفة أشهرها يوم بعاث ، ثم ما زال ذلك أمرهم حتى

وحّدهم الإسلام ، فجعل منهم جماعة متحابة متآخية كان لهـا السيطرة على جميع بلاد العرب .

ولكن الذي أتاح لهذه الفكرة الوطنية تلك القوة ، هو مـا صادفته من ظروف جعلتها تحتل المكان الأول في الوجود والاجتماع والسياسة ، ومن هذه الظروف حادث الثورة الفرنسية ، وما تقرر فيه من الحقوق الوطنية ، والأماني القومية ، من حرية الأوطان واستقلالها ، وأن الملوك والامراء وجـدوا فيها مأربهم في تحقيق مـا جبلوا عليه من حب التسلط والقهر ، فاتخذت وسيلة لتسلط حكومة على اخرى أو لاستبقاء قطر في نطاق قطر آخر لمـا تتمتع به هذه الفكرة من قبولها للانبساط والانكماش تبعاً لبسط السلطان وانكماشه .

ومن هـذا يظهر أنه كلما اتخذت وسيلة الى الجمع والتوحيد والقومية اتخذت كذلك في بعض الأحوال سبيلاً الى الطغيان والتسلط وضم بقاع الى بقاع حتى أصبحت تلك الفكرة تابعـة في بقائها ووجودها للغرض والهوى لا للأرض وأوضاعها ، وكان من أثر ذلك أن آل الأمر في بعض الجهات الى تجزئة جماعة من الناس تربطها صلات اللغة والجنس والدين الى دول متفرقات تعددت بتعدد مواطنها التي تحددت بحدود الهوى والغرض ، كما في كثير من البلاد الإسلامية وعلى كل حال فقد صار لهذه الفكرة مظهر خلاب خادع بما ظفرت به من تأييد أنصارها وناشريها تأييداً تم لها به الانتشار والانتقال من الغرب والشرق وقضائها على غيرها من روابط اللغة والدين والجنس ، وساعد على ذلك أن وجـد فيها كثير من امراء المسلمين طلبتهم في الاعتزال والاستقلال والتملك ، فآمنوا بهـا واتخذوها مطية للوصول الى أغراضهم ، وساعدهم على ذلك ما أصاب المسلمين في دينهم من ضعف وما انتابهم من جهل ، وما شملهم من فقر وبطالة ، فازداد بذلك تفرقهم وأصبحوا في كل قطر شيَعاً وفرَقاً كل فرقة لهـا غرضها وعملها

ومصلحة موطنها اتفقت مع غيرها أم اختلفت ، ولم يجنوا من ذلك إلا الخلاف والتناحر والضعف والالتجاء الى الأجنبي ثم الانضواء تحت لوائه أو سلطانه . وكذلك رابطة الجنس فإنها على ما لها من الشأن البادي اليوم في بعض الامم كالامم العربية والسلافية ، وما يرى من اجتماعهم في بلاد البلقان ضد اليونان ، فانها أخذت تضمحل وتضعف وتختفي وراء رابطة الوطن ، وذلك بسبب ما حدث من تفرق الأجناس واختلاطها واستيطانها أماكن مختلفة مع أجناس اخرى ، حتى صار الوطن الواحد يضم شتيتاً من عدة أجناس اضطرت على مرور الزمن الى تناسي جنسيتها واندماجها في جنسية اخرى لا تعرف لها نسباً إلا الانتساب الى الوطن ، وبذلك حلّت رابطة الوطن محل رابطة الجنس ، وأصبحت رابطة الجنس وليس لها كبير غناء على الرغم من بقائها والإعتداد بها في العرف والعادة باعتبارها أثراً تقليدياً موروثاً . والنتيجة أنك لا تكاد ترى الآن على وجه الأرض إلا امماً هم مزيج من أجناس شتى ولست ترى جنساً قد أفلح في ضم جميع أفراده إلى وحدة قومية واحدة ، وكل الذي تراه أن هناك أجناساً لا تتميز بغير الموطن ، فالتركي من كان يستوطن بلاد الترك وإن كان من أصل يوناني ، والعربي من كان يستوطن بلاد العرب وإن كان من أصل تركي ، وهكذا ، وعلى ذلك أصبحت رابطة الجنس غير صالحة لأن تكوّن امة متماسكة متحدة إلا باعتبار موطنها ، وقد ظهر أن ليس للموطن الآن كبير غناء أو أثر في ذلك . أما رابطة الحكومة والسلطان ، فليس لها في الواقع من أساس ، إذا كان قيامها على الغلبة والقهر وهي عند ذلك رابطة بغيضة لا تفيد قوة ولا تنتج اتحاد ولا تلد امة . أما إذا كان أساسها الارتباط بالدين أو بالجنس أو بالوطن فليست عندئذ برابطة وإنما الرابطة ما تقوم عليه ، إننا لا ننكر أنه قد ينجم عن الخضوع لحكومة ثابتة النظام موطدة الأركان مدة طويلة من الزمان مهما كان نوع حكمها دستورياً أو استبدادياً أن تتولد في رعاياها حاسة قومية ظاهرة ، وأن يؤلف

بينهم شعور عام بوحدة مصالحهم وبحاجتهم إلى تآلفهم ، ولكن ذلك لن يقضي على ما يكون بينهم من أسباب التفرق والاختلاف مما يجعلهم شيعاً وأحزاباً ، وذلك كاختلافهم في الدين واللغة ، ودليلاً على ذلك حال الهند وما انتهى اليه أمرها من التفرق والانقسام ، وحال الصين وما انتابها من الحروب والثورات .

لهذا كان الاسلام لا يعرف للمسلمين إلا حكومة واحدة تقيم فيهم حدود الله وأحكامه حتى يبتعد بذلك عن منافسات الملوك ومنازعاتهم وما تنتهي إليه غالباً من قيام الحروب بينهم ، وحتى يكون ذلك وسيلة تتوحد بها مشاعرهم وأفكارهم وأغراضهم وتربيتهم ، فيكونون جسداً واحداً إذا اشتكى عضو منه تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر. وتلك هي الوحدة الاسلامية التي يدعو اليها الاسلام ويجعلها فوق كل رابطة ، ومرد كل صلة إذ يقول الله تعالى في سورة براءة : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون ، قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره » (١) .

ألا ترى كيف جعل حب الله ورسوله والإقبال على الجهاد في سبيله — وتلك مظاهر الوحدة الإسلامية — فوق كل حب ، يُترك من أجله حب الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة مما تجمعهم رابطة النسب أو الجنس، ويترك لأجلها كذلك حب المساكن الذي هو مظهر رابطة الوطن ، وحب الأموال والتجارة الذي هو مظهر الرابطة الاقتصادية ، وحب المادة والمال .

ولو أن المسلمين آمنوا بهذه الآية الإيمان الذي يظهر أثره في نفوسهم وأعمالهم

---

(١) التوبة / ٢٤ .

وآمنوا كذلك بما نزل في التفرق بسبب اختلاف الدين مثل قوله تعالى : « إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شي »[1] ، ما فرّقتْ بينهم المذاهب الدينية ولا الأهواء السياسية ، ولا العصبيات الجنسية ، ولا تباعد الأمكنة ، ولا اختلاف الأقطار ، ولكنهم إذ تركوا دينهم تفرقوا شيعاً وتجزؤا امما ، فزالت قوتهم ، وذهبت ريحهم ، واستولى عليهم غيرهم ولن يصلح أمرهم إلا برجوعهم إلى كتابهم واستمساكهم بوحدتهم ، ففيها وجودهم واسترداد قوتهم وعزتهم . ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين .

(١) الأنعام / ١٥٩ .

الاسلام دين الوحدة

لحضرة صاحب السماحة الاستاذ العلامة
الشيخ مسلم الحسيني الحلي

«قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون»[١].

آية كريمة ، في كتاب كريم ، أرسلها مرسِل كريم ، على مرسَل كريم ، وما هي إلا رمزٌ وإشعار ، وإعلام وإعلان ، بالفكرة الأوليـة التي هي حجر الأساس لبناء هـذا المبدأ ، وقاعدة البناء للإشادة بتركيز ذلك الركن القويم ، وهي بعينها وبعين ما هي حجر الأساس ، أو قاعدة البنـــاء ، أو نقول كما هي فكرة وإيحاء ، هي في الحال نفسه خطة وتخطيط لمنهج العمل وموازين الاتجاه .

منذ أن بذرت بذرة الإسلام ، وأظهر رسول الإسلام صوت الدعاية والدعاء يتردد بين الأنحاء والأرجاء ، وردده الكون كله من أقصاه الى أقصاه ، بذرت بذرة الإسلام ، وما بذرت إلا على الوحدة والتوحيد ، وظهرت دعوته ودعايته ، وليس بين شفتيه إلا كلمة التوحيد ، لا إله إلا الله ، يحمل على يديه كتاب الله ، وكل ما فيه الدعوة إلى الوحدة والتوحيد « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون» شاء لنبيه محمد ﷺ أن يكون خاتم الأنبياء

---

(١) الكهف / ١١٠ .

كما شاء الله لنبوته أن تكون خاتم النبوات، فيكون دينه مسك الختام للأديان، وشريعته بقية السلف لتلك الشرائع المقدسة السالفة، وما سرّ هـذا وذاك إلا أن دين محمد ﷺ يتفق مع كل عصر، ويتلاءم مع كل حياة، فهو باقٍ ببقـاء العصور، خالدٌ ما خلدت الحياة، ذلك أنه دين بلغ في كل فضيلة حدها البعيد، وضرب أكبر رقم قيـاسي في المدنية والمعارف والأخلاق والنظم والقوانين، فكان المثل الأعلى لكل اولئك، والمثل السائر لكل مكرمة وكرامة بين الناس أجمعين.

جاء محمـد ﷺ بدين هو دين الوحدة في العقيدة والاتجاه، دين الوحدة في الفكر والعمل، دين الوحدة في العقيدة، لأنه مـا جاء إلا بدعوة الاعتقاد بأن خـالق الكون ومدبره، والمهيمن على الكائنات، والمسيطر على الموجودات إله واحد، هو الفاعل الكامل، والغني المطلق، والمتصرف القدير، يرقب النيـات، ويحكم الضمائر، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ليس مع أمره أمر ولا دون حكمه حكم لأي كائن كان من كائنات هـذه الحياة، لا ضدّ له ولا ندّ، ولا كفو ولا شبيه، سبحانه وتعالى عما يشركون، وأنت تعلم — وكل من له لمحة من ثقافة يعلم — ما لهذه العقيدة من بليغ الأثر في النفس، ومجتمع الحيـاة وحياة الإجتماع، فما عقيدة التوحيد — ولا يعرف الكثير منها إلا أنهـا عقيدة فحسب — إلا رأس كل ملكة فاضلة، وروح كل فضيلة نفسية سامية، وأساس كل عمل فاضل من فضائل الملكات.

إن عقيدة التوحيد أساس الصدق — سواء أكان في القول أم في العمل — أساس كل فضيلة، ذلك أن الإنسان — وقـد عرف أن من بيده أمر هـذه الكائنات في كل أحوالهـا واحد — لا يرى حينذاك أي كائن غير الله سبحانه شيئاً يستحق المجاراة والمداراة — إلا من حيث أمر الله — فتزهق حينذاك نفس

الكذب والخداع وتزهق روح الدجل والرياء، وما للبشر والرياء للبشر، ولا نفع ولا ضرر للبشر بيد أو لسان ، فهناك — وقد غلب الصدق وتغلب ، يعود القول صادقاً ، والفعل صادقاً ، لا من أجل حب سمعـــة أو طلب ظهور ، ويكون الناس حينذاك مثـال الأثر الصحيح بكل وضوح (صانع وجهاً واحداً يكفك الوجوه) .

إن عقيدة التوحيد تبعث في الإنسان قوة البطولة والبسالة ، وتنفخ فيه روح الجرأة والشجاعة ، ذلك أن الموحد يؤمن كل الإيمان بأن الآخذ بزمام الآجال ، والمسيطر على الأعمـــار ، هو ذاك الواحد الحيّ الذي لا يموت ، فالموحـــد — وقد خامرته هذه العقيدة — لا يخشى بأس أي بشر ولا ضرره ، مهما بلغ من شدة البأس ومضاء العزيمـة ، هذه هي الشجاعة ، وبالشجاعة يحفظ كثير من نواميس الاجتماع ، بالشجاعة تحفظ الأموال والنفوس ، وتحمى الأعراض والحرمات ، وتصان النواميس والديانات .

إن عقيدة التوحيد تطبع معتنقيها على حب الحرية والاستقلال ، فإن الموحد — وقد علم علماً لا يقبل الجدل ، أن كل تسيير أو تدبير ، هو لتلك الذات ، ومن تلك الذات ، وبتلك الذات ، الذات الأحدية الواحـدة — يتيقن حينذاك يقيناً لا يقبل الشك ، إنه هو السلطان المطلق ، والحاكم الوحيد ، وليس من سمى نفسه باسم السلطان الحاكم ، فما هو إلا مقهور بسلطان ذي السلطان والحـاكم الحقيقي العظيم ، وهو — وإن ُعدّ في زمرة المعدمين والفقراء — يرى أنـه شريكهم في التمتع بالحرية الكاملة ، ونيل نصيبه من الحقوق الطبيعية في هـذه الحياة ، فهو وهم في هـــذه الحقوق سواء بسواء ، وإن تيقظ الإحساس وتعززت المشاعر المطالبة بكل ذلك ، نشأت حينذاك العدالة الصادقة والمساواة بمعناها الصحيح، ومات روح الاثرة ، وذهب الاستغلال ضحية بسيف العدل الصميم ، وبهـــذا

تخمد نار الحروب ، وتقطع ألسنة التنازع والخصومات ، ويعيش البشر هادئين مطمئنين في مختلف الأحوال والشئون ، فكأن الأرض غير الأرض ، والناس غير الناس ، ولكن — ونحن كما نحن الآن — هل يحلم بتحقيق ذلك إنسان ؟

أجل : الاسلام دين الوحدة والتوحيد ، سار الاسلام سيره وسيرته هـذه في الفكرة والعقيدة ، وسار مع هـذه الفكرة والعقيدة جنباً لجنب في ناحيتي التطبيق والعمل ، فأراد الاسلام وما أراد ، إلا الوحدة في كل شيء : الوحدة في التضامن والتعاون ، الوحدة في الواجبات والحقوق ، فالمسلمون جميعاً في نظر الاسلام سواء « لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » ، نص نبوي لا يقبل الجدل والتأويل ، وهو قبة من نور كتاب الله الكريم ، إذ صرح بكل قوة « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » هذا كله بعـد أمرهما الأكيد بتسوية الصفوف وتوحيد الكلمة ، فهذا كتاب الله الكريم « إنما المؤمنون إخوة » وتلك السنة النبوية تقول : «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً» وبعد ذلك ، إنذارهما الشديد وتحذيرهما من اختلاف الكلمة ، وكلمة الاختلاف. فهذا الكتاب الكريم يقول « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » وتلك السنة النبوية تقول « لا ألفينكم بعدي مرتدين على أعقابكم يضرب بعضكم رقاب بعض » وما للامة الاسلامية والخلاف والاختلاف ، ودينها واحـد ونبيها واحـد ، وكتابها واحد ، وقبلتها واحـدة ، وهي واحدة متحدة في جميع الطقوس والنواميس ، وما هذه الفرق والفروق إلا بقايا عهود الجاهلية البائدة ، فقد كان — ولا يزال اليوم — للعنصريات والقبليات ، والقوميات ، أثرها البليغ على تلك النفوس ، وهنا لك قصتان هما قليل من كثير ، وهما أوضح مثال لمبلغ ما بلغت اليه تلك المنعنات : روي أن أحد العرب من بني ربيعة لما ادعى مسيلمة الكذاب النبوة آمن به ولم يؤمن بالنبي محمد ﷺ فقيل له في ذلك ، فقال إنني أعلم أن

نبي ربيعة كاذب ، ونبي مضر صادق ، ولكن كاذب ربيعة أحب الينا من صادق مضر . وروي أيضاً ، أنه رؤي رجل في البيت الحرام يدعو لأبيه ، فقيل له : هلا دعوت لامك ؟ فقال لا . إنها تميمية ! فمن هـذا وذاك ، تعرف كيف كان لهذه العنعنات الفارغة أثرها البليغ،وقد حاربها النبي ﷺ بكل قواه فذهبت ذهاب أمس الدابر وأصبحت في حديث كان ، وقـــد جهر ﷺ بقوله: « من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا » فكان لزاماً علينا الإيمان بهذه التعاليم إن كنا مؤمنين بالمعنى الصحيح ؟

الباب الثالث

كيفَ يستَعِيدُ المسلمونَ وَحْدَتَهُمْ وتناصُرَهُم

كيف يستعيد المسلمون وحدتهم وتناصرهم

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ
محمد عرفه ، عضو جماعة كبار العلماء

— ١ —

هل من شك في أن الله يريد من المسلمين ، وإن اختلفت ديارهم وتباينت أوطانهم ، أن يكونوا إخوة متوادّين متحابين متعاونين متناصرين ؟

ليس في ذلك شك ، ويشهد له قوله تعالى : « محمــد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم »[١] ، وقوله ﷺ : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) . وقد صوّر النبي ﷺ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم (بالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى) .

وهل من شك في أن أعظم نعمة امتنّ الله بها على المسلمين هي : الإلفة بعــد الفرقة ، والمحبــة بعد العداوة ، كما قال : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً »[٢] ، وكما قال : « هو الذي

---

(١) الفتح / ٢٩ . (٢) آل عمران / ١٠٣ .

أيّدك بنصره وبالمؤمنين وألـّف بين قلوبهم ، لو أنفقت مـا في الأرض جميعاً ما ألـّفت بين قلوبهم ولكن الله ألـّف بينهم » [١] .

وهل من شك في أن الله يبغض من المسلمين الخلاف والفرقة ، والتبـاين والبغضة ؟ وهل من خلاف في أن الله قال : « إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيَعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » [٢] ؟ وأنه قرن الفرقة بالرجم والخسف في الوعيد فقال : « قل هو القـادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض » كل ذلك لا شك فيه ، وهو من البديهيات المعلومة من الدين ضرورة ، ومع ذلك ليس من شك أيضاً في أن واقع المسلمين ليس كذلك ، ففيهم الفرق المختلفـة ، والشيَع المتباينة ، وقد جرّ ذلك إلى التناحر والتباغض، وإلى أن يذوق بعضهم بأس بعض ، ففيهم السني والشيعي والخارجي والمعتزلي ، إلى ما شاء الله من هذه الفرق ، وفيهم ما لا يحيط به إلا الله من الحقد والبغض والحسد وكراهية بعضهم لبعض كأن ليس من مبادىء دينهم القطعية ما ذكرنا ، بل كأن من مبادىء دينهم الفرقة والاختلاف ، وكأن منها النزاع والفشل ، وكأنها اصول فيه ليس لها مرو وليس منها محيص .

ومن المعلوم أن هذه الفروض الاجتماعية التي منها حب المسلمين بعضهم بعضاً وتعاونهم وتناصرهم، ليست فروضاً يدعو اليها الدين تعبداً بل هي فروض يدعو اليها الدين لأن مصلحة المسلمين الدنيوية تدعو اليها ، ولأن بقاءهم وقوتهم وعزتهم منوطة بها، فكل امة من امم الإسلام وحدها ضعيفة ولكنها بتعاونها مع غيرها من الامم الإسلامية تقوى وتعزّ ، وقد قيل : « ضعيفان يغلبان قوياً » .

كذلك ليست المحرمات الاجتماعية التي ينهى عنهـا الدين — ومن أشدها.

---

(١) الأنفال / ٦٣ .　　(٢) الأنعام / ١٥٩ .

تباغض المسلمين وتفرقهم وتنازعهم – إلا مفاسد كبرى يريد الدين منهم أن يدرؤوها عن أنفسهم ، فليس يضعف المسلمين ويفتّ في عضدهم مثل التباغض والتناحر والتفرق بينهم .

لذلك لا أعلم فروضاً في الإسلام أقوى ولا آكد ولا أعم فائدة ولا أعظم جدوى من هذه الفروض التي هي المحبة والتعاون والتناصر بين المسلمين .

ولا أعلم كبائر أعظم ضرراً ، ولا أشد نكراً ، ولا أدعى لمحق المسلمين وزوالهم من هذه الكبائر التي ذكرنا من تباغضهم وتخاذلهم وفرقتهم وانقسامهم .

ولا أعلم فروضاً اهملت مع عظم خطرها كما اهملت هذه الفروض : أهملها العلماء فتركوها في زوايا الكتب ولم يسلطوا عليها الأضواء كما سلطوها على ما هو أقل منها شأناً ، وإن الحيض والنفاس ومسائل المتحيرة لقد أخذت من العناية أكثر مما أخذت هذه الفروض .

إن النبي ﷺ لم يبلغ بالمسلمين ما بلغوه من محبة وتضامن وتناصر حتى كان هجيراه تسليط الأضواء على هذه الفضائل فكان يقول : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يكذبه ولا يخذله ولا يحقره ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » وكان يقول : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) ، وكان يرتب الفضائل درجات ويجعل هذه الفضائل في الذروة .

ونحن نريد أن نبلغ من التعاون والقوة ما بلغوه ولما نعن بهذه الفضائل كما عنوا بها ! .

إن فروضاً هذا شأنها كان ينبغي أن تؤخذ بقوة ، وأن تلقّن للصبيان مع اللبن ، وأن يُعلّموها في مدارس المرحلة الاولى وبقية المراحل ، وأن يكون لها شأن لا يقلّ عن شأن أركان الإسلام الخمسة ، وأن يكون في ذكر كل مسلم قوله ﷺ : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) وأن يحذر كل مؤمن

فوات الإيمان إن أبغض أخـاه المسلم أو أبغض مصلحته . وكان يجب على علماء الإسلام أن يقفوا محافظين على محبة المسلمين بعضهم بعضاً ووحدتهم وتعـاونهم ، ولكنني لم أرَ فرضاً أعظم نفعاً ضيع كما ضيعت هـذه الفروض ، ولم أرَ حراماً أعم ضرراً ارتكب كما ارتكب المسلمون أضدادها ، بل إني اوشك أن أقول إن علماء كل فرقة كان لهم نصيب في توسيع هوّة الخلاف بذلك الجدل الجـاف الذي يحركونه حول مذاهبهم ، وإن الإمام العـالم منهم لتبدو منه الكلمة عامة تزرع الأحقاد ، وتربي الإحن. يقول الزمخشري في تفسيره عند الكلام على رؤية الله في الأشعرية :

وجمـاعة سموا هواهم سنة ... لجمـاعة حمر لعمري مؤكفة
قد شبهوه بخلقه فتخوفوا ... شنع الورى فتستروا بالبلكفة

وليست الأشعرية في كتبهم بأحسن مجاملة للمعتزلة ولا بأعف لفظاً وهكذا بقية الفرق ، فلا عجب إذا تحمّلنـا علماء كل فرقة نصيباً مما كان من فُرقة بين المسلمين .

هكذا ترك علماء المذاهب الخلاف والفرقة والبغضاء تدبّ الى المسلمين دون أن يعمـلوا على إزالتها ، ودون أن يعالجوها ، مع أنهم كانوا يرون أن عواقب ذلك مخيفة محزنة ،وهذا هو التاريخ يروي أن الخلاف – حتى بين أتباع المذاهب الأربعة الفقهية – كان له أثر سيء مع أنه من أهون الخلافات لأنه خـلاف في الفروع العملية لا غير .

يذكر التاريخ أن الحنابلة من أهل جيلان كانوا إذا دخل اليهم حنفي قتلوه وجعلوا ماله فيئاً حُكمهم في الكفار .

ويذكر أن بعض بلاد ما وراء النهر من بلاد **الحنفية** كان فيه مسجد واحد **للشافعية**، وكان والي البلد يخرج كل يوم لصلاة الصبح فيرى ذلك المسجد فيقول: أما آنَ لهذه الكنيسة أن تغلق ! فلم يزل كذلك حتى أصبح يوماً وقد سُدّ باب

ذلك المسجد بالطين واللبن ، فأعجب الوالي ذلك ، وقد شاع أن **المالكية** يقولون **الشافعي** ، غلام **مالك** ، **والشافعية** يقولون **أحمد بن حنبل** غلام الشافعي ، والحنابلة يقولون الشافعي غلام **أحمد بن حنبل** ، **والحنفية** يقولون **الشافعي** غلام **أبي حنيفة** ، لأنه غلام محمد بن الحسن ، ومحمد غلام **أبي حنيفة**، وقالوا : لولا أن الشافعي من أتباع أبي حنيفة لما رضينا أن ننصب معه خلافاً ، وقد صنف حنفي مناقب **أبي حنيفة** فافتخر فيها بأتباعه **كأبي يوسف ومحمد وابن المبارك**، ثم أنشد يعرّض بباقي المذاهب :

اولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وهذا كدعوى الجاهلية

والشافعية يطعنون بأن **أبا حنيفة** من الموالي ، وليس من أئمة الحديث ، والحنفية يطعنون في نسب **الشافعي** ، وأنه ليس قرشياً ولا إماماً في الحديث ، لأن **البخاري ومسلما** أدركاه ولم يرويا عنه ، مع أنهما لم يدركا إماماً إلا رويا عنه ناهيك بالأحاديث التي وضعت في مدح أئمتهم وذم الآخرين كما روى **الحنفية** : (يكون في امتي رجل يقال له النعمان هو سراج امتي ، ويكون فيهم رجل يقال له محمد بن إدريس ، هو أضر على امتي من ابليس) هذا قليل من كثير مما قاله فقهاء مذاهب السنة ، فكيف إذا عرضنا لما وقع بين السنة والشيعة ، وما وقع بين أصحاب المذاهب الكلامية ، ولا تزال آثاره السيئة تعمل عملها في المسلمين إلى الآن .

هذه حال يجب أن يَطب لها العلماء ، وهي لا تحتملها روح العصر ولا مصلحة المسلمين . إن الامم تسعى للاجتماع والتضامن ، وتلتمس لذلك أوهى الأسباب من لغة وإقليم واتحاد في الثقافة أو في المصلحة ، والمسلمون أولى بذلك لأن بينهم أواصر كثيرة تدعو إلى الوحدة والاجتماع ، وأعظمها الدين ، والمسلمون أولى بذلك لأنهم ضعاف ، والضعيف أحوج إلى أن يشد أزره بأخيه .

إن القداح إذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو جفن وبطش أيد
عزّت فلم تكسّر وإن هي بدّدت فالكسر والتوهين للمتبدد

والمسلمون أولى بذلك، فقد تداعت عليهم الامم كما تداعى الاكلة إلى قصعتها، والمسلمون أولى بذلك لأن الله وهبهم أرضاً ذات خيرات وفيرة، وهي محط أطماع دول الأرض، ولا يحافظون عليها إلا بالقوة، والاتحاد من أهم أسباب القوة؟

— ٢ —

كتبنا في تفرق المسلمين واختلافهم شيعاً ومذاهب، وكيف يعودون الى أمرهم الأول من محبة واتحاد وتعاون، ووعدنا أن نتوسع في هذا الموضوع ونزيده جلاءً وبياناً. وها نحن اولاء نفي بما وعدنا فنذكر أسباب الفرقة والاختلاف، لأنه ما لم يُعرف سبب المرض لا يمكن الطب له والبرء منه.

انتشر الإسلام سريعاً في قليل من الزمان، وامتد في رقعة من الأرض متلاصقة تجمع جزءاً من آسيا وافريقيا واوروبا، واشتدت شوكة المسلمين وقوي سلطانهم، وأصبحوا لا يرهبون العدو الخارجي لسقوط مقاومته أو لبعد داره، وكل هذا حسن يدعو الى اغتباط محبي الإسلام، ولكن الله خلق الدنيا مختلطة منافعها بمضارها وممتزجاً شرها بخيرها. فهذا الخير العظيم، وهو اتساع رقعة المسلمين، وامتداد سلطانهم، والأمن من أعدائهم أضعف الأواصر بينهم وجعلهم يعيشون في هذه الأرض وكأنه لا مالك لها سواهم، فانصرفوا الى منافسة بعضهم

بعضاً، إذ انقطع ذلك الخوف الذي يحفز الى التضام والالتصاق ومراعاة أسبابها وتوخي كل ما يوجب الإلفة والمحبة ونبذ كل ما يوجب الشقاق والتباعد ، وانظر في ذلك الامة إذا تكونت من عنصرين مختلفين : أقلية ، وأكثرية ، فانك تجد الأقلية لخوفها من الأكثرية تدفعها غريزة حب البقاء الى التضام والتعاون ، أما الأكثرية فلعدم هذا الباعث تكون أقل تضامناً وتعاوناً .

بل انظر الى أيام المسلمين الاولى أيام كانوا قليلاً وكان المخالفون لهم كثيراً ، فقد كانوا كالشامة في الثور الأسود وكانوا يخافون أن يتخطفهم الناس من حولهم فاتجهت قوة المقاومة فيهم الى الخارج ، ولم يكن لهم عدو من أنفسهم بل كانوا وحدة يرمون عن قوس واحدة ويشعرون بالتعاون وأن كلاً عون لصاحبه وأنه لولا تعاطفهم وتساندهم لكانوا أكلة الآكل ونهزة المنتهز، في ذلك الوقت والشمل جميع ، لم يلبسهم الله شيعاً ولم يفرقهم أحزاباً ولم يقطعهم مزقاً بل كانوا كالجسد الواحد إنْ حادث ألمّ بعضو منهم تألم له الجميع .

فلما عاش المسلمون أحقاباً طوالاً من الزمن وكأنه لا ساكن للأرض سواهم تنافسوا فيما بينهم فانصرفت قوة المقاومة التي خلقها الله في الكائن الحي الى الداخل إذ لا منصرف لها في الخارج ، فأصبحوا يتعاملون وكأنهم وحدات مختلفة لا امة واحدة .

تركوا الخلاف يشجر بينهم، وأعانوا هم على حدته وانصرف كل الى تقويته : العالم بعلمه وجداله ، وذو السلطان بقوته وسلطانه .

وإنك لتقرأ كتب علماء المسلمين : المتقدمين منهم والمتأخرين ، فتجد ما كتب في الرد على الفرق المختلفة من المسلمين أكثر مما كتب في الرد على **اليهود والنصارى والصابئة والمجوس** والملل المختلفة ، حتى كأن الأرض كانت خالية منهم .

وإن المرء إذا أراد أن يطلع على مجادلة المسلمين لأصحاب الأديان المختلفة ليعرف الروح الجدلية في هذا التاريخ الطويل لا يكاد يجد إلا القليل بجانب ما يراه من السيل الدافق من كتب المناظرة بين الفرق الإسلامية يجد بعض الرسائل القصيرة للجاحظ في الرد على النصارى وبعض فقرات قصار تنسب الى المأمون في كتب الأدب كالبيان والتبيين ، ويجد رسالة تنسب الى بعض علماء المسلمين والرد عليها من بعض علماء النصارى .

ولا أظن إلا أن الرسالة الاولى موضوعة لضعفها، وضعت لتبين ضعف حجج المسلمين وقوة حجج النصارى .

والذي عرض لذلك باستيعاب ، كتاب الفصل في الملل والنحل لابن حزم فقد ردّ على الملل والنحل المختلفة ، وكتاب ابن تيمية في الرد على النصارى وهو في الحق كتاب نافع يقرؤه المرء فيعتقد أن مؤلفه كان خبيراً بمذاهبهم وطقوسهم وخفايا دينهم ، يعرضها عرضاً جلياً ثم يكر عليها بالنقض والإبطال ، ومثل ذلك كتاب إظهار الحق لرحمة الله الهندي .

ولا أقول إن ما ألّف في الرد على الملل المختلفة هو ذلك فحسب إنما أقول إنه قد ألّف غير ذلك ولكنه بلغ من القلة إلى حد أنه لم يتداول منه إلا هذا القليل أما كتب جدال الفرق الاسلامية بعضها بعضاً فلا تكاد تحصى حتى إنك تجد كتاباً ككتاب الحيوان للجاحظ — وهو في علم غير علم الفرق والديانات — يعرض لبعض هذه المناظرات .

ومن ألّفوا في الرد على الفرق لا يكادون يحصون، منهم الإمام أحمد بن حنبل رد على الجهمية وابن جرير الطبري ، وابن قتيبة ، والأشعري له كتاب مقالات الإسلاميين والإبانة، والمعتزلة لهم كتب في الرد على غيرهم كالانتصار لابن القصار. وكتب الكلام مشحونة بالرد على الفرق كالمعتزلة والمجسمة ، واقرأ في ذلك المواقف وتهذيب المنطق والكلام لسعد الدين التفتازاني والمقاصد له والعقائد

النفسية والمحصول للرازي والأربعين في اصول الدين، حتى أن بعض كتب التفسير والحديث شغل فيها واضعوها بالرد على الفرق كالتفسير الكبير لفخر الدين الرازي شحنه مؤلفه بالرد على المعتزلة وغيرهم من الفرق . وكتاب الكشاف لجـــار الله محمود بن عمر الزمخشري قـد نصر فيه صاحبه آراء المعتزلة ، وحمل آيات القرآن على مذهبه .

كل ذلك يدل على أن كتب المناظرات والمجادلات منشؤها الحاجة، ولم تكن الحاجة ملحة كثيراً إلى مجادلات الملل لسقوط مقاومتهم ، ولكن الحاجة كانت شديدة لمناظرات الفرق الإسلامية لأن المقاومة انصرفت الى الداخل فنشأت الفرق واحتيج فيهـا الى المناظرة والجدال فالفت الكتب الكثيرة في مناظرات الفرق والرد على آرائها ومذاهبها .

نعم إن فلسفة اليونان ترجمت الى اللغـة العربية ، وانتشرت واعتنقها نحلة بعض المسلمين ، ورأى فيها علماء المسلمين خطراً عظيماً على الدين ، فانتهض قوم لمناهضتها والرد عليها ، وانتهض آخرون للتوفيق بينها وبين الدين ، ومن القبيل الأول أبو حامد الغزالي درس الفلسفة حتى حذقها ، وألـّف فيها كتاب مقاصد الفلاسفة ، ثم رد عليها في كتاب تهافت الفلاسفة ، ومن القبيل الثـاني ابن رشد الحفيد درس الفلسفة الإغريقية بعامة وفلسفة أرسطو بخاصة ، فأتقنها وألـّف فيها ولخـّص كتب أرسطو وشرحها ، ولم يكن تلخيصاً فحسب ، بل كان تصحيحاً لمـا علق بهـا من أخطاء الناسخين ، وبياناً لمراد الفيلسوف منها الذي استعجم واستبهم ، وقد لخـّص كتاب الكون والفساد والسماء والعالم وكتاب النفس وكتب أرسطو المنطقية الثمانية حتى كتاب البرهان والخطابة ، والشعر والجدل والسفسطة .

وإن من يشتغل بالفلسفة لا يجد معيناً له مثل ابن رشد حتى ليخيل الى دارس الفلسفة أنه لم يفهم أرسطو مثل ابن رشد من عهد أرسطو الى الآن .

وقــد حاول ابن رشد الجمع بين الدين الإسلامي والفلسفة ، فألّف في ذلك كتاب فصل المقال فيما بين الحقيقة والشريعة من الاتصال ، وألّف كتاب تهافت التهافت في الرد على الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة ، وكان إذا ما غضب وظن أن الغزالي يتجنى على الفلاسفة فثار نار غضبه بقوله : ما أحرى هذا الرجل أن يسمي كتابه ـــ التهافت ـــ بإطلاق .

وكان إذا رأى الغزالي يتنقل في المذاهب المختلفة يتمثل بقول الشاعر :

يوماً بحزوى ويوماً بالعقيق وبالشآم يوماً ويوماً بالخليصاء

أو بقوله :

يوماً يمان إذا لاقيت ذا يمن   وإن لقيت معدياً فعدناني

* * *

مما تقدم كله نعلم أن الخلاف والحجاج وليد الحاجة وأن عوامل طبيعية تدعو الى الاجتماع وعدم الفرقة وعوامل اخرى تدعو الى الانقسام والفرقة وأن الشعور بالخطر الآتي من الخارج يدعو الى التجمع والوحدة ، والشعور بالأمن الخارجي قد يدعو الى التهاون في هذه الوحدة ، وقد مر بالمسلمين هذان الدوران وكان تفريطهم في الوحدة وإهمالهم للاجتماع نتيجة شعورهم بالأمن من أن يتسلط عليهم عدو خارجي ، أما الآن فقــد تغير الوضع وظهرت امم على وجه البسيطة ذات قوة ومنعة ، وهي وان كانت بعيداً عن مواطن المسلمين فهي قريب منهم بمـــا أنشأه العـــلم الحديث من سرعة في المواصلات فأصبحت وكأنها أو ليس بينهم وبينها إلا قيد خطوات . هـــذه الامم قد استولت على كثير من بلاد المسلمين ، وأصبحت طامعة فيما لم تستول عليه فلا بد أن ينتج هـــذا الوضع الجديد وضعاً آخر وتنصرف المقاومة الى الخارج ولا يحتاج الأمر إلا إلى تنبيه الأذهان ولفت

الأفكار والضرب على وتر واحد وهو أن الامم الإسلامية كلها امة واحدة قد اشتركت في العواطف والميول والنظر إلى الحياة وتقديرها للأشياء بما اشتركت فيه من الدين ، وهي فوق ذلك تشترك في الألم والجرح ، مرضها واحد ، وألمها واحد ، وأسرها واحد وأغراضها في الشفاء والخلاص واحدة ، وليس يجمع بين القلوب ويؤلف بين النفوس مثل الاشتراك في المصائب والاتفاق في الآلام .

قد قضى الله أن يؤلفنا الجُرحُ وأن نلتقي على أشجانه
كلما أنّ بالعراق جريح لمس الشرق جنبه في عمانه
نحن في الفكر بالديار سواءٌ كلنا مشفقٌ على أوطانه !

— ٣ —

ذكرنا أن **الاخوة الاسلامية** لعبت دوراً عظيماً في تاريخ المسلمين ، وقد لعبت هذا الدور وجوداً وعدماً . فحين كانت قوية ونامية أثّرت اتحاد المسلمين وتناصرهم ، فكانوا كتلة واحدة يردون عدوان أعدائهم ، ويحتفظون ببلادهم وكيانهم . وحين كانت ضعيفة هزيلة أثّرت تفكك المسلمين وتخاذلهم، فأخذهم أعداؤهم أفراداً ، وتغلبوا عليهم أشلاء ، واقتطعوا بلادهم قطعة قطعة .

وقد جعلنا **الأندلس** مثلاً للحالتين ، ولكننا أجملنا القول إجمالاً ، ولم نذكر الأشخاص والوقائع ، وقد رأينا أننا لو فصلنا القول بعض التفصيل ، وذكرنا الوقائع وأسماء الأشخاص كان ذلك أبلغ في القول ، وأجدى في العظة ، وأعون على أن يفهم المسلمون موقفهم ، وأن يكونوا بصراء بأمسهم ويومهم وغدهم .

افتتح المسلمون **الأندلس** فبدؤا أقوياء ، وقامت لهم بهـا دولة ذات حضارة ومنعة ظلت بضعة قرون .

ولما سقطت هذه الدولة القوية انقسمت **الأندلس** الى دويلات صغيرة حتى كان لكل بلدة أو عـدة بلاد أميرها المستقل ، متخذاً لقب الملك أو الأمير ، فكان بنو عباد امراء **اشبيلية** وما جاورها ، وكان **الأدارسة** أو **بنو حمود** في جنوب **اسبانيا** وحالفهم أمير **غرناطة** ، وكان **بنو ذي النون** في **طليطلة** ومـا جاورها وأواسط اسبانيا ، وكان **بنو عامر** في **بلنسية ومرسية** ، وكان **بنو هود سادة سرقسطة** .

وقد قال شاعرهم يصف هذا التفرق وهذا الانقسام :

ممـا يزهدني في أرض أندلس	أسماء معتضد فيهـا ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها	كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد

وكانت هـذه الإمارات تجيش بالأطماع بعضها في بعض ، وكانت الحرب لا تضع أوزارها بينهم ، وكان الأقوى يغزو الأضعف فيستجير الأضعف بجـار له أقوى وربما استجار بملوك الفرنجة ، ولكنه كان يدفع الثمن غالياً حريته وعزته وأخيراً كان يسلم اليهم بلاده .

خالفوا نظام الاخوة الإسلامية وما يجب لها ، وانتهكوا دستورها ، كان من دستورها أن كل المسلم على المسلم حرام : دمه ومـــاله وعرضه ، وإذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النـــار ، وكان المقتول في النار لأنه كان حريصاً على قتل أخيه .

وكان من دستور الاخوة الإسلامية أن المسلمين تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم ، فخالفوا هـذا الدستور وكانوا مع من

سواهم يداً عليهم ، فقد كانوا يتحالفون مع ملوك النصارى على جيرانهم من المسلمين ، وإن سقوط طليطلة ليبين لنا كثيراً من المخازي التي ارتكبها امراء المسلمين ، وكيف أنهم عاونوا على ضياع ملكهم وثلّ عرشهم ، وكانوا أعظم أثراً في جلب الخراب على أنفسهم من أعدائهم النصارى .

إن الذي افتتح **طليطلة** هو **الفونسو ملك قشتالة** ، وكانت تجمعه ببني **ذي النون أصحاب طليطلة** روابط متينة من الصداقة ، وكان سببها أن أخاه ساتشو طارده وتعقبه ، فلجأ الى بني ذي النون في طليطلة فوجد عندهم ملجأ حصيناً ، وأضفَوْا عليه حمايتهم حتى نجا من أخيه ، ولما آل اليه الملك عقد مع طليطلة معاهدة ، وقد أقسم أن يعاون أبناء ذي النون على الاحتفاظ بملكهم ، وقد غدر بالعهود المعقودة والمواثيق المكتوبة ، وحاصر أصدقاءه الذين حموه من أخيه في **طليطلة** عندما واتته الفرصة ، وكان لجوؤه الى طليطلة معيناً له على فتحها لأنه أصبح عارفاً بها وبمسالكها وبالأماكن الضعيفة التي تؤتى منها ، فكان ملوك **طليطلة** بحمايتهم **الفونسو** يشحذون المدى التي سيذبحون بها ، ويصنعون القيود التي سيكبلون فيها .

هذه واحدة . والثانية أن **المعتمد بن عباد ملك اشبيلية** كان شديد الطمع في أن تخضع له **الأندلس** المسلمة كلها ، وكان في ذلك الوقت يريد أن يملك **غرناطة وسرقسطة وبطليوس** ، ولن يستطيع ذلك وهو يخاف **الفونسو ملك قشتالة** ، فسعى لعقد معاهدة معه فأرسل مفاوضه الوزير ابن عمار ففاز بعقد هذه المعاهدة ، وقد تعهد فيها الفونسو أن يعاون أمير اشبيلية بالجند المرتزقة في حرب جميع أعدائه من المسلمين، وتعهد المعتمد في مقابل ذلك أن يدفع الى ملك قشتالة مقادير كبيرة من المال، وألا يعترض مشروع الفونسو في افتتاح **طليطلة**، وهكذا ضحى المعتمد **ابن عباد** بمعقل **الأندلس** في نظير أن يفوز ببضع إمارات.

ولقد اقتنع المعتمد بعد ذلك، أنه بمعاهدته تلك كان يعين ملك النصارى على

نفسه وعلى جميع المسلمين في الأندلس ، فإنــه رأى الفونسو ما كاد يفتتح عاصمة القوط القديمــة طليطلة في السابع والعشرين من المحرم سنة ٤٧٨ هـ ، وعادت إلى حظيرة النصرانية بعد أن مكثت في حكم الاسلام ثلاثمائة واثنتين وسبعين سنة ، حتى اتخذها عاصمة ملكه وتطلعت نفسه الى امتلاك غيرها حتى ما كان تحت يد ابن عباد فجزع المعتمد وساوره الندم على تحالفه مع ملك النصارى ، وعاد باللوم والتعنيف على وزيره ابن عمار الذي عقد هـــذا الحلف ، وقبض عليه وألقاه في السجن ثم قتله بيده ، ولكن هذا الجزع لم يرد فائتاً ، فقد نفذ القضاء ، وأعانوا عدوهم على أنفسهم ، وجدعوا انوفهم بأيديهم وخربوا بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم المتحفزين .

أخذ الفونسو بعد ذلك يوغل فتحاً في بلاد المسلمين، وهنا رأى امراء المسلمين الخطر المحدق بهم ، ورأوا شبح السقوط ماثلاً ما بين أعينهم فاتحدوا لأول مرة في تاريخهم الطويل ، ولما كانت قواهم مجتمعة لا تكفي لرد النصارى فقد اتفقت كلمتهم على أن يستعينوا بالمرابطين ملوك إفريقية ، وأن يستنجدوا بإخوانهم المسلمين فكتبوا كتاباً ووقعوه الى ملك المرابطين يوسف بن تاشفين ، وقد ذكروا فيه أن انهيار سلطان المسلمين في الأندلس لا يرجع إلا لتفرقهم وتخاذلهم ، وأنه بينا يقوى النصارى بالاتحــــاد وينتزعون أراضي المسلمين ومعاقلهم بالعنف والخديعة ، وبالوعيد والوعد ، وبالسيف والإقنــاع . إذ يقوى المسلمين تنضب يوماً بعد يوم وقد غصت المساجد بالقساوسة من أعداء الدين ، ونشرت الصلبان فوق المنائر التي كان يؤذن فيها من قبل ، وأخذت النواقيس تقرع بالقداس بعد أن كان يدعى للصلاة ويختتمون كتابهم بقولهم : إن يوسف قـــد غدا ، معقد الآمال ، وإنهم يعتقدون أن الله قد اصطفاه لإنقاذ الاسلام .

وصل الكتاب الى زعيم المرابطين ، وكان مؤمناً قوي الإيمان ، وكان محنكاً قد حنكته السنون ، ووعظته التجارب فحفزه إيمانه إلى نجدة إخوانه المؤمنين وحملته تجاربه الى أن ينظر في العواقب ، وإلى أن يأخـــذ بالثقة لجيشه الذي

سيرمي به إلى جزيرة الأندلس،فطلب من أمير إشبيلية أن يعطيه حصن الجزيرة ليضع فيه حامية مخلصة لتكون ملجأ له إذا هزم ، ويكون على اتصال دائم بملكه في إفريقية ، فتردد في ذلك المعتمد بن عباد ، ولكن حدث في أثناء ذلك أن الفونس أرسل الى المعتمد يطلب الجزية كعادته ، وأرسل يهودياً ينقدها فيرد الزائف ويأخذ الصحيح،وقد اشتط اليهودي فرد على المعتمد بعض ما أداه بحجة أنه زائف فلجأ الى السفير ، فقال : أعط بدلها سفناً تجري في البحر، فاستشاط المعتمد غضباً وقتل اليهودي والسفير وثلاثمائـــة كانوا معه ، ثم ندم على فعلته ، ورأى أن الفونس لا بـد منتقم منه فعجل بتسليم الحصن الى يوسف بن تاشفين ، وكان ابنه يعارضه في الإلتجاء الى المرابطين ويخوفه العاقبة ، فقال له : يا بني ، إني لاوثر أن أرعى الجمـال عند يوسف بن تاشفين على أن أرعى الخنازير عنـــد الفونسو ، ثم أرسل الى ابن تاشفين بالموافقة على تسليم حصن الجزيرة ، وفي شهر ربيع الآخر سنة ٤٧٩ من الهجرة عبر يوسف بن تاشفين بجيشه من سبتة ، وما كادت السفن تنشر قلاعها حتى صعد يوسف الى مقدم سفينته وبسط ذراعيه نحو السماء ودعا ربه قائلاً : اللهم إن كنت تعلم أن في جوازي هـــذا خيراً وصلاحاً للمسلمين فسهل على جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه .

وتقول الروايات إن البحر ما لبث أن هدأ وسارت السفن في ريح طيبة حتى عبر يوسف الى شاطىء الأندلس ، وليس يعنينا إلا هذا الدعاء الذي دعا بـــه يوسف والذي يدل على قوة الإيمان ، وعلى أنه كان خالص النية في نجدة المسلمين، وأنه كان لا يريد مالاً ولا ملكاً جديداً ، وإنما حفزته هـذه العقيدة الاسلامية الراسخة « وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر » .

بينما المسلمون في الأندلس قد ملأ قلوبهم الرعب من مهاجمة الفونسو لحصونهم وتوقعهم النكبة ، وإذا بجيش المرابطين يهبط الأندلس كما تهبط العافية على جسد السقيم ، ويأخذ يوسف في ترتيب الجيوش ، ويأمر الجيوش الأندلسية بأن تأخذ

مواقعها ويرحل هو بجيشه حتى ينزل بسهل يسمى الزلاقة على قيد بضعة أميال من بطليوس .

وكان الفونسو قد جمع جموعه واصطلح مع ملوك النصارى الآخرين وعاونته جنود من جنوب فرنسا ، وتقابل الجيشان في هـذا الموضع ، وكان كلاهما يقدر بمائة وثمانين ألف مقاتل .

وقد أرسل يوسف الى الفونسو يخيره بين الإسلام أو الجزية أو القتال،فأرسل اليه يخبره أن اليوم الخميس وغداً الجمعة وهو عيدكم ، وبعد غد السبت وهو عيد اليهود ، وبعده الأحد وهو عيد النصارى ، والموعد يوم الإثنين ، ولكن المعتمد ابن عباد كان يعلم غدر الفونسو فأخذ الحيطة ولم يستنم الى هـذا الوعد ، وإذا بجيش الفونسو يهاجم في صبيحة يوم الجمعة ، فلم يباغتهم ولم يأخذهم على غرة ، والتحم الجيشان ، وكان يوسف قد ألقى بعشرة آلاف فارس من جيشه في المعركة بقيادة قائده الشجاع داود بن عائشة ، ورابط بسائر جيشه خلف ربوة فلم يعلم بـه الفونسو وظن أنه قد خاض المعركة مع قوى الأعداء جميعها ، فبذل أقصى وسعه ، وثبت له المعتمد بن عباد مع جيشه وأبلى بلاء حسناً ، وقد راع الامراء الأندلسيين منظر جيوش النصارى وهم في دروعهم الحديدية ينقضون بسيوفهم كالبرق الخاطف فلاذوا بالفرار، وثبت المعتمد وجيش المرابطين بقيادة ابن عائشة حتى حمي القتل وكثرت جيوش النصارى ، فانهزم المعتمد بجيشه وتبعه الفونسو وأيقن بالنصر فبذل أقصى جهده .

وفي هـذه الآونة الحاسمة ألقى يوسف ببقية جيش المرابطين في المعركة فانقضت على معسكر الفونسو وأحدقت بـه وفتكت بجميع حراسه واستولت على جميع ما فيه من نفائس ، وأحرقت الخيام والمتاع ، وبينما الفونسو يطارد المنهزمين وإذا بـه يقع على حرسه منهزماً ، فلما أخبروه الخبر ترك مطاردة الأندلسيين وارتد من فوره لينقذ عسكره،ولكن يوسف انقض في جيشه المظفر

على النصارى ، وكان يشجع المجاهدين بقوله وفعله ، فكان يقول : « يا معشر المسلمين اصبروا لقتال أعداء الله الكافرين ، ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة ، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة » .

وقد كان في مقدمة الصفوف يخوض المعركة بنفسه حتى نفق تحته ثلاث أفراس، وقاتل المرابطون في ذلك اليوم قتال من لا يخافون الموت ومن يريدون الاستشهاد كذلك قاتل النصارى قتال اليائس حتى سقطت عشرات الالوف قتلى ، وغمر الدم ساحة الحرب ، ثم بدت طلائع النصر عند دخول الليل فركن الفونسو مع خمسمائة فارس من جيشه الى الفرار ، أما باقي الجيش فقد حصده الموت حصداً ، وتقدره الروايات بمائة وثمانين ألفاً من القتلى .

هذه هي موقعة الزلاقة، وكانت في الثاني عشر من رجب سنة ٤٧٩ هـ ، وقد أزاحت كابوس الموت عن المسلمين ، وأخرت سقوط الأندلس أربعمائة سنة .

ما هذه الجواري المنشآت في البحر كالأعلام ؟

ما هذه السفن تقلع من بر العدوة وتمخر البحر حتى ترسي بالأندلس ، عليها الرجال المدججون بالسلاح وفيها الخيول العتاق وفيها الزاد والعتاد والشكة والرماح ، ما مقصدها؟ ما غرضها ؟ هل تريد فتحاً وضم أملاك جديدة الى مالك قديم ؟.

إنها الاخوة الاسلامية دعت هؤلاء القوم المسلمين إلى أن يتركوا أوطانهم أن يخاطروا بأرواحهم وأموالهم لنجدة إخوان مسلمين لم يروهم من قبل ، وليس بينهم وبينهم وشيجة من لحم ودم ، وإنما بينهم وبينهم هذه الوشيجة الروحية من عقيدة وإيمان .

استغاثوا بهم فأغاثوهم ، واستنصروهم فنصروهم ، ولم يتوانوا ولم يبطئوا ، وكيف يتوانون وكتابهم الكريم يقول : « وإن استنصروكم في الدين فعليكم

النصر » ، ورسولهم الكريم يقول : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يكذبه ولا يخذله » ، ذهبوا فأزاحوا العدو الجاثم بكلكله على صدورهم ، وطردوا الموت المحقق فولى والموت خزيان ينظر هذه الاخوة الاسلامية التي ندعو اليها ، هـذه الاخوة الاسلامية التي نريـــد إحياءها وتعهدها حتى تكون فرجاً إذا دجت الكروب وادلهمت الخطوب .

— ٤ —

فُرقـــة المسلمين في دينهم أفضت بهم إلى شيء من البغض والتخاذل وعدم التعاون كأنهم ينتحلون أدياناً مختلفة .

ومن أسباب التفرق في الدين سبب خفي لا يفطن اليه كثير من الناس ولا يتحرزون منه ، وهو يعلم مما يأتي :

إن كل دين يجيء بنبذ عقائد وعادات وقيم ، وإحلال اخرى محلها ، وللعقائد القديمة تشبث بالنفوس لأنها تأصلت فيها وعمقت بها جذورها ، وقد يظن الظان أنها محيت وفرغ منها ، وإذا هي تبرز عند أدنى مناسبة وتبين مع الإهمال وعدم الالتفات .

إنه قـد يتغير السطح الظاهر ، ولكنها تبقى كامنة في الأعماق والصدور ، ولذلك توصي الأديان بالتحرز من العقائد القـديمة والاحتياط وسد الذرائع اليها لكيلا تعود وترجع كما كانت جذعة . وهي لا ترجع بصورتها الماضية التي كانت عليها ، ولكنها ترجع بصور اخرى وأشكال مخالفـة ، ولكن الجوهر واحد ، والحقيقة متفقة ، فيعلم العارفون بروح الدين ذلك فينفرون منها وينهون عنها ،

ويجهله العامة وأشباه العامة ، فلا يجدون بها بأساً ويعتنقونها ديناً ، ومن هنا يقع الاختلاف في الدين والتفرق فيه .

وقد نبّه القرآن على هـذا الأصل الذي ذكرناه وهو قوة المعتقد القديم ورسوخه في النفس وظهوره عند عدم الاحتياط ، ويحضرنا موضعان نبّه الله فيهما الى ذلك ، أولهما قوله تعالى : « وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ، إن هؤلاء متبرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون »[١] . فبنو إسرائيل لم تجف أقدامهم من البحر الذي نجاهم الله منه وأغرق عدوهم فيه ، حتى قالوا حين مرّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، ولكن نبيهم كان فيهم فوعظهم وبيّن لهم سوء ما يطلبون ، قال : إنكم قوم تجهلون ، إن هؤلاء متبرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون .

هـذا هو الموضع الأول . وثانيهما قوله تعالى : « وما أعجلك عن قومك يا موسى ، قال هم اولاء على اثري وعجلت اليك رب لترضى ، قال فإنا قد فتنّا قومك من بعدك وأضلهم السامري ، فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ، قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ، أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي ، قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنّا حمّلنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري ، فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي ، أفلا يرون ألا يرجع اليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري ، قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى ، قال يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعنِ أفعصيت أمري ؟ قال يَبْنَؤُمّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرّقت

(١) الأعراف / ١٣٨ .

بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي ، قال فما خطبك يا سامريّ ؟ قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سوّلت لي نفسي ، قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه ، وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليمّ نسفاً ، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً ، كذلك نقصّ عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنّا ذكراً » (١) .

تشير هذه الآيات إلى عبادة بني إسرائيل العجل حين غاب عنهم نبيهم موسى وأخلف فيهم أخاه هرون وأخرج لهم السامري عجلاً جسداً له خوار فقال هذا إلهكم وإله موسى. ونحب أن نبين هنا أن بني إسرائيل كانوا قبل ذلك يعيشون في مصر ، وكان المصريون يعبدون العجل أبيس ، فلما جاء موسى بالتوحيد آمن به بنو إسرائيل ، ولكنهم عند أول فتنة عادوا إلى المعبود الذي يشبه معبود المصريين .

وكما ظهرت قوة المعتقد القديم في بني إسرائيل في الحادثتين اللتين ذكرهما القرآن، كذلك ظهرت في الصحابة أنفسهم رضوان الله عليهم في حادثة ذكرها ابن هشام في سيرته :

قال في أثناء غزوة حنين : حدثني **ابن شهاب الزهري** عن سنان عن أبي واقد بن الحارث بن مالك قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ الى حنين ونحن حديثو العهد بالجاهلية ، قال : فسرنا معه وكان لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً ، فرأينا سدرة خضراء عظيمة فتنادينا من جنبات الطريق : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم

---

(١) طه / ٨٤ — ٨٨ .

ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر ، قلتم – والذي نفسي بيده – كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون، لتركبن سنن من كان قبلكم .

كان العرب في الجاهلية أهل شرك يعبدون الأصنام ، ويجعلون منها شركاء لله ، فجاء الإسلام بالتوحيد ونفي الشركاء ، وإبطال عبادة الأصنام ، وقد شرع أحكاماً كثيرة لسدّ ذرائع العودة الى الشرك .

وقد كان أهل العلم من الصحابة يعلمون قوة المعتقد القديم ورسوخه وظهوره عند الدواعي والمناسبات ، فكانوا يقفون حراساً على المعتقد القديم لئلا يبرز ، وكانوا يسدون الذرائع اليه .

في السيرة النبوية للسيد أحمد زيني دحلان : والشجرة التي كانت البيعة تحتها بلغ عمر أن اناساً يصلون عندها ويطوفون بها ، فخاف رضي الله عنه من اتساع الأمر وظهور البدعة وأن تُعبَد كما تُعبَد الأصنام ، فأمر بها فقطعت .

وفي الآلوسي في تفسير سورة الفتح : « المشهور أن النـــاس كانوا يأتونها فيصلون عنـــدها ، فبلغ ذلك عمر فأمر بقطعها خشية الفتنة بها لقرب الجاهلية وعبادة غير الله » .

وقد كان الإسلام منذ أوله يلاقي من تأصل جذور العصبية القبلية في العرب ما يلاقي ، وكان لرسول الله ﷺ سياسة قوية ثابتة في العمل على استلال هذه النزعة من القلوب ، وفي التعجيل بدرء أخطارها حين تطلّ برأسها ، وذلك أن من مبادىء الإسلام الأساسية أن : « الحق أحق أن يتبع » ، وأن اخوّة الدين قاضية على قرابة النسب ، وأن التقليد واتباع الآباء والتعصب لهم لا يتفق وما يجب على المؤمنين من إنصاف الحق والخضوع له، وتطلبه من أي افق يمكن أن يظهر منه .

فوجـــدنا رسول الله ﷺ يقف بين الأوس والخزرج حين تثور بينهم

ثائرة العصبية ، فيصلحهم ويذكرهم ويعظهم ويبين لهم ما يريد الشيطان أن يوقعه بينهم من العداوة والبغضاء ، ووجدناه يهتم بذلك أعظم الاهتمام ، ولا يؤخره لشيء ولا يقدم عليه شيئاً ، ولا يقر له قرار حتى يطفيء نيرانه بحكمته وقوتـــه .

ووجدنا القرآن الكريم يوجه إلى هذا الأمر الخطير في كثير من آياته ، ويذكر المؤمنين بالنعمة الكبرى : نعمة التأليف بين قلوبهم ، وبأن الشيطان يريد أن ينزغ بينهم حتى يحرمهم هذه النعمة ويفسدها عليهم ، فيفسد عليهم أمرهم كله .

ووجدناه ينعي على الكفار تمسكهم بما ورثوا من العقائد والعادات عن آبائهم ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ، ويضرب الأمثال من سير الأنبياء والرسل الذين كانوا لا يلتوون عن سبيل الحق ، ولا يعبأون بما يقاسون في سبيل ذلك من عنت المتعصبين الجاهلين .

كل ذلك لأن الإسلام وجد البيئة متأثرة بالماضي القريب ، ووجد جذوراً قد غاصت في أرضه يجب أن يقتلعها ، وأن يميت جميع فروعها .

فلو درس الإسلام دراسة استقصاء ، ورعى هذا المبدأ الذي قدمناه لرفع الخلاف في المسائل التي شطرت الامة الإسلامية شطرين ، ولمحى كثير من البدع ، وطمس على كثير من الخرافات ؟

— ٥ —

لعل قائلاً يقول إنك رأيت أن الخصومة والبغضاء بين المسلمين من أكبر أسبابهـا الاختلاف في الدين ، فهؤلاء يرون رأياً في الدين وينتحلونه مذهباً ويتعصبون له ويحامون عنه كما يحامي المرء عن حريمه ، وهؤلاء يرون نقيضه ويحامون عنه كذلك ، ومن ذلك تنشأ العداوة والبغضاء . والاختلاف في الدين والآراء والمذاهب طبيعي لا يمكن دفعه فهو واقع لا محالة ما دام في الناس عقول تفكر وما دام في الوجود معلومات تبحث ، فإذا كانت العداوة والبغضاء بين المسلمين منشؤها الاختلاف في الدين،والاختلاف في الدين واقع لا محالة،فالعداوة واقعة لا محالة لا يمكن رفعها ، فالجهاد في ملافاة ما وقع بين المسلمين من بغضاء وإحن ، جهاد فيما لا ينال إلا إذا سلبت من الناس عقولهم وحظرت عليهم أن يفكروا وأن يستعملوا عقولهم التي خلقها الله لهم وقد خلقت لتفكر وتبحث وتستنتج ، فهل تريد أن تسلب المسلمين عقولهم أو تحظر عليهم التفكير وأن يظلوا مقلدين لا يبحثون فيما يقلدون،والبحث العقلي والانتاج الفكري هما الميزتان اللتان تمتاز بهما الامم العليا وبهما تقدم العلوم والمعارف ، والجهل والتقليد هما النقيصتان اللتان منيت بهما الامم الدنيا ، وبهما تظل الامم راكدة لا تتقدم ولا تسير نحو الكمال وهذا سؤال صعب حله . يحتاج إلى مزيد صبر على البحث والدرس ولعلنا بهذا البحث نعين جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية على ما يجب عليهم أن يسلكوه إلى ما يقصدون .

إنه يجب علينا أن ننظر إلى تاريخ الاختلاف بين المسلمين،وإذا بحثنا في تاريخ الاختلاف وجدنا الاختلاف اختلافين،أحدهما اختلاف وقع ولم تتصدع به وحدة

المسلمين ولم يورث عداوة ولا بغضاء ، بل لم يؤثر على العلماء المختلفين أنفسهم ، فهو يقع والشمل مجتمع ، والمحبة ثابتة ، والصفاء شامل . واختلاف يورث العداوة والبغضاء وشق عصا المسلمين ويفرق جمعهم ويجعل بأسهم بينهم .

فالأول كالاختلاف الذي وقع بين الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم فقد اختلفوا بعد وفاة رسول الله من يوم **السقيفة** ، وتناظروا في ما نعي الزكاة وكان **أبو بكر** يرى قتالهم فاحتجوا عليه بقول رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » فقال أبو بكر من حقها الزكاة والله لأقتلن من يفرق بين الصلاة والزكاة والله لو منعوني عناقاً لقاتلتهم عليه . فبان لمن خالف أبا بكر أن الحق معه فتابعوه .

وقال **سليمان بن يسار** في الحامل تلد ولد ويبقى في بطنها ولد آخر : إن لزوجها عليها الرجعة وقال عكرمة : لا رجعة له عليها لأنها قد وضعت ، فقال له سليمان أيحل لها أن تتزوج ؟ قال لا قال : خصم عكرمة .

والثاني كالاختلاف الذي وقع بين **الخوارج** وجماعة المسلمين في زمن علي فقد نقموا عليه رضي الله عنه أنه حكم في أمر الرجال والله يقول (إن الحكم إلا لله)(١) وأنه قاتل ولم يسب ولم يغنم ، فلئن كانوا مؤمنين ما حل قتالهم ، ولئن كانوا كافرين لقد حل قتالهم وسباؤهم ، وإنه محا نفسه من إمرة المؤمنين فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين .

وقد ناظرهم **ابن عباس** وقال أرأيتكم إن أتيتكم من كتاب الله وسنة رسوله بما ينقض قولكم هذا ، أترجعون ؟ قالوا وما لنا لا نرجع ، قال أما قولكم حكم

---

(١) الانعام / ٥٧ .

الرجال في أمر الله فإن الله قال في كتابه : « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم »[١]. وقال في المرأة وزوجها « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها »[٢] فصير الله ذلك إلى حكم الرجال ، فنشدتكم الله ، أتعلمون حكم الرجال في دماء المسلمين وإصلاح ذات بينهم أفضل ، أو في دم أرنب ثمنه ربع درهم وفي بضع امرأة ؟ قالوا بلى هذا أفضل ، قال أخرجتُ من هذه ، قالوا نعم ،قال فأما قولكم قاتل فلم يسب ولم يغنم افتسبون أمكم عائشة فإن قلتم نسبيها فنستحل منها ما نستحل من غيرها فقد كفرتم، وإن قلتم ليست بامنا فقد كفرتم ، فأنتم ترددون بين ضلالتين ! أخرجت من هذه ؟ قالوا بلى ، قال وأما قولكم محا نفسه من إمرة المؤمنين فأنا آتيكم بمن ترضون : إن نبي الله يوم الحديبية حين صالح أبا سفيان وسهيل بن عمر وقال رسول الله اكتب يا علي هذا ما صالح عليه محمد رسول الله فقال أبو سفيان وسهيل بن عمرو ما نعلم أنك رسول الله ولو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك قال اللهم إنك تعلم أني رسول الله امسح يا علي واكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وأبو سفيان وسهيل ابن عمر ، قال فرجع منهم ألفان وبقي بقيتهم فخرجوا فقتلوا أجمعين .

ليس العسر في أن نجد هذين القسمين من الاختلاف فهو أمر ظاهر يعلمه كل من اطلع على تاريخ الاختلاف ، إنما الصعوبة في أن نميز بين هذين النوعين من الاختلاف ، في أن نعلم خواص النوع الأول وخواص النوع الثاني لنتيح للمسلمين أن يختلفوا ما شاؤا إذا كان الاختلاف برداً وسلاماً ، ونحذر المسلمين من أن يختلفوا إذا كان الخلاف بغضاً وخصاماً .

---

(١) المائدة / ٩٥ .
(٢) النساء / ٣٥ .

أول خاصية تميز بين هذين الخلافين هي نفسية المختلفين ، فإذا كان المختلفان يؤمنان بأنهما متعاونان في الوصول الى الحق ، وأن كليهما سائر مجدّ الى الحق ، وأن من وصل اليه فقد وفق ، ومن تخلف عنه فالعذر له والحق أراد ، وإذا كان المختلفان واسعي الصدر ، عادلين في المعاملة ، يرى كلاهما أنه إذا كان له الحق في أن يرى الرأي ويعتقده ولو خالف صاحبه فلصاحبه مثل هذا الحق : له أن يرى الرأي ويعتقده ولو خالف الناس جميعاً ، نقول : إذا كان المختلفان كذلك كان الخلاف خيراً وبركة وهو مرانة للعقول على البحث وتقوية لها على الابتكار والاستنتاج . وإذا كان المختلفان جائرين في المعاملة يرى أحدهما أن له أن يجول بعقله في ميدان الفكر وأن يحكم على الأشياء بما أداه اليه عقله وأن ليس للآخر مثل هذا الحق . وإذا كانا ضيقي الصدر لا يتحملان أن يريا مخالفاً ، فالخلاف نار محرقة تحرق الإلفة وتؤجج العداوة والبغضاء .

وهذه العدالة النفسية التي ذكرناها لا يكسبها إلا من اتسع افقه وعرف خواص النفس الإنسانية من حب البحث والاستقصاء ، وأن محالاً أن تقر الناس جميعاً على رأي واحد ، لأن فيهم من الآراء والمذاهب بقدر ما في عقولهم من حركة نحو البحث والاستنباط .

والإسلام إذ يدعو الى المحبة والإلفة مع ما في طبيعة البشر من اختلاف ، يدعو الناس الى توسيع افقهم وإلى الثقافة العالية التي تعرفهم طبائع النفوس في الاتفاق والاختلاف ، بل يوجب ذلك لأن المحبة والإلفة بين المسلمين واجبة وهي لا تكون مع ما في الناس من اختلاف ، إلا بالثقافة العالية والافق الواسع ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ومما يتصل بنفسية المختلفين أن يكون الخلاف لغرض الوصول الى الحق لا للتوصل به إلى جاه أو منصب أو رياسة أو مال ، فإنه إذا تمحض للحق عظم أثره وحسنت عاقبته ، وإذا شابته الشوائب ساءت عاقبته وضل من اتبعه .

الخاصية الثانية هي اتفاق الثقافة أو اختلافها ، فكلما كان المختلفان متفقي الثقافة ، كانا أقرب الى الاجتماع والمودة ، وكلما كانا مختلفي الثقافة كانا أقرب الى الافتراق والبغضة ، كأن يكون أحدهما ثقافته سمعية يميل الى الأثر والنص ، والآخر ثقافته عقلية يميل الى إعمال الرأي والقياس ويجد لذة عقلية في أن يبحث بعقله ويستنتج بفكره ، فالأولون يحبون الآثار والنصوص والبحث فيها والاستنتاج منها ، والآخرون يحبون المقاييس والبحوث العقلية وعلوم اليونان من منطق وطبيعة وفلسفة إلهية .

وهذا يفسر لنا ما يروى عن عمرو بن عبيد الزاهد وكان معتزلياً : أنه سمع واصل بن عطاء وكان رئيس فرقة من المعتزلة ، فقال : ألا تسمعون ! ما كلام الحسن وابن سيرين عندما تسمعون إلا خرقة حيض ملقاة .

وكان بعض من يفضلون علم الكلام على الفقه يقولون : إن علم الشافعي وأبي حنيفة جُمله يخرج من سراويل امرأة .

ومن القبيل الآخر تجد الشافعي يقول : حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ويُطاف بهم في القبائل ، هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام . ويقول أحمد بن حنبل : لا يفلح صاحب كلام أبداً ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل . ويقول مالك : أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد ! ويقول ابن عيينة : سمعت من جابر الجعفي كلاماً خشيت معه أن يقع عليّ وعليه البيت .

الخاصية الثالثة تتعلق بالموضوع المختلف فيه ، فكلما كان الموضوع مثلاً متعلقاً بذات الله أو صفة من صفاته أو فعل من أفعاله كان مثاراً للفتنة والبغض ، وكلما كان بعيداً من ذلك كان مرجو العاقبة ومظنة للسلامة .

اختلف المختلفون في هذه الملة في الله أيوصف بالصفات الثبوتية أم لا يوصف

إلا بالسلب ، واختلفوا هل الصفات عين الذات فيعلم بذاته ويقدر بذاته ، أم الصفات غير الذات فيعلم بعلم هو غير الذات ويقدر بقدرة هي غير الذات ؟

واختلفوا هل هناك قدر سابق لا يفرّ منه المرء ، أو الأمر أنف ، فمن سعد فبنفسه سعد ، ومن شقى فبنفسه شقى ؟

وفي كل ذلك يرى المختلفون : أن المخالف نسب الى الله ما لا يليق به ، فالمثبتون يرون أن المجردين يصفون عدماً ، والمجردون يرون أن المثبتين يذهبون الى التركيب في ذاته وأنهم أثبتوا قدماء مع الله هي صفاته ، والنصارى كفروا بإثبات قدماء ثلاثة فكيف بمن أثبت قدماء متعددين بتعدد الصفات ؟ والنافون للقدر يرون أنهم أهل العدل إذ نسبوا إلى الله العدل ولم ينسبوا اليه الجور كخصومهم الذين أثبتوا أن الله قدّر على العبد الكفر والمعاصي ولم يكن للعبد أن يفلت مما قدر ثم هو يعذبه على ما كتبه عليه وقدّره ، والمثبتون للقدر يرون أنهم أثبتوا لله سعة العلم والإحاطة .

وفي كل ذلك يظن المرء أن مخالفه قد كفر لأنه نسب إلى الله ما لا يليق به ، أو أنه قد كفر لأنه نفى ما أثبته الله لنفسه في كتبه وعلى ألسنة رسله فيكون بين المختلفين ما بين المسلم وغير المسلم من الخلاف والشر .

الخاصية الرابعة هي ماينشر حول المخالفين من ظنون وتهم أو من حسن رأي واعتقاد، فإذا نشرت عنهم قالة السوء وساء الاعتقاد فيهم زاد البغض لهم، وإذا كان الرأي فيهم حسناً ولم يوصفوا بالزيغ والإلحاد والمروق من الدين عُذروا ولم يعلق بهم شر لذلك .

وقد كنت أكره ابن تيمية وابن القيم لأني كنت أقرأ في كتب فقه المالكية التي أدرسها ما نقلوه عن الشافعية من أن ابن تيمية ضال مضل ، فلما قرأت كتبه وكتب تلميذه ابن القيم زال ذلك البغض ورأيتهما عالمين مصلحين لهما من الآراء

الإصلاحية ما يحتاج اليه هذا العصر ، وكنت أخاف المعتزلة وأراهم فتنـــة من الفتن لما كان ينشر حولهم من التهم والتضليل ، فلمـا تأملت مذاهبهم ودرستها درساً مستقصى زال ذلك الخوف ورأيتهم فرقاً من فرق المسلمين أعملوا عقولهم ومعارفهم ليسموا بالدين عن الخرافات والأوهام ، وكذلك قل في الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، والسيد جمال الدين الأفغاني ، والسيد رشيد رضا .

وبهذا البحث قد أصبحت الطريق واضحة أمام جمـاعة التقريب فليس من شأنهم أن يفعـلوا المستحيل ويرفعوا الخلاف بين الشيعة والسنيين أو بين المعتزلة والأشعرية مثلا .

وليس من شأنهم أن يأخذوا من الآراء المختلفة رأياً يأخذ من هذا ومن ذاك، لأن ذلك مسخ وتشويه وإحداث لقول ثالث يزيد نار الخـلاف اشتعالا ، وكان بعض مشايخنا الذين يدرسون لنـا علم الكلام يحاول هذا في كل مسائله ، فكنت اناقشه وأقول له : إن هـذا الخلاف نشأ عن أصلين مختلفين التزم كل من المختلفين بأصل ، وإن الرأي الذي جئت به وتراه رأياً لهما قـد خرج عن الأصلين اللذين يلتزمانها ، فكان لا يصيخ إلى ذلك لأنه كان يرى من رسالته رفع الخلاف .

وإنما من شأنهم أن يعملوا على تحسين ظن المسلمين بعضهم ببعض ، وعلى نشر روح التسامح والمحبة ، وأن يحسنوا نفسية المختلفين فيكون غرضهم الوصول إلى الحق ، وأن يعملوا على مـا يعين على ذلك من نشر المعارف الصحيحة ، والثقافة العالية ، وهـذا عمل ليس بالقليل ، وجهد ليس باليسير ، والله يوفق من يريدون الخير والإصلاح .

— ٦ —

لقد بقي عنصر مهم من أسباب الاختلاف بين المسلمين ، ومن أسباب الفرقة والانقسام ، ذاكم هو العنصر السياسي .

يكون للسلطان مصلحة في رأي من الآراء،أو في الفرقة والاختلاف: فيروّج لهذا الرأي وتقوى دعائمه ، وتوضع لهذا الاختلاف أسباب تبرره حتى يستحكم الاختلاف ويتم الانقسام ، وتتم مصلحة السلطان الوقتية من توطيد ملكه أو كيد عدوه .

إن الإسلام وضع مبادئه وأحكامه على أساس مصلحة المجتمع الإسلامي كله بجميع طوائفه وأجناسه وهيئاته المختلفة ، فإذا حرفت هذه القواعد أو بعضها لمصلحة طائفة كمصلحة الحاكمين مثلا نالت هذه الطبقة مصلحة وقتية ، ودخل النقص والضرر على مصلحة المحكومين ، ومن ثم على المصلحة العامة : مصلحة المجتمع .

والقائم على هذه المبادىء الإسلامية يمنعها عن التحريف وسوء التطبيق هم العلماء الذين يعرفون روح الإسلام وما به مصلحة المسلمين،ولا تزال هذه القواعد تؤدي النفع منها ما حافظ العلماء عليها من تحريف المحرفين وابتداع المضلين ، فإذا فرطوا في المحافظه عليها وطاوعوا السلطان عليهـــا في التحريف والتغيير فقدت ثقتها وأصبحت لا تؤدي ما كان يرجى لها من خير ، لذلك جعل الإسلام هذه القواعد أبدية لا يجوز لأحد تغييرها أو التحكم فيها ، فهي بمثابة القواعد الأساسية في الدساتير الحديثه التي لا يجوز لحكومة ما أن تغيرها أو تعطلها ،

وأخذ الله على العلماء القائمين عليها المواثيق المغلظة ألا يكتموها ولا يحرفوها «إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون»[١].

«أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون»[٢].

«لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون»[٣].

فإذا استجاب العلماء للسلطان، ومغريات السلطان كثيرة، فعنده المال والجاه ومتاع الدنيا وحظوظها، وعنده العذاب والتنكيل فمنه سيف المعز وذهبه دخل على الامة من البلاء بقدر ما يضيع العلماء من هذه القواعد العادية الحافظة للصلاح والدارئة للفساد، وقد أشار إلى هذا عبد الله بن المبارك في قوله:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها
وما أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها

يقول إنه لم يفسد الدين إلا الملوك وعلماء السوء، أولئك برغبتهم الجامحة، وهؤلاء باستجابتهم وعدم المحافظة على ما استودعوا عليه من صيانة الدين من التبديل والتحريف، ويتبع فساد دين الناس فساد دنياهم، لأن الدين جاء بقواعد العدل التي تصون مصالح الأفراد والطوائف، فإذا أضيعت هذه القواعد بضياع

---

(١) البقرة / ١٥٩.
(٢) البقرة / ٧٥.
(٣) المائدة / ٧٥.

الدين ، ضيع العدل بين الأفراد والطوائف ، وإذا ضيع العدل ساءت الاحوال وفسد أمر الدنيا .

هذه الأمانة التي في أعناق العلماء إذن أمرها عظيم ، وخطرها جسيم ، إذا أديت صلح الدين والدنيا ، وإذا ضيعت فسد الدين والدنيا ، لذلك عظم الإسلام أمرها ، وزين أداءها في قلوب الناس ، قال النبي ﷺ : « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .

وكما زين أداء هذه الأمانة خوّف من تضييعها ، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال : « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » . وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وعلى أثرة علينا ، وعلى ألا تنازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله تعالى فيه برهان ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم . وروى عن أبي مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » .

وعلى رأس ذلك كله قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » [١] وقوله : « ونجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون » [٢] .

---

(١) آل عمران / ١٠٤ .
(٢) الاعراف / ١٦٥ .

وقد قال النبي ﷺ : « الدين النصيحة الدين النصيحة الدين النصيحة ، قيل لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » وقد عرف العلماء هذا الحمل الذي ألقى على كاهلهم ؟ فكانوا يقومون بعبئه ولا ينوؤون به ، روى الحسن البصري أن عائذاً بن عمرو دخل على عبيد الله بن زياد فقال: أي بني إني سمعت النبي ﷺ يقول: إن شر الرعاة الحطمة فإياك أن تكون منهم ، فقال له اجلس ، فإنما أنت نخالة أصحاب محمد ﷺ ، فقال : وهل كانت لهم نخالة ؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم .

وروي أنه دخل أبو مسلم الخولاني على معاوية بن أبي سفيان فقال: السلام عليك أيها الأجير ، فقالوا : قل أيها الأمير ، فقال : السلام عليك أيها الأجير ، فقالوا : قل أيها الأمير ، فقال : السلام عليك أيها الأجير ، فقالوا : قل الأمير ، فقال معاوية : دعوا أبا مسلم فإنه أعلم بما يقول ، فقال إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها، فإن أنت هنأت جرباها ، وداويت مرضاها ، وحبست أولاها على أخراها وفاك سيدها أجرك ، وإن أنت لم تهنأ جرباها ، ولم تداو مرضاها ولم تحبس اولاها على أخراها عاقبك سيدك .

وقد كان من الحاقدين على الفقهاء من لا يعينونهم على عبئهم بل يستعدون السلطان عليهم بحجة أن الأحكام التي اجتهدوا فيها واستنبطوها تسيء إلى السلطان من قريب أو من بعيد،وكان من الفقهاء من تبلغ به الفطنة والذكاء إلى أن يعكس القضية عليه ، ويبين أن في اجتهاده تأييداً للسلطان ، وأن تقويض السلطان من أساسه هو فيما يريده هذا اللاحي ، كما وقع بين الربيع حاجب المنصور وأبي حنيفة النعمان .

ورد في تاريخ بغداد عن أبي يوسف قال : دعا المنصور أبا حنيفة ، فقال الربيع حاجب المنصور — وكان يعادي أبا حنيفة — يا أمير المؤمنين هذا أبو حنيفة يخالف جدك ، كان جدك عبد الله بن عباس يقول : إذا حلف على اليمين

ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو يومين جاز الاستثناء ، فقال أبو حنيفة : لا يجوز الاستثناء إلا متصلاً باليمين . فقال أبو حنيفة : يا أمير المؤمنين إن الربيع يزعم أنه ليس لك في رقاب جندك بيعة ، قال وكيف ، قال يحلفون لك ويرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم ، قال : فضحك المنصور وقال : يا ربيع لا تعرض لأبي حنيفة ، فلما خرج أبو حنيفة قال له الربيع : أردت أن تشيط بدمي ، قال لا ، ولكنك أردت أن تشيط بدمي فخلصتك وخلصت نفسي .

إن قيام العلماء بما حملوا من أمانة ونصيحة أئمة المسلمين وعامتهم أيمن على المسلمين من بركات الأرض والسماء ، وإن تضييع العلماء أمانتهم وغش المسلمين أئمتهم وعامتهم أشأم من الصواعق المحرقة والطواعين المدمرة .

وسأضرب مثلاً :

لقد منح الله الامم الإسلامية في العصر الأخير قوة تجلب لها كل قوة ، وتفتح لها باب الرقي والعز .

لقد أعطاها الاكسير الذي في قدرته التحويل والتعمير ، ليس الاكسير الذي يحول النحاس إلى ذهب ، بل الاكسير الذي هو أجدى من ذلك ، هو الاكسير الذي يحوّل الامم الجاهلة إلى امم عالمة ، والامم المنحطة إلى امم عالية ، والامم الذليلة إلى امم عزيزة ، أتدرون ما هذا الاكسير ؟ إنه النفط الذي تفجرت به أرضها وامم الأرض بحاجة اليه لأنها بنت حضارتها عليه ، فهو ذهب نضار يتفجر من أرضها ، هو مال ، والمال عصب الحياة ، هو إحدى الدعائم الثلاث التي ترقي الامم وتعزها ، وهي المال والعلم والقوة ، ودعامة المال يمكن أن تأتي بالدعامتين الاخريين : العلم والقوة ، ودعامة المال لا تفعل ذلك بنفسها ولكن بشرط أن تنفق كما يأمر الشرع الحكيم ، أما إذا انفق على غير هذا الوجه أورث الترف وحسبكم بالترف مفسدة للأفراد والامم .

فإذا قام العلماء ببيان ما أنزل الله وعرفوا الامراء والولاة حكم هـذا المال في الإسلام وأنه يجب أن ينفق في مصالح الامة من سد الثغور وتجنيد الجنود واتقاء الأعـــداء المغيرة عليهم وتحصين الامة الإسلامية بالعلم والقوة وحملوا الحكام على ذلك ، بلغت الامة الإسلامية أرقى درجات العز وسادت امم الأرض ونجت من بين براثن وأنياب الأسد المطبق فكيه عليهم .

وإن كتم العلماء مـا أنزل الله وانفق ذلك المال في الترف ساء الحال وزادت الامة الإسلامية فساداً على فساد وابتلعتها الهوة الفاغرة فاها لتبتلع الامم الجاهلة الضعيفة المنحطة .

ألا إن القدر قد أنصف الامم الإسلامية ووضعهم على سلم العز والجد وأعطاهم العنصر الأهم الأقوى ، فإذا لم تنج من بين براثن هذا الموت ، ولم تعز بعد هـذه الضعة وترق بعد هـذا الانحطاط فلا نجت ولا عزّت ولا رقيت ، وكانت حجة عليهم أمام الله وأمام التاريخ ، هذه فرصة والفرصة كما يقولون صلعاء من الخلف فإذا لم يأخذوا بناصيتها فاتتهم .

وليس أحد أحق باللوم ممن رزق أسباب الكمال وظل ناقصاً لا يتم ولا يكمل وسأنشر كتاباً ابيّن فيه حكم الإسلام في المعادن والركاز وابيّن أهو ملك للحاكمين يتصرفون فيه تصرف المالك فيما يملك أم هو ملك للامـــة يتصرفون فيه تصرف الوكلاء والامناء لا يجوز لهم أن ينفقوه إلا حيث أمرهم الله كما قال النبي ﷺ : « أنا والله لا اعطي أحداً ولا أمنع أحداً إنما أنا قاسم أضع حيث امرت » .

فمن كان من الحاكمين قد تصرّف على مقتضى ذلك أسعده ذلك وسرّه ، ومن لم يفعل ذلك فلا تزال في الوقت فسحة ، والله وليّ المتقين .

— ٧ —

لعل قائلاً يقول : لقد كتبت في أسباب فرقة المسلمين واختلافهم ووقوع العداوة والبغضاء بينهم ، وعالجت ذلك بالأسباب الممكنة ، ولكن كل ما ذكرته كان في القديم وكانت له أسباب موضعية لا توجد في هذا الزمن ، فقلما ينتفع بها أهل هذا العصر ، ونحن بحاجة إلى أن تدرس أحوال المسلمين في هذا العصر ، وتعلم أسباب اختلافهم ، وما علاج ذلك ، وتدلنا عليها ونضع أيدينا على مواضع الخطأ والصواب ، لنتلافى الخطأ ونتبع الصواب ، ولعل ذلك يكون أجدى من الكلام في امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون .

إننا الآن في فرقة واختلاف ، فمصر وسورية والمملكة السعودية والاردن في ناحية ، وتركيا والعراق وإيران وباكستان في ناحية ، وبعضها يخرج من هذا المعسكر ليدخل في المعسكر الآخر ، وبعضها يتردد بين هذا وذاك . وتتناول الصحف والمجلات والساسة كل ذلك بالتعليق والتأنيب ، والتخطئة والتصويب ، والعتب والاستهجان ، وهذا مما يدعو إلى الفرقة والشقاق والعداوة والبغضاء ، أفما كان من الأجدر ومن الوفاء للامم الإسلامية المعاصرة أن تطب لها وتعرف داءها ؟

ومن العجب أن يكون بين المسلمين من المهاترات والمناقضات ما لا يكون مثله بينهم وبين أعدائهم الحقيقيين ، الطامعين في بلادهم ، المضعفين لشوكتهم ، المذلين لكبريائهم .

هـــذه حال يرثى لها ، ومن الواجب على أولي الرأي أن يتلافوها قبل استفحالها ، وأن يرأبوا الصدع ويرتقوا الفتق ويجمعوا كلمة المسلمين .

ونحن نقول في الجواب : إن كل مـا قلناه ينطبق على العصر الحاضر ، وإنه ينفع الامم الإسلامية المعاصرة كما كان نافعاً للامم الإسلامية الماضية ، يتبين ذلك بالنظرة الفاحصة ، والروية المتأنية .

ونحن سنطبق بعض مـا قلناه من الأسباب : ألم نقل إن من أسباب الخلاف السلطان القـــاهر ؟ فإنه يوجه الامم المحكومة لمصلحته ، ولو كان ذلك في غير مصلحة المحكومين ، ونريد بالسلطان : السلطان الظاهر والسلطان الخفي ، وما بين هذه الدول التي ذكرت ، سببه السلطان الخفي من الدول العظمى التي تتنازع امتلاك العالم وتريد أن تدخل الجانبين في هذا الصراع .

هـــذا هو السر في أن اجتماعات الدول العربية لا تسفر إلا عن معسول من القول وكثير من المجاملات ، وهذا هو السر في أن البيانات التي تصدرها ببيانات لا تنفذ ولا يرتبط الجميع بمـا فيها ، يضطر أحدهم أن يقول أو يكتب أو يوافق على ما يخالف مصلحة السلطان الخفي فيفعله مجاملة للمجتمعين ، وفي نفسه ألا ينفذ منه حرفاً أو يرتبط منه بمبدأ ، لا فرق في ذلك بين أن يكون الاجتماع على مستوى عال أو على مستوى خفيض .

معذور هؤلاء فإنهم مضطرون إلى أن يرضوا أممهم ويرضوا السلطان الخفي ، والثاني لا يرضى إلا بالفعل ، والأولون ترضيهم الكلمة الطيبة والامنية البراقة ، ولكن ذلك إن أجدى مرة فلن يجدي فيما بقي من المرات ، وإن نفع سنة فلا ينفع فيما بقي من السنوات .

إننا حريصون على سمعة أمتنا وملوكنا وأمرائنا ويسوؤنا ، بل يؤسفنا أن يتندر بهم عدوهم المشترك : إسرائيل ، وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل

إنهم تكاشفوا وترامَوا بنصال القول وسيء التهم ، فلا يعجبني من الصحافة المصرية أن تذكر آلاء مصر على الاردن، وما أسدته اليها من طائرات وأسلحة، وما أعانتها به حتى تخلصت من حاكم مطلق كان يسيّر جيش الاردن على حسب إرادته وهو جلوب باشا ، وما أشركتها به في مالها حتى تكفلت لها بخمسة ملايين من الجنيهات من ميزانيتها تدفعها لها كل عام لتستغني بها عن معونة بريطانيا .

ولا يعجبني من المسئولين في الاردن أن يكيلوا لمصر الاتهامات، وأن يتكلموا عن مؤامرات لقلب نظام الحكم في الممالك العربية ، وعن اتهام الحياد الإيجابي بأنه ستار للاتفاق مع روسيا ، وماذا يكون بعد هذا السيل الجارف من الاتهام والمهاترات .

هذا أمر خطير له ما بعده ، فلا بد أن نلتمس له العلاج ، وأن نطب لهذا الداء .

لم أر أدعى للوفاق وأبعد عن الشقاق من أن تتركوا المختلف فيه ، وتأخذوا في المجتمع عليه .

اجعلوا خطر إسرائيل نقطة البدء، فلم يبق شك عند عربي ما في أن إسرائيل زرعت في فلسطين كما يزرع القتاد في عين كل عربي ، وكما يوضح الشجى في حلوق الامم الاسلامية ، إنها جاءت يداعبها خيال ديني في أن تمتلك أرض الميعاد ، وهي ما بين دجلة والفرات ، والخيال الديني يفعل في النفوس فعل السحر، وهي مزودة بالعلم وبالعزيمة الاجتماعية التي لا تلين ، وبالرأي المصمم الذي وضعت خطوطه وفرغ من تصميمه ، وبحسب كل جيل أن يضع في بنائه حجراً ، ثم هي يعينها أضخم الدول وأقوى البشر ، ويمدونها بالمال الذي لا ينفد ، والمعونة التي لا تنكر ، وإنها تطرق إطراق الثعبان فإذا وجد مساغاً لنابيه صمم ، فكل ما

يؤمنكم خطرها وينجيكم من شرها فهو خير يتبع، وكل ما يضعف من مقاومتكم فهو شر يجتنب .

لقد قرأت أبياتاً لشاعر عربي قديم لم أر أجمع منها للقلوب المتفرقة وأعظم منها في الحلم وحسن السياسة ، وأحرى منها بأن ترد النافر من الأقربين وتجمعهم على رد كيد الأبعدين ، ولم أر وقتاً أحرى بأن تأخذ بها الدول العربية من هذا الوقت وهي :

وذوي ضباب مظهرين عداوة قرحى القلوب معاودي الأفنادي
ناسيتهم بغضاءهم وتركتهم وهمو إذا ذكر الصديق أعادي
كيما أعدهمو لأبعد منهمو ولقد يجاء الى ذوي الأحقاد

يقول ورب قوم ذوي أحقاد يظهرون عداوتي ولا يخفونها ، جرحى القلوب يعاودون السوء من القول ، ناسيتهم بغضاءهم وهم أعاد إذا ذكر الصديق كيما أعدهمو لأبعد منهم ، فأستعين بالقريب على البعيد ، وبالبعيد على الأبعد ، ولقد يُلجأ إلى ذوي الأحقاد فيُدفع بهم من هو أشد حقداً وأنكى ضرراً .

فما أحراكم أيها العرب، وما أحراكم أيها المسلمون أن يغض بعضكم عن بعض، وأن تتناسوا العداوة والأحقاد ، لأن وراءكم من هو أشد حقداً وأنكى ضرراً ، يتربص بكم الدوائر ، ويترقب الفرقة والإختلاف ليثب وثبة الليث فلا يبقي ولا يذر ، وليس لكم من وزر إلا أن يلجأ بعضكم إلى بعض لتدفعوا العدو المشترك الذي هو أنكى من كل عدو .

إن الأمر خرج من أن يكون عوناً لإخوانكم إلى أن يكون عوناً لأنفسكم ، وإن المسألة ليست مسألة أخلاق قد تأخذونها وقد تدعونها، إنما هي مسألة بقاء، وقد جبل الوجود كله على تلمس البقاء والحرب في سبيله .

أيذهب العرب يلتمسون الوحدة والاجتماع فإذا هم يرجعون بالفرقة والإختلاف يعودون شراً مما كانوا ، فلقد كانوا والماضي مغطى لا ينبشه أحد ،

والجروح ملتئمة يتحاماها الناس لئلا تنكأ، فعادوا والجروح قد نكئت والماضي قد نبش ، فإلى متى تفرقون الشمل في سبيل جمع الشمل ، وتضيعون الوحدة والوفاق في سبيل الوحدة والوفاق .

إن الامم القوية تسعى إلى التكتل بكل وسيلة، فتبحث عن امة بينها وبينها أدنى سبب وتجعل منه رباطاً قوياً متيناً ، فما بالكم وأنتم بينكم روابط ووشائج وأسباب بينكم رابطة النسب ووشيجة اللغة ، وسبب الإسلام تقطعون وشائجكم وروابطكم وأسبابكم ، ولو لم تكن بينكم هذه الوشائج لكانت بينكم وشيجة لها حرمتها وهي أنكم مشتركون في الظلم ، مبادؤن بالعدوان ، والمظلوم ولي المظلوم ، وكل غريب للغريب نسيب .

الباب الرابع

التقارب في مسائل هامّة

- خلاف نرضاه وخلاف نأباه
- منهاج عملي للتقريب
- علي بن أبي طالب والتقريب بين المذاهب
- صيانة القرآن من التحريف
- التقية بين الشيعة والسنة
- الامامية بين الأشاعرة والمعتزلة
- من اصول الشيعة الامامية
- الخلاف لا يمنع من الانصاف

خلاف نرضاه
وخلاف نأباه

لحضرة صاحب السماحة العالم الجليل الاستاذ
محمد تقي القمي السكرتير العام لجماعة التقريب

هناك فرق بين خلاف وخلاف .

هناك خلاف تمليه طبيعة التفكير ، وتقتضيه سنن الاجتماع ، ونحن نقبله ونرضاه . وهناك خلاف يصطنع اصطناعاً ، ونحن نرفضه ونأباه .

إننا نقبل الخلاف الفكري ما دام في دائرة معقولة. ونرحب بالخلاف المذهبي لانه وليد آراء اجتهادية مرجعها الكتاب والسنة أو ما أعطاه الكتاب أو السنة قوة الحجية . ونرحب بما عند الشيعة وأهل السنة ، لأنهما تؤمنان بما يجب على المسلم أن يؤمن به ، وإن اختلفتا في مسائل فقهية ، وتميزتا في مسألة الولاية والخلافة . ونرحب كذلك بالمعارف الكلامية ، لأنها ميدان من ميادين التفكير ، للمسلم أن يجول فيه .

نحن نرحب بهذه الخلافات كلها ، بل نعتز كمسلمين بالكثير منها ، لأنها إن دلت على شيء فإنما تدل على الحرية الفكرية ، ولأنها إن أحسن النظر اليها، تسعد الامة وتكفل رقيها وتبقى على سلامتها .

إن هذه الخلافات في جوهرها تنبىء عن معنى الوفاق ، فهي ترتبط بأصل واحد هو الكتاب والسنة .

وليس معنى هذا أن في الكتاب خلافاً،فالمسلمون بحمد الله متفقون في كتابهم مجمعون على ما بين الدفتين، وهذا فخر ليس فوقه فخر تنفرد به هذه الأمة دون غيرها من سائر الشعوب .

وكذلك ليس معناه أن في السنة خلافاً ، بمعنى أن البعض يقبل ما صدر عن الرسول ﷺ والبعض لا يقبله ، معاذ الله ، فالمسلمون يتفقون في وجوب الأخذ بسنة رسول الله ﷺ ، ولكنهم قد يختلفون في الفهم أو التفسير أو في أن هذا صدر عن الرسول الأعظم أو لم يصدر . أما من لا يأخذ بما أمر به الرسول فليس بمسلم .

فالآراء الاجتهادية إذن ، يجمعها الكتاب والسنة ، وليس بعد هذا من وفاق.

على أن الاجتهاد نفسه مقيد بشروط ، منها : أنه لا يقوم إلا على الكتاب والسنة والاصول المستوحاة منهما أو من أحدهما ، وأنه لا يباح إلا لمن استوفى شروط العدالة ، وأنه لا يكون إلا فيما يجوز الاجتهاد فيه . فإذا حاولنا أن نحمله وزر بعض الأخطاء التاريخية ، أخطأنا فهم معناه . وإذا أجزناه في غير محله ، جانبنا الصواب . فحيث يكون ظالم ومظلوم مثلاً ، لا يجوز أن يبرر الظلم بإعطائه اسم الاجتهاد ، وإلا كان للظالم أجر على ظلمه ، كما للمجتهد أجر على اجتهاده ، وفي هذا مغالطة وانحراف .

وليس يجوز الجدال في قيمة الاجتهاد مهما يكن من تعدد الآراء بين المجتهدين، فهذا مما يشرف التشريع الإسلامي ويجعله صالحاً لعلاج ما يجد وما يحدث في كل زمان ومكان .

أما كيف تنشأ الخلافات بين مذهب ومذهب ، سني وسني أو سني وشيعي، فإن ذلك يرجع تارة إلى تفسير آية أو فهم معنى منها أو فهم رواية على معنى يفهم

الغير منها معنى سواء ، أو أن هناك ما ثبت صدوره عن الرسول الكريم عند فريق ولم يثبت عند فريق آخر . ولا يختلف الجميع على أن ما جاء به الكتاب وما جاء به النبي ، فأصل لا راد له .

وأما الخلافات حول أوائل المقالات ، أو المعارف الكلامية ، أو ما يسمى بعلم الكلام، فإنها حول معارف إسلامية تبلور كثيراً من الحقائق وتصقل العقول والأفهام، وتحدث باحتكاكها وميضاً يكشف سبل البحث وطرائق الاستدلال.

تلك هي خلافات المسلمين ، وهي في باطنها تشير إلى الوحدة لا إلى الفرقة ، وتنبيء عن الاجتماع لا عن التشتت . ومـا دام الحق هو المبتغى فالوصول اليه ليس بعسير إذا نظر كل فريق نظرة هادئة إلى ما عند سواه ، فإن اقتنع بوجهة نظره فبها ونعمت ، وإلا عذره فيما ثبت عنده واحترم رأيه فيه، ومثل هـذا المسلك الطبيعي يحقق للامة الخير ، ويقابل بكل تقدير، وأكبر دليل على ذلك، ما قوبل به كتاب فقه الإمامية الذي طبع في مصر أخيراً ، فقد قوبل بترحيب حار ، رغم أنه كتاب مذهب لم يكن معروفاً عند الكثيرين ، ورغم أن فيه خلافات في بعض مسائل فقهية اقتضتها طبيعة الفقه وطبيعة الاستنباط . والترحيب بهذا الكتاب يدل على أن المسلمين بطبيعتهم يحسنون التقدير .

أما الخلاف الذي لا نرحب به ولا نقبله ، بل نرفضه ونقاومه ، فهو الخلاف الذي تمليه الكراهية والبغضاء ، وتغذيه الشبه والأوهام ، ويوجـد البلبلة في صفوف الامة ، ويؤدي إلى تفريق كلمة المسلمين .

ذلك خلاف لا يتفق والخلق الإسلامي ، ولا يستند إلى المعارف الإسلامية ، حمل لواءه مؤلفون كتبوا قبل التثبت تارة ، وبداعي الغرض والهوى تارات ، فسوّدوا صحيفة الشيعة في نظر أهل السنة، وسوّدوا صحيفة أهل السنة في نظر المتشيعين . بعضهم خلط بين أهل السنة والنواصب ، وأكثرهم خلطوا بين الشيعة

والغلاة ، وبينها وبين الفرق البائدة ، وألصقوا بهـا آراء لا تمتّ اليها بصلة ، بل الشيعة منها براء .

وكم من كتب وضعت لتأجيج الخصومة بين طوائف المسلمين ، وكم من أقـلام أسفت في التجريح خدمة لحكام طغـاة أقاموا عروشهم على أساس الخصومة بين المسلمين . وكان لهذه التآليف أسوأ الأثر في تصدّع وحدة الامة ، فقد غرست البغضاء في القلوب ، والظنة في العقول ، وأبعـدت طائفة كبيرة عن إخوانهم في الدين .

ثم جاء التقريب ، فلم يدع إلى توحيد المذاهب ، ولم يقصد إلى إلغاء الخلاف ، وإنمـا نبّه الوعي ، وأوضح بأدق بيان وأوفاه أن الهجوم والتشنيع وجرح العواطف لا تخدم أي مذهب ، وأن الإسفاف في السب والشتم لا يفيد أي طائفة ، بل على العكس يجلب الضر لكل فريق .

وتأثر بدعوتنا كثير من حملة الأقلام فجنحوا إلى سلوك سبيل المنطق والبرهان وأسرع هذا الأثر أكثر مما كنا ننتظر ، إلا أن بعض الأقلام لا تزال تسف ، ولكنها ــ والحمد لله ــ ليست بذات وزن ، وعما قليل ينتهي أمرها إلى زوال .

وإذا كان المتزمتون هنا ، والجامدون هناك حاولوا عرقلتنا ، وبذلوا جهدهم ليعوقوا سيرنا ، فقد نجحنا في إسكات أكثرهم ، وكان إسلامهم أكبر عون لنا عليهم ، لأن العواطف الدينية تصد المسلم عن خدمة أغراض أعداء الإسلام .

وليت الأمر يقف عند المتزمتين والجامدين من المسلمين ، بل إن هناك من أقحموا أنفسهم في الدراسات الإسلاميـة وهم ليسوا بمسلمين ، أولئك هم المستشرقون ، لقد ألف بعضهم في التاريخ الإسلامي وعلم الكلام ، وكتب بعضهم في الطائفية في الإسلام ، وأضفوا على بحوثهم ــ تحت اسم الاستشراق ــ مظهراً علمياً يجعل المسلم يكاد لا يشك فيما يكتبون .

ونحن وإن كنا نعترف بأنهم خدموا بعض العلوم الشرقية ، إلا أننا نتهمهم

في ناحية البحوث الإسلامية، فليس فيهم من لم يبث السموم في بحوثه، وليس فيهم من لم يكن وراء ما يكتب أغراض تسيء إلى المسلمين تارة، وإلى سمعة الإسلام تارة، وتؤجج الخصومة بين أبناء هذا الدين.

إنهم يحملون الإسلام وزر كل التصرفات السيئة التي ارتكبها الظالمون. ويخلقوا أبطالاً خياليين كعبد الله بن سبأ وأمثاله، ويصورونهم على أنهم أصحاب كل حول وطول في تاريخ الإسلام. ويناصرون بكل قوتهم أي عمل يفرق كلمة المسلمين، وأكبر دليل على ذلك موقفهم من النحل الجديدة التي ظهرت منذ قرن والتي تدعي الإسلام، كالبابية والبهائية وأضرابها، فهم يطبلون لها ويزمرون، وهم يعتبرونها من الفرق الإسلامية رغم أن المسلمين أنفسهم لا يعترفون بإسلامها قط، بل يبلغ الأمر ببعضهم أن يخصص جزءاً من بحوثه في أدب البابيين، ثم هم بعد ذلك ينسبون لأنفسهم الأفكار الإصلاحية في الإسلام.

إن الأمر قد يكون مفهوماً بالنسبة للمتزمتين أو المتعصبين من المسلمين، أما بالنسبة لهؤلاء وهم غير مسلمين، فليس مفهوماً على الإطلاق ما دخل هؤلاء بالطائفية وهم ليسوا بشيعة ولا بسنة، وما اهتمامهم بالفرق الإسلامية وهم ليسوا بمسلمين؟.

إنهم دخلوا المعركة بكل قوتهم، وكأنهم قوام على أبناء هذا الدين، دخلوا بدعاياتهم الجبارة للدس وبث السموم باسم البحوث. وحرصوا جد الحرص على إظهار المسلمين دائماً بمظهر المتفرقين المتطاحنين. يتصيدون الحوادث من هنا وهناك ليبرزوا النقط الخلافية ويرجعوها إلى منابع قديمة تسبق الإسلام، غير مبالين بمعنى التوحيد عند المسلمين، ولا بإيمان أهل القبلة بالقرآن الكريم، وبالملائكة والنبيين، وبالبعث والحساب، ولا آبهين لوحدة الصلاة والزكاة والصوم والحج، وغير ذلك من أصول الإسلام الحنيف.

وإذا دعوا لإلقاء محاضرات في الجامعات، جعلوا همهم توكيد معنى الفرقة بين المسلمين، وإذا ألقوا بحوثاً في مؤتمر علمي انصبت بحوثهم على إظهار الطائفتين

الكبيرتين في الإسلام بمظهر أصحاب دينين مختلفين لا دين واحد ، وإذا عثروا على كتاب قديم في التجريح والسباب ، لا يهدأ بالهم إلا أن يعيدوا طبعه،وإذا وجدوا نسخة خطية فيها التشنيع والتشهير حرصوا على طبعها ونشرها في العالمين .

ويا ليتهم يكتفون بهذا ، بل أنهم بدأوا يؤلفون كتباً ، يسرف فيها بعضهم في التشيع إلى حد الغلو،ويسرف فيها البعض الآخر في التسنن إلى أقصى الحدود حتى لكأنه من الخوارج ، ذلك لكي يكسب كل منها عطف فريق من المسلمين فتتاح لهما فرصة الدس والإيقاع وتسميم الأفكار في أوسع الحدود .

وأخطر من ذلك كله أن نفراً من المؤلفين المسلمين يعتمدون في بحوثهم على أقوال المستشرقين كأصول مسلمة نظراً لحسن ظنهم بهؤلاء ، وفي هـــذا من السذاجة والبساطة ما يضحك نفس المستشرقين .

إن دعاة الاستشراق الذين يتظاهرون بالتعصب للشيعة تارة ، وللسنة اخرى هم في الغالب من أشد الناس تعصباً لدياناتهم ، وهم في الحقيقة أحرص الناس على تحطيم المسلمين كمجتمع ، والقضاء على الإسلام كفكرة ، ومحو العقيـــدة الإسلامية من الوجود .

أذكر أننا حين كنا نحاول إقناع أصحاب دار نشر ليصرفوا النظر عن طبع كتاب قديم ، فيه من الخرافات ما يضحك غيرنا علينا ، وفيه من السخافات ما يثير سخرية شبابنا نحن بعد أن تفتحت عقولهم بالثقافة ،وفيه من تجريح العواطف ما كانت تمليه سياسة الحكام في عهد المؤلف . إذا مستشرق يهاجمنا في مجـــلة فرنسية ، ويجزم أن هذا النوع من الكتب ضروري لفهم عقلية المسلمين قبل قرون، ومعنى هذا أن الكتاب سند وأي سند ، يخدم أغراضهم ، ويساعد على تحقيق مآربهم .

فماذا علينا نحن المسلمين .

أليس علينا أن نعنى بدراساتنا عناية تغنينا عن هؤلاء المصححين ، للألفاظ الذين لا هم لهم إلا نبش الماضي ، وبعث ما يثير الأحقاد بين المسلمين، كي تتفرق كلمتهم ، وتتفتت وحدتهم ؟

أليس علينا أن ندفن إلى الأبد كل ما يظهرنا بمظهر المنحرفين المتفرقين ؟.

أليس من واجبنا أن نثبت أن أهل البيت أدرى بما فيه ، وأن نتعب أنفسنا ونظهر حقائق خلافاتنا التي نعتز بها كأصحاب فكرة حرة سليمة ؟.

أليس من واجبنا أن نخرج كنوزنا ، ونبرز ما في التراث الإسلامي من روعة وجلال .

إننا بين أحد أمرين : إما أن ندخل الميدان بكل قوتنا فننجو من أحابيل دعاة الفرقة ، وإما أن نتخاذل ونتواكل فيجهز علينا أعداء الإسلام ؟

منهاج عملي للتقريب

الى اخوانـنا المسلمين

لحضرة صاحب الفضيلة العلامة الجليل الشيخ محمد صالح الحائري المازندراني من كبار علماء « سمنان » بإيران .

كنت اسرح النظر فيما لدي من أعداد مجلة (**رسالة الاسلام**) التي تصدر عن « **دار التقريب بين المذاهب الاسلامية** » والحق — والحق أقول — إن جملة ما فيها لهو منتقى الجمان ، من مشتهى العلم والادب ، وملتقى اللؤلؤ والمرجان، من منتهى الفضل بلسان العرب .

ولقد راقني في العدد الأول من السنة الثالثة بيان حضرة صاحب الفضيلة العلامة الأكبر شيخ الإسلام **الشيخ عبد المجيد سليم** في تقريب مذاهب هذه الامة الواحدة ، وتأليف علومها وثقافاتها، وإقامة صرح الإيمان بينها ليكون المسلمون جميعاً صفاً كأنهم بنيان مرصوص يتعارفون ما عند كل قوم من العلم مستمعين القول من كل جماعة متبعين أحسنه ، فأحببت :

أولاً أن أذكّر فضيلة شيخ الإسلام ، فيسمعه جميع المسلمين ، بما عسى أن أكون بعد ما ذرّفت على اثنين وسبعين عاماً صالحاً للتذكير به في هذا العصر الخطير ، وهو أن الله عز اسمه إنما حمّلك هذا الجاه العريض الطويل ، وعرض

عليك هذه الأمانة التي تنوء بكل قوي جليل بما علم من انشراح صدرك وسلامته فسوّمك بسيماء الإيمان وتوّجك بتاج كرامته .

وكأني أسمع هتاف السلف الصالح بك قائلاً : فاصدع بما تؤمر وأعرض عن الجاهلين واستقم كما امرت وأيقظ الغافلين ويقول لك إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسألك بأمر الله سبحانه أجر رسالته المحصور في دائرة المودة في القربى ، وليست هي اليوم إلا البر بهم أهل البيت وبشيعتهم في جميع شئونهم العلمية والعملية على حذو برّ سائر المسلمين بأنفسهم في ذلك حتى يكونا كفوين كريمين في بلادهم يتكافآن تكافؤ المتضايفين قوة وفعلاً ، فلا ينظر أحدهما إلى صاحبه في تعاليم مذهبه نظر التارك القالي الزاهد المعرض المعترض ، بل تتلاحظ قلوبهما بالمودة والرغبة الكاملة في متاعها فلا يبخسان منه شيئاً كأمتعة بيت واحد ملّك صديقان مفاتحه ، فيأكلان منها هنيئاً ، وذلك أن العناية بمتاع أهل البيت المحفوظ عند أتباعهم هي أجر الرسالة زيادة على العناية بأمتعة سائر بيوت الامة التي هي وظيفة إسلامية مشتركة بين جميع المذاهب غير العناية الخاصة التي تمثل أجر الرسالة ، كل ذلك من غير تحول مذهب إلى مذهب ، فإن الله تعالى قد وكل بكل شرعة ومنهاج قوماً ، وهـذا هو الذي ينبغي أن يطمح اليه نظر التقريب الذي نرجو تمثيله في جميع أقطار الإسلام يتواصون فيه بالثقة والمكرمة والحرمة والمرحمة بلا منافرة ولا مكاشرة ولا مشاجرة ، وإلا فمتاع كل قوم رائج في سوقهم ، وإنما المطلوب رواج متاع كل من الجانبين في سوق صاحبه كأنه متاع نفسه النفيس في سوقه المختص به .

وثانياً أن أزيد لفضيلتك على هـذه الذكرى ذكرى لتكون لجميع المسلمين ولك ولقومك ذكراً ، وهي أن اعزز ما بينته للمسلمين من الأمرين في هدايتهم إلى الوحدة التي بني عليها الإسلام ، وبها رضي الله سبحانه لهم الإسلام ديناً ، وبها أتم عليهم النعمة ، بثالث هو النمرقة الوسطى ، وسواء كلمة اخرى يُشفع بها سواء الكلمة الاولى التي بها يكون المسلم مسلماً ، ليكون للتقريب صورة علمية

حقيقية ولو تدريجاً من غير أن يتنزل السني عن تسننه والشيعي عن تشيعه .

اصول الاسلام وبيان قيّم من النبي ﷺ :

أما سواء الكلمة الاولى ، فهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله المختومين بسيدهم وأفضلهم محمد ﷺ وباليوم الآخر . ومن أطيب ما يؤثر عن نبينا صلوات الله عليه فيها : ما جرى بينه وبين شيخ بني عامر من الحديث الطويل المعدود في أفراد محمد بن يعلى ، قال الشيخ العامري بعد ما بيّن له الرسول ما سأله عنه من حقيقة أمره وبدو نشأته : أشهد بالله الذي لا إله غيره ، أن أمرك حق، فأنبئني عن أشياء أسألك عنها، كلمه بلغة عامر، قال : **يا ابن عبدالمطلب**، فما يزيد في العلم ؟ قال : التعلم ، قال : فما يزيد في الشر ؟ قال : التمادي ، قال : هل ينفع البر بعد الفجور ؟ قال : نعم : التوبة تغسل الحوبة ، والحسنات يذهبن السيئات ، وإذا ذكر العبد ربه في الرخاء ، أجابه عند البلاء ، قال : يا ابن عبد المطلب ، وكيف ذاك ؟ قال : لأن الله عز وجل يقول : « وعزتي وجلالي لا أجمع أبداً لعبدي أمنين، ولا أجمع عليه أبداً خوفين : إن هو أمِنَني في الدنيا خافني يوم أجمع عبادي لميقات يوم معلوم فيدوم له خوفه، وإن هو خافني في الدنيا أمِنَني يوم أجمع عبادي في حظيرة القدس فيدوم له أمنه ولا أمحقه فيمن أمحق » . قال : يا ابن عبد المطلب ، فإلى ما تدعو ؟ قال : أدعو إلى عبادة الله عز وجل وحده لا شريك له ، وأن تخلع الأنداد ، وتكفر **باللات والعُزّى** ، وتقرّ بما جاء به الله عز وجل من كتاب أو رسول ، وتصلي الصلوات الخمس بحقائقهن ، وتؤدي زكاة مالك يطهرك الله عز وجل ويطهر لك مالك ، وتصوم شهراً من السنة ، وتحج للبيت إذا وجدت اليه سبيلاً ، وتغتسل من الجنابة ، وتؤمن بالموت وبالبعث وبالجنة والنار . قال : يا ابن عبد المطلب ، فإذا فعلت فما لي ؟ قال : جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكّى . قال : يا ابن عبد المطلب ، فهل مع هذا شيء في الدنيا ؟ فإنه يعجبني

الوطأة في العيش ، قال : نعم ، النصر والتمكين في البـلاد . فأجاب وأناب . انتهى ...

وأما سواء الكلمة الاخرى ، والنمرقة الوسطى ، وهي الأمر الثـالث المعزز للأمرين ، فهي إعادة المسلمين إلى عقائد السلف الصالح ، والصدر الأول ، وإلى فقههم وشريعتهم . أما في العقائد فبإلغاء المقالات المحـــدثة ، إلا ما وافق منها محكمات الكتاب التي كان عليها وحدها — دون المتشابهات وما يلحق بها — بناء الصحابة والسلف وأهل البيت وسادات التابعين ، فلم يكن في عقائدهم جبر ولا تفويض ولا خلق الأعمال من المعاصي والطاعات ، ولا عزل العقل السليم القاطع عن الحكومة ، ولا تجسيم ولا تشبيه ولا تركيب في ذاته أو صفاته ، أو بين ذاته وصفاته سبحانه ، ولا أن يجعل له من عباده جزءاً ، ويجعل هو جزءاً من شيء ، ولا كلما ينافي وحدته الصرفة ، وأحديّته المحضة ، أو ينـافي تجرّده أو تنزيهه أو تفرّده بالقدم ، أو إفراده بالعبادة ، إلى غير ذلك ممـا لم يكن في معارف الخلفـاء الراشدين والصحابة الكرام الذين أوتوا الكتاب والحكمة ، وأهل بيت الرسالة ، ولم يكن فيهم من يتّبع مـا تشابه من الكتاب والسنة ، ولم يكونوا يَقْفُون ما ليس به علم ، بل كانوا يقفون عنـــد الشبهات ، ويحصرون العلم في دائرة المحكمات التي كفتهم مؤنة الجدال والتمعقات السفسطية بنور علم الكتاب الذي شاء الله سبحانه أن يقذفه في قلوبهم ، مضافاً إلى ما سمعوه أو فهموه من عقائد رسول الله ﷺ .

وما على المسلم بعد هذه الكلمة القيّمة ، سواء أكان سنياً أم شيعياً من مقالات معتزلي أو أشعري أو حشوي أو كرامي ، أو جامد على كل لفظ ولو غير معقول يمجّه سمع العلم والعالم السليم ، أو على مشكوك مريب ، أو على ظاهر لم يجمع عليه علماء الامة فضلاً عن أن يؤثر فيه أو يملك دينـــه ، أو يسحر ذهنه ، أو يسخر فكره ، ويستخدم علمه وعمله أهواءُ الملوك وأغراض الرؤساء وعشاق الجـــاه وإجبار السلاطين ، وآراء القضاة : كإجبار الدولة الصلاحية عامة المسلمين في

مما لكهم على عقائد حدثت في البصرة في القرن الرابع على لسان عالمها أبي الحسن الأشعري ، كائنة ما كانت ، وفيها الغث والسمين ، والباطل والحق ، وإلا قتل أو كفّر ، أو إحراق علي بن يوسف بن تاشفين ، بحكم جماعة ، كتبَ الغزالي حتى إحياء العلوم باسم تحريم المنطق والحكمة وأهواء اخرى ، وقتل أتباعه وقارئيها ، وغير ذلك من الحوادث التي سجلها التاريخ .

وأما في الفقه ، فقد أجمع المسلمون على وجوب العمل بالكتاب والسنة ، فلا بد لهم من الطرق الموصلة الى السنة الواقعية ، والى تفاصيل أحكام الكتاب وشئون التنزيل ، والذي بأيدي الجامعة الإسلامية منها دليلان يوصلانهم اليها ، ويؤتيانهم رشدهم وحجتهم : أحدهما طرق الصحابة ، والآخر طرق أهل البيت ، وهما الحافظان لفقه السلف الصالح الذي لا ريب فيه ، ولمعظم العقائد السائدة على نفوس الصدر الأول ، تلك النفوس الصافية الخائفة مقام ربها ، والناهية لها عن الهوى ، المقتبسة أنوار الرسالة .

وجوب الرجوع الى الجوامع الأربعة عشر في الاجتهاد :

فيجب على المجتهدين الجمع بين طرق الصحابة المدون معظمها في الصحاح الستة لأهل السنة ، وبين طرق أهل البيت المدون أكثرها في الجوامع الثمانية للإمامية [1] مع النقد والتحقيق في معرفة رجال السند والاستنباط الدقيق في

(١) أما الشيعة فقد كان فقهم من أول يوم الى الآن على نسق واحد ، لأن مرجعهم فيه آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأما سائر المسلمين فقد تشتتوا أشتاتاً لا تكاد تنضبط ، فرجع أهل كل بلد الى صحابي بلدهم أو سنة بلدهم ، وكانوا في دولة الرشيدين يقلدون القاضي أبا يوسف ويحيى بن أكثم وأمثالهما ، ولم يكن في دولة الأيوبية كثير ذكر لغير الشافعي ومالك ، وكانوا يقلدون قبل الرشيدين أمثال الزهري والثوري ومعمر بن راشد ومن قبلهم يقلدون فقهاء الأمصار كابن جريج المكي والاوزاعي الشامي ساكن بيروت ، وأمثالهما ، والكلام طويل ، واليوم يوم الجمع لا يوم التفريق ، إن شاء الله تعالى .

الدلالة واستفراغ الوسع فيها ، وفي أقسام العلاج بين المتعارضين ، وتبصرة الفكر ، وتمرين القوة بالإحاطة على فتاوى أصحاب المذاهب الخمسة .

وبذلك يكمل الاجتهاد المبني على الفحص البالغ في النقليات ، وعلى تشخيص ما دان به الأولون السابقون المقربون في العقليات والفطريات، ولا يجوز الاكتفاء بأحد الطريقين عن الآخر ، حتى أن المتقدمين كانوا يكتبون عن كل محدث بل كانوا يرحلون إلى شقة نازحة لطلب حديث واحد كيلا يشذ عنهم شيء من علم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فإذا فعلوا ذلك وسلكوا السبيلين وتلقوا علم الله تعالى من كلتي يديه المبسوطتين زالت الوحشة عما بين المعشرين ، وحصل التقريب والتعارف بين القبيلتين اصولاً وفروعاً، كل ذلك من غير أن يتشيع سني أو يتسنن شيعي .

طريق التصالح بين السنة والشيعة في الامامة والخلافة :

فإن ملاك التسنن الخالص عن الزوائد التعصبية إنما هو صحة الخلافة الملية لا إنكار الإمامة السماوية المنصوصة ، ولا الإعراض عن علوم أهل بيت الرسالة ورواياتهم وفتاواهم ، كما أن ملاك التشيع الكامل اعتقاد الإمامة المنصوصة لعلي والأئمة الأحد عشر من ولده وافتراض طاعتهم في العلوم الدينية لا إبطال خلافة من قام بمصالح الامة مع العدل والزهد والأمانة على بيت المال لإمكان رضا الإمام المنصوص بها، ولو لصلاح الوقت وخشية الفتنة، وقد كان الأمر في الصدر الأول على هذا المنوال ، فلم يكونوا يشترطون في صحة الخلافة الجمهورية إنكار الإمامة المنصوصة الخاصة الإلهية لأهلها ، ولا في الإمامة بهذا المعنى المتقوم بالنص والعصمة والمعجز إنكار صحة الخلافة للقائم بها دون الإمامة برضا الامة أو برضا الإمام ، سيما إذا عهد النبي صلوات الله وسلامه عليه أن لا يقوم الإمام المنصوص بها ، ولا ينهض لها حتى يبايعوه ويأتوه طائعين ، فإن مبحث الإمامة ومبحث الخلافة مبحثان مستقلان لا يجب التناكر والتكاذب بينهما ، وإنما القى

البأس والخلاف بينهما بعد ذلك ، فما روعي طريق التسالم بينهما فكانت عاقبته أمر المفرقين بينهما في الامة خسرا .

لكن مع ذلك ظهر في كل عصر جماعة من السنة والشيعة حفظوا السلم والوحدة بين المنصبين من غير أن يكذب أحدهما الآخر لعدم الاصطكاك والاحتكاك بينهما ذاتاً إلا بالعرض والفرض ، وإلا فجواز الجمع بينهما في شخصين وعدم امتناعه بديهي كما أن وجوبه مع رضا الامام وتسليمه الخلافة لغيره ظاهر سيما في مثل هذا العصر الذي يحرم فيه إلقاء الخصومة بين المنزلتين ، ونقض الوحدة بين امة لا إمامهم حاضر ولا أحد الخلفاء من الصحابة حي .

هـــذا مجمل الفكرة في بيان الأمر الثالث المعزز للأمرين الذي هو النمرقة الوسطى ، وسواء الكلمة العملية الاخرى بعد سواء الكلمة العلمية الاولى ، وتمام هـذا الأمر وكماله وضياؤه ومصباحه نصب كرسي لتدريس فقه أهل البيت في مصر ، وآخر لتدريس عقائدهم الكلامية ، فإنهما مرآتان تامتان مطابقتان لعقائد الخلفاء الراشدين والصحابة المنتجبين وفقههم وسيرتهم وهداهم وبيناتهم وعدلهم وزهدهم وأمانتهم وعبادتهم ومراوحتهم بين جباههم وركبهم ورسوخهم في العلم وغوصهم في أنوار الرسالة فمن أراد أن ينظر اليهم فلينظر في هاتين المرآتين، وليوقد هذين المصباحين ، وليقم هذين العمودين ، وليشيد أركانهما بعلوم سائر الأعلام الأفذاذ المخلصين من أئمة المذاهب الأربعة وخلص أتباعهم .

فيا أيها المسلمون لئن كفاكم مجمل القول المذكور فنعما هي ، وإن شئتم بعض البسط فأعيروني أسماعكم أشرح لكم أولاً الأمرين اللذين بنى العلامة الأكبر شيخ الاسلام عليهما الوحدة الاسلامية وهدف التقريب ، وثانياً أبسط لكم الأمر الثالث الذي عززتهما به ، ونرى احتياج ظهور التقريب الحقيقي العملي ، وتوحيد الثقافة ، ووحدة سنخ الفكر اليه .

أما الأمران فأولهما : أن المسلم إذا عرف — كما عرف المسلمون الأولون — أنه

لا اعتزاز له إلا بدين الإسلام الذي هو كلمة سواء بين المسلمين لا تختلف ولا تتخلف عن أي قوم منهم وأي مذهب ، وعلم أنه لن يصلح في آخرته واولاه إلا به رسخ في نفسه حب دينه ، وحب كل مسلم بما أنه أسلم لدينه شيعياً كان أو سنياً لاشتراك الجميع في الأساس الأصلي ، وعدم تأثير تنوع الأفكار العلمية في ضعفه فضلاً عنه في هدمه ، وعلى هذا فلا يجتمع بغضهم ومعاداتهم ، وترك الاعتزاز بهم وبما عندهم من العلم مع حب الاسلام والاعتزاز به ، كيف والمطلوب من المسلم أن يؤثر حب الله ورسوله ، والجهاد في سبيله على كل محبوب من متاع الحياة الدنيا ! ولا أقل من أن يوطن نفسه عليه ويروضها ، ويمرنها به .

الثاني : التعاون والتعارف في كل شأن ، وفي العلوم والآثار ، مع نسيان كل حقد وضغينة ، ومع ترك الجدال وسوء القول ، فلا يكترث المسلم ولا يبالي باختلاف المشرب ، ويتلقاه كأن لم يكن ، أو يفرضه كأنه لم يزل مشرباً لنفسه ، وبعد ذلك كاختلاف الناس في المطاعم والمشارب واللغات ونحوها ، فقد خلقوا أطواراً وكلٌ ميسر لما خلق له ، وكل يعمل على شاكلته ، وقد ورد : لو علم الناس كيف خلقوا لم يلم أحد أحداً ، وليس في ذلك ضرر ولا ضرار بين امة واحدة ، فقد جمعهم دين واحد ، ثم فرّقتهم الدنيا لا الدين ، فذاقوا وبال أمرهم ، وفقدوا بالتفرق كل مجد وسلطان ، وكل حرية ، وكل قوة ، وكل صحة ، وكل أمان . واليوم يوم أن يجمعهم الدين كأول يوم ، فقد رفرف عليهم النصر وهو يهتف فيهم بموافاة وقت الاتحاد والإئتلاف اليهم ، وفاحت في أقطارهم نفحة الظفر التي بشرهم بها نبيهم صلوات الله وسلامه عليه بقوله : إن لله في أيام دهركم نفحات ، فتعرضوا لها ، فإذا تعاونوا وائتلفوا متحابين في كل ما يصلحهم ويعيد مجدهم ، وفي علومهم وثقافاتهم وآثارهم زالت الوحشة عما بينهم ، وارتفع توهم الاختصاص والاستقلال المثير للبغضاء والضعف والتخاذل والجهر بالسوء والتنابز والاستهزاء والتجهيل ، فضلاً عن التكفير والتضليل وكيّ كل جبهة موحدة لله تعالى بالشرك .

وهذا الوجه أخص من الأول لابتنائه على التعارف بين جميع الشعوب والقبائل في جميع العلوم الاسلامية التي فيها علوم الصحابة وعلوم أهل بيت الرسالة وسادات التابعين ، ثم شأنهم والاختيار من غير أن يتسنن شيعي أو يتشيع سني، فإن الإحاطة بالعلوم والثقافات من أشرف الغايات ، وفيها تثقيف للأفكار ، وتشحيذ للأذهان ، وتسهيل لمعرفة الحق لمن أحب ، فلا ينبغي أن تغتر قبيلة بعلمها ، ففوق كل ذي علم عليم ، وعند كل قبيلة مسلمة علم تراه مصيباً لصريح الحق ، وربما يحصل بذلك التوفيق بين كل شعبين ، فانظروا أيها المسلمون إلى الإمام مالك المدني ، كيف راعى علوم كل قوم من الامة وصوب الرجوع اليها ، ولم يحصر الامة في دائرة علمه .

ألم تسمعوا أن الرشيدين هرون ، والمأمون ، كلٌّ في عهده طلب منه أن يأذن في تعليق كتابه الموطأ بالكعبة ، وأن يحمل الناس جميعاً على ما فيه فأبى وقال : إن عند كل قوم علماً ، وكل عند نفسه مصيب ، واستشاره هرون أيضاً في تغيير منبر النبي صلوات الله عليه بمنبر مرصع بالدر والجوهر فأبى إبقاءً على أثر الرسول ﷺ ، وأيم الله إن علوم أهل بيت الرسالة وعلوم سائر الصحابة من أعظم آثار الرسول التي يجب إبقاؤها وحفظها ، فإن كلا منها منبر عام عليه إمام ناصح ، وزناد قادح ، ونجم لائح ، فلا يجوز أن يعرض عنها المسلمون ، ويأخذوا بعضاً ويتركوا بعضاً ، وكلها مما آتاهم الرسول « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » .

وهذان الوجهان ما لم ينضم اليها الأمر الثالث المبني على إعادة المسلمين إلى هدى السلف في العقائد والفقه بالطرق الهادية اليها من طرق الصحابة وطرق أهل البيت ، وعلى تدريس الفقه الجعفري وسائر علوم آل محمد العترة الطاهرة في ممالك السنة فقهاً واصولاً وكلاماً وتفسيراً ، لم تكن للتقريب والوحدة المطلوبة صورة عملية تزيل الوحشة والنفور وتؤنس الأبصار والأسماع بأحكام كل قوم وأعمالهم ونسكهم ومنهاجهم وربما تجمعهم على شاكلة واحدة وثقافة متحدة

ينتابها ويرتادها السني في تسننه والشيعي في تشيعه ، وقد كان في مَدْرس الإمام جعفر بن محمد ، من أئمة السنة جم غفير يروون عنه ويتتلمذون عليه ويعملون بفتاواه ، وهم على تسننهم إلى أن قضوا نحبهم غفر الله لهم ولنا جميعاً ، ولولا إجراء هذا الأمر الثالث كان الأمران المذكوران أشبه بالتعليم الأخلاقي والنصح العام منهما بدستور عملي مقدس يعمل بـــه ولو تدريجياً في الملأ والجامع من غير خوف وتقية وهزء وأذية ، ويقرأ ويدرس في المدارس بلا إضمار غل ، ولا سوء طوية ، وقد كان قدماء الشيعة ومتأخروهم إلى عهد الشهيدين يدرّسون المذاهب الخمسة لطلاب القبيلين ، وكتبهم مشحونة بأقوالها وأدلتها ورواياتها ، لكن كان ذلك من جانب واحد ، وأما من الجانب الآخر فـــلا ، حتى انتهى ذلك الى القنوط ، فجردوا من القرن العاشر كتبهم من غير طرقهم وطريقتهم ، ومع ذلك لم يتركوا العلم والمطالعة والحفظ لعلوم الجمهور ، بل وتدريسها لأهل السنة ، كما كان السيد مهدي بحر العلوم يدرس المذاهب الأربعة في الحجاز ،إذ مكث هناك سنة وأكثر ، وكذا غيره ، حتى قالوا : لو كان الأمر كما تقوله الشيعة في شأن المهدي المنتظر فهو هذا المهدي .

وبالجملة فلا بد في هـــذا العصر من إجراء هذا الأمر الثالث كي لا يطيش سهم التقريب عن إصابة الهدف المطلوب ، سيما بين عوام القبيلين الذين جُبلوا على ما يخصهم من مسائل الكلام والأحكام والشعائر والمراسم ، فإن هـــذه الخصائص هي التي أوهمت بعض الأعلام استحالة التقريب غفلة عن وقوعه — فيما مضى — بين كثير من علماء السنة والشيعة الذين لم يملك قواهم تفريقات الأهواء ، ولم يُطوق رقابهم أغلال التعصبات والآراء ، من غير أن ينقلب السني منهم شيعياً ، والشيعي سنياً ، وكيف يوصم التقريب بوصمة الامتنـــاع ، ولا أقل من تأثيره في تقليل الخلاف واختيار الـــتي هي أهدى وأقوم ، أو في الرضا باستماع القولين والتسالم والتصافي على نشر العلمين واحترام الثقافتين في التعاليم العامة والمؤتمرات الخاصة ، أو في خرق الأوهام والخرافات والمفتريات وشواذ الآراء .

وأوهمت أعلاماً آخرين ، أن هدف التقريب رفع العداء فقط ، وإبقـــاء الخلافات على ما كانت ، بزعم أن الخلاف طبيعي ، فلا يزالون مختلفين ، ولذلك خلقهم الله كما في الآية الكريمة غفلة عن أن ذلك إنمـــا هو بين الامم لا بين امة واحدة ، على أن الآية تذم المختلفين ابتداء واستمراراً ، ولذا استثنى الله منهم مَن رحمه وهم الذين لا يختلفون ولو رغماً على جبلتهم الكارهة لمـــا أنزل الله ، وطباعهم المتأبية عن قبول الحق ، كالذين أسلموا من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم فالآية تذم الاختلاف على أي حـــال ، سواء كان بين الامم ببقائهم على الدين المنسوخ ، أو بين امة واحدة بإحداث الأباطيل المفرقة لها شيعاً ، والممزقة لوحدتها وقوله سبحانه : ولذلك خلقهم ، إشارة إلى ما سبق له عز اسمه من العلم فيهم بسوء اختيارهم مع تمام الحجة عليهم وليس معناه أن الله خلقهم ليختلفوا ، فإن لام الغاية تارة تكون لتعليل فعل الخالق بفعل آخر من أفعاله كقوله تعالى : « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً لنخرج به حباً ونباتاً » « هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور » ومثله كثير ، واخرى لتعليل فعله بفعل المخلوق ، كقوله : «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» « لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً » « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله » « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً » ومثله كثير ، ومن هـــذا القبيل تعليل فعله عز اسمه بسيئات عباده الاختيارية لسابق علمه فيهم بأنهم لا يهتدون بسوء اختيارهم بلا جبر ولا تفويض كقوله : «إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً» وقوله : «وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ، ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون » ، والصغو والصغي الميل الى الباطل والإثم ، فتصغي أفئدتهم إلى إيحـــاء زخرف القول ، فيرضونه لخبث نفوسهم واتباعهم الهوى بسوء اختيـــارهم ، وقوله : « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين » .

أحسن وجوه تصالح السنة والشيعة والزيدية :

وأوهمت أعلاماً آخرين أن الشيعة والسنة متقابلتان تقابل طرفي الخط في الإمامة والخلافة ، غافلين عن الفرق بين الإمامة المنصوصة التي يعتقدها الامامية والخلافة الملية التي يعتقدها أهل السنة ، ولا منافاة بينها ولا تنازع بل هما متسالمان متصالحان من أول الأمر إلى غايته إلا أن يفسد المفسدون بين المتسالمين، وقد فعلوها وخسروا ، واليوم لا داعي للامة أن يجددوا فعلهما ، حتى لا يبقى منهم على وجه الأرض حر ولا ماجد وذلك لأن الإمامة عند الإمامية متقومة بالعصمة والنص والمعجز، وهذه المنزلة السماوية لم يدّعها أحد من الخلفاء الراشدين ولا ادعاها لهم أحد من أتباعهم ، ولم يقع بحث منهم في ذلك ، ولا إنكار لها ، ولا احتاجوا في أمرهم ابتداءً واستدامة إلى إنكارها ، ولا هي منزلة تستحيل عقلاً حتى تنكر لأجل استحالتها وحتى يجب التأويل في أدلتها ، ولا التسالم بين المنزلتين، والتراضي عليهما أمر غير معقول ولا معهود في بيوت الأنبياء والمرسلين حتى يجادل فيهما ويخاصم عليهما ويُثْبِتَ أحدهما ويُنفي الآخر كالضدين اللذين لا يمكن اجتماعهما ، وليس من شرط الإمامة عند الإمامية تلبس الامام المنصوص المعصوم فعلاً بالخلافة ، نعم يجب عند الامامية أن يكون صالحاً وأهلاً لها ، بل لا خلاف في ذلك عند الكل ، ثم استحقاقه لها وأولويته بها ، فهو عند الامامية بل وعند جميع العقلاء معنى لا يجب فيه عقلاً وعادة وشرعاً أن يكون قيام غيره بها — مع العدل والزهد والأمانة وحسن التدبير سيما مع طاعة الامة له — غصباً وعدواناً لإمكان رضا الإمام فيها بغيره ولو لعدم اجتماع الأسباب له ، وخشية الفتنة في قيامه ، والمفروض وقوع جميع ذلك ولو في ظاهر الحال .

وخلافة الخلفاء الراشدين إنما هي منزلة مقدسة اخرى غير **الامامة الخاصة** ورياسة عامة ملية مع الصفات المزبورة التي لم يختلف فيها اثنان ولو في الجملة، ولم ينكرها ولا أبطلها الامام المنصوص المعصوم طيلة خمسة وعشرين عاماً حتى أتته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها فجاءته الامة طائعين من غير طلب ، وهو

مع ذلك كاره لها ، راض بأن يولوا عليهم غيره ،فظهر أن معنى الامامة المصطلحة عند الامامة غير مضاد ولا معارض لمعنى الخلافة ، فأي حاجة في تثبيت الخلافة إلى إنكار منزلة الإمامة التي نودي بها على رؤوس الأشهاد ، وأي جناية اجتماعية أعظم من أن يكون الأمر بين الامام المنصوص والخليفة العادل المرضي على التراضي والتسالم والمصلحة والناس مع هذا يجادلون فيها ، ويفرقون الملة بإسمها على خلاف رضا الإمام والخليفة ، والذين تولوا كبر هذه الجناية الكبرى هم الالى أنكروا الامامة والنص ، وعادَوْا القائلين بها حتى اضطروهم إلى وصف الخلافة بما لا ينبغي ،وقد أجمع أهل البيت والمخلصون من أتباعهم على إبطال كلا القولين: إنكار الامامة المنصوصة والطعن في الخلافة ووصفها بما لا ينبغي .

ولئن وقع في هذه القضية يومئذ شيء من تبادل الآراء والأقوال والمعاتبات ففي غير أساس هاتين المنزلتين كما لا يخفى على من أنعم النظر في تاريخ الاسلام وأخذ بالقول الفصل ، وسكت عن فضول الهزل .

وقد ألم بالإشارة إلى هـذه المسألة فضيلة الاستاذ العلامة عالم الشيعة الامامية بالقاهرة الشيخ محمد تقي القمي ، أمين السر العام المؤبد لدار التقريب في جولته المباركة بين الآراء حول التقريب حيث قـال : بيد أنهم – أي السلف الصالح والزعماء بعد الرسول ﷺ – حصروا الخلاف في دائرته المعقولة ، ولم يجعلوا له أثراً يضر بالوحدة الاسلامية ولا أعطوا به فرصة لأعداء الاسلام ، كان خلافاً في الرأي لا تشاجراً ، انتهى .

أقول: بل إني لا أرضى أن يسمى ذلك خلافاً،فضلاً عن المشاجرة إذ لم يكن يومئذ إنكار لمنزلة الإمام ولا للنص عليه ولا لأهليته للخلافة ، ولا لشيء من ملكاته الفاضلة ، ولا لشيء من سوابقه ولا لعدل الصديق وزهده وصلاحيته للزعامة ، وإنمـــا كان عتاباً على المبادرة اليها قبل الحضور والمشورة بل اعترف الإمام أن المسبب للبدار اليها سعد بن عبادة في الأنصار الخزرجيين والأوسيين

وكان في العباب أيضاً تذكرة لنصوص المنزلة لئلا تُنسى أو تُمحى بعد ذلك ، وهـذا لا يسمى خلافاً في الرأي ، إذ لم تكن المقاولات يومئذ نظير مقاولات الكيسانية والجارودية والفطحية وأشباهها مع الامامية الإثني عشرية مثلاً ، حتى تكون بحثاً في الامامة بمعناها الخاص أو في صحة الخلافة بمعناها العام ، فإن الامامية لم يشترطوا في الامام المنصوص المعصوم وجوب قيامه بخلافة الملك وإن كان هو عندهم أولى بها لتوقفها على أسباب ظاهرية ، وأبى الله أن يجري الامور إلا بأسبابها ، ولا يجمعها كمّلا إلا لمهدي الامة المنتظر ، ولا ينفع التأسف الإمام على عدم اجتماع الأسباب له فضلاً عن المخاصمة عليه ، ولو كان ذلك خلافاً أساسياً لاقيم في جزيرة العرب على ذلك نظير الحروب الصليبية والنهب والغارة والقتل الذريع ، ولم يقع شيء من ذلك بحسن تدبير علي عليه السلام ، والخلفاء رضي الله عنهم .

وأما الاحتجاجات حول الامامة والخلافة ، فإنما كانت لحفظ منزلة روحانية الرسالة في العترة الصفوة كي لا يكون أول سلسلتها مشوباً بالرغبة في الملك والحكومة فيرتاب المبطلون بعد ذلك في تلك المنزلة السماوية ، فيتوهموا أن ذلك سياسة ملكية لا منزلة دينية سماوية مستحفظة على علوم الكتاب والسنة وعلوم الأنبياء وعلى قوة المبارزة لجميع علماء الملل وإجابة اقتراحاتهم المعجزة ، ودفع كل مُتَسَنِّب أو مشعبذ أو ساحر أو مغالط ، وعلى حفظ صحف الأنبياء ، وحل كل مشكلة دينية وغير ذلك ، وأين هـذا من المعارضة لخلافة القوامين بالقسط المحافظين على الوحدة الاسلامية وإعلاء كلمة الاسلام ، فالامام المنصوص لا يجب قيامه بالخلافة في شئون الملك ، فإنهـا أمر آخر لا يشترط في الإمامة الخاصة المذكورة ، فربما يستنيب غيره لها ، وربمـا لا يجوز له القيام بهـا لعدم الأسباب وخشية الفتن أو لسبق العهد بتركه حتى يأتوه طائعين ، وبمباشرة تجهيز النبي صلوات الله وسلامه عليه وبجمع القرآن قبل كل عمل ، أو لحصول الغرض الأصلي بقيام من يوثق بعدله بها فيسلم له الأمر والإمرة من غير نقص في منزلته الإلهية ،

فإن خلافة الملك قد تتخلف عن الرسول المبعوث على كافة النـاس مع استحقاقه وصلوحه لها .

ألم ترى أن محمداً ﷺ لم يكن ملكاً مطاعاً في مشارق الأرض ومغاربها ، حتى كان يصالح بعض الامم ويترك آخرين إلى حين ، وقد نزل : « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » وإنما قدر الله سبحانه الفتوحات بعده،بل المسلمون مجمعون على أن رسالته على كافـة الخلق كانت من يوم بعث لا من يوم قوي أمره واستفحل شأنه ، فلو لم يتفق له ما قدره الله سبحانه له من القوة والنصرة فقُتِل أو مات قبل الهجرة أو بعـد الدعوة العامة بمكة ، ولم ينزل من القرآن عليه إلا المكيّات ، لم تنقص منزلته من الرسالة العامة بحيث ينتظر بها أن تكمل بعـــد ذلك بالفتح ، وكثرة أهل الدين ، فكذا الامام لا ينقص شيء من منزلته ان لم تستخلفه الامة رأساً أو أخروا البيعة له ، كما أن الخلافة لا يجب أن تكون ممنوعة سيما إذا سلم الامام الأمر لغيره واقتدى به وأخلص الود والنصيحة له سراً وجهاراً .

فلينظر المسلمون إلى رضا علي عليه السلام وسلمه حتى بعـد مقتل الفاروق رضي الله عنه ، فقـد روى سلام بن أبي مطيع عن أيوب السجستاني عن جعفر ابن محمد عن أبيه قال : لمـا طعن عمر رضي الله عنه بعث إلى حلقة من أهل بدر كانوا يجلسون بين القبر والمنبر، فقال : يقول لكم عمر أنشدكم الله أكان ذلك عن رضا منكم ؟ فتلكأ القوم ، فقـــام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال لا ، وودنا أنا زدنا في عمره من أعمارنا ، انتهى .

فانظر إلى سيرة الإمام وسيرة الأئمة من ولده كيف يعلمون الناس السلم وأدب التقريب بين الإمامة والخلافة وينشرون ذلك بين الامة .

ثم انظروا أيها المسلمون إلى كلام الإمام علي بن الحسين عليه السلام لنفر من

متشيعة العراق كيف يثني على الخلفاء بما يدل على الرضا بخلافتهم مع كونه الامام المعصوم المنصوص عند الإمامية ، وأول التسعة المعصومين من ولد الحسين عليه السلام ، لعدم التنافي بينها وبين إمامته ، فقد روى أبو نعيم الحافظ بسنده عن محمد بن حاطب عن علي بن الحسين قال : أتاني نفر من أهل العراق فقالوا في أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، فلما فرغوا قال لهم علي بن الحسين : ألا تخبروني ، أنتم المهاجرون الأولون الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون ؟ قالوا : لا ، قال : فأنتم الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون ؟ قالوا : لا ، قال : أما أنتم فقد تبرأتم أن تكونوا من أحد هذين الفريقين ، ثم قال : أشهد أنكم لستم من الدين ، قال الله عز وجل فيهم : « والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤف رحيم » اخرجوا ، فعل الله بكم . انتهى .

فليتعلم معشر الشيعة وإخوانهم السنة طرز الجمع والتوفيق بين المنزلتين ، فهل ترى الامام السجاد ينتقص بهذه الشهادات منزلة نفسه من الامامة ، أم هل يمكن أن ينظر الى خلافتهم التي كان عمدة نظر اولئك النفر العراقيين القدح فيها مع هذه الحجج إلا بنظر الصحة والرضا ، فما بالنا نتمارك في ذلك ، هذا بإنكار النص ، وذاك بإنكار صحة الخلافة ، إذا لم يتوقف صحة الامامة على بطلان الخلافة ، أو صحة الخلافة على بطلان الامامة وأمكن الإقرار بصحتها والاعتزاز بهما معاً لكلا المشربين ، لأن الشيعة يمكنهم القول بصحة الخلافة بما أشرنا اليه من الاقتداء والتسليم ، ومن الوفاء بعهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه إليه بالصبر والامساك والاكتفاء بمنزلة الامامة والمحافظة على ما يعجز عنه غيره من إقامة الحجج والمعجزات على حقانية الرسالة الختمية ودين الإسلام على

الملل وتنجيز عدات النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وغير ذلك مما لا يجري إلا على يد نبي أو وصي نبي مضافاً إلى حفظ اتصال سلسلة الأوصياء في الصفوة من آل محمد ﷺ من لدن شيث إلى المهدي الموعود .

كما أن أهل السنة يمكنهم القول بالإمامة المنصوصة لعلي والأئمة من ولده ، وبأن الصحابة لم يخالفوا النص ، وإنما جوزوا تأخير العمل بالنص لصلاح الوقت ومراعاة ضعف أحوال الناس ، ولم يبطلوه ولا كذبوه ، ولا تركوا العمل به رأساً فتلقوا باجتهادهم النص واجباً مؤقتاً بوقته المأمون عن الفتنة ونفوذ أعداء الاسلام في أمر الامة في أول المصيبة العظمى ، وقبل اتساع دائرة الفتح والنصر في البلاد ، وعلو كلمة الله في المشارق والمغارب ، ولم يتلقوا النص واجباً مطلقاً منجزاً مقارناً لوفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، كيف وقد أخبر علياً بما سيكون بعده ،وأوصاه بترك القيام والخلاف حتى تجتمع عليه الامة بطباعهم ، وأنهم سيجمعون عليه وسينصره بالعراق مائة ألف سيف ، وبهذا القول ترضى الشيعة ولا يكون على إخوانهم السنة فيه ضرر ، ولا في تركه والجدال فيه أقل فائدة ، كما أن القول بصحة الخلافة من الشيعة وعدم كونها عدواناً ترضي أهل السنة ، ولا يكون على إخوانهم الشيعة ضرر ولو مثقال ذرة ، فقد علموا أن الأئمة عليهم السلام نهوهم عن انتقاص الخلفاء رضي الله عنهم ، وأمروا بوجوب تعظيم شأنهم ومؤازرتهم على إعزاز الاسلام وتوحيد الكلمة .

وأما اختلاف الرأي في ابتداء الأمر في تعيين الأمير والخليفة ، أو في وحدته وتعدده ، أو أنه في أي قبيلة ، فلم يكن خلافاً منهم في الإمامة ولا تكذيباً لها ، ولم يخطر ببالهم يومئذ أن تعيين القائم بالأمر مضادة لأقوال الرسول ﷺ ومشاقة لله سبحانه وله .

وحسبك في ذلك أن علياً لما واجه الصديق يوم البيعة العامة في المسجد بعد بيعة السقيفة ، وقال له : أفسدت علينا امورنا ولم تشاورنا ولم ترع لنا حقاً ،

قـال : بلى ، ولكن خشيت الفتنة ، فانظر كيف صدق الصديق رضي الله عنه امورهم ، واعترف بحقهم ، وعلل البيعة بخوف الفتنة ، ثم انظر أن علياً عليه السلام كيف لم يبطل قيامه بالأمر من أصله، وإنما عاتبه على ترك المشاورة، ولولا التسالم على المنزلتين لم يستقم هـــذا الاسلوب من كلاهما ، وكذا كلام الصديق على باب المسجد قبل واقعة السقيفة ، قائلاً : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد رب محمد فإنه حي لا يموت ، ولا بد من أحد يقوم بهذا الأمر ، فهاتوا آراءكم أو كما قال ، يدل على أن هذا الإعلام كان عادياً عقلياً ، لم يتوهم أحد منه خلافاً على نص النبي ومنزلة الوصي ، وكان في النـــاس من حملة تلك النصوص والمحتجين بها ، ومن حواريي علي ومن بني هاشم كثير ، ولولا أن إدارة أمر الامة سياسة صحيحة لا تخالف منزلة الإمامة ولا تنقص من شأن أهل البيت قيد شعرة لماج الناس في تلك الساعة في الجدال ، ولذلك أمر علي عليه السلام الكارهين من بني هاشم وخواص أصحابه وحوارييه العارفين بمنزلته السماوية بالبيعـــة والطاعة لهم ، وتولي الأعمال عنهم ، فأين الخلاف بين الإمامة والخلافة مع حفظ ودهما لولا زيادة المفرقين على الخلافـة ما ليس منها ، ونقصهم من الامامة ما هو منها ، وإقامة الحرب بين يميني الله ورسوله المتصافحتين وقوتيها المتراوحتين ، فالخليفة أمين خزائن الأرض ، والإمام أمين خزانة علوم الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

التصالح بين الامامية والزيدية :

وقد كادت هذه الخلافة الملية التي لا تزاحم الامامة ولا تكذب النص ، تشبه الامامة الـتي أسسها الزيدية ، المبنية على الخروج بالسيف لإقامة العدل وإدارة الملك وإصلاح المجتمع ونحو ذلك ، ويكفي في هذا النحو من الامامة ما قررناه في تصحيح الخلافة من كونها أمراً سائغاً عقلاً مباحاً غير محظور ولا ممنوع من نبي أو وصي نبي ، أو نائبه الخاص ، إذ لا مانع من القيـــام برياسة عامة عادلة

لإعلاء كلمة الله ، لئلا تكون للأعداء والمتآمرين فرصة يبادرون فيها الى تملك معاقلهم ، واستعمال بلادهم ، ويطمعون في تفتيت أعضادهم ، وتشتيت جامعتهم ، ولو أن الزيدية قعدوا بعد زيد عن ذلك ، لم يكن اليوم وما قبله لهم دولة ولا سلطان ، فكم من دولة إسلامية تشكلت لهم بهذه الإمامة التي أسسوها واستفادوها من قعود الأئمة المنصوصين المعصومين عنها فضلاً عنها بعدهم حتى انهم وفقوا لتشكيل دولة عظمى في بلاد طبرستان كدولة أبي محمد الحسن بن علي الأطروش وأقرانه ، وهو مع أنه كان شيعياً اثني عشرياً له كتاب يثبت فيه إمامة الأئمة الإثني عشر بالنصوص المتواترة تولى إمامة الزيدية وروح أمرهم وطريقتهم لإحقاق حق أهل البيت بأي اسم ورسم ومن هذا القبيل دولة الملوك الفاطميين باسم المهدوية والإمامة في مبانيها المرموزة العجيبة ، وكم لذلك من نظير يحمده العقلاء ويرضى به المسلمون ، فما ظنك بخلافة الخلفاء الراشدين الذين اتبعوا من بعدهم فلم يكن ولا يكون لها كفو، وقد سلّم لها الامام المنصوص ، ومن المعلوم أن كل مرتبة من هذه الرياسات الاسلامية العادلة المعبر عنها بالإمامة أو الخلافة أو الرضا لآل محمد أو الآمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لها قيمتها وقدرها ، وليست مكذبة للإمامة الخاصة المنصوصة المشروطة بشروط مخصوصة ، وصفات ربانية لن توجد إلا فيمن نص الله عليه على لسان رسوله ﷺ ، ولأجل عدم التكاذب بين الإمامتين أجمع علماء الامامية على جلالة زيد وعلمه وعبادته وخشيته وصلاحيته للسلطان الاسلامي وعلى موافقته للامامة المنصوصة في حق أخيه محمد الباقر وابنه جعفر الصادق ، وله أشعار صريحة في ذلك ، وكان يدعو الناس الى رضا آل محمد والأمر بالمعروف وجُل الأخبار صريح في فضله والرضا بدعوته وما يخالفها مطروح أو مؤل عند الامامية ، ومنعه عن القيام إنما كان إشفاقاً عليه لا تحريماً ، فهو عليه السلام وإن قصرت مدته — إذ خرج في الأربعاء وقتل يوم الجمعة — لكن قدره الرفيع طويل ، وأمر الحسين بن علي صاحب فخ أيضاً كذلك ، فقد أبلى بلاء حسناً وجاهد في الله حق جهاده صلوات الله عليه وعلى أصحابه وأنصاره والمستشهدين بين يديه ،

ولقد أجـــاد الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان المتطلع المتبحر الخبير في كتابه « الفصول » وهو فصول من أماليه ومجالسه جمعها تلميذه المعظم علم الهدى السيد المرتضى الموسوي ، وهذا الكتاب مخطوط عندنا منه نسخة قديمة ، فقد جمع بين الامامتين ، وصالح بينهما على نحو ما أدت اليه فكرتنا بين الامامة والخلافة قبل النظر اليه .

قال السيد المرتضى فيه ما نصه : « حضر الشيخ ، أيـــده الله ، بمسجد الكوفة ، فاجتمع اليه من أهلها وغيرهم أكثر من خمسمائة إنسان ، فانتدب رجل من الزيدية أراد الفتنة والفساد ، فقـــال : بأي شيء استجزت إنكار إمامة زيد ابن علي ؟ فقال له الشيخ : قد ظننت عليّ ظناً باطلاً ، وقولي في زيد لا يخالفني عليه أحد من الزيدية فلا يتصور مذهبي في ذلك بخلاف لهم ، فقال الرجل : ما مذهبك في إمامة زيد بن علي ؟ فقال له الشيخ : أنا اثبت من إمامة زيد ما يثبته الزيدية ، وأنفي من ذلك ما تنفيه فأقول : إن زيداً كان إماماً في العلم والزهد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنفي عنه الامامة الموجبـــة لصاحبها العصمة والنص والمعجز ، وهـــذا ما لا يخالفني عليه أحد من الزيدية ، فلم يتمالك جميع من حضر من الزيدية أن شكروه ودعوا له وبطلت حيلة الرجل فيما أراد من التشنيع والفتنة » انتهى .

أقول هـــذا هو ملاك التصالح القطعي بين الامامة لعليّ والأئمـــة المنصوصين من ولده ، وخلافـــة الخلفاء الراشدين نثبت لهم ما أثبته الشيخ لزيد من الامامة في العـــلم والزهد مضافاً الى بيعة المسلمين لهم ، واقتداء الامام المنصوص بهم ، وننفي عنهم الامامة الموجبة للعصمة والنص والمعجز ، وهذا ممـــا لا يخالف عليه السلف واحد من أهل السنة ، ولا ادعاها الخلفاء الراشدون بإجماع الامة ، فمـــا معنى الخلاف ومحاربة الامامة الـــتي لا تحاربهم ، وإنكار منزلتها التي لا تنكر منزلة الخلافة للسابقين الأولين القائمين بهـــا ، فسلوا السيوف المغمدة التي لا تقصدهم على وجوههم بلا موجب ، ثم قالوا : ما سل سيف على شيء كما سل في

الاسلام على الامامة والخلافة وكان الحق أن يقال : ما اغمد سيف عن الرياسة في امة كما اغمد في صدر الاسلام بين الامام والخليفة ، حتى إذا نزلت بهم قضية ولم يكن عندهم أثر رجعوا إلى العلم المذخور من معدن النبوة عند الوصي والامام المنصوص، فيقول له قائلهم العظيم تارة غص يا غواص،واخرى لولا علي لهلكت، وثالثة : لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن ، ورابعة : لو وليهم هذا لحملهم على المحجة البيضاء .

ومن طريف ما يدل على أن علياً عليه السلام كان مسالما لعقد الخلافة لهم ، واثقاً بعدلهم في شئونها وبحصول الغرض المطلوب بهم ، وعدم منافاتها لمنزلته الإلهية ، ولا للنص عليها ، ولا لأولويته بها إن أتوه جميعاً طائعين : ما رواه غير واحد ، منهم الامام الأعظم الخبير الشيخ المفيد في فصول أماليه التي جمعها علم الهدى الموسوي وهو ما نصه : « حضر الشيخ أيده الله « بسُرّ من رأى » واجتمع اليه من العباسيين وغيرهم جماعة كثيرة ، فقال له بعض مشايخ العباسيين : أخبرني من كان الامام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال : كان الامام من دعاه العباس إلى أن يمد يده لبيعته على حرب من حارب ، وسلم من سالم ، فقال العباسي : ومن هذا الذي دعاه العباس إلى ذلك؟ فقال له الشيخ: هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حيث قال له العباس في اليوم الذي قبض فيه رسول الله ، عليه وعلى آله الصلاة والسلام بما اتفق عليه النقل : ابسط يدك يا ابن أخي ابايعك ، فيقول الناس عم رسول الله بايع ابن عمه فلا يختلف عليك اثنان ، فقال شيخ من فقهاء البلد ، فما كان الجواب من علي ؟ فقال له : كان الجواب أن قال إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهد إليّ أن لا أدعو أحداً حتى يأتوني ، ولا اجرد سيفاً حتى يبايعوني ، ومع هذا فلي برسول الله شغل ، فقال العباسي : فقد كان العباس أيضاً على خطأ في دعائه له إلى البيعة ؟ فقال له الشيخ : لم يخطىء العباس فيما قصد لأنه عمل على الظاهر ،

وكان عمل أمير المؤمنين على الباطن ، فكلاهما أصاب الحق ولم يخطىء ، والحمد لله . انتهى موضع الشاهد .

أقول: ليت شعري إذا كان الأمر على هذا المنوال من المسامحة والمسالمة والعهد المعهود مع ما قدمنا من عدم التنازع بين الامامة والخلافة ، وعدم كون الشيعة والسنة أولاً وبالذات على طرفي الخط في هذين المقامين ، فأي معنى للنزاع بينهما سيما في هذا اليوم ؟! أم أي مصلحة في إبقائه وتأييده بعد توجه الأذهان إلى التقريب وتأسيس دار عظمى له في مركز الفضل والأدب ؟! أم أي جدوى في هذا العصر لتجديد إيقاد النـــار التي أوراها الغافلون أو المفرقون من قبل بين الامامة والخلافة وبين أحـد الثقلين أهل بيت النبوة ، وبين عظماء المهاجرين من قريش ؟! وهل يجوز بعد اللتيا والتي تشمير الساعد وشد الحيزوم لحفظ وميضها تحت الرماد كحفظ الزرادشتية نارها المعبودة في حفر بيوتها ، رغماً على البرد والسلام الذي كان بين المنصبين وبين ذويهما في أول الأمر .

وإنما حدثت الأبحاث حول الامامة والخلافة بعـد ذلك تعصباً ، وإلا فربُّ الإمامة وربِّيها وربُّ الخلافـة وربّانيتها كانا متسالمين عليهما لم يسمع ولم ير من أحدهمـــا هدم أساس منزلة صاحبه بمنزلة نفسه ، بل اجتمعا على نقطة سواء ، وتوازرا على هدف واحد بمنزلتين أحدهما إلهية والاخرى خَلقية .

ولو فرض على خلاف الواقع أن الأمر لم يكن على وجه السلم والوحدة ، وجب على زعماء العـلم والملك ستره عن الأغيار ، وأن يقولوا لا خلاف بين الامة في منزلة العترة ومنزلة الخلفاء ، وكل عندنا على كرامته المنصوصة أو الملية .

لكن المؤسف - وأنى ينجع الأسف - أنهم شرعوا أسنة كل خلاف مفترى في صدر الإسلام في صدور أهله المنشرحة بالسلم والسلام والاعتراف بالحق وحسن التدبير في الجمع بين الحقين ، والخطب الأفظع أنهم في ظلال تلك الأسنة ، وخلال تلك السيوف جانبوا أهل البيت وهضموا جانبهم الذي هو جنب الله القوي

وصراطه السوي ، في علومهم الموروثة فيهم عن معـدنها وصاحب سكينتها والمبثوثة لديهم من باب مدينتها حتى في تفاصيل العقائد فضلاً عن مسائل الفقه ، فمن له العنـاية بعلوم السلف والصدر الأول فهم عليهم السلام طرقها ومناهجها ، فكيف يسوغ تركها ومجانبتها ويكتفى بعلوم غيرهم وحدها ؟

أولم يتفكروا في أن أهل البيت لا يعتقدون في دينهم بخـلاف ما يعتقده رسول الله ﷺ ، ولا يفتون إلا بما يوافق علمه ؟ أما عنـد الإمامية فلعصمتهم ومصونيتهم عن كل خطأ وجهل ، فضلاً عن التعصب وغيره من الأهواء ، وأمـا على فرض أن لا يكون أئمـة منصوصين معصومين فليس علمهم بالكتاب والسنة وحقائقها ، ولا رواياتهم ولا فتاواهم من المناكير حتى يعـدل عنهم إلى غيرهم ، إذ المسلمون مجمعون على أن ما يعلمه أهل بيت الرسالة في دينهم أصلاً وفرعاً وهم يدينون به بينهم وبين ربهم لا يخطىء علوم جدهم المرسل ، ولا ما يدين به السلف الصالح الحفاظ من الصحابة المخلصين المنجبين ، وليس اليوم يوم مجانبـة علومهم ولا مجانبة علوم الصحابة ، وقد كان كثير من علماء الشيعة والسنة يجمع بينها في اجتهادهم لا يتركون علماً لا من هؤلاء ولا من هؤلاء تشهد بذلك كتب الشيعة كالمبسوط والخلاف للشيخ الطوسي ، والتذكرة للعـلامة الحلي ، وليس في ذلك تشيع للسني ولا تسنن للشيعي ، لأن التسنن لا يدور مدار مجانبـة معارف آل محمد الطاهرين . فليس كل متتبع لجعفر بن محمد الصادق في الكلام والفقه شيعياً ، ولا كل من يتتبع فيها طرق الصحابة وفتاوى الأئمة الأربعـة ومن قبلهم من رواة السنة والمتكلمين منهم من قبل ومن بعد سنياً .

فكم عالم أو عامي ، يتتبع تعـاليم أهل البيت في اصولهم وفروعهم واثقاً بعلومهم العقليـة والنقلية مؤثراً لهم على من سواهم ، لوثوقه بأن علومهم أقرب إلى علم رسول الله ﷺ وسنته ، لكن لا يعتقد إمامتهم المنصوصة ، وولايتهم المعصومة ، ولا كونهم حجج الله تعـالى على جميع العالمين يجب طاعتهم على حد

طاعة جدهم ، بل يعتقد صحة خلافة الخلفاء على تلك الاصول المشهورة بين أهل السنة ، فهو سنيّ المباني ، جعفري الطريقة .

وكم ممن يتتبع الطرق التي حفظها أو دوّنها أهل السنة في صدورهم أو صحاحهم الستة ، أو بجاميعهم السابقة على الصحاح كمجموع ابن شهاب الزهري، وعبد الملك بن جريح وغيرهما ، ثقة منه بها ، جامداً عليها ، أو مجتهداً فيها نقاداً لها . ولكن لا يتتبع ما نقل عن أهل البيت محفوظاً أو مدوناً في الاصول الأربعمائة ، أو الكتب الأربعة المشهورة للإمامية ، ثم الأربعة الاخرى بعدها ، أو ما كان مدوّناً قبلها في أربعة آلاف كتاب من كتب رواة جعفر الصادق وتلامذته ، وذلك لمرونته على روايات أهل السنة في المحيط المناسب لذلك ، فاستغنى بها في إصابة السنة سيما مع عدم معرفته لثقات أهل البيت ، أو عدم اطلاعه على كتبهم وجوامعهم ومعاجمهم أو زعمه بهذه المرونة والانس ، وكثرة أصحاب طريقته وأنصارها ، أن ما بيده يغني عن الفحص عن علوم أهل بيت نبيه صلوات الله عليه ، أو ظنه التوافق بينهما ولو في خصوص المسائل التي هي عامة البلوى، أو ظنه أن له الخيرة في اختيار أيهما شاء ، وأنه لا يجب عليه النقد والتحقيق والجمع والتوفيق بين الطريقين ، أو أحس العجز من نفسه ، إذ قضى أكثر عمره في معرفة تلك الطريقة المتسننة والعمل بها فيشق عليه الورود في دائرة علمية وسيعة اخرى ، يكون فيها كالطفل الأبجدي مثلاً فيقول في نفسه : متى أتعلمها ؟ ومتى أعمل بها ، وأنّى لي قوة الاجتهاد فيها ؟ فيثبط نفسه عنها بهذه الأعذار وأشباهها ، وبمثل ذلك يرجع في العقائد الكلامية إلى ما ألِفَه وبنى عليه وسخره من دلائل مشايخه التابعين لأصحاب المقالات الحادثة ، فلم يلتفت الى ما حققه أهل البيت في المسائل الكلامية ولا نظر فيها ولا بحث عنها، ومع ذلك كله تراه معتقداً بإمامتهم المنصوصة على الوجه الذي تعتقده الإمامية حتى أنه لو كان في عصر واحد منهم فاتفق لقاءه وسؤاله عما لا يعلم أو علم من غيرهم ، اتبع قوله ودان به ، ومثل هذا الصنف كثير في العلماء القدماء ، حتى

أنه كان فيهم من يعمل بالقياس ، وكذا في العوام ، فهذا الصنف جعفري المباني في الإمامة ، وسني الطريقة في الكلام والفقه واصول الفقه ، وقـــد اتفق ذلك لكثير من علماء السنة بالمعنى المعروف ، أي الذين لا يقولون بالإمامة المنصوصة ، ويتبعون في الفقه طرق غير أهل البيت ، وفي العقائد أيضاً طريقـة غيرهم ، ثم إذا لقوا أحداً منهم عليهم السلام ، وعرفهم بغير مـا كانوا يعرفونه من غيرهم تركوه واتبعوا قول أهل البيت ، مع بقـــائه على تسننه في الإمامة والخلافة ، حتى إنا وجدنا كثيراً من فرق المرجئة حتى المرجئة الشكاك الحشوية من مرجئة العراق وأصحاب الحديث إذا وقفوا على كلام أهل البيت أو سألوهم اتبعوهم فيه ، وهم يرون الإمامة والخلافة لكل من اقيم بعد الرسول صلوات الله وسلامه عليه مقامه في لمّ الشعث وجمع الكلمة ، والسعي في امور الملك ، والرعيـــة ، وإقامة الهدنة ، وتأمير الامراء ، وتجنيـد الجنود ، والدفع عن بيضة الإسلام ، وردع المعاند ، وتعليم الجاهل ، وإنصاف المظلوم ، وربمـا كان فيهم من يعرف الإمامة المنصوصة لأهل البيت ، ويخص الخلافة بالخلفاء بهذه الشئون في هـــذه الجمل المتعاطفة المأخوذة من نص كلامهم . لكن الجم الغفير وقعوا في الغلط في ملاك التسنن والتشيع في الفقه والعقائد ، وفي الخلط بين الإمامة والخلافة ، وفي توهم المعارضة بينهما كما شرحناه .

وأما اليوم ، فيجب تعـــارف العلوم والثقافات بين القبيلتين ، والتسالم على الخلافة للخلفاء الراشدين ، والإمامة المنصوصة للأئمة الصفوة العترة من غير حاجة إلى تنزل السني عن تسننه ، ولا الشيعي عن تشيعه ، ثم يجب تحصيل النمرقـــة الوسطى في العقائد وفي الفقه ، وهو الأمر الثالث المعزّز لما شرحه العلامة الكبير شيخ الإسلام من الأمرين ، ليكون للتقريب صورة عملية ، وهي البناء على عقائد السلف المطابقـــة لمحكمات الكتاب والسنة ، والجمع في الاجتهاد بين الصحاح والجوامع الأربعة عشر ، ستة منها لأهل السنة ، وثمانيـة للإمامية ، وتدريس الفقه الجعفري في ممالك السنة ، وتدريس عقـــائد السلف التي حفظتها كتب

الإمامية لتتعارف العلوم ، وتتآلف العقائد ، وتتوانس المسلمون مع التعظيم والحرمة لكل مذهب .

وهل هذا الرجاء إلا من دار التقريب ؟ فالمرجو من جماعة التقريب الكرام عموماً ، ومن فضيلة شيخ الاسلام خصوصاً : نصب كرسي في القاهرة لتدريس علوم الإمامية والترغيب لسائر ممالك السنة في ذلك ليتصل المسلمون بعضهم ببعض ولا يضيق ذرعاً أهل كل مذهب من استماع علوم إخوانه سواء اختاروها أم لا ، وسواء أدى اجتهادهم بعد استفراغ وسعهم فيها إلى موافقتها أم لا ، فإن اختلاف أنظار الفقهاء بعد تحقيق أدلة الأحكام لا ينبغي أن يسمى خلافاً يعتد به في تفريقهم شيَعاً وأحزاباً ، فإن كلاً منهم يستفرغ وسعه في إطاعة مولاه الذي هو مولى الكل وفي امتثال أمره ، فمَثَل الفقيهين المختلفين، مَثَل مملوكين لمولى واحد ينادي أحدهما بعينه أو كليهما بسقيه الماء ، فظنّ أحدهما بعينه أمره بإيتائه الغداء والآخر بسقيه الماء ، فبادر كلٌّ إلى الامتثال بإتيان ما ظنه إطاعة لأمره، فكلاهما ممتثل مطيع له معذور مثاب ، نعم قد يتفق نادراً ترتب مفسدة على عمل المخطىء لكنها تنجبر غالباً بمصلحة الطاعة والانقياد ، على أن الخطأ ينشأ غالباً عن القصور أو المسامحة في الفحص .

وبالجملة ، فإذا حصلت العناية بدراسة مذهب أهل البيت وسائر المذاهب في الممالك الاسلامية حصل التقريب الحقيقي بين المسلمين . وقد كان في الإمامية فيما سبق جماعة يدرسون المذاهب الخمسة على أتم وجه ، لكن لا يحضرني من علماء السنة من جازاهم بهذه الحسنة ، وبدراسة المذهب الجعفري بعد رسمية المذاهب الأربعة من عهد القادر بالله العباسي الحاكم بها في العراق ، وتلاه الظاهر بيبرس في مصر وقبله المعز بن باديس [1] في افريقية ، وغيرهم في غيرها في قصص

(١) المعز بن باديس هو الحميري الصنهاجي صاحب افريقية وما والاها ، ولقبه الحاكم صاحب مصر شرف الدولة في سبع وأربعمائة ، وكان مذهب أبي حنيفة أظهر المذاهب في افريقية ، فحمل المعز جميع أهل المغرب على مذهب مالك ، وحسم مادة الخلاف في المذاهب ، واستمر الحال على ذلك قروناً منه .

طويلة سجلها التاريخ .

ولنا الرجاء الأكيد ، والأمل الوطيد من فضيلة شيخ الاسلام ومن جماعة التقريب الكرام أن يكونوا هم القدوة في تأسيس هذه الحسنة ، كما أنهم هم القدوة في تأسيس دار التقريب .

وعلينا أن نسرد ذكر الصحاح الستة لأهل السنة ، والصحاح الثانية للامامية تذكرة لمن تذكّر والأمر لله تعالى من قبل ومن بعد .

أما الصحاح الستة :

فأولها صحيح الامام محمد بن اسماعيل البخاري المولود سنة ١٩٤ هـ ، والمتوفى سنة ٢٥٦ ، وقد حكى عنه محمد بن يوسف الفربري ، وهو آخر من بقي ممن سمع صحيحه أنه قال : صنّفت كتابي الصحيح لست عشرة سنة ، خرّجته من ستمائة ألف حديث ، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله ، وما وضعت في كتابي الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين ، قال الفربري : سمعَ صحيحَ البخاري تسعون ألف رجل (سبعون ألف رجل) فما بقي أحد يرى عنه غيري ، وروى عنه أبو عيسى الترمذي كذا في الوفيات .

أقول: عدة أحاديث صحيح البخاري على ما ذكره الشهيد الأول في الذكرى ، وشهد به ابن حجر مع المكرر ، سوى المعلقات والمتابعات : سبعة آلاف وثلثمائة وسبع وتسعون حديثاً ، والخالص بلا تكرير ألفان وستمائة وحديثان ، وفيه من المتون المعلقة المرفوعة مائة وخمسون حديثاً .

الثاني : صحيح مسلم بن الحجاج النيسابوري المتوفى سنة ٢٦١ هـ ، وعدة أحاديثه بلا تكرار أربعة آلاف حديث ، ومع المكرر ٧٢٧٥ ، كذا عن كشف الظنون .

الثالث : صحيح أبي داود السجستاني سليمان بن أشعث المولود سنة ٢٠٢هـ ،

والمتوفى سنة ٢٧٥ هـ ، وكان ابنه عبد الله من أكابر حفاظ بغـداد ، وله كتاب المصابيح ، وتوفي سنة ٣٦١ هـ ، وهـذا الصحيح مشهور بالسنن ، وعدة أحاديث سننه على ما قاله نفسه أربعة آلاف وثمانية أحاديث من الصحيح ، وشبهه ومقاربه وعدد البقية غير معلوم ، ونقل عنه ابن خلكان أنه قال : كتبت عن رسول الله ﷺ ستمائة ألف حديث انتخبت منها كتاب السنن .

الرابع : **صحيح محمد بن عيسى** بن سورة الترمذي المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، قال ابن خلكان : صنف كتاب الجامع والعلل تصنيف رجل متقن ، وبه يضرب المثل ، وهو تلميذ البخاري ، وشاركه في بعض شيوخه ، مثل قتيبة بن سعيد ، وعلي بن حجر ، وابن بشار وغيرهم .

الخامس : **صحيح أحمد النسائي** المتوفى سنة ٢٣٣ هـ .

السادس : **صحيح محمد بن يزيد بن ماجه الربعي القزويني** المولود سنة ٢٠٩ هـ ، والمتوفى سنة ٢٧٣ هـ ، قـال ابن خلكان : كان ابن ماجه إماماً في الحديث عارفاً بعلومه ، ارتحل إلى العراق والبصرة والكوفـة وبغداد ومكة والشام ومصر والري لكتب الحديث ، له تفسير القرآن الكريم ، وتاريخ مليح ، والسنن أحد الصحاح الست .

أقول : لإخواننا أهل السنة صحاح اخر كصحيح عبدالله الدارمي السمرقندي المتوفى في القرن الثالث ، وموطأ مالك ، وهو الذي جعله رزين العبدري في كتابه : الجمـع بين الصحاح الستة سادسها بدل صحيح ابن ماجه . وكجامع الاصول في الجمع بين الستة أيضاً ، لمبارك بن الأثير الجزري . وكالجمـع بين الصحيحين : صحيح البخاري وصحيح مسلم لمحمد بن أبي نصر الحميدي . وكالمصابيح المشابه لكتاب من لا يحضره الفقيه في حذف الإسناد ، للسيد حسين بن مسعود ابن الفراء البغوي نقل فيه الأحاديث الصحاح والحسان النبوية اصولاً وفروعاً ومراداً ، وجعل من الصحاح مخرجات البخاري ومسلم ، ومن الحسان روايات

الترمذي والسجستاني ، توفي بمرو في سنة ٥٠٥ هـ ، وبغ وبغشور بلدة بين مرو وهرات ، ومن الشروح ، عارضة الأحوذي في شرح صحيح الترمذي، لأبي بكر محمد المغافري المتوفى سنة ٥٤٣ ، وكان معاصراً للفخر الرازي ، وكتاب الفتح الباري بالسيح الجاري في شرح صحيح البخاري لأحمد بن حجر العسقلاني وغير ذلك .

وأما صحاح الامامية فهي ثمانية للمحمدين السبعة ، أربعـــة منها للمحمدين الثلاثة الأوائل ، وثلاثة بعدها للمحمدين الثلاثة الأواخر ، وثامنها لمحمد الحسين المرحوم المعاصر النوري ، صاحب المؤلفات الكثيرة المطبوعة .

أولها : الكافي في الاصول والفروع والأخلاق وأحوال الأنبياء والأئمـــة والسماء والعالم ، وكل ما يتعلق بذلك على أتقن وجه وأحسنه للشيخ **أبي جعفر** المجدد بشهادة الفريقين **محمد بن يعقوب الكليني** المتوفى سنة ٣٢٩ هـ ، وقد شهد جماعة منهم الشيخ البهائي في الوجيزة بأنه ألف الكافي في عشرين سنة ، وذكر غير واحد منهم السيد رضى الدين علي بن طاوس في كشف المحجة ، أن الكليني كان معاصراً لوكلاء مولانا المهدي وسفرائه الأربعة ، وقال صاحب الوسائل ما حاصله أن الاصول والكتب التي كانت منابع اطلاعات الكليني قطيعة الاعتبار، لأن باب العلم واستعلام حال تلك الكتب بوسيلة سفراء القائم كان مفتوحاً عليه لكونه معهم في بلد واحد بغداد . انتهى ملخصاً .

وكتاب **الكافي** خلاصة الاصول الأربعمائة من أربعمائة مصنف ، كما عنى الشهيد الثاني في شرح الدراية ، وكانت تلك الاصول بأجمعهـا موجودة في عصر الكليني ، كما صرح به شيخنا العلامة النوري في مستدرك الوسائل .

أقول قد علم كل حاضر وباد أن العلوم التي انتشرت من الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وملأت أقطار العالم مما لم ينقل مثلها عن أحـد ، وذلك أن أصحاب الحديث ضبطوا أسامي ثقات رواته وهم أربعـــة آلاف رجل، صرح

بذلك المطلع الخبير الشيخ المفيـــد في الإرشاد ، والمحقق الحلي في المعتبر ، وابن شهراشوب في المناقب ، وزاد في المناقب أن ابن عقـدة ذكر الأربعة آلاف في كتابه ، وقال الطبرسي في اعلام الورى: أن الأربعة آلاف رجل كانوا من مشاهير أهل العلم ، وقد جمعوا من أجوبة مسائل الصادق عليه السلام أربعمائة كتاب ، تسمى بالاصول ، وقد رواها أصحابه وأصحاب ابنه . انتهى .

أقول : إن ابن عقدة هـذا هو **أحمد بن محمد بن سعيد الكوفي** المتوفى سنة ٣٣٣ هـ بالكوفة ، وأمره في الوثاقة والجـلالة والحفظ مشهور ، اعتنى بذكره عظماء الفريقين . وعن الدارقطني : أن أهل الكوفة أجمعوا على أنه لم ير من زمن ابن مسعود الصحابي إلى زمن ابن عقدة ، أحفظ من ابن عقدة ، وكل ما كان عند الناس من العلم فهو يعلمه ولا عكس ، وعن ابن كثير والذهبي واليـافعي ، أنه لا كلام لأحد في صدقه وأمانته ، وكتابه المسمى (أسماء الرجال) هو المشتمل على أسامي الأربعة آلاف رجل من ثقات رواة الصادق عليه السلام مع ذكر حديث كل واحد منهم ، وقد أجمع أصحابنا أن لكل منهم كتاباً من جملتها الاصول الأربعمائة . وفي الوسائل أن الكتب ستة آلاف كتاب ، وبالجمـــلة فالكتب والاصول كانت عند الكليني ، فجاء كتابه الكافي أتقن كتاب في الحديث اصولاً وفروعاً ، وكونه المجدد لمذهب الإمامية في المائة الثالثة عنـد الطائفتين مشهور مسطور ، فمن أهل السنة ممن اعترف بذلك ابن الأثير في الجامع والطيبي في شرح المشكاة في آخرين .

قال **الشهيد في الذكرى** : إن أحاديث كتاب الكافي بانفراده أكثر من مجموع الصحاح الستة للجمهور ، قلت : قـد تقدم ذكر عدد أحاديث كل منها ، وأما عدة أحاديث الكافي فهي ستة عشر ألف ومائة وتسعون حديثاً ، وزاد بعضهم على ذلك تسعة أحاديث ، وكلها صحيح باصطلاح القدماء ، أي حجة معتبرة ، وأما على اصطلاح المتأخرين في تنويع الأحاديث المنسوب أحداثه إلى ابن طاوس والعلامة الحلي ، فالصحيح الاصطلاحي أي كل من كان في رجال السند عـــدل

امامي فهو سنة ٥٠٧٢، والموثقات ١١١٨، والقوى ٣٠٢، والمعتبر أي الصحيح القدمائي ٩٤٨٥ .

الثاني : كتاب **(من لا يحضره الفقيه)** للشيخ المشهور بالصدوق محمد بن علي ابن الحسين بن موسى بن بابويه القمي المولود بدعاء القائم المتوفى سنة ٣٨١ هـ، صاحب الكتب القيّمة الشهيرة تبلغ ثلثمائة مصنف .

الثالث والرابع : **التهذيب والاستبصار** لمؤلفها **شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي** المولود في شهر رمضان سنة ٣٨٥ هـ، والمتوفى بالنجف في المحرم سنة ٤٦٠ هـ، وهو البحر الذي لا يساجل في جميع العلوم الدينية، وقد أجمع أهل الخبرة على ثقته وصدقه وحفظه وتبحره، ومصنفاته كثيرة شهيرة .

الخامس : **الوافي**، في الجمع بين هذه الكتب الأربعة في أحسن ترتيب مع البيان والتحقيق لمحمد بن المرتضى المدعو **(بمحسن الكاشاني)** المتوفى سنة ١٠٩١ هـ، وله المصنفات المنقحة الرائعة في العلوم العقلية والنقلية، وهي مشتهرة منتشرة .

السادس : **بحار الأنوار**، في خمسة وعشرين مجلداً مطبوعاً، للعلامة الأفضل الأورع المولى محمد باقر المجلسي المتوفى سنة ١١١٠ هـ، وقيل سنة ١١١١ هـ .

السابع : **الوسائل**، في أحسن ترتيب، للمحدث الأعظم محمد بن الحسن الحر العاملي صاحب المؤلفات الكثيرة الرائقة، هاجر إلى مشهد الرضا، وبقي بعد المجلسي المذكور سنين، وكان شيخ الإسلام بمشهد الرضا، وله ضريح يُزار في الصحن العتيق الرضوي .

الثامن : **مستدركات الوسائل** في ثلاثة مجلدات كبار مطبوعة، لشيخنا المحدث العلامة **محمد الحسين النوري** صاحب المؤلفات الكثيرة المطبوعة .

ثم إن من مفاخر أهل السنة التي غفلوا عنها، وأنا أول من يذكرهم بهذه

المنقبة الفخمة التي دخلت بيوتهم مع العلم الراسخ والمجد الشامخ وسلطان النبوة الباذخ ، وهم عنها ذاهلون ، وعن الانتساب اليها والإقبال بكلهم عليها إلى غيرها عادلون ، أن الإمام جعفر بن محمـــد الصادق وولده المعصومين من ولد إمامهم الأعظم **أبي بكر الصديق** رضي الله عنه من قبل امه ، فإن امه ام فروة بنت القاسم الفقيه ابن محمـــد بن أبي بكر وامها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ، وهي بنت عم القاسم المذكور ، فالإمام **محمـــد بن علي الباقر صهر الصديق** على ابنـــة حفيده القاسم ، وكان يقول جعفر بن محمد : ولدني أبو بكر مرتين ، يعني بهما محمداً والقاسم ، فالصديق رضي الله عنه جد الصادق، والكاظم والرضا والتقي الجواد والنقي الهادي والحسن الزكي العسكري ومهدي الامة ، فانظر ماذا صنع المفرقون بين الامة ، كيف أخرجوا أئمة أهل بيت الرسالة من ولد الصديق وعلومهم عن بيوتهم وتعلقوا بأذيال علوم قوم آخرين ، وحالوا بين الصديق وأعلام شرفه وفخاره، وأطفؤا من أهل بيت الصديق مصابيح أنواره، فاليوم يوم التعلق بذيل الصديق في أهل بيته الصفوة ، والاستغفار من كل غفلة وهفوة ، وأول عـلائم التقريب العملي بين السنة والشيعة نصب كرسي لتدريس الفقه الجعفري في الأزهر الشريف ، والعناية الكاملة بجوامعه ومعاجمه ، فيقْفوا أثره سائر الممالك الإسلامية، وبذلك تقرّ عين الصديق وعيون الخلفاء الراشدين، ثم السني على تسننه ، والشيعي على تشيعه ، والمجتهدون على اجتهادهم بعـد الجمع والتوفيق بين صحاح الإمامية الثمانيـة التي طلعت شمسها من بيوت ولد الصديق والصحاح الستة التي ظهرت من بيوت قوم آخرين ، غفر الله لهم ولنـــا ولجميع إخواننا المسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

علي بن أبي طالب
والتقريب بين المذاهب

لفضيلة الاستاذ الجليل
الشيخ عبد المتعال الصعيدي

هـذا فضل كبير **لعلي بن أبي طالب** رضي الله عنه ، وكرّم الله وجهه ، أن يكون هو أول واضع لأساس **التقريب بين المذاهب** ، حتى لا يكون الاختلاف في الرأي مما يدعو إلى تفريق كلمة الامة ، وإثارة العداوة بين طوائفها المختلفة ، بل تبقى لهـا وحدتها مع الاختلاف في الرأي ، ويعيش فيها المختلفون في الرأي إخواناً متحابين ، يترك كل واحد منهم أخاه ورأيه ، لأنه إما مصيب مأجور ، وإما مخطىء معذور ، أو يجادله بالتي هي أحسن ، فلا يكون في جدالهما تعصب للرأي ، وإنما يكون القصد منه الوصول إلى الحق ، لا المغالبة والانتصار .

وإنه لفضل أي فضل لابن عم الرسول ﷺ ، لا يقلّ عن فضله في شرف نسبه وقربه من صاحب الرسالة ، ولا عن فضله في سبقه غيره إلى الإيمان به وهو غلام صغير ، فكان به أهدى من كل صغير وكبير ، ولا عن فضله في جمعه بين الجهاد بالرأي ، والجهاد بالمال ، والجهاد بالسيف .

★ ★ ★

كان الخلاف على خلافة النبي ﷺ أول خلاف وقع بين المسلمين ، فإنه لما قبض النبي ﷺ اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عُبادة سيد الخزرج ، وأرادوا أن يبايعوه بالخلافة ، فذهب اليهم أبو بكر الصديق في نفر من المهاجرين ، ودار بين الفريقين جدال في هذا الأمر ، وكان جدالاً عنيفاً كاد يصل إلى إثارة حرب بينهما ، حتى إنهم لما قاموا ببيعة أبي بكر قام الحُباب ابن المنذر إلى سيفه فأخذه ، فبادروا اليه فأخذوا سيفه منه ، فجعل يضرب بثوبه وجوههم حتى فرغوا من البيعة ، فقال : فعلتموها يا معشر الأنصار ! أمَا والله لكأني بأبنائكم على أبواب أبنائهم ، قد وقفوا يسألونهم بأكُفّهم ، ولا يسقون الماء ، فقال أبو بكر : أمنا تخاف يا حباب ؟ قال : ليس منك أخاف ، ولكن ممن يجيء بعدك . فقال أبو بكر : فإذا كان ذلك كذلك فالأمر إليك وإلى أصحابك ، ليس لنا عليكم طاعة . فقال الحباب : هيهات يا أبا بكر ، إذا ذهبت أنا وأنت جاءنا بعدك من يسومنا الضيم .

وأبى سعد بن عبادة أن يبايع أبا بكر ، فأرسل اليه أن أقبِلْ فبايع ، فقد بايع الناس وبايع قومك ، فقال : أما والله حتى أرميكم بكل سهم في كنانتي ، وأخضب منكم سناني ورمحي ، وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي ، واقاتلكم بمن معي من أهلي وعشيرتي ، ولا والله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي ، وأعلم حسابي . فتركوه حقناً لدماء المسلمين ، حتى مات في خلافة عمر ولم يبايع له ولا لأبي بكر .

وقد تخلف جماعة من بني هاشم عن بيعة أبي بكر ، وانضم اليهم الزبير بن العوام وخالد بن سعيد بن العاص ، والمقداد بن الأسود ، وسلمان الفارسي ، وأبو ذَرّ الغفاري ، وعمار بن ياسر ، والبراء بن عازب ، وأبيّ بن كعب ، ومالوا مع علي بن أبي طالب ، وقال عتبة بن أبي لهب :

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف . عن هاشم ثم منهم عن أبي حسنِ

عن أول النـــاس إيماناً وسابقة ... وأعلم الناس بالقرآن والسنن
وآخر النـــاس عهـداً بالنبي ومن ... جبريل عون له في الغسل والكفن

فبعث أبو بكر عمر بن الخطاب الى علي ومن معه ، فخرج علي حتى أتى أبا بكر فبايعه ، وقيل إنه لم يبايعه حتى ماتت فاطمة ، وذلك بعد ستة أشهر لموت النبي ﷺ ، فأرسل علي إلى أبي بكر فأتاه في منزله فبايعه ، وقال له : ما نفسنا عليك ما ساقه الله إليك من فضل وخير ، ولكنا نرى أن لنا في هـذا الأمر شيئاً ، فاستبددت به دوننا ، وما ننكر فضلك .

وهذا صريح في أن علياً حين بايع أبا بكر كان لا يزال على رأيه في أنه أحق بهذا الامر منه ، ولكنه رأى أن يجمع الكلمة بمبايعته له ، وألا يجعل رأيه سبباً في الفرقة بين المسلمين ، ليضرب بهـذا أعلى مثل لهم في التسامح عند الخلاف في الرأي ، وفي إيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، إن صح أن نذهب إلى أنه كان له في رأيه مصلحة تعود عليه وحده ، والحق أنه كان يرى هذا لأنه كان يرى أنه هو وآله أقدر على مصلحة الناس من غيرهم ، لقرب صلتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم، لأنه يقوم بها وازع نفسي يجعلهم أقرب إلى إيثار العدل ، وأميل إلى إنصاف الناس .

وما إن بايع علي أبا بكر حتى حبس رأيه في أنـــه أحق منه بالخلافة في نفسه ، فأخلص له في سره وجهره ، ولم يضمر حقداً عليه ولا ضغناً ، ولم يحاول أن يكيد له أو يأتمر بـــه ، بل وقف منه في حرب الردة موقفاً يدل على كمال الإخلاص ، ويعلن عن تمام الود ، فإن أبا بكر حينما خالفــه المسلمون في حرب المرتدين ، ومانعي الزكاة ، خرج وحــده شاهراً سيفه إلى ذي القـَصة ، فلحقه علي فأخذ بزمام راحلته ، وقال له : إلى أين يا خليفة رسول الله ؟ لا تفجعنا في نفسك ، فوالله لو أصبنا بك لا يكون للاسلام نظام ، فرجع أبو بكر ومكث بالمدينة وسمع هذه النصيحة الخالصة من علي، هذه النصيحة التي تدل على حرصه على حياته، مع أنه يرى أنه قد اغتصب منه الخلافة ، ولو أنه تركه يخرج وحده

لكان في خروجه ما يقربه من أمله فيها ، ولكن نفس علي كانت أكبر من أن يخالجها هذا الأمل ، لأنه بايع وحبس رأيه في نفسه ، فليخلص في بيعته كما يخلص كل من بايع قبله ، وليخلص في نصيحته ، وإن كان في خلافها مصلحة له .

وكذلك كان شأنه مع عمر بن الخطاب حين عهد اليه أبو بكر بالخلافة بعده، فقد حبس معه أيضاً رأيه في نفسه ، وعامله كما كان يعامل أبا بكر ، ولم يظهر في سبيل رأيه فرقة ولا انقساماً ، بل طلب عمر منه أن يزوجه ابنته ام كلثوم، وكانت قد وُلدت قبل وفاة النبي ﷺ ، فذكر له عليّ صغرها معتذراً به ، فقيل لعمر : إنه ردّك عنها فعاوده ، فقال له عمر : أبعث بها اليك ، فإن رضيت ، فهي امرأتك ، فأرسل بها اليه فرضيها ، فتزوجها فولدت له ولديه زيداً ورقية .

وكذلك كان شأنه مع عثمان بن عفان حين آلت اليه الخلافة بعد عمر في قصة الشورى المعروفة ، وكان علي يرى أنه تُخطي فيها عن مؤامرة ، ولكنه حبس رأيه في نفسه مع عثمان أيضاً، ولم يحاول أن يُحدث فرقة أو انقساماً معه ، ولما خرج عليه الخوارج في آخر خلافته لم ينتهز فرصة خروجهم عليه ، ولم يحاول أن يستغله لمصلحة نفسه ، بل كان يبدي فيه الرأي الصحيح ويحاول أن يهدىء تلك الفتنة لمصلحة عثمان ومصلحة المسلمين ، ولما وصلت إلى الحد الذي يخشى منه على عثمان ، أرسل ابنيه الحسن والحسين ليدافعا عنه ، مع أنه كان يخالف رأيه في تهدئتها ، ومع أنه كان من مقتضى رأيه أنه أحق بالخلافة منه : أن يتركه للخارجين عليه ، ولكنه أبى إلا أن يمضي إلى النهاية فيما ضربه المسلمين من المثل الأعلى في الخلاف في الرأي .

ولما أراد الناس أن يبايعوه بعد عثمان ، لم يسرع إلى قبول بيعتهم ، ولم ير أن الفرصة قد سنحت له لتحقيق رأيه، لأنه لم يكن يراه لمصلحة نفسه، بل كان يراه لمصلحة المسلمين ، فامتنع ممن عرض عليه البيعة ، ولم يجبهم إلا بعد أن

ألحّوا عليه ، ورأى أنه لا بد أن يقبل ليجمع ما تفرّق من كلمة المسلمين ، وقد دعا الزبيرَ بن العوام وطلحةَ بن عبيد الله، وقال لهما : إن أحببتما بايعتماني ، وإن أحببتما بايعت أحدكما ، فقالا : بـل نبايعك . ثم جيء اليه بسعد بن أبي وقاص ليبايع ، فقال له : لا ابايع حتى يبايع الناس ، والله ما عليك مني بأس . فقال لهم : خلّوا سبيله ، ثم جيء اليه بعبد الله بن عمر ليبايع ، فقال : لا ابايع حتى يبايع النـاس . فقال له علي : ائتني بحميل (كفيل) ، فقال : لا أرى حميلاً ، فقال الأشتر : خلّ عني أضرب عنقه . فقال علي : دعوه ، أنا حميله ، فلم يحاول في كل هذا أن يفرض ما آل اليه من الخلافة على النـاس ، بل أراد أن يبايعه من يبايعه عن طواعية واختيار ، ومن أبى أن يبايع تركه حراً ، حتى لا يحدث انقساماً بين المسلمين ، فأما أخْذُه معاوية بما أخذه به فلأنه أبى أن يقبل ما أمر بـه من عزله عن ولاية الشام ، وهو حق من حقوق الخليفة ، على معاوية وغيره أن يطيعوه فيه ، فإذا لم يطيعوه خرج أمرهم عن حد الخلاف في الرأي الى حـد العصيان ، وحكم العصيان غير حكم الخلاف في الرأي ، لأن العصيان فرقـة بين المسلمين ، فيجب أن يؤخذ بما يجمع الكلمة ، ولو أدى هذا إلى استعمال الشدة .

وقد كان هذا شأنه أيضاً مع من خالفه من أصحابه في مسألة التحكيم بينه وبين معاوية، وقد اعتزلوه وحكموا بما حكموا به عليه لقبوله ذلك التحكيم ، مع أنه لا شيء في قبوله من جهـة الدين ، ولكنهم كانوا قوماً متنطعين متشددين في دينهم ، فلم يحكم علي عليهم بما حكموا به عليه ، بل قال لهم : إن لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا : لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى تبدؤنا .

وليس بعد هذا التسامح في الرأي ، بل هو المثل الأعلى في التسامح ، ولكنه كان مع قوم متنطعين في دينهم ، لا يعرفون فضل التسامح عند الخلاف في الرأي ،

بل يأبون إلا أن يجعلوه وسيلة تقاطع وتدابر ، فأصروا على تدابرهم وتقاطعهم ، وأبوا إلا التمادي في غيهم ، فسلطوا عليه عبد الرحمن بن ملجم فطعنه غيلة ، وقد جمع علي أولاده قبل أن تفيض روحه ، فأمرهم أن يطيّبوا طعام قاتله ، ويليّنوا فراشه ، فإن يعش فهو ولي دمه ، عفو أو قصاص ، وإن يمت ألحقوه به ليخاصمه عند ربه ، ثم نهاهم أن يعتدوا عليه أو يمثّلوا به ، وإنه ليمضي في ذلك الإنصاف لمن يخالفه مع طعنه له هـــذه الطعنة القاتلة ، فيوصي بتطييب طعامه ، ويوصي بإلانة فراشه ، ويوصي بعدم التمثيل به عند قتله به ، ليكون لنا في حياته ومماته أعلى مثل في الجمع بين الاستمساك بالرأي وإنصاف المخالف ، فرحمه الله من إمام المنصفين في الخلاف ، وقدوة المتسامحين في الدين .

صيانة القرآن من التحريف

للسيد العلامة الأكبر
أبي القاسم الموسوي الخوئي

من بحوث الاماميين في القرآن الكريم :

المعروف بين المسلمين عدم وقوع التحريف في القرآن ، وأن الموجود بأيدينا هو جميع القرآن المنزل على النبي الأعظم ﷺ ، وقد صرح بذلك كثير من الأعلام منهم رئيس المحدثين الصدوق محمد بن بابويه ،وقد عد القول بعدم التحريف من معتقدات الإمامية . ومنهم شيخ الطائفة أبو جعفر محمد الطوسي ، وصرح بذلك في أول تفسير (التبيان) ، ونقل القول بذلك أيضاً عن مشيخة علم الهدى السيد المرتضى ، واستدلاله على ذلك بأتم دليل . ومنهم المفسر الشهير الطبرسي في مقدمة تفسيره (مجمع البيان) . ومنهم شيخ الفقهاء الشيخ جعفر في بحث القرآن من كتابه (كشف الغطاء) وادعى الإجماع على ذلك . ومنهم العلامة الجليل الشهشهاني في بحث القرآن من كتابه (العروة الوثقى) ونسب القول بعدم التحريف إلى جمهور المجتهدين . ومنهم المحدث الشهير المولى محسن القاشاني في كتابيه[١] . ومنهم بطل العلم المجاهد الشيخ محمد الجواد البلاغي في مقدمة تفسيره (آلاء الرحمن) .

---

(١) الوافي ج ٥ ص ٢٧٤ ، وعلم اليقين ص ١٣٠ .

وقد نسب جماعة القول بعدم التحريف إلى كثير من الأعاظم . منهم شيخ المشايخ المفيد ، والمتبحر الجامع الشيخ البهائي ، والمحقق القاضي نور الله ، وأضرابهم وممن يظهر منه القول بعدم التحريف كل من كتب في الإمامة من علماء الشيعة وذكر فيه المثالب ،ولم يتعرض للتحريف ،فلو كان هؤلاء قائلين بالتحريف لكان ذلك بالذكر من إحراق المصحف وغيره .

وجملة القول : أن المشهور بين علماء الشيعة ومحققيهم ، بل المتسالم عليه بينهم هو القول بعدم التحريف. نعم ذهب جماعة من المحدثين من الشيعة وجمع من علماء أهل السنة إلى وقوع التحريف ، قال الرافعي : فذهب جماعة من أهل الكلام ممن لا صناعة لهم إلا الظن والتأويل ، واستخراج الأساليب الجدلية من كل حكم وكل قول إلى جواز أن يكون قد سقط عنهم من القرآن شيء، حملاً على ما وصفوا من كيفية جمعه [١] ، وقد نسب الطبرسي في مجمع البيان هذا القول إلى الحشوية من العامة .

★ ★ ★

[ومن الشبه] أن علياً عليه السلام كان له مصحف غير المصحف الموجود ، وقد أتى به القوم فلم يقبلوا منه ، وأن مصحفه عليه السلام كان مشتملاً على أبعاض ليست موجودة في القرآن الذي هو بأيدينا . ويترتب على ذلك نقص القرآن الموجود عن مصحف أمير المؤمنين علي عليه السلام ، وهذا هو التحريف الذي وقع الكلام فيه . والروايات الدالة على ذلك كثيرة : منها ما في رواية احتجاج علي عليه السلام على جماعة من المهاجرين والأنصار أنه قال : يا طلحة ، إن كل آية أنزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وآله عندي بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط يدي ، وتأويل كل آية أنزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وآله ، وكل حلال ، أو حرام ، أو حد ، أو حكم ،

---

(١) اعجاز القرآن ص ٤١ .

أو شيء تحتاج اليه الامة إلى يوم القيامة ، فهو عندي مكتوب بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخط يدي ، حتى أرش الخدش [١] . ومنها ما في احتجاجه عليه السلام على الزنديق من أنه أتى بالكتاب كملاً مشتملاً على التأويل والتنزيل ، والمحكم والمتشابه ، والناسخ والمنسوخ ، لم يسقط منه حرف ألف ولا لام ، فلم يقبلوا ذلك [٢] . ومنها ما رواه في الكافي ، بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : ما يستطيع أحد أن يدّعي أن عنده جميع القرآن كله ، ظاهره وباطنه ، غير الأوصياء [٣] . وبإسناده عن جابر ، قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : ما ادّعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله كما أنزل إلا كذاب ، وما جمعه وحفظه كما نزّله الله تعالى إلا علي بن أبي طالب والأئمة من بعده عليهم السلام[٣].

والجواب عن ذلك : أن وجود مصحف لأمير المؤمنين عليه السلام يغاير القرآن الموجود في ترتيب السور مما لا ينبغي الشك فيه ، وتسالم العلماء الأعلام على وجوده أغنانا عن التكلف لإثباته ،كما أن اشتمال قرآنه عليه السلام على زيادات ليست في القرآن الموجود وإن كان صحيحاً ، إلا أنه لا دلالة في ذلك على أن هذه الزيادات كانت من القرآن ، وقد اسقطت منه بالتحريف ، بل الصحيح أن تلك الزيادات كانت تفسيراً بعنوان التأويل وما يؤول اليه الكلام،أو بعنوان التنزيل من الله شرحاً للمراد ، وأن هذه الشبهة مبتنية على أن يراد من لفظي التأويل والتنزيل ما اصطلح عليه المتأخرون من إطلاق لفظ التنزيل على ما انزل قرآناً، وإطلاق لفظ التأويل على بيان المراد من اللفظ حملاً له على خلاف ظاهره ، إلا أن هذين الإطلاقين من الاصطلاحات المحدثة ، وليس لهما في اللغة عين ولا أثر

(١) مقدمة تفسير البرهان ص ٢٧ . وفي هذه الرواية تصريح بان ما في القرآن الموجود كله قرآن .

(٢) تفسير الصافي : المقدمة السادسة ص ١١ .

(٣) الوافي ج ٢ — كتاب الحجة باب ٣٦ ص ١٣٠ .

ليحمل عليهما هذان اللفظان : (التنزيل والتأويل) متى وردا في الروايات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام .

وإنما التأويل في اللغة مصدر مزيد فيه ، وأصله الأول بمعنى الرجوع ، ومنه قولهم : (أوّل الحكمَ الى أهله ، أي رُدَّه اليهم) . وقد يستعمل التأويل ويراد منه العاقبة ، وما يؤول اليه الأمر . ومنه قوله تعالى : (ويعلمك من تأويل الأحاديث) [١] ، وقوله تعالى : (نبّئنا بتأويله) [٢] ، وقوله تعالى : (هذا تأويل رؤياي)[٣] ، وقوله تعالى: (ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً)[٤] ، وغير ذلك من موارد استعمال هذا اللفظ في القرآن الكريم . وعلى ذلك فالمراد بتأويل القرآن ، ما يرجع اليه الكلام ، وما هو عاقبته سواء أكان ذلك ظاهراً يفهمه العارف باللغة العربية ، أم كان خفياً لا يعرفه إلا الراسخون في العلم .

وأما التنزيل فهو أيضاً مصدر مزيد فيه ، وأصله النزول ، وقد يستعمل ويراد به ما نزل . ومن هذا القبيل إطلاقه على القرآن في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : « إنه لقرآن كريم ، في كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين » [٥] . وعلى ما ذكرناه فليس كل ما نزل من الله وحياً يلزم أن يكون من القرآن،فالذي يستفاد من الروايات في هذا المقام أن مصحف علي عليه السلام كان مشتملاً على زيادات تنزيلاً أو تأويلاً . ولا دلالة في شيء من هذه الروايات على أن تلك الزيادات هي من القرآن.وعلى ذلك يحمل ما ورد من ذكر أسماء المنافقين في مصحف أمير المؤمنين عليه السلام ، فإن ذكر أسمائهم لا بد وأن يكون بعنوان التفسير . ويدل على ذلك ما تقدم من الأدلة القاطعة على عدم سقوط شيء من القرآن ، أضف إلى ذلك أن سيرة النبي صلى الله عليه وآله مع المنافقين تأبى

(١) يوسف/ ١٢ : ٦ .
(٢) نفس السورة : ٣٦ .
(٣) نفس السورة : ١٠٠ .
(٤) الكهف/ ١٨ : ٨٢ .
(٥) الواقعة/ ٥٦ ، ٧٧ - ٨٠ .

ذلك ، فإن دأبه على تأليف قلوبهم ، والاسرار بما يعلمه من نفاقهم ، وهذا واضح لمن له أدنى اطلاع على سيرة النبي صلى الله عليه وآله وحسن أخلاقه ، فكيف يمكن أن يذكر أسماءهم في القرآن ، ويأمرهم بلعن أنفسهم ، ويأمر سائر المسلمين بذلك ويحثهم ليلاً ونهاراً ؟ وهل يحتمل ذلك عاقل حتى ينظر في صحته وفساده ، أو يتمسك في إثباته بما في بعض الروايات من وجود أسماء جملة من المنافقين في مصحف علي عليه السلام ؟ وهل يقاس ذلك بذكر أبي لهب المعلن بشركه ، ومعاداته للنبي صلى الله عليه وآله مع علم النبي بأنه يموت على شركه؟ نعم لا بعد في ذكر النبي صلى الله عليه وآله أسماء المنافقين لبعض خواصه كأمير المؤمنين عليه السلام وغيره في مجالسه الخاصة .

وحاصل ما تقدم : أن وجود الزيادات في مصحف علي عليه السلام وإن كان صحيحاً ، إلا أن هذه الزيادات ليست من القرآن ، ومما أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بتبليغه إلى الامة ، فإن الالتزام بزيادة مصحفه بهذا النوع من الزيادة قول بلا دليل ، مضافاً إلى أنه باطل قطعاً . ويدل على بطلانه جميع ما تقدم من الأدلة القاطعة على عدم التحريف في القرآن .

التقيـــة بين السنة والشيعة

لحضرة صاحب الفضيلة
الاستاذ الشيخ محمد جواد مغنيه

معنى التقية التي قال بهـا الشيعة ، أن تقول أو تفعل غير ما تعتقد ، لتدفع الضرر عن نفسك ، أو مالك ، أو لتحتفظ بكرامتك ، كما لو كنت بين قوم لا يدينون بما تدين ، وقـد بلغوا الغاية في التعصب ، بحيث إذا لم تجارهم في القول والفعل تعمدوا إضرارك والإساءة اليك ... فتماشيهم بقدر ما تصون بـه نفسك وتدفع الأذى عنك ، لأن الضرورة تقدر بقدرها ... وقـد مثل فقهاء الشيعة لذلك بأن يصلي الشيعي « متكتفاً » ، أو يغسل رجليه في الوضوء بدلاً من مسحهما في بيئة سنية متعصبة ، بحيث إذا لم يفعل لحقه الأذى والضرر .

هذه هي التقية في حقيقتها وواقعها عند الشيعة ، وما هي بالشيء الجديد ، ولا من البدع التي يأباها العقل والشرع .. فقد تكلم عنها الفلاسفة وعلماء الأخلاق قبل الاسلام وبعده ، تكلموا عنهـا وأطالوا ، ولكن لا بعنوان التقية ، بل بعنوان : « هل الغاية تبرر الواسطة » ؟. وما إلى ذلك ، وتكلم عنها الفقهـاء وأهل التشريع في الشرق والغرب بعنوان : «هل يجوز التوصل الى غاية مشروعة من طريق غير مشروع » ؟. وبعنوان : «المقاصد والوسائل» ، وتكلم عنها علماء الاصول من السنة والشيعة بعنوان : « تزاحم المهم والأهم » ، واتفقوا بكلمة

واحـــدة على أن الأهم مقدم على المهم ، ارتكاباً لأقل الضررين ، ودفعاً لأشد المحذورين ، وتقديماً للراجح على المرجوح ...

وهذه العناوين وما اليها تحكي التقية كما هي عند الإمامية ، ولا تختلف عنهـا إلا في الاسلوب والتعبير ، وكانت التقية وما زالت ديناً يدين به كل سياسي في الشرق والغرب ، حتى المخلص الأمين .

وإذا سأل سائل : ما دام الأمر كذلك فلماذا عبر الشيعة بلفظ التقية ، ولم يعبروا بلفظ المقاصد والوسائل ، أو الغاية والواسطة ؟.

الجواب :

إن العبرة بالمعنى، لا باللفظ، وقديماً قال العارفون: «النقاش في الاصطلاحات اللفظية ليس من دأب المحصلين » .

ثانياً : إن علماء الشيعة يأخذون – دائماً أو غالباً – ألفاظهم ومصطلحاتهم الشرعية من نصوص الكتاب والسنة ، وقد عبر القرآن الكريم عن هـذا المعنى بمادة الاتقاء كما تدل الآية التالية :

ومهما يكن، فقد استدل الإمامية بالآية ٢٨ من سورة آل عمران: « لا يتخذ المؤمنون الكافرون أوليـاء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تقوا منهم تقاة »، فالآية صريحة في النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء إلا في حال الخوف واتقاء الضر والأذى ، واستدلوا بالآية ١٠٦ من سورة النحل: « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » .

قال المفسرون : إن المشركين آذوا عمار بن ياسر ، وأكرهوه على قول السوء في رسول الله ، فأعطاهم ما أرادوا ... فقال بعض الأصحاب كفر عمار . فقال النبي : كلا ، إن عماراً يغمره الإيمان من قرنه الى قدمه ... وجاء عمار ، وهو يبكي نادماً آسفاً ، فمسح النبي عينيه ، وقال له : لا تبك ، إن عادوا لك ، فعد لهم بما قلت .

واستدلوا أيضاً بالآية ٢٨ من سورة المؤمن : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه » . فكتم الإيمان ، وإظهار خلافه ليس نفاقاً ورياء كما زعم من نعم التقية بالنفاق والرياء . وبالآية ١٩٥ من سورة البقرة : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » .

ومن السنة استدلوا بحديث : « لا ضرر ولا ضرار » وحديث : « رفع عن امتي تسعة أشياء : الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه ، وما لا يعلمون ، وما لا يطيقون ، وما اضطروا اليه ، والطيرة ، والحسد ، والوسوسة في الخلق » . والحديثان مرويان في كتب الصحاح عند السنة . وقول الرسول الأعظم : « وما اضطروا اليه » صريح الدلالة على أن الضرورات تبيح المحظورات .

وقال الغزالي في الجزء الثالث من إحياء العلوم ــ باب ما رخص فيه من الكذب : « إن عصمة دم المسلم واجبة ، فمهما كان القصد سفك دم مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب » .

وبعد أن نقل الرازي الأقوال في التقية ، وهو يفسر قوله تعالى : « إلا أن تتقوا منهم تقاة » ، قال : « روي عن الحسن أنه قال : التقية جائزة للمؤمن إلى يوم القيامة » ، وهذا القول أولى ، لأن دفع الضرر عن النفس واجب بقدر الإمكان .

ونعى الشاطبي في الجزء الرابع من الموافقات ص ١٨٠ على الخوارج «إنكارهم سورة يوسف من القرآن ، وقولهم بأن التقية لا تجوز في قول أو فعل على الإطلاق والعموم » .

وقال جلال الدين السيوطي في كتاب (الأشباه والنظائر) ص ٧٦ : « يجوز أكل الميتة في المخمصة ، وإساغة اللقمة في الخمر ، والتلفظ بكلمة الكفر ... ولو عم الحرام قطراً ، بحيث لا يوجد فيه حلال إلا نادراً ، فإنه يجوز استعمال ما يحتاج اليه » .

وقال أبو بكر الرازي الجصاص – من أئمة الحنفية – في الجزء الثـــاني من كتاب (أحكام القرآن) ص ١٠ طبعة سنة ١٣٤٧ هـ : قوله تعـالى : « إلا أن تتقوا منهم تقـاة » ، يعني أن تخافوا تلف النفس ، أو بعض الأعضاء ، فتتقوهم بإظهار الموالاة من غير اعتقاد لها ، وهـذا هو ظاهر ما يقتضيه اللفظ ، وعليه الجمهور من أهل العلم . وقد حدثنا عبد الله بن محمد بن إسحق المروزي عن الحسن ابن أبي الربيع الجرجاني ، عن عبد الرازق ، عن معمر ، عن قتادة في قوله تعالى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » ، قـال : لا يحلّ لمؤمن أن يتخذ كافراً وليأ في دينه . وقوله تعالى : « إلا أن تتقوا منهم تقاة » ، يقتضي جواز إظهار الكفر عند التقية ، وهو نظير قوله تعالى : « من كفر بالله من بعـد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » . وفي الجزء الثالث من السيرة الحلبية ص ٦١ مطبعة مصطفى محمد : « لما فتح رسول الله ﷺ خيبر ، قال له حجاج ابن علاط : يا رسول الله ، إن لي بمكة مالاً ، وإن لي بها أهلاً ، وأنا اريد أن آتيهم ، فأنا في حل إن أنا نلت منك ، وقلت شيئاً ، فـأذن له رسول الله أن يقول ما يشاء » .

وهذا الذي قاله صاحب السيرة الحلبية عن النبي ، ونقله الجصاص إلى الجمهور من أهل العلم هو بعينه ما تقوله الإمامية ، إذن القول بالتقية لا يختص بالشيعة دون السنة .

وقصة نعيم بن مسعود الأشجعي ، وإظهاره الشرك بأمر النبي يوم الخندق ، ليدسّ بين المشركين واليهود ، أشهر من أن تذكر .

ولا أدري كيف استجاز لنفسه من يدّعي الإسلام ، أن ينعت التقية بالنفاق والرياء ، وهو يتلو في كتاب الله وسنة نبيه ، ما ذكرنا من الآيات والأحاديث ، وأقوال أئمة السنة ، وهي غيض من فيض مما استدل به علماء الشيعة في كتبهم ؟ وكيف تنسب الشيعة إلى الرياء ، وهم يؤمنون بأنه الشرك الخفي ، ويحكمون ببطلان الصوم والصلاة والحج والزكاة إذا شابتها أدنى شائبة من رياء ؟

وأودّ أن اوجّه هــــذا السؤال لمن نسب الشيعة إلى النفاق والرياء من أجل التقية : ما رأيك فيمن قال — من علماء السنة — : إن جبريل ليلة اسرى بالنبي إلى السماء جاءه بقدحين : أحدهما من لبن ، وآخر من خمر ، وخيّره بين شرب أيها شاء (كتاب الفروق ج ٢ ص ١٢ طبعة سنة ١٣٤٥ — وصحيح البخاري ج ٦ باب سورة بني إسرائيل) .

وأيضاً مــــا رأيك فيمن أفتى — منهم — بأن من ترك الصلاة عمداً لا يجب قضاؤها ، ومن تركها نسياناً يجب عليه أن يقضي ... (كتاب نيل الأوطار للشوكاني ج ٢ ص ٢٧ طبعة سنة ١٩٥٢) .

وغريبة الغرائب أن يعذر المفتي على فتواه التي خالف بهـا الإجماع والقواعد والنص والقياس الجلي السالم عن المعارض ، ولا يعذر من يفتي بالتقية مستنداً إلى كتاب الله وسنة رسوله ... (الفروق للقرافي ج ٢ ص ١٠٩) .

وبالتالي ، فإن التقية كانت عنــــد الشيعة حيث كانت العهود البائدة ، عهد الضغط والطغيان ، أما اليوم حيث لا تعرض للظلم في الجهر بالتشيع فقد أصبحت التقية في خبر كان .

في عام ١٩٦٠ أقامت جمهورية مصر العربية مهرجاناً دولياً للغزالي في دمشق وكنت فيمن حضر وحاضر ، فقــال لي بعض أساتذة الفلسفة في مصر فيما قال : أنتم الشيعة تقولون بالتقيــــة .. فقلت له : لعن الله من أحوجنا اليها .. إذهب الآن أنى شئت من بلاد الشيعة فلا تجد للتقية عنــدهم عيناً ولا أثراً ، ولو كانت ديناً ومذهباً في كل حال لحافظوا عليها محافظتهم على تعــــاليم الدين ومبادىء الشريعة .

الامامية بين الاشاعرة والمعتزلة

لحضرة صاحب الفضيلة
الاستاذ الشيخ محمد جواد مغنيه

رغبت إليّ الجامعة اللبنانية في أن اعطي درساً في الفلسفة الاسلامية لطلاب السنة الرابعة «فرع الفلسفة» فلبيت، واضطرني هذا الدرس إلى البحث والتنقيب في كتب الفلسفة وعلم الكلام للسنة والشيعة، وقد لاحظت أمراً غريباً — وأنا أتتبع المصادر — دفعني من حيث اريد أو لا اريد إلى كتابة هـذا الفصل في كتابي « فصول الفلسفة الاسلامية »، لاحظت أن كثيراً من الذين كتبوا — من غير الإمامية — في الفرق ومذاهبها يعتبرون الإمامية أتباعاً للمعتزلة في تفكيرهم، فمن هؤلاء من يقول — إذا حرر مسألة خلافية — : قال الأشاعرة : كذا . وقال المعتزلة وأتباعهم الإمامية : كذا . وبعضهم يقتصر على رأي الأشاعرة والمعتزلة، ويهمل الإمامية كلية، وكأنه يدرج الإمامية في عداد المعتزلة، كما تدرج الماتريدية في عداد الأشاعرة [1] .

وقد اطلع على هذا القول بعض الغربيين فآمن به جهلاً وتقليداً، ورد اصول التفكير الإمامي إلى المعتزلة، قال آدم متز في كتاب الحضارة الإسلامية : « إن

---

(١) شرح المواقف ج ٤ ص ١٢٣ طبعة ١٩٠٧ .

الشيعة ورثة المعتزلة » . ورأى بعض الشباب المثقف كلام المستشرقين فأخذه على علاته ، كما هو المألوف والمعروف من ثقافة هذا الجيل الصاعد ... قال الاستاذ عبد الرحمن الشرقاوي في مجلة الغد عدد ٢ سنة ١٩٥٣ : « إن الشيعة التقطوا كثيراً من أفكار المعتزلة » . هكذا أخذ المستشرقون عن بعض القدامى دون تتبع وتمحيص ، وأخذ شبابنا عن المستشرقين حتى كأنهم المصدر الذي لا يتبقى معه الشك ، ولا يقبل التشكيك ، وماذا يكون الشأن في من قلد المقلدين ؟!..

والحقيقة أن الشيعة أسبق من الأشاعرة والمعتزلة ، بل أسبق المذاهب الاسلامية على الاطلاق ، كما يأتي عن الشيخ أبي زهرة ، فإن لهم آراء مستقلة استقوها من الكتاب والسنة ، وقد يلتقون في بعضها مع الأشاعرة ، وفي البعض الآخر مع المعتزلة ، ويستقلون بأشياء كثيرة عن كل من الفريقين .

فلقد سبق الإمام علي وأولاده الناس إلى الكلام عن الإيمان وعقيدة الإسلام واهتموا بتفلسفها ، والذود عنها بمنطق العقل قبل أن يخلق واصل بن عطاء ، فهذه تعاليم أهل البيت مشحونة بالمبادىء العقلية والنقاش المنطقي للدفاع عن العقيدة الإسلامية ، ورد الشبهات عن نصوص الكتاب والسنة ، وقد صيغت تعاليمهم هذه في قضايا فلسفية طغت على عقول الكثير من علماء الكلام وفلاسفة المسلمين ، فرددوها على ألسنتهم ، ودونوها في أسفارهم ، واتخذوها أساساً لفلسفتهم من حيث يقصدون أو لا يقصدون .

إن أئمة الفرق والمذاهب ابتدأوا بعلم الكلام حيث انتهى منه أهل بيت النبي ﷺ . قال ابن أبي الحديد في شرح النهج ج ٢ ص ١٢٨ : «إن أصحابنا المعتزلة ينتمون إلى واصل بن عطاء ، وواصل تلميذ أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه محمد ، ومحمد تلميذ أبيه عليه السلام » . وذكر هذه الحقيقة التاريخية السيد المرتضى في أماليه ج ١ ص ١٦٥ ، والشهرستاني في الملل والنحل ص ٢٦ . وتتلمذ النظام أحد شيوخ المعتزلة على هشام بن الحكم تلميذ الإمام

جعفر الصادق[١] . وقال الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه « المذاهب الاسلامية » ص ٥١ : « الشيعة أقدم المذاهب السياسية الاسلامية ، وقد ظهروا بمذهبهم في عصر عثمان ، ونما وترعرع في عهد علي ، إذ كلما اختلط بالناس ازدادوا إعجاباً بمواهبه وقوة دينه وعلمه »، وعلى هذا يصح القول بأن المعتزلة هم أتباع الامامية ، وليس الامامية أتباعاً للمعتزلة ...

نقول هذا — جدلاً — وإلزاماً لمن قال بأن الإمامية هم أتباع المعتزلة ، أما الحقيقة التي نؤمن بها فهي أن كلا من الإمامية والمعتزلة والأشاعرة فرقة من الفرق الإسلامية تستقل بمبادئها وتعاليمها ، وقد تلتقي في شيء من هذه التعاليم مع أخواتها من الفرق، وتفترق عنها في شيء . وفيما يلي نذكر طرفاً من المسائل التي اختص بها الإمامية دون الأشاعرة والمعتزلة ، وبعض المسائل التي اتفقوا عليها مع الأشاعرة ضد المعتزلة :

١ — **الشفاعة** : أجمع المسلمون كافة على ثبوت أصل الشفاعة ، وأنها تقبل من الرسول الأعظم ﷺ ، واختلفوا في تعيين المشفوع فيه ، فقال الإمامية والأشاعرة : إن النبي ﷺ يشفع لأهل الكبائر بإسقاط العقاب عنهم . وقال المعتزلة : لا يشفع إلا للمطيعين المستحقين للثواب، ومعنى شفاعته للمؤمن المطيع أن يطلب له من الله زيادة الثواب وتضاعف الحسنات، وأبطل المحقق الطوسي[٢] في كتاب التجريد هذا القول بأنه لو كانت الشفاعة في زيادة المنافع لجاز أن نشفع نحن في النبي ، ونطلب له علو الدرجات ، وهو باطل ، لأن الشافع أعلى من المشفوع فيه ، وأما الآيات الدالة على نفي الشفاعة ، كقوله : ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ ، فمتأولة بالجاحدين ، جمعاً بينها وبين ما دلّ على قبول الشفاعة .

---

(١) انظر كتاب « هشام بن الحكم » للشيخ عبد الله نعمة .

(٢) هو محمد بن الحسن الفيلسوف المتكلم الامامي ، له مؤلفات كثيرة في علم الكلام والفلك والهندسة ، وتحدث عنه علماء الغرب والشرق ، وهو صاحب الرصد المعظم بمدينة مراغة، توفي سنة ٦٧٢ هـ .

٢ ــ **الجنة والنار** : قال الإمامية والأشاعرة : إن الجنة والنار مخلوقتان الآن ، بدلالة الشرع على ذلك . وقال أكثر المعتزلة : إنهما غير موجودتين الآن ، وستخلقان غداً يوم الجزاء .

٣ ــ **مرتكب الكبيرة** : قال الإمامية والأشاعرة : إن مرتكب الكبيرة مؤمن فاسق يجب إقامة الحد الشرعي عليه إذا سرق أو شرب أو زنى . وقال الخوارج : هو كافر . وقال المعتزلة : لا مؤمن ولا كافر ، وأثبتوا المنزلة بين المنزلتين ، وهذه المسألة هي السبب لافتراق واصل عن استاذه الحسن البصري ، وإنشاء فرقة الاعتزال .

٤ ــ **الأمر بالمعروف** : اتفق المسلمون كافة على وجوب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، واختلفوا : هل يجبان بالسمع أو بالعقل ؟... فقال الإمامية والأشاعرة : يجبان بالسمع ، بنص الكتاب والسنة ، ولولا وجود النص الشرعي لم يكن أي باعث على الوجوب . وقال المعتزلة : يجبان بالعقل ، أما الشرع فيؤكد حكم العقل ويقرّه ، وعليه فإن الوجوب ثابت ، حتى ولو لم يرد النص الشرعي .

٥ ــ **الاحباط** : قال جمهور من المعتزلة : إن المؤمن المطيع يسقط ثوابه المتقدم بكامله إذا صدرت منه معصية متأخرة ، حتى أن مَن عبَدَ الله طول عمره ، ثم شرب جرعة خمر فهو كمن لم يعبد الله أبداً ، وكذا الطاعة المتأخرة تسقط الذنوب المتقدمة ، وهذا هو معنى الإحباط . واتفق الإمامية والأشاعرة على بطلان الإحباط ، وقالوا : إن لكل عمل حسابه الخاص ، ولا ترتبط الطاعات بالمعاصي ، ولا المعاصي بالطاعات ، والإحباط يختص بالجاحدين الذين لا يؤمنون بالله ولا بالرسول واليوم الآخر ، كما دلت الآية الكريمة : « لئن أشركت ليحبطن عملك ، ولتكونن من الخاسرين » لأن الجحود سيئة لا تقبل معه حسنة ، وليس بعد الشرك إلا العذاب ، أما من أساء وأذنب ، وهو يؤمن بالله ، فيوازن بين حسناته وسيئاته ، فإن كانت الإساءة أكثر كان كمن لم يحسن ، وإن كان الإحسان

أكثر كان كمن لم يسيء ، إذ الأكثر ينفي الأقل، وإن تساويا كان كمن لم يصدر عنه شيء ، وقال صاحب المواقف : إن الذي تتساوى حسناته مع سيئاته يجوز أن يثاب ، ترجيحاً لجانب الثواب على العقاب .

٦ – **ثبوت الحال** : أثبت المعتزلة الواسطة بين الوجود والعدم ، وقالوا بثبوت الحال ، وهو عندهم عبارة عن صفة لشيء ، ولكنه لا يوصف بالوجود ولا بالعدم ، ولا بالمعلوم ولا بالمجهول ولا بشيء أبداً . وأنكره الإمامية والأشاعرة ، وقالوا : لا شيء سوى الوجود والعدم .

٧ – **الشرع والعقل** : أسرف المعتزلة في تمسكهم بالعقل ، وغالى أهل الظاهر في جمودهم على ظاهر النص، فوقف الإمامية والأشاعرة موقفاً وسطاً بين الفريقين ، والتزموا تأويل كل ظاهر للكتاب والسنة مخالف لبديهة العقل ، وبهذه المحاولة جمعوا بين الشرع والعقل ، وأعرض المعتزلة عن هذه المحاولة . ومن الخير أن ننقل ما ذكره الدكتور توفيق الطويل في كتابه « أسس الفلسفة » : ص ٢٨٩ ، قال :

« إن اصطناع العقل قد طوح بفرق المتكلمين حتى أدى ببعضها إلى الشطط، من ذلك أن بعض الخوارج ، وهم يشبهون المعتزلة العقليين في بعض المسائل قد رفضوا أن تكون السنن المأثورة مرجعاً للأحكام » ...

هذا طرف مما اتفق عليه الإمامية والأشاعرة ضد المعتزلة ، وفيما يلي بعض ما انفرد به الإمامية دون الفريقين :

١ – **الخلافة** : قال الإمامية : إن النبي ﷺ قبل وفاته نص على خليفته بالذات . وقالت سائر الفرق الإسلامية : بل سكت ، وترك الأمر شورى بين المسلمين .

٢ – **عصمة الامام** : قال الإمامية : إن الإمام يجب أن يكون معصوماً عن

الخطأ والسهو في بيان الأحكام الشرعية ، وقال غيرهم : لا تجب له العصمة في شيء . بل ذكر الشيخ محمد أبو زهرة في كتاب «المذاهب الاسلامية» ص ١٥٥ : «وجوب الصبر على ظلم الحاكم الجائر، وعدم جواز الخروج عليه» ثم قال : هذا هو المشهور ، والمنقول عن أئمة أهل السنة ، ونقل عن ابن تيمية أن الخليفة إذا اختير على أنه عادل ، ثم تبين أنه فاسق فالأرجح عند الجمهور وجوب الاستمرار في طاعته .

٣ ـ **عصمة الأنبياء** : قال الإمامية : الأنبياء معصومون عن الذنوب كبيرها وصغيرها ، قبل النبوة وبعدها . وقال المعتزلة : تجوز عليهم الصغائر والكبائر قبل الوحي، أي قبل أن يصبحوا أنبياء ، أما بعد الوحي فتجوز عليهم الصغائر من الذنوب دون الكبائر . وقال الأشاعرة : تجوز الكبائر والصغائر قبل النبوة أما بعدها فلا يجوز عليهم الكفر ولا تعمد الكذب ، وتجوز عليهم الصغائر عمداً وسهواً ، والكبائر سهواً لا عمداً .

٤ ـ **الوعد والوعيد** : اختلفت الامة في مسألة الوعد بالثواب ، والوعيد بالعقاب : هل يجب على الله الوفاء بها أو لا ؟ قال الأشاعرة : لا يجب على الله شيء ، وله أن يعاقب المطيع . ويثيب العاصي . وهذا ما قاله الإمام الغزالي بالحرف : «إن الله لا يبالي لو غفر لجميع الكافرين ، وعاقب جميع المؤمنين ، واستدلوا على ذلك بأن الله مالك كل شيء وللمالك أن يتصرف في ملكه كيف شاء ، تماماً كما نتصرف نحن بالحمل . وقال المعتزلة : إن ثواب المطيع ، وعقاب العاصي ، إن مات بلا توبة واجبان على الله ، وإلا كان ما أخبر به كذباً ، والكذب محال عليه سبحانه . واستدلوا بقوله تعالى . «وما أنا بظلام للعبيد».

وقال الامامية : يجب على الله الوفاء بالوعد، وهو ثواب المطيع ، لأنه مقتضى العدل والإنصاف، ولا يجب عليه الوفاء بالوعيد، أي عقاب العاصي ، لأن العقاب حق لله ، فيجوز له إسقاطه تماماً كما لو كان لإنسان دين في ذمتك فيجب عليك

أن تؤديه غير منقوص ، أما لو كان الدين لك فأنت بالخيار ، إن شئت أن تسمح وإن شئت استوفيته كاملا . وبهذا وقف الإمامية موقفاً وسطاً ، حيث وافقوا المعتزلة في الوعد، وخالفوهم في الوعيد، ووافقوا الأشاعرة في الوعيد، وخالفوهم في الوعد، وبالتالي ، فأين ما يبرر القول بأن الإمامية هم أتباع المعتزلة ؟ او كيف تنسب الإمامية إلى المعتزلة وقد رووا عن الإمام جعفر الصادق قوله : « لعن الله المعتزلة أرادت أن توحد فألحدت، ورامت أن ترفع التشبيه فأثبتت »[1] وهذا ما قالته الأشاعرة عن المعتزلة بالحرف الواحد .

(١) كتاب « كنز الفوائد » لمحمد بن علي الكراجكي من شيوخ الامامية وثقاتهم ، توفي سنة ٤٤٩ هـ .

من اصول الشيعة الامامية

لحضرة صاحب الفضيلة
الاستاذ الشيخ محمد جواد مغنيه

يتساءل البعض : لقد انقطع دابر الساسة الذين فرّقوا المسلمين إلى مذاهب ، فكيف بقي هذا الانقسام ، وقد زالت أسبابه ؟

أجل ، إن الانقسام كان في بدئه عرضياً — وما زال — ولكن سرعان ما تحوّل إلى انقسام جوهري عند الكثير من رجال المذاهب ، فظنوا أن الاختلاف في الفروع والاعتبارات اختلاف في الأصل والجوهر ، وما زال أثر هذا الظن الخاطىء حتى اليوم ، على أن عمل الساسة في كل عصر يرتكز على بث روح العداء والتعصب عن طريق الأديان وغير الأديان ، وهذا هو السبب لاستمرار الانقسام والشقاق .

والغريب أن هذه الحقيقة يقررها الكثير من حملة الأقلام ، ولكنهم يذهلون عنها وعن أنفسهم إذا وقع نظرهم على اختلاف يسير بين فقيهين من مذهبين ، فيجعلونه اختلافاً دينياً ، لا نظرياً .

وأغرب من ذلك أن ينسبوا لأحد المذاهب قولاً لم يقل به أحد من أتباع ذلك المذهب ، أو قال به فرد أو أفراد خالفهم فيه أكثر فقهاء المذهب نفسه ، فينسبون إلى أهل السنة أجمعين قولاً للأحناف ، أو لفقيه منهم ، وينسبون إلى الشيعة

كافة، بما فيهم الإمامية، قولاً لغلاة الشيعة، أو لفقيه من الإمامية خالف علماءهم جميعاً، بل قد ينسبون إلى الشيعة قولاً لجاهل لا يفهم عن التشيع شيئاً.

هــذا، والمعروف من مذهب الإمامية القول بفتح باب الاجتهاد، ولازم ذلك أن قول مجتهد أو جماعة من المجتهدين، لا يكون حجة على الآخرين، فمن الخطأ أن ينسب إلى مذهب الإمامية قول وجد في كتاب عالم منهم، ومن عرف طريقتهم، وتتبع كلمات علمائهم، تجلت له هذه الحقيقة بأوضح معانيها.

وعند الشيعة الإمامية كتب أربعة للمحمدين الثلاثة: محمــد الكليني، ومحمد الصدوق، ومحمد الطوسي، وهي: الاستبصار، ومن لا يحضره الفقيه، والكافي، والتهذيب، وهذه الكتب عند الشيعة تشبه الصحاح عند السنة، ومع ذلك يقول الشيخ جعفر كاشف الغطاء في كتابه «كشف الغطاء» صفحة ٤٠: «المحمدون الثلاثة رضوان الله عليهم كيف يعول في تحصيل العلم عليهم، وبعضهم يكذب رواية بعض بتكذيب بعض الرواة.. وما استندوا إليه ممــا ذكروا في أوائل الكتب الأربعة من أنهم لا يروون إلا ما هو حجة بينهم وبين الله، أو ما يكون من القسم المعلوم دون المظنون، فبناء على ظاهره لا يقتضي حصول العلم بالنسبة إلينا، لأن علمهم لا يؤثر في علمنا...». وإذا كانت هــذه الكتب الأربعة لا يعوّل عليها إلا بعد نقدها حديثاً حديثاً، وفحصها دلالة وسنداً، فكيف ينسب إلى الشيعة ما لم يؤمن به الكل أو الجل؟!

فإذا أراد الكاتب أن ينسب لأحــد المذاهب أصلاً أو فرعاً يجب عليه قبل كل شيء أن يكون على معرفة بأقوال علماء المذاهب واصطلاحاتهم وطريقتهم في تقرير الاصول، واستنباط الفروع، وأن ينقل عمن يعبر عن عقيدة الطائفة دون تعصب لها أو على غيرها من الطوائف.

على هذا الأساس، أساس النقل عن المرجع الذي اتفقت كلمة علماء المذهب على فضله وإخلاصه للدين، والتجرد للحق، ننقل جملة من اصول مذهب الامامية

التي كثر حولها القيل والقال، ونسبت إليهم على غير وجهها جهلاً من الناقل، أو نقلاً عن جاهل، أو عالم متعصب .

معنى الاسلام :

قال الشيخ جعفر كاشف الغطاء قدّس سره في كتابه « كشف الغطاء » باب الاجتهاد صفحة ٣٩٨ : « يتحقق الإسلام بقول أشهد أن لا إله إلا الله، محمد رسول الله » أو بما يرادفه من أي لغة كانت، وبأي لفظ كان، فمن قاله حُكم بإسلامه، ولا يسأل عن صفات ثبوتية ولا سلبية، ولا عن دلائل التوحيد، وشواهد الرسالة [١] .

معنى العصمة :

تضاربت الأقوال في تفسير العصمة، فمنهم من قال: إن المعصوم يفعل الطاعة مع عدم قدرته على المعصية، فهو مجبر على فعل الحسن، وترك القبيح، ومنهم من قال : إن للمعصوم غريزة تردعه عن المعصية، كما تردع غريزة الشجاعة عن الفرار، وغريزة الكرم عن الإمساك، وقال نصير الدين الطوسي في كتاب التجريد صفحة ٢٢٨ طبع العرفان : « المعصوم قادر على فعل المعصية، وإلا لم يستحق المدح على تركها، ولا الثواب، ولبطل الثواب والعقاب في حقه فكان خارجاً عن التكليف وذلك باطل بالإجماع والنقل [٢] »، وقال الشيخ المفيد : « ليست العصمة مانعة من القدرة على القبيح، ولا مضطرة للمعصوم إلى الحسن،

(١) الشيخ جعفر كاشف الغطاء شيخ الشيعة الامامية، انتهت إليه رياسة المذهب في زمانه، له كتاب : « بغية الطالب » و « رسالة العقائد الجعفرية » وغير ذلك. توفي سنة ١٢٢٨ هـ.

(٢) نصير الدين الطوسي الحجة الكبرى لمذهب الامامية، ومن كبار فلاسفة الاسلام توفي سنة ٦٧٢ هجرية .

ولا ملجئة إليه »[١] ، وعلى هذا يكون معنى العصمة عند الإمامية أن المعصوم يفعل الواجب مع قدرته على تركه ، ويترك المحرم مع قدرته على فعله ، ولكنه مع ذلك لم يترك واجباً ، ولم يفعل محرماً .

الغـــلو :

قال الشيخ المفيد: «الغلاة من المتظاهرين بالإسلام هم الذين نسبوا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والأئمة من ذريته إلى الالوهية والنبوة ، ووصفوهم من الفضل في الدين والدنيا إلى ما تجاوز فيه الحــــد ، وخرجوا عن القصد ، فهم ضلال كفار »[٢] .

---

(١) كتاب « شرح عقائد الصدوق » للشيخ المفيد ص ٦١ طبعة ثانية تبريز ، والمفيد شيخ مشايخ الامامية ، واستاذ الشريفين المرتضى والرضى ، توفي سنة ٤١٣ هجرية .

(٢) نفس المرجع ص ٦٣ .

الخلاف لا يمنع من الانصاف

لحضرة صاحب الفضيلة
الاستاذ الشيخ محمد جواد مغنيه

١ ــ من أحكام الإسلام أن يقر أهل الأديان على ما يستحلونه .
٢ ــ حتى الخوارج مسلمون لأنهم متأولون .
٣ ــ اختصاص البنت بميراث أبيها عند الإمامية .

لقد أثبتت التجارب أن الأنظمة والقوانين لا يمكن أن تعيش ، إذا لم تستمد قوتها من إيمان ديني أو فلسفي ، وأن أي نظام لا يستقبله الشعب بالرضا والقبول لا يلبث أن يزول ، وإن دعمته قوة النار والحديد . وهـذه حقيقة اعترفت بها الفاشية والشيوعية ، لأنها بديهة لا تقبل الشك والريب .

وقـد راعاها الإسلام ، وأولاها عنايته ، حيث لم يفرض أحكامه على غير المسلمين ، وإنما ترك أهل الأديان وما يدينون ، فما هو صحيح عندهم فهو نافذ في حقهم ، في نظر الإسلام ، فـالخمر والخنزير لا يملكها المسلم ، ويصح تملكها وتمليكها لغير المسلمين . ومن أحكام الإسلام جواز أنكحة غـير المسلمين ، وإن لم تتوافر فيها الشرائط المعتبرة في أنكحة المسلمين .

وقد اتفقت المذاهب الإسلامية على هـذا الأصل ، ونطقت به كتبهم ، فمن

كتب السنة كتاب (البدائع والصنائع) ج ٢ ص ٣١٠ و ٣١١ الطبعة الاولى ، وكتاب (المغنى) ج ٦ ص ٦١٣ و ٦٢٧ الطبعة الثالثة : أن أنكحة غير المسلمين لها أحكام الصحة ، لأنا قد أمرنا بتركهم وما يدينون . وفي المغنى ج ٦ ص ٣٠٦ « مجوسي تزوج ابنته ، فأولدها بنتاً ، ثم مات عنها فلها الثلثان » .

ومن كتب الشيعة الإمامية كتاب (الجواهر) باب الزواج والطلاق ، وكتاب (**مقابس الأنوار**) أول باب الزواج : إن ما في أيدي غير المسلمين من النكاح وغيره صحيح ، وإن كان فاسداً عندنا، وإن كل قوم يفرقون بين النكاح والسفاح فنكاحهم جائز ، لحديث « ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم » .

وهذا مبدأ عام من مبادىء التشريع الإسلامي لا يختص بمذهب دون مذهب بل إن فقهاء المسلمين قد تسامحوا أكثر من ذلك، قال صاحب المغنى ج ٨ ص ١٣٢ « من مذهب الخوارج تكفير كثير من الصحابة ، ومن بعدهم، واستحلال دمائهم وأموالهم واعتقادهم التقرب بقتلهم إلى الله ، ومع ذلك لم يحكم الفقهاء بكفرهم لتأولهم » .

وإذا كان الفقهاء يقرون ما في أيدي غير المسلمين من أنظمة وقوانين تخالف الشريعـــة الإسلامية ، ولا يحكمون بتكفير الخوارج الذين كفروا الصحابة ، واستحلوا دماء المسلمين وأموالهم ، لأن عقيدتهم تبيح ذلك لهم ، فكيف يسوغ لمسلم أن يكفر طائفة تؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر، وتستمد اصولها وفروعها من كتاب الله وسنة نبيه ، وتقول : من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله حقن ماله ودمه، كيف يكفرها مسلم ، لأنها تخالف المذهب الذي ارتضاه لنفسه، أو ورثه عن آبائه ، تخالف مذهبه في بعض شرائط الزواج والطلاق ، أو بعض مسائل الإرث والرضاع !

إن مذهب الخوارج يخالف جميع المذاهب الإسلامية السنية والشيعة ، ومع ذلك فقد عذروهم فيما اجتهدوا فيه فأخطأوا ، إذن ، بالأحرى أن تعذر طائفة

إسلامية إذا خالفت المذاهب الأربعة في مسألة من مسائل الرضاع أو الإرث ، مستندة إلى آية أو رواية .

إن الشيعة الامامية لم يتقيدوا بمذهب من المذاهب الأربعة ، وإنما اتبعوا طريقة الأصحاب والتابعين في استخراج الأحكام من الكتاب والسنة ، فكل ما أدى اليه الكتاب والسنة فهو حجة عندهم، ولو خالف جميع المذاهب، لأن قول الله ورسوله فوق الأقوال كافة ، أي أن الفقيه الإمامي يعمل بما أدى اليه نظره وفهمه لاصول الشريعة ، لا بما فهمه فقهاء السنة أو الشيعة ، وكان من نتيجة هذا الاجتهاد المطلق غير المقيد بمذهب أو قول ، ان خالف الشيعة الإمامية المذاهب الأربعة في بعض المسائل ، منها :

إن المذاهب الأربعة يشركون أخا الميت مع ابنته في الميراث ، ويشركون عمه مع اخته ، ويقول الشيعة الإمامية : إن التركة بكاملها للبنت وحدها ، وللاخت دون سواها ، ولا شيء للعصبة ، لأن من كان بينه وبين الميت درجة واحدة فهو أولى بالميراث ممن كان بينه وبين الميت درجتان أو أكثر، وهذه الحقيقة يعترف بها أئمة المذاهب في مسألة العصبة ، لأنهم قالوا : إن عصبة الأقرب كالأخ يمنع الأبعد كالعم ، وآية : « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين » كما دلت على أن القريب أولى من الغريب في الميراث ، فقد دلت أيضاً على أن الأقرب أولى ممن هو دونه في القرابة ، وليس من شك أن البنت أقرب إلى الميت من أخيه ، وأخته أقرب اليه من عمه .

وآية : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً » دلت على التساوي بين الذكور والاناث ، فكما أن بين الأب والإبن درجة واحدة ، فإن بين الأب والبنت درجة واحدة أيضاً، وكل منهما يصدق عليه لفظ الولد أيضاً من دون تفاوت قال الله تعالى : « فاستفتهم ألربك البنات ، ولهم البنون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد » فإذا كان الابن يحجب عمه لأنه ولد الميت ، فالبنت يجب أن تحجبه

أيضاً لأنها ولده،ومن هنا يتبين أن قوله تعالى : « إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد » يتبين من هذه الآية أن الأخ والاخت لا يتوارثان إلا مع عدم وجود الولد ، والبنت ولد بلا ريب فتحجب الأخ . أما قوله تعالى : « فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف » فلا دلالة في هذه الآية الكريمة ، ولا في غيرها من الآيات على أن ما زاد عن الثلث لا يرد على البنتين ، وما زاد عن النصف لا يرد عن البنت ، ولو كان هناك دليل على منع الرد لما وقع الخلاف والنزاع ، على أن أهل السنة يردون علىأهل الفرائض ما زاد عن فرضهم في بعض الحالات قال في المغنى ج ٦ ص ٢٠١ « يرد على كل أهل الفرائض على قدر ميراثهم إلا الزوج والزوجة » ، والبنت من ذوي الفرائض فيرد عليها ما زاد عن فرضها ، وكذا الاخت ، وقال الله تعالى : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان » نصت الآية على أن الدين يثبت بشاهدين ، وشهادة رجل وامرأتين، مع أن من مذاهب السنة من أثبت الدين بشاهد ويمين، بل أثبته مالك بشهادة امرأتين ويمين[1] ، فكما أن هذه الآية لا تدل على أن الدين لا يثبت بشاهد ويمين ، ولا بشهادة امرأتين ويمين ، كذلك آية الميراث لا تدل على أن البنت لا يرد عليها أبداً ما زاد عن النصف .

فالشيعة يوجبون رد ما زاد عن فرض البنت والاخت ، ويخصون كل واحدة بتمام الميراث دون غيرها ، لأن البنت أقرب إلى الميت من أخيه، والاخت أقرب إليه من عمه ، والأقربون أولى ، والشيعة لا يثقون بحديث : « ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقي فلأولي عصبة ذكر » ولو وثقوا به لقالوا بمقالة أهل السنة ، كما أن أهل السنة لولا ثقتهم بهذا الحديث لقالوا بمقالة الشيعة .

وقد أطال الامامية الكلام في هذا الباب ، ووضعوا له رسائل خاصة ألزموا

---

(١) المغني ج ٣ ص ١٥١ ، وميزان الشعراني ج ٢ ص ٢٥٨ .

فيها أهل التعصيب القائلين بحرمان البنت مما زاد عن فرضها، ألزموهم بإلزامات كثيرة لا يتسع لها المجال ، ونكتفي منها بما يلي :

قالوا : يلزم من القول بالتعصيب أن يكون الابن للصلب أضعف سبباً من العم ، وذلك لو افترضنا أن الميت ترك ابناً ، وثماني وعشرين بنتاً كان للابن سهمان من ثلاثين بلا خلاف ، ولو كان مكان الابن عم لكان له عشرة أسهم من ثلاثين ، وعليه يكون الابن أسوأ حالاً من العم ، وكذا لو ترك الميت عشر بنات وأخاً كان لبناته العشر ثلثان ، ولأخيه الثلث ، أي أن أخا الميت يأخذ خمسة أسهم ، وبنت الميت تأخذ سهماً واحداً .

وليس الغرض مما قدمت أن اثبت أن الشيعة الامامية مصيبون ، وغيرهم مخطىء ، وإنما الغرض أن اسهل للقراء الاطلاع على ما عند الامامية مما اتفقوا عليه ، واختلفوا فيه ، ليعلموا أن مرجع ذلك إلى الفهم في كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة ليس إلا . وبالله التوفيق .

الباب الخامس

الاجتهاد في السُّنّة والشيعة

- عموم التشريع الاسلامي وخلوده
- الاجتهاد في الشريعة بين الشيعة والسنة
- مصادر الأحكام الاجتهادية
- الاجتهاد والنص
- رجل الدين ومصدر الأحكام الشرعية
- العمل بالحديث وشروطه عند الامامية

عموم التشريع الاسلامي وخلوده

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ
يس سويلم طه من كبار علماء الأزهر

إن الله تعالى أرسل رسوله محمداً ﷺ بشيراً ونذيراً للناس كافة ، وجعله خاتم النبيين والمرسلين ، وختم بشريعته جميع الشرائع والأديان ، وبذلك تمت لبنات بناء النبوة والرسالة ، واكتمل عقد النبيين والمرسلين ، فلا نبوة ولا رسالة بعد نبوته ورسالته إلى يوم الدين .

فالرسالة المحمدية هي خاتمة النبوات والرسالات ، ومرحلتها التشريعية مكملة للمراحل التشريعية التي تقدمتها ، وإصلاحها الديني متمم للإصلاح الذي بدأ به النبيون السابقون ، كما دل على ذلك قوله تعالى في سورة الأحزاب : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً » ، وفي سورة المائدة : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام ديناً » ، وقوله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم : « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي ، كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » ، وقوله فيما رواه أحمد والبيهقي والحاكم : « بعثت لاتمم مكارم الأخلاق » .

وتشريعها الذي جاءت به تشريع عام خالد ، لا يختص بامة دون امة ، ولا زمان دون زمان ، كما يدل على ذلك أنواع الدلائل الآتية :

النوع الأول : ما صرحت به الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من عموم رسالته ﷺ ، كما في قوله تعالى في سورة الأعراف : « قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً » ، وفي سورة سبأ : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » ، وفي سورة الفرقان : «تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » ، وفي سورة الأنبياء : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، وفي سورة المائدة : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير »، وفي سورة الأنعام : « وأوحي إليّ هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ »، أي وأنذر به كل من بلغه القرآن في أي زمان وفي أي مكان . وقوله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم : « اعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي ... إلى قوله : وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس كافة ... » . إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تدل دلالة صريحة واضحة ، على أن الله أرسل رسوله محمداً إلى الناس كافة على اختلاف أجناسهم وعقائدهم،وأنه تعالى أوحى اليه القرآن لينذر به جميع المخاطبين وقت نزوله ، وكل من بلغه من الموجودين ومن سيوجد من جميع الامم إلى يوم القيامة، فكل من بلغه القرآن في أي زمن كان ومن أي امة كانت ، فكأن النبي ﷺ شافهه بالقرآن وبلغه دعوته وأنذره به .

النوع الثاني: طريقة القرآن فيحديثه عن إرسال الرسل وتبليغ رسالاتهم، فإنه حين يتحدث عن الرسالة المحمدية وتبليغ دعوتها ، يستعمل الخطاب العام الذي لا يختص بقوم دون قوم كما في الآيات التي تقدمت في النوع الأول ، وحين يتحدث عن إرسال الرسل السابقين وتبليغ رسالاتهم ، يستعمل الخطاب الخاص بأقوامهم ، كما نرى ذلك في آيات كثيرة مثل : « إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن

أنذر قومك » ، « وإلى عاد (١) أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره »، « وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره »، « وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » ، وهكذا كان حديثه عن رسالة موسى وعيسى وغيرهما من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

النوع الثالث : عمل الرسول ﷺ في تبليغ رسالة ربه ، فإنه قام بتبليغها إلى الناس جميعاً على اختلاف أجناسهم وعقائدهم ، فقد ثبت بالنقل الصحيح أنه بعث بكتبه ورسله إلى هرقل ملك الروم ، وكسرى ملك الفرس ، والمقوقس عظيم القبط بمصر ، والنجاشي ملك الحبشة ، والحارث الغساني ملك الحيرة ، والحارث الحميري ملك اليمن ، يعلمهم ببعثته ويدعوهم إلى الإسلام ، وعلل ذلك بقوله لأصحابه : « إن الله قد بعثني رحمة للناس كافة » .

النوع الرابع : ما جرى عليه الصحابة والخلفاء الراشدون من تبليغ دعوة الإسلام تبليغاً عاماً، كما علموا ذلك من آيات القرآن وأقوال النبي ﷺ وأعماله كما تقدم ، وقد انعقد على ذلك إجماع المسلمين في جميع العصور الإسلامية .

فهذه الدلائل القولية والعملية تدل دلالة قاطعة ، على أن الرسالة المحمدية رسالة عامة للأشخاص والأزمان في دعوتها وتشريعها ، وأن ما يتقوله الجاهلون المضللون من أن التشريع الإسلامي خاص بالعرب وحدهم، أو بمن كانوا في عهد نزوله وخوطبوا به ، إنما هو جهل باصول الإسلام ومبادئه ، وافتراء للكذب وتضليل للعقول وفساد في العقيدة ، وتمرد على قدسية الميثاق الذي أخذه الله على النبيين وأتباعهم من الامم ، كما قال الله تعالى في سورة آل عمران : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ، قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين، فمن تولى بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون»،

(١) أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً ، وكذلك التقدير فيا بعده .

فأتباع النبيين تابعون لهم في أخذ هــذا الميثاق ووجوب الوفاء به ، وأنبياؤهم شاهدون بذلك على أنفسهم وعليهم ، والله تعــالى شاهد على الجميع ، وكفى بالله شهيداً .

وإنمـا تفرد التشريع الإسلامي بين التشريعات السماوية بكونه تشريعاً عاماً خالداً ، لأنه التشريع الذي اكتملت له عناصر العموم وأسرار الخلود، كما يتجلى ذلك فيما نذكره من الأسرار التشريعية الآتية :

(١) أنه التشريع الذي نزل من السماء وقد مرّ على الانسان أزمان وأطوار كثيرة ، كان فيها بين علو وسقوط ، وارتفاع وهبوط ، وتقلب في كثير من أطوار التشريع السماوي ومراحله، فألهبت عقله وفكره أطوار الحياة وأحداثها، وبلغت به سنة الترقي طور النضوج والرشد وتركزت في أكثر شعوبه اصول الاتجاهات الخلقية والفكرية والعملية ، وتقاربت بينها طرائق الحيـاة والصلات والمعاملات ، وأعدته الشرائع السماوية السابقـــة التي تقلب في أطوارها لإدراك أدق دلائل التوحيـــد والتنزيه ، واحكام الفكر والنظر في ملكوت السماوات والأرض، واستجلاء آيات الله الكونية والتشريعية ، وفهم اصول التشريع العام وتطبيقها على ما يعرض له في حياته من أحداث وأقضية، وبذلك أصبح مستعداً لمرحلة تشريعية عامة يتولى زمام قيادتها رسول واحد ، وقـد شاءت إرادة الله تعالى أن يعقد لواء هـذه القيادة العامة للقائد الأعظم والرسول الأكرم ، سيدنا محمـــد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، وبذلك توحدت القيادة التشريعية السماوية في مرحلتها الأخيرة .

(٢) أنه بني على اصول تشريعية تتسع لشئون الحياة على اختلاف عصورها وتطور حضارتها ومدنيتها ، لأنه التشريع الذي جعـله الله مهيمناً وحاكماً على جميع الشرائع السماوية السابقة، فنسخ منها الفروع العملية التي روعي في تشريعها

أحوال امم خاصة في أزمان خاصة ، كما قال الله تعـــالى في سورة الأعراف : «الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغـلال التي كانت عليهم » ، أي التكاليف الشديدة التي كانت مفروضة عليهم في شرائع أنبيائهم ، واستبقى منها ما لا يختلف التكليف به باختلاف الامم والأزمان ، وزاد عليها الاصول والفروع التي اقتضاها رقي الإنسان واتساع نطاق العمران، وبذلك اجتمعت له الاصول التشريعية وفروعها في دائرة الكمال والخلود ، كما قال الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » . فالتشريع الإسلامي بهـــذا الإكمال لا يحتـــاج إلى تعديل أو تكميل مهما تعاقبت الأجيال وتغيرت أوضاع الحياة ، وأقصى ما يحتاج اليه هو اجتهاد العلمـــاء في استظهار اصوله وتطبيقها على أعمال الناس وسلوكهم ، إذ ليس من شأن التشريع العـــام الباقي على وجه الزمان ، أن يبين بالتفصيل أحكام كل ما يمكن أن يحدث على تعاقب الأجيال وتجدد الزمان ، وإلا لعجزت العقول والأفهام عن إدراكها والإحاطة بها ، وإنما شأنه في البيـــان ووضع مناهج الإصلاح وقواعد السلوك ، أنه يبين بالتفصيل الجوانب التشريعية التي لا مجال للعقل في حقائقها وكيفياتها ، والتي تستطيع الأفهام أن تحيط بهـــا لانحصار أنواعها واتحاد صورها في كل زمان كالعبادات، ويبين بالإجمال الجوانب التشريعية التي للعقل مجال في حقائقها وكيفياتها وعللهـــا ، والتي لا تستطيع الأفهام أن تحيط بجزئياتها المتجددة بتجدد الزمان كالمعاملات ، وذلك بوضع الاصول العامة التي تشمل ما يكون موجوداً منها في عهد التشريع وما يحدث منها في مستقبل الزمان ، فإن كل مـــا يحدث منها لا يخرج عن كونه منصوصاً عليه أو على نوعه ، أو مسكوتاً عنه بأن لم يرد فيه دليل شرعي يخصه أو يخص نوعه ، فإن كان منصوصاً عليه بأن كان صورة لما وقع في عهـد التشريع وتقرر له حكم خاص ، فإنه يأخذ الحكم الذي تقرر له ، وإن كان منصوصاً على نوعه بأن كان جزئياً لما تقرر له حكم عام ، فإنه يأخـذ الحكم الذي تقرر لنوعه ، لأن

الحكم على العام حكم على جزئياته ، وإن كان مسكوتاً عنه ولكنه نظير لمنصوص عليه بأن كان مساوياً له في علة حكمه ، فإنه يأخذ حكم هذا النظير لمساواته له في علة الحكم ، لأن إلحاق المسكوت عنه بنظيره المنصوص عليه أصل تشريعي عند جمهور العلماء ، وهـذا الأصل هو المسمى عندهم بالقياس الشرعي ، وإن كان مسكوتاً عنه وليس نظيراً للمنصوص على حكمه ، فإنه يأخـذ حكم المسكوت عنه وهو الإباحة الأصلية ، فإن الأصل في الأشياء عند الجمهور هو الإباحة ، لقوله تعالى في سورة البقرة : « هو الذي خلق لكم مـا في الأرض جميعاً » ، وفي سورة الأعراف : « قل من حرّم زينـة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ، وفي سورة الأنعام : « قل لا أجد فيما اوحي إليّ محرّماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة ... » الآية ، فجعل الأصل الإباحة والتحريم مستثنى ، وقوله ﷺ فيما رواه الترمذي وابن ماجة : « الحلال ما أحله الله في كتابه ، والحرام ما حرّمه الله في كتابه ، وما سكت عنه فهو ممـا عفا عنه » ، وفيما رواه الدارقطني : « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها ، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها » ، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على أن الأصل في المسكوت عنه الإباحة .

فهذه الاصول العامة لا يتطرق إليها خطأ في وضعها ولا قصور في كفايتها وصلاحيتها لكل زمان ، لأنها من وضع الخبير الذي أحاط بكل شيء علماً ، وإنما قد يقع الخطأ والقصور في الاستنباط منها والبناء عليها لأنها من عمـل العقول والأفهام ، فقـد يقع الخطأ في الاستنباط منها لخفاء بعض حلقات الاستنباط والاستدلال أو فقدانها ، وقد يقع القصور في تطبيقها للجهل أو للجمود وضيق الافق في الفهم والتفكير .

وأما الشئون الدنيوية فإن بيانها ليس من مقاصد التشريع السماوي ، بل وكل أمر تدبيرها وتصريفهـا إلى عقول الناس ومواهبهم ، كما يشير إلى ذلك قوله

ﷺ فيما رواه مسلم : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » ، وفيما رواه أحمد : « ما كان من أمر دينكم فإليّ ، وما كان من أمر دنياكم فأنتم أعلم به » ، ولفت عقولهم إلى هذه الشئون التي لا بد منها في حياتهم ، وأرشدهم إلى أبواب الوصول إليها والإنتفاع بها ، كما في قوله تعالى : « وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه » ، « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » ، وعلى العقول بعد ذلك أن تتعرف أنواع هذه الشئون ومقدار الحاجة إليها ، وكيفية الانتفاع بها على النحو الذي يحقق سعادة المعاش وسعادة المعاد .

(٣) أنه بني على أساس الاجتهاد في فهم نصوصه واصوله،واستنباط الأحكام العملية منها ، وتطبيقها على ما يحدث من الوقائع والأقضية والمعاملات ، فإن بناء التشريع الإسلامي على أساس النظر والاجتهاد ، هو الأنسب لبلوغ الإنسان طور النضوج والرشد ، والأوفق بتطور الحياة الانسانية في حضارتها ومدنيتها، والمحقق لكفايته وصلاحيته لكل زمان .

ولهذا طالب الاسلام كل قادر على النظر والاجتهاد، ببذل الوسع في استنباط الأحكام العملية من أدلتها الشرعية ، مع شدة الاحتياط والتثبت من صحة الأدلة والاستدلال بها ، ومراعاة قوانين اللغة العربية في أوضاعها وأساليبها ، والانتهاء في ذلك كله إلى الحد الذي يفيد الظن القوي بإصابة حكم الله تعالى ، فإن معرفة الأحكام العملية يكفي فيها الظن القوي كما تقرر في اصول الفقه .

وجعل للمجتهد الذي أصاب حكم الله في الواقع أجرين ، أجراً على الاجتهاد وأجراً على الإصابة ، وجعل للمجتهد الذي أخطأ حكم الله في الواقع أجراً واحداً على الاجتهاد ، كما قال ﷺ فيما رواه البخاري وغيره : « إذا اجتهد الحاكم فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد » ، وفي رواية اخرى: « من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن أخطأ فله أجر واحد » .

وأوجب بالإجماع على كل مجتهد أن يعمل بالحكم الذي أداه إليه الإجتهاد، لأن

المجتهد الذي بذل ما في وسعه لمعرفة الحكم الشرعي ، لا يسعه إلا أن يعمل بما أداه إليه اجتهاده واطمأن قلبه إلى أنه حكم الله تعالى ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وأباح لغير القادرين على الاجتهاد أن يقلدوا من شاؤوا من أئمة المسلمين وعلمائهم ، الذين استنارت عقولهم وبصائرهم بهدى الكتاب والسنة ، وامتلأت قلوبهم بالخوف من القول في دين الله بغير حجة ، وعرفوا بالرسوخ العلمي وسلامة الاعتقاد ، واستقامة التفكير ، واعتدال مناهج النظر والاستدلال ، والتحرر من تحكم الهوى وسيطرة التعصب ، ونقلت عنهم مذاهبهم نقلاً يفيد الثقة والطمأنينة ، لقوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه أحمد وابن ماجة وأبو داود والترمذي : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين » ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » وللإجماع على أن العامة في زمن الصحابة والتابعين كانوا يقلدون من شاؤوا من العلماء ، وأنهم كانوا يقلدون بعضهم في بعض المسائل وبعضهم في البعض الآخر ، وأنه لم ينقل عن أحد من السلف إنكار أو حجر على العامة في ذلك ، فلا يجب على العامي [1] أن يلتزم في تدينه مذهباً معيناً من مذاهب الأئمة ، بل له أن يقلد بعضها في بعض الوقائع وبعضها في بعض آخر وهكذا ، ولو التزم مذهباً معيناً فله أن ينتقل إلى غيره ، على شرط أن يكون التقليد بجميع صوره قائماً على حسن النية والأخذ بالأيسر الذي لا يوقع في الضيق والحرج ، بعيداً عن بواعث الهوى والتعصب ، وقصد التلاعب وتتبع الأقوال الضعيفة والمذاهب الشاذة .

فكل من قلد في عامة المسلمين تقليداً كلياً أو جزئياً أي إمام من أئمة الحق ، والتزم في تقليده هذه الحدود التي تقدم ذكرها ، فإنه لا يكون في تقليده هذا

(١) المراد بالعامي عند الاصوليين : من ليس له أهلية الاجتهاد وإن كان محصلاً لبعض العلوم المعتبرة في الاجتهاد .

خارجاً عن دائرة التشريع الإسلامي ومقاصده ، ولا متعدياً حدود القدوة الصالحة المستبصرة ، والاسوة الحسنة الواعية ، ومتابعة غير العالم لأهل العلم والمعرفة ، فإن أساس هذا الدين الحنيف السمح ، إنما هو حسن النية ، وسلامة الاعتقاد ، والإخلاص لله في القول والعمل ، وكل إمام من أئمة الحق له في بحر النبوة ورد وله منه شرب ، واختلافهم في الاجتهاد لا يعتبر تفرقاً في الدين ولا تجريحاً للمختلفين ، وإنما هو اختلاف في الأفهام ومناهج البحث والاستدلال ، وتوسعة من الله على عباده ورحمة بهم ، فقد يكون في بعض المذاهب الاجتهادية من التيسير ما ليس في البعض الآخر ، فكثير ما تتفاوت المذاهب الفقهية شدة ويسراً ، وإن كانت في مجموعها لا تخرج عن دائرة الاصول الشرعية التي بنيت عليها.

فالتعصب للمذاهب الفقهية وتوسيع شقة الخلاف بينها بدافع الجمود وضيق الافق والوقوف من المسائل الخلافية موقف التنطع والتزمت ، والتضييق على الناس فيما جعله الله يسراً وتوسعة ، والحجر عليهم في تقليد من وجدوا في تقليده من الأئمة تيسيراً عليهم وحلا لمشاكل حياتهم ، كل ذلك لا يتفق مع يسر الإسلام وسماحته ، ولا مع تعاليمه ومقاصده ، بل ولا مع طريقة أئمة المذاهب أنفسهم ، فإنهم كانوا لا يرون في اختلاف الأفهام والأنظار غضاضة ولا تجريحاً ، ولا يحجرون على العامة في تقليد من شاؤا من أئمة الحق ، ولا يلزمون أحداً بالتزام مذهب معين ، ولا ينكرون على تابع إمام أن يقلد إماماً آخر ، وبذلك كانوا رواد الحق الصادقين ، والأئمة الراشدين المهديين .

(٤) أنه جعل مشروعية تكاليفه العملية في دائرة الوسع الذي لا إرهاق فيه ولا إعنات ، واليسر الذي لا عسر معه ولا حرج ، كما في قوله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » ، « لا نكلف نفساً إلا وسعها » ، « ولو شاء الله لأعنتكم » ، أي لكلفكم بما يشق عليكم ويوقعكم في الحرج ، ولكنه لم يشأ ذلك

رحمة بكم وتيسيراً عليكم ، وقوله تعالى : « يريد الله أن يخفف عنكم » ، « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » ، « وما جعل عليكم في الدين من حرج » ، وقوله ﷺ فيما رواه أحمد والطبراني وأبو يعلى لمن جعلوا يسألونه بعد الصلاة : يا رسول الله أعلينـا حرج في كذا : « أيها الناس : إن دين الله عز وجل في يسر ، قالها ثلاثاً » ، الى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تدل دلالة واضحة ، على أن جميـع التكاليف العملية التي جاء بها التشريـع الإسلامي ، ليس فيها ما يصادم الطبائع والفطر ، أو يتعاصى على الطاقة والوسع ، أو يشق على الناس ويوقعهم في الضيق والحرج ، بل جاءت كلها في دائرة الوسع الذي لا إرهاق فيه ولا إعنات ، واليسر الذي لا عسر معه ولا حرج ، ولهذا سمي الإسلام بالحنيفية السمحة ، وقد استخرج العلماء من هذا الأصل كثيراً من قواعد التيسير ، منها : إذا ضاق الأمر اتسع ، المشقة تجلب التيسير ، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، الضرورات تبيح المحظورات ، ما حرم لذاته يباح للضرورة ، وما حرم لسد الذريعة يباح الحاجة ، وفرعوا على هذه القواعد كثيراً من الفروع العملية في العبادات والمعاملات .

(٥) أنه جعل العمل بتكاليفه في حدود التوسط والاعتدال، والأخذ بأيسر الامور وأوفقها .

ونهى عن الغلوّ في الدين والتشدد فيه ، ومجاوزة حدود التوسط والاعتدال في العبادة ،كما في قوله ﷺ فيما رواه مسلم : « هلك المتنطعون ، قالها ثلاثاً »، والمتنطعون هم الذين يتعمقون ويتشددون في الدين ، ويجاوزون حدود التوسط والاعتدال في أقوالهم وأفعالهم . وقوله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم لعبدالله ابن عمرو بن العـــاص : « ألم اخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ قال : بلى يا رسول الله ، قال : فلا تفعل، صم وأفطر ، وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لعينك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لزورك[1] عليك حقاً،

(١) أي ضيفك .

وفي رواية : وإن لولدك عليك حقاً » . وقوله فيما رواه البخاري ومسلم ، للثلاثة الذين أرادوا أن يشددوا على أنفسهم في العبادة والتقشف : « أنتم قلتم كذا وكذا ، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، واصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

وطالب المسلمين بأن يأخذوا من الدين بالأيسر الذي لا يشق عليهم ، كما في قوله ﷺ فيما رواه البخاري : « إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » . وفيما رواه البزار والحاكم والبيهقي : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .

وأمر أهل العلم بالتيسير على الناس في إرشادهم إلى تعاليم دينهم ، وعرضها عليهم في سهولة ويسر ، كما في قوله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم وغيرهما : « علموا ويسروا ولا تعسروا » ، وفي رواية : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » .

(٦) أنه جعل نصوصه التشريعية التي قرر بها اصول الأحكام العملية وقواعد السلوك ، ونصوصه العلمية التي وجه بها العقول والأفهام إلى ما في العوالم الكونية من علوم وأسرار ، جعلها مسايرة في دلالاتها ومعانيها لتفاوت الناس في أفهامهم وحاجتهم إلى العلم والعمل ، فأودع فيها من ظواهر المعاني واصول التشريع ومناهج السلوك ، وأسرار العوالم الكونية وحقائق العلوم الإلهية ، ما جعلها مورداً عذباً ينهل منه كل وارد على قدر استعداده وحاجته إلى العلم والعمل ، فيجد أهل البادية في معانيها الظاهرة وتشريعاتها الواضحة ، ما يساير حياتهم ويتمشى مع بداوتهم ، ويكفي لتدينهم ومعاملاتهم ، ويجد أهل الحاضرة في الاصول التشريعية التي تحتاج إلى تعمق في البحث والاستنباط والتطبيق ، ما يساير حياتهم ويتمشى مع حضارتهم ويكفي لتدينهم وسلوكهم ، ويتسع لما يحدثه تطور الحياة المدنية من أقضية ومعاملات ، ويجد طلاب العلوم في إشاراتها إلى

مساتير العلوم الكونية والسنن الإلهية، ما يوجه عقولهم إلى ما في العوالم الكونية من الدلائل على عظمة خالقها وجلال فاطرها ، وما فيها من سنن الله في تسخيرها للانسان وانتفاعه بها في المعاش وفي المعـاد ، وبذلك مهد الإسلام لكل امرىء طريق الوصول إلى حاجته من العلم والعمل .

وهذه الحقائق التي أشرنا اليها لا تحتاج إلى أدلة تقام عليها من واقع هـذه النصوص ، فحسبك نظرات واعية في القرآن الكريم والسنة النبوية، لترى هذه الحقائق بأجلى معانيها وأكمل صورها .

(٧) أنه جعل تكاليفه العملية متمشية مع تفـاوت المكلفين في قدرتهم على العمل وتطلعهم إلى الكمال، واختلاف أحوالهم في عروض الضرورات والأعذار، فجعلها مشتملة على الواجبات والمندوبات، والمحرمات والمكروهات، والعزائم[١] والرخص ، وعدد مراتب العمل ومنازل السلوك ، ودرجات الثواب والجزاء ، ليجد فيها كل عامل ما يناسب أحواله الخاصة به، وبذلك فتح الإسلام مجال العمل لكل عامل ، ويسر له طريق الوصول إلى سعادته في الدنيا والآخرة ، وقطع علل المتعللين ومعاذير المعتذرين .

(٨) أنه جمـع بين العمل للدنيا والعمل للآخرة ، ورعاية مطالب الروح ومطالب الجسد ، وأقـام ذلك على منهج قويم لا إفراط فيه ولا تفريط ، ولا طغيان فيه لأحد الجانبين على الآخر .

فأمر المسلمين بأن يصلحوا أمر دنياهم بالعمل النافع الذي يحقق لهم الحيـاة الكريمـة في معاشهم ، ويصلحوا أمر آخرتهم بالعمل الصالح الذي يحقق لهم السعادة في معادهم ، كما في قوله تعالى: « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض

---

(١) العزيمة هي الحكم الذي شرع ابتداء غير مبني على أعذار العباد كالوضوء ، والرخصة هي ما شرع ثانيا على خلاف الحكم الأصلي لأعذار العباد كالتيمم .

وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » ، وقوله ﷺ كما في الجامع الصغير : « ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ، ولا آخرته لدنياه ، وإنما خيركم من عمل لدنياه وآخرته » .

وطالبهم بأن يجمعوا في سلوكهم بين رعاية مطالب الروح ورعاية مطالب الجسد ، وأن يسلكوا في ذلك مسلك التوسط والاعتدال ، والمحافظة على مظاهر الحشمة والوقار ، والرجولة الكاملة والخلق الكريم .

فأباح لهم الانتفاع بزينة الحيـــاة والطيبات من الرزق ، كما في قوله تعالى : « قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ، « فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً » .

وحرّم عليهم الفواحش والخبائث ، وكل ما فيه إضرار بأي مقوّم من مقومات الحياة الإنسانية الكريمة ، وهي الدين والنفس والعقل والمال والعرض ، كما في قوله تعالى : « قل إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » ، « ويحل لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث » .

ونهى عن الغلو في التقشف وترك التمتع بما أحله الله من زينة الحياة والطيبات من الرزق ، كما في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحلّ الله لكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » ، وكما في الأحاديث الـتي تقدم ذكرها في الوجه الخامس .

وحرّم الإسراف والإغراق في النعيم والترف ، كما قـــال تعالى في سورة الأعراف : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » ، وفي سورة الإسراء : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » .

فمنهج الإسلام في الجمع بين رعاية الجانب الروحي والجانب المـادي ، منهج

وسط بين الغلو في الزهد والتقشف إلى حـــد الإضرار بحقوق الجانب المادي ، والإغراق في متع الحيــاة ولهوها الى حد الإضرار بحقوق الجانب الروحي ، كما يشير الى ذلك قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم امة وسطاً » .

وهكذا تكاملت للتشريـع الإسلامي عناصر العموم وأسرار الخلود، فكان تشريعاً عاماً باقياً على وجه الزمان ، لا يختص بامة دون امة ولا بزمان دون زمان .

الاجتهاد في الشريعة

بين السنة والشيعة

للعلامة الكبير المغفور له
الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء

من أهم الموضوعات الحية التي تتصل بالفقه الإسلامي اتصالاً عملياً موضوع **« الاجتهاد »** وإنما كان هذا الموضوع من أهم الموضوعات ، لأن عليه يترتب أهم وصف يوصف به الفقه الإسلامي ، من حيث صلاحيته لكفالة الحياة السعيدة للعاملين به المنظمين شئونهم على أساسه ، فمن المقرر أن شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان ، وأن لله في كل واقعة حكماً حتى أرش الخدش ، وما من عمل من أعمال المكلفين من حركة أو سكون إلا ولله فيه حكم من الأحكام الخمسة : الوجوب ، والحرمة ، والندب ، والكراهة ، والإباحة ، وما من معاملة على مال أو عقد نكاح ونحوهما إلا وللشرع فيها حكم صحة أو فساد .

ولما كانت الأعمال غير محدودة ، ووجوه التصرفات غير منحصرة ، وإنما هي متجددة بتجدد الأزمان والأمكنة والأحوال ، وقد يوجد في عصر لاحق ما لم يوجد في عصر سابق ، فإما أن يقف الناس أمام تلك الامور حائرين مشدوهين ، لا يجدون من يفتيهم فيها بحكم الله ، ويبين لهم ما عليهم أن يفعلوه ، وما عليهم أن يتركوه ، فتكون دعوى الصلاحية لكل زمان ومكان في موضع

الشك والتزلزل عند عامة الناس وخاصتهم، ويلتمس الناس لأنفسهم فقهاً وضعياً ملائماً لهم، قادراً على تلبية حاجاتهم، وإما أن يستقبل العلماء كل حادثة تجدّ، وكل قضية تعرض، بما كان يستقبل به الفقهـــاء الأولون حوادثهم، ووجوه التصرفات والمعاملات في زمانهم، فيستنبطوا حكم الله، ويبينوا للناس ما نزل اليهم، ويدخلوا بهـذا الفقه كل مجال، ويطرقوا به كل باب، ويحملوا امتهم وحكامهم ونوابهم عليه حملا، لا بالقوة ولا بالثورة، ولكن بالإقناع والتوجيه وإبراز محاسنه، والتخلص من الجمود والتعصب، والضيق والتبرم، وحينئذ تصدق دعوى الصلاحية لجميع الأزمان والأمكنة علماً وواقعاً، ويتجلى للناس فضل الفقه الإسلامي، وسعة افقه وطواعيته، وحسن تقبله لكل ما يفيد الامة، ولا يخرج عن الاصول المحكمة التي هي أساس الشريعة .

وليس الذي يدعو إلى الاجتهاد هو حاجة الناس اليه فحسب، وإنما هو أمر تقضي به طبيعة الشريعة نفسها، ويؤذن به أن الله ختم بها النبوات، وجعلها آخر الرسالات، وأنه تعالى تكفل بحفظ كتابه الكريم إلى يوم الدين عزيزاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولم يكن الخلود والعصمة لمجرد أن يتعبد الناس بتلاوته، وليست العزة لكتاب ما في مجرد تبرك الناس به، وإنما كان هذا وذاك عن حكمة أسمى، ورحمة أعم وأشمل، ذلك أن يظل الناس أبد الدهر منتفعين بكتاب ربهم في جميع شئونهم وأحوالهم، وأن تبقى الحجة به قائمة على صدق الرسول، وحقية الشريعة، فما دام في المسلمين عقول تفكر، وقلوب تفقه فلا بــد لهم من النظر في كتاب ربهم، وإلا كانوا منتسبين إلى القرآن بالاسم والميراث دون أن يكون منهم فرقــة متفقهة في الدين، ينفرون اليه بعقولهم وقلوبهم وأجسامهم قائمين وراحلين فحصاً وعلماً ودرساً ونظراً وتبييناً وعرفاناً واستنباطاً لينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون .

ثم إن الله جلت حكمته قد أودع نبيه جميع أحكامه وأسراره وعرفها له

بالوحي والإلهام . فكانت سنته عليه الصلاة والسلام هي الركن الثاني بعد القرآن ، وهي البيان له والتفصيل والكشف .

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يختلفون في فهم نصوص الكتاب والسنة حسب اختلاف مراتب أفهامهم وقرائحهم « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها » .

ولكن تأخذ الأذهان منه على قدر القرائح والفهوم

وقد يسمع الصحابي من النبي في واقعه حكماً ، ويسمع الآخر في مثلها خلافه وتكون هناك خصوصية في أحدهما اقتضت تغاير الحكمين ، وغفل أحدهما عن الخصوصية أو التفت اليها وغفل عن نقلها مع الحديث ، فيحصل التعارض في الأحاديث ظاهراً ، ولا تنافي واقعاً ، ومن هذه الأسباب وأضعاف أمثالها احتاج الأصحاب أنفسهم ، وهم الذين فازوا بشرف الحضور ، احتاجوا في معرفة الأحكام الى الاجتهاد والنظر في الحديث ، وضم بعضه الى بعض ، والالتفات الى القرائن الحالية ، فقد يكون للكلام ظاهر ، ومراد النبي خلافه اعتماداً على قرينة كانت في المقام ، والحديث نقل ، والقرينة لم تنقل ، وكل واحد من الصحابة ممن كان من أهل الرأي والرواية — إذ ليس كلهم كذلك بالضرورة — تارة يروي نفس ألفاظ الحديث للسامع من بعيد أو قريب ، فهو في هذه الحال راو ومحدث ، وتارة يذكر الحكم الذي استفاده من الرواية أو الروايات حسب نظره واجتهاده ، فهو في هذه الحال مفت وصاحب رأي ، وأهل هذه الملكة مجتهدون ، وسائر المسلمين الذين لم يبلغوا تلك المرتبة إذا أخذوا برأيه فهم مقلدون ، وكل ذلك قد جرى في زمن صاحب الرسالة ، صلوات الله وسلامه عليه ، وبمرأى منه ومسمع .

وإذا أنعمت النظر في هذا اتضح لك أن الاجتهاد كان مفتوح الباب في زمن النبوة وبين الأصحاب فضلاً عن غيرهم وفضلاً عن سائر الأزمنة التي بعد ذلك ،

غاية الأمر أن الاجتهاد يومئذ كان خفيف المؤنة جداً ، لقرب العهد ، وتوافر القرائن ، وإمكان السؤال المفيد للعلم القاطع ، ثم كلما بعد العهد من زمن الرسالة وتكاثرت الآراء ، واختلطت الأعارب بالأعاجم ، وتغير اللحن ، وصعب الفهم للكلام العربي على حاق معناه ، وتكاثرت الأحاديث والروايات ، وربما دخل فيها الدس والوضع ، وتوافرت دواعي الكذب على النبي ﷺ ، أخذ الاجتهاد ومعرفة الحكم الشرعي يصعب ويحتاج الى مزيد مؤنة واستفراغ وسع ، وجمع بين الأحاديث ، وتمييز الصحيح من السقيم ، وترجيح بعضها على بعض ، وكلما بعد العهد وانتشر الاسلام وتكاثرت العلماء والرواة ، ازداد الأمر صعوبة ولكن مهما يكن من شيء فباب الاجتهاد كان في زمن النبي ﷺ مفتوحاً ، بل كان أمراً ضرورياً عند من يتدبر .

ومن مفاخر الشيعة الإمامية : أن باب الاجتهاد ما يزال عندهم مفتوحاً ، ولن يزال إن شاء الله حتى تقوم الساعة ، بخلاف المشهور عند جمهور المسلمين من أنه قد سد واغلق على ذوي الألباب ، وما أدري في أي زمان وبأي دليل وبأي نحو كان ذلك الانسداد ؟

وقد بيّن كثير من حذاق العلماء في مذاهب أهل السنة أن هذا زعم باطل ، وتضييق لا دليل عليه ، وأن هذا إنما كان يقال به في عصور الضعف الفقهي ، والتعصب المذهبي ، وبعض القائلين به إنما يريدون أنه لم يعد بين المسلمين من يصلح لهذا المنصب ، لقصور الباع ، وقلة المتاع ، لا لأن باباً قد اقفل ، أو واسعاً قد حُجِّر ، والأمر على هذه الصورة قريب ، ومدى الخلاف في شأنه ليس بعيداً ، فمن المتفق عليه : أن المجتهد هو من زاول الأدلة ومارسها واستفرغ وسعه فيها ، حتى حصلت له ملكة وقوة يقتدر بها على استنباط الحكم الشرعي من تلك الأدلة ، وهذا أيضاً لا يكفي في جواز تقليده ، بل هناك شروط اخر ، أهمها : « العدالة » وهي ملكة يستطيع معها الكف عن المعاصي ، والقيام بالواجب ،

كما يستطيع من له ملكة الشجاعة اقتحام الحرب بسهولة بخلاف الجبان، وقصاراها أنها حالة من خوف الله ومراقبته تلازم الإنسان في جميع أحواله، ولم تضق رحمة الله ونعمته تحجر على عصر دون عصر، أو تفرض على قوم دون قوم، أو توضع لها السدود والأقفال من الأزمان والحساب .

ولقد حملت الى مجلة (رسالة الإسلام) في عددها الأول بشرى من أعز البشارات، عن حضرة صاحب الفضيلة أخي في الله العالم الجليل الشيخ عبدالمجيد سليم رئيس لجنة الفتوى بالأزهر ، وكبير فقهاء أهل السنة في هذا العصر ، تلك هي قوله في بيانه للمسلمين : « ولقد أدركنا في الأزهر على أيام طلبنا العلم عهد الانقسام والتعصب للمذاهب ، ولكن الله أراد أن نحيا حتى نشهد زوال هذا العهد ، وتطهر الأزهر من أوبائه وأوضاره ، فأصبحنا نرى الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي إخواناً متصافين وجهتهم الحق، وشرعتهم الدليل، بل أصبحنا نرى بين العلماء من يخالف مذهبه الذي درج عليه في أحكامه ، لقيام الدليل عنده على خلافه ، وقد جريتُ طول مدة قيامي بالإفتاء في الحكومة والأزهر — وهي أكثر من عشرين عاماً — على تلقي المذاهب الإسلامية — ولو من غير الأربعة المشهورة — بالقبول ما دام دليلها عندي واضحاً، وبرهانها لديّ راجحاً مع أنني حنفي المذهب ، كما جريتُ وجرى غيري من العلماء على مثل ذلك فيما اشتركنا في وضعه أو الإفتاء فيه من قوانين الأحوال الشخصية في مصر، مع أن المذهب الرسمي فيها هو المذهب الحنفي ، وعلى هذه الطريقة نفسها تسير (لجنة الفتوى بالأزهر) التي أتشرف برئاستها ، وهي تضم طائفة من علماء المذاهب الأربعة » .

ألا إن هذا هو الفتح المبين لما زعمه الزاعمون مغلقاً ، والفسح والبسط لما حسبوه ضيقاً .

ولقـــد كنت أعرف ذلك في فضيلة الاستاذ الجليل ، وفي فريق صالح من إخوانه العلماء الأزهريين، ولكن نشوة من الفرح والأمل يجب أن تغمر كل مسلم لإعلان هذا بلسان هذا العالم الكبير المسؤول ، ولذلك لا يسعني إلا أن اعلنه في النـاس مرة اخرى ، وأن اوجه إلى الشيخ وأصحابه — مع شديد الإعجاب — أكرم التحيات ، والحمد لله رب العالمين .

الاجتهاد في الشريعة

أثر مقال « الاجتهاد في الشريعـة » — فضل يذكر — بحث في الموضوع للامام المراغي : شروط المجتهد المطلق متحققة الآن — الاجتهاد الخاص وآراء العلماء فيه — التقليد — إجماع المحققين وتمسك ابن الصلاح به — ليس في الأدلة الشرعيـة شيء يسمى « إجماع المحققين » — عدم العلم بالمخالف لا يسمى إجماعاً — جواز تقليد غير الأئمة الأربعة متى صح النقل عنهم .

قرأ أهل العلم والفقه ذلك البحث القيم الذي جاد به قلم العلامة الأكبر والشيخ الموقر **محمد الحسين آل كاشف الغطاء** عن « **الاجتهاد في الشريعـة** » بين السنة والشيعة » فرأوا كيف جلى فضيلته العلم ، وأنصف الحق ، وكرم وجه الوفاء ، وعرف الفضل لأصحاب الفضل .

ولما كان هذا الموضوع الذي عرض له فضيلة الشيخ — حفظه الله — من أهم الموضوعات الحية التي تتصل بالفقه الإسلامي اتصالاً عملياً كما قال ، وكان قد أشار في ثناياه إلى أن الحذاق من علماء أهل السنة لا يرون فيـه غير ما يرى إخوانهم من الشيعة ،فقد أشار علينا بعض حضرات أصحاب الفضيلة كبار العلماء في الأزهر ، بأن نسجل على صفحات مجلة (رسالة الإسلام) هذا البحث الجيد لإمام من أئمة أهل السنة في العصر الحديث هو المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ

محمد مصطفى المراغي ، شيخ الجامع الأزهر الأسبق، وهو بحث كتبه بروح العالم المتمكن الغيور على الشريعة، الحريص على أن تتبوأ مكانتها اللائقة بها في إصلاح المجتمع ، وإسعاد البشر ، وعلى أن يكون أهلها بحق مصابيح الظلام ، وهداة الأنام .

والاستاذ الأكبر الشيخ المراغي – رحمه الله – أشهر وأجل ذكراً من أن نقدمه لقرائنا في شتى أنحاء العالم ، ولكننا نذكر من آثاره الطيبة أنه أول من تنبه إلى وجوب دراسة « الفقه المقارن » في الأزهر ، ولم يزل يدعو إلى ذلك ، ويعمل عليه، منذ رياسته للمحكمة الشرعية العليا ، على صدود من العلماء، ونفور من كثير ممن بيدهم مقاليد الأزهر حتى يسر الله فأصبح هذا الفقه مادة مقررة في منهاج أعلى فرقة في كلية الشريعة ، وكان عميدها يومئذ هو حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوي شيخ الجامع الأزهر الحالي – أطال الله بقاءه – وهو الآن يدرس دراسة حرة خالية من التعصب المذهبي ، وليست المقارنة فيه مقصورة على آراء أصحاب المذاهب الأربعة أو متبعيهم ، وإنما هي أوسع من ذلك دائرة ، وأكبر نطاقاً .

وهذا البحث الذي نقدمه اليوم لقرائنا هو أثر من آثار الإمام الراحل ، كتبه إبان مساجلته لفريق من العلماء بشأن مشروع قانون الزواج والطلاق الذي كان من بين مواده أحكام عن الطلاق المعلق ، والطلاق الثلاث ، لم يؤخذ فيها برأي الأربعة ، وإنما أخذ فيها برأي يتفق وما يراه الشيعة الإمامية .

والى القراء الكرام نسوق هذا البحث :

* * *

المجتهد المطلق :

بعد أن قدم فضيلة الاستاذ الأكبر كلمة عن سبب تعرضه لهذا البحث، قال:

ينبغي الاشارة الى أن المجتهد قد يكون أهلاً لاستنباط الأحكام الشرعية جميعها لتوافر الشروط فيه، ويسمى « المجتهد المطلق »، وقد يكون أهلاً لاستنباط أحكام وقائع خاصة لإحاطته بما يلزم لتلك الوقائع ، ويسمى « المجتهد الخاص » أو « المجتهد الجزئي » ، والمجتهد والفقيه والمفتي ألفاظ مترادفة في اصطلاح علماء الاصول .

ثم نقل فضيلته نصاً طويلاً عن الإمام الغزالي في كتابه « المستصفى » وعلّق عليه بقوله :

هذه هي شروط المجتهد المطلق الذي كلفه الشارع البحث عن الأحكام جميعها من أدلتها التفصيلية، وحرّم عليه التقليد وتوسيط أحد من خلق الله بينه وبين الأدلة، وتلخص فيما يأتي :

(١) يشترط في المجتهد أن يكون عالماً بموضع الآية التي يريد الاستدلال بها وتطبيقها عند الحاجة ، ولا يشترط فيه حفظ الكتاب كله ولا حفظ آيات الاحكام .

(٢) يشترط أن يكون عارفاً بموقع كل باب من أبواب الحديث بحيث يستطيع المراجعة وقت الفتوى ، ولا يشترط أن يكون حافظاً للأحاديث كلها، ولا أن يكون حافظاً لأحاديث الأحكام، ويكفي أن يكون عنده أصل كسنن أبي داود ومعرفة السنن لأحمد البيهقي .

(٣) يلزم أن يعرف أن الآية التي يستدل بها ليست منسوخة والحديث الذي يستدل به ليس منسوخاً .

(٤) يلزم أن يعرف أن المسألة التي يبحث فيها ليست مجمعاً فيها على رأي يخالف رأيه ، ولا يلزمه حفظ مواقع الإجماع والخلاف .

(٥) يلزم أن يكون عارفاً باللغة والنحو على الوجه الذي يتيسر به فهم خطاب العرب ، وأن يكون عارفاً للأدلة وشروطها .

(٦) الأحاديث التي اشتهر رواتها بالعدالة وقبلتها الامة لا يلزمه أن يبحث عن أسانيدها ، أما الأحاديث التي ليست كذلك فيكفيه فيها تعديل الأئمة العدول لرواتها بعد أن يعرف مذاهبهم في الجرح والتعديل ، وأنها مذاهب صحيحة .

ومعظم هذه الشروط يشتمل عليه ثلاثة فنون : الحديث ، واللغة ، واصول الفقه ، ولقد جمع العلماء آيات الأحكام في غير ما كتاب ، وجمعوا أحاديث الأحكام في غير ما كتاب ، وجمعوا الناسخ والمنسوخ في غير ما كتاب ، وجمعوا مواقع الإجماع في غير ما كتاب ، وأصبحت الأحكام مدونة في كتب الفقه وفي شروح الحديث وكتب التفسير .

وقد انتهى زمن الرواية للحديث وأصبحت الامة تعتمد على الكتب المدونة كما تعتمد على آراء أئمة الجرح والتعديل في الرواة ، ومع هذا فكتب الرجال موفورة تضم سيرهم وأحوالهم ولا يعسر على طلاب العلم البحث عن رواة أي حديث من الأحاديث .

واللغة العربية وفنونها من نحو وصرف وأدب وبلاغة تدرّس في معاهد مصر الدينية وغيرها دراسة دقيقة تكفي لفهم خطاب العرب ، كما يدرّس اصول الفقه على أدق الوجوه وأكملها ، وتدرس الأدلة وشروطها ، وغير ذلك مما نص عليه الغزالي ولم ينص عليه .

وليس مما يلائم سمعة المعاهد الدينية في مصر أن يقال عنها إن ما يدرس فيها من علوم اللغة والمنطق والكلام والاصول لا يكفي لفهم خطاب العرب ولا لمعرفة الأدلة وشروطها ، وإذا صح هذا ، فيا لضيعة الأعمار والأموال التي تنفق في سبيلها .

ليس الاجتهاد ممكناً عقلا فقط ، بل هو ممكن عادة ، وطرقه أيسر مما كانت في الأزمنة الماضية أيام كان يرحل المحدث الى قطر آخر لرواية حديث ، وأيام

كان يرحل الرواة لرواية بيت من الشعر ، أو كلمة من كلم اللغة ، وقد توافرت مواد البحث في كل فرع من فروع العلوم : في التفسير ، والحديث ، والفقه ، واللغة ، والنحو ، والمنطق ، وجُمع الحديث كله ، وميز صحيحه من فاسده ، وفرغ الناس من تدوين سير الرواة ، وأصبحت كتب هذه الفنون تضمها مكتبات الأفراد والحكومات في كل قطر من الأقطار الإسلامية ، وهذا لم يكن ميسوراً لأحد في العصور الاولى ، ومذاهب الفقهاء جميعهم مدونة ، وأدلتها معروفة .

والواقع أنه في أكثر المسائل التي عرضت للبحث ، وأفتى الفقهاء فيهـــا ، لم يبق للمجتهد إلا اختيار رأي من آرائهم فيهـــا ، أما الحوادث التي تجدّ فهي التي تحتاج إلى آراء محدثة ، وأن حفظ آيات الأحكام جميعها وأحاديث الأحكام جميعها وفهمها فهماً صحيحاً ، ومعرفة النـــاسخ والمنسوخ ، وحفظ مواقع الإجماع ، لا يحتاج إلى المجهود الذي يبـذل لفهم مرامي كتاب من كتب الأزهر المعقدة .

إن الزمن لم يغير خلقة الإنسان ، والعقول لم تضمر ، والطبيعة باقيـــة في الإنسان كما كانت في العصور الماضية ، وها هم اولاء علماء الامم يحدوهم الأمل إلى بلوغ أقصى ما يتصوره العقل البشري ويصلون اليه بجدهم واجتهادهم ، وقد كان أسلافهم في عماية وجهل ، وكان أسلافنا في نور العلم وضياء المدنية ، لم يقل أحد منهم بقصور العزائم ، ولا بتراخي الهمم عن البحث والتنقيب ، بل كلما مرّ عليهم الزمن جدّوا في البحث والتنقيب ، وكثرت وسائط البحث والتنقيب .

وإني مع احترامي لرأي القـائلين باستحالة الاجتهاد ، اخالفهم في رأيهم ، وأقول : إن في علماء المعاهد الدينية في مصر مَن توافرت فيهم شروط الاجتهاد ويحرم عليهم التقليد .

الاجتهاد الخاص :

ندع الاجتهاد المطلق وما يقـــال فيه من غير تبصر ، ونتحدث عما يسمى

الاجتهاد الخاص ، أو الاجتهاد الجزئي وهو الاجتهاد في واقعة خاصة للوصول إلى معرفة حكمها الشرعي بالدليل ، والقادر على هذا النوع يحرم عليه التقليد في المسألة التي يقدر على الاجتهاد فيها .

وقد اختلف العلماء في تجزؤ الاجتهاد وعدمه ، والأكثرون منهم على تجزئه ، ومنهم حجة الإسلام الغزالي والشيخ ابن الهمام ، وقد استدلوا لذلك بأن التقليد في حال القدرة على الدليل فيه ترك للعلم واتباع للريب وهـــذا منهى عنه بقوله عليه الصلاة والسلام : « دع مـا يريبك إلى ما لا يريبك » ، وقوله : « استفت قلبك وإن أفتاك المفتون » . قال في مسلم الثبوت : ومن له حسن أدب بأحكام الله تعالى لا يتعدى هذا الأصل .

وفي المستصفى للغزالي : اجتماع هذه العلوم الثمانية إنما يشترط في حق المجتهد المطلق الذي يفتي في جميع الشرع ، وليس الاجتهاد عندي منصباً لا يتجزأ بل يجوز أن يقـــال للعالم انه مجتهد في بعض الأحكام دون بعض ، فمن عرف النظر القياسي فله أن يفتي في مسألة قياسية وإن لم يكن ماهراً في علم الحديث ، ومن عرف أحاديث قتل المسلم بالذمي ، وطريق التصرف فيها فلا يضرّه قصوره عن علم النحو الذي يعرف به قوله تعـــالى : « وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين » وقس عليه ما في معناه .

وفي كتاب الاحكام للآمدي بعـد أن نص على شروط المجتهد قال : وذلك كله إنما يشترط في المجتهـد المطلق المتصدي للحكم والفتوى في جميع المسائل ، وأما الاجتهاد في بعض المسائل فيكفي فيه أن يكون عارفاً بما يتعلق بتلك المسألة وما لا بد منه فيها ، ولا يضره في ذلك جهله بما لا تعلق له بها ممـا يتعلق بباقي المسائل الفقهية .

المكلف إذا حصلت له أهليـة الاجتهاد بتمامها في مسألة من المسائل ، فإن اجتهد فيها وأداه اجتهاده إلى حكم فيها فقد اتفق الكل على أنه لا يجوز له تقليد غيره من المجتهدين في خـــلاف ما أوجبه ظنه ، وإن لم يكن قد اجتهد فقد

اختلفوا فيه ، والمعتمد أن يقال إن القول بجواز التقليد حكم شرعي لا بد له من دليل والأصل عدم ذلك الدليل : فمن ادعاه فعليه البيان .

هذه آراء علماء الاصول في الاجتهاد الجزئي، وهي صريحة في حرمة التقليد على من يقدر على الاجتهاد في وقائع خاصة ، سواء أكان المقلد صحابياً أم تابعياً أم إماماً من الأئمة الأربعة أو غيرهم .

وشروط الاجتهاد الجزئي كما يرى سهلة المنال ، فليس على مريد الاجتهاد في مسألة من مسائل البيع أو الطلاق إلا أن يعرف آيات البيع أو آيات الطلاق ، وأحاديث البيع أو أحاديث الطلاق ، ويعرف ما نسخ منها وما بقي ، ويعرف مواقع الإجماع ليتجنب المخالفة بعد أن يكون على بصيرة في فهم اللغة ، ونصب الأدلة ، وليس عليه أن يحيط بجميع الأدلة وجميع علوم اللغة وفنون المنطق والكلام وآراء الفقهاء . فهل يجوز لمسلم بعد هـذا أن يقول إن على المسلمين في جميع بقاع الأرض تقليد واحد من الأئمة الأربعة دون سواهم وإلا كانوا آثمين جاهلين خارقين للاجماع ؟!

وسأعرض لهذا الشيء المبتدع الذي سموه إجماع المحققين لابين منزلته ومكانه بين الأدلة الشرعية ، ولأكشف عن بصائر الناس هذا الغطاء الذي حجب عنهم نور الحق .

التقليـــد :

العامي ومن ليس له أهلية الاجتهاد ، وإن كان محصلاً لبعض العلوم المعتبرة في الاجتهاد يجب عليه اتباع قول المجتهد والأخذ بفتواه ، واتفقوا على جواز استفتائه لكل من عرف بالعلم وأهلية الاجتهاد والعدالة .

قال الآمدي : وإذا حدثت للعامي حادثة ، وأراد الاستفتاء عن حكمها فإن كان في البلد مفت واحد وجب عليـه الرجوع اليه والأخذ بقوله ، وإن تعدد

المفتون ، فمن الاصوليين من ذهب إلى أنه يجب عليه البحث عن أعيان المفتين واتباع الأورع والأعلم والأدين ، ومنهم من ذهب إلى أنه مخير بينهم يأخذ برأي من شاء منهم سواء أتساووا أم تفاضلوا وهو المختار .

وإذا اتبع العامي بعض المجتهدين في حكم حادثة وعمل بقوله فيها فليس له الرجوع عن ذلك القول في هذه المسألة ، وهل له اتباع غيره في غير ذلك الحكم؟ اختلفوا فيه ، فمنهم من منعه ، ومنهم من أجازه ، وهو الحق نظراً إلى ما وقع عليه إجماع الصحابة من تسويغ استفتاء العامي لكل عالم في مسألة ، ولم ينقل عن أحد من السلف الحجر في ذلك ، ولو كان ممتنعاً لما جاز من الصحابة إهماله .

وإذا عين العامي مذهباً معيناً كمذهب الشافعي أو أبي حنيفة أو غيره، وقال أنا على مذهبه وملتزم له ، فهل له الرجوع إلى قول غيره في مسألة من المسائل ؟ اختلفوا فيه فجوّزه قوم ومنعه آخرون ، والمختار التفصيل ، وهو أن كل مسألة من مذهب الأول اتصل بها عمله فليس له تقليد الغير فيها ، وما لم يتصل عمله بها فلا مانع من اتباع غيره فيها .

وفي التحرير وشرحه : لا يرجع المقلد فيما قلد فيه ، أي عمل به اتفاقاً. ذكره الآمدي ، قال الزركشي: وليس الأمر كما قال ، ففي كلام غيره ما يقتضي وجود الخلاف بعد الفعل ، وكيف يمتنع ذلك عليه إذا اعتقد صحته ، وعلى هذا فإذا تعارض قولا مجتهدين يجب التحري فيهما ، والعمل بما يقع في قلبه أنه الصواب وليس له الرجوع عما عمل به إلا إذا ظهر له خطأه .

ولو التزم مذهباً معيناً فقيل يلزم وقيل لا ، وهو الأصح ، لأن التزامه غير ملزم ، إذ لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله ، ولم يوجب الله ولا رسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأئمة فيقلده في دينه في كل ما يأتي ويذر دون غيره ، وقد انطوت القرون الفاضلة على عدم القول بذلك ، وصرح

العلائي بأن المشهور في كتب المذهب جواز الانتقال في آحاد المسائل والعمل فيها بخلاف مذهب إمامه الذي يقلده إذا لم يكن ذلك على وجه التتبع للرخص .

وفي التحرير وشرحه نقل الإمام في البرهان إجماع المحققين على منع تقليد العوام أعيان الصحابة ، وأن عليهم أن يقلدوا الأئمة الذين جاؤا بعد الصحابة ، لأنهم دونوا وهذبوا وفصلوا وبوبوا وأوضحوا طرق النظر ، وعلى هذا بنى ابن الصلاح وجوب تقليد الأئمة الأربعة لانضباط مذاهبهم وتحرير شروطها ، وغير ذلك مما لم يعلم مثله في غيرهم ، وحاصل هذا أنه امتنع تقليد غيرهم لتعذر نقل حقيقة مذهبهم ، وعدم ثبوته حق الثبوت ، لا لأنه لا يقلد ، ولذلك قال ابن عبد السلام : إن تحقق ثبوت مذهب عن واحد منهم جاز تقليده وفاقاً وإلا فلا ، وإذا صح عن بعض الصحابة حكم لم يجز مخالفته إلا بدليل أوضح من دليله ، ومعلوم أنه لا يشترط أن يكون للمجتهد مذهب مدون ، وأنه لا يلزم أحداً أن يتمذهب بمذهب أحد الأئمة بحيث يأخذ أقواله كلها ويدع أقوال غيره . انتهى بتصرف .

وفي مسلم الثبوت وشرحه بعد أن نقل ما في التحرير وشرحه من إجماع المحققين ورأي ابن الصلاح :

قال القرافي : انعقد الإجماع على أن من أسلم فله أن يقلد من شاء من العلماء من غير حجر ، وأجمع الصحابة رضي الله عنهم على أن من استفتى أبا بكر وعمر أميري المؤمنين فله أن يستفتي أبا هريرة ومعاذ بن جبل وغيرهما ، فمن ادعى رفع هذين الإجماعين فعليه البيان، وقد بطل بهذين الإجماعين قول الإمام (يريد بذلك قوله إن المحققين أجمعوا على منع تقليد أعيان الصحابة) .

وقوله : أجمع المحققون ، ليس معناه الإجماع الذي هو حجة حتى يقال أن إجماعهم عارض الإجماعين السابقين . وفي كلام الإمام خلل آخر : لأن التبويب والتهذيب والتفصيل ، لا دخل له في التقليد ، فإن المقلد إن فهم مراد الصحابي

عمل به وإلا سأل مجتهداً آخر ، وبهذا بطل قول ابن الصلاح أيضاً . وفي كلامه خلل آخر : إذ المجتهدون الآخرون أيضاً بذلوا جهدهم مثل بذل الأئمة الأربعة ، وإنكار هذا مكابرة وسوء أدب ، والحق أنه إنما منع من تقليد غيرهم لأنه لم تبق رواية مذهبهم محفوظة حتى لو وجدت رواية صحيحة من مجتهد آخر يجوز العمل بها . ألا ترى أن المتأخرين أفتوا بالتحليف للشهود إقامة له مقـــام التزكية على مذهب ابن أبي ليلى ؟

أطلنا في بيان النصوص في هذه المسألة لنجلي الحق فيها ، ولنبرهن على صحة ما قلناه في مذكرة المشروع من خطأ القول بعدم جواز تقليد غير الأئمة الأربعة ، ومن أن هذا رأي حادث في الامة الإسلامية لم يقله أحد قبل ابن الصلاح ، وهو رأي خاطىء مبني على خطأ .

كان المسلمون مجمعين على جواز تقليد أي عالم من علماء المسلمين ، فجاء الإمام ونقل إجماع المحققين على منع تقليد أعيان الصحابة ، لأنه ليس في وسع العـــامي أن يعرف غرضهم ، وأن يفهم مقصودهم ، ثم رتب ابن الصلاح على هذا وجوب تقليد الأئمة الأربعـــة دون سواهم ، وبذلك نسخ حكم الإباحة الذي كان مستفاداً من إجماع المسلمين برأي ابن الصلاح المبني على إجماع المحققين .

ابن الصلاح هـــذا فقيه مقلد ، فكيف يؤخذ برأي فقيه مقلد ليس واحداً من الأئمة الأربعة ، وكيف ينسخ الإجماع برأي واحد لا يصح تقليده ولا الأخـــذ بقوله ؟؟.

ليس لإجماع المحققين قيمة بين الأدلة الشرعية ، فهي محصورة في : كتاب الله وسنة رسوله ، وإجـــاع المجتهدين ، والقياس على المنصوص ، ولم يعدّ أحد من الأدلة الشرعية إجماع المحققين، فكيف برز هـــذا الإجماع ، وأخذ مكانته بين الأدلة ، وأصبح يقوى على نسخ إجماع المسلمين ؟

لم نعرف أحداً من العلماء ، تكلم عن إجماع المحققين ، وشروطه ، وطريقـــة

نقله ، وهل هو ممكن أو مستحيل، وهل يمكن نقله، وهل يكفر مخالفه ، وغير ذلك من القواعد التي وضعها العلماء لإجماع المجتهدين ، فكيف مع هذا نأخذ من إجماع المحققين أحكاماً شرعية تحصر الدين الإسلامي جميعه في أشخاص أربعة ، بعد أن كان الفقهاء لا يمكن عدّهم في جميع العصور الماضية ؟

الإجماع الذي هو حجة معروف في كتب الاصول أنه اتفاق جميع مجتهدي عصر من العصور على حكم شرعي ظني ، وليس يعنينا الآن أن نبين إمكانه واستحالته ، وإمكان نقله وعدم إمكانه ، فهذا لا يدخل في بحثنا الآن ، ولكن نذكر شيئاً واحداً وهو أن محققي العلماء يرون استحالة الإجماع ونقله بعد القرون الثلاثة الاولى نظراً لتفرق العلماء في مشارق الأرض ومغاربها ، واستحالة الإحاطة بهم وبآرائهم عادة ، وهذا رأي واضح كل الوضوح لا يصح لعاقل أن ينازع فيه .

وإذا كان هذا واضحاً بالنسبة لإجماع المجتهدين – وهم أقل عدداً بلا ريب من المحققين – فكيف عرف إجماع المحققين على منع تقليد أعيان الصحابة ؟ وكيف أمكن نقل هذا الإجماع ؟

ولندل على رأي الأئمة في الإجماع ، نثبت هنا ما قاله الإمامان الجليلان الشافعي وأحمد رضي الله عنهما ، قال الشافعي في الرسالة : ما لا يعلم فيه خلاف فليس بإجماع . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : سمعت أبي يقول ما يدعي فيه الرجل الإجماع فهو كذب ، من ادعى الإجماع فهو كاذب ، لعل الناس اختلفوا ، ما يدريه ولم ينته إليه ؟ فليقل : لا نعلم الناس اختلفوا .

هذا ونصوص رسول الله ﷺ أجل عند العلماء من أن يقدموا عليها توهم إجماع مضمونه عدم العلم بالمخالف ، ولو ساغ ذلك لتعطلت النصوص ، وساغ لكل من لم يعلم خلافاً في حكم مسألة أن يقدم جهله بالمخالف على النصوص .

ولكن ضعفاء الأحلام ، ومن لم ينضج عليهم صاروا يدعون الإجماع عند عدم

العلم بالمخالف قبل البحث عنه ، ولم يكف الناس ما هم فيه من شر ادعاء الإجماع كذباً حتى زادوا لهم شيئاً مما سموه إجماع المحققين .

والخلاصة أنه يجوز تقليد غير الأئمة الأربعة متى صح النقل عنهم ، وفهم مرادهم . وسنثبت في فصل آخر إمكان صحة النقل عن غير الأئمة الأربعة ، ومما ينبغي الإشارة إلى فساده ما قاله صاحب الأشباه ، وهو : « الخامس مما لا ينفذ القضاء به ما إذا قضى بشيء مخالف للإجماع وهو ظاهر ، وما خالف الأئمة الأربعة مخالف للإجماع ، وإن كان فيه خلاف لغيره ، فقد صرح في التحرير أن الإجماع انعقد على عدم العمل بمذهب مخالف للأربعة لانضباط مذاهبهم ، وانتشارها ، وكثرة أتباعهم » فإن هذا مبني على اعتبار حصول الإجماع ، وهو غير صحيح ، لأن الذي حصل هو قول ابن الصلاح بالمنع بناء على إجماع المحققين ، وقد عرف ما في هذا كله من الفساد .

مصادر الأحكام الاجتهادية
عند الامامية

للعلامة الاستاذ الشيخ محمد علي ناصر
من علماء لبنان الجنوبي

الاجتهاد في الشريعة الاسلامية ، هو منهاج الحياة والتعامل ، فإذا أخصب واديه أنبت نباته الحسن ، وعلم من لم يكن يعلم أي قوة تكمن في هذه الشريعة الغراء ، ومن الخير للامة أن تعلم كل طائفة ما عند الاخرى من الفقه والعلم ، لذلك ننشر ما نراه حقيقاً بالنشر غير ناظرين إلى مذهب كاتبه ، وهذا بحث أوحى به قول الدكتور أحمد أمين بك في مقال له :

« وكان علماء الفرس – يعني الإمامية – أوسع صدراً في هذا ، وأكثر قبولاً لنظرية الاجتهاد لولا أنهم أكثروا من شروط هذا بما يساوي الاجتهاد المقيد » . وبعد هذا البحث تعقيب للتحرير على بعض ما جاء فيه : (التحرير)

للأحكام الشرعية – عند الإمامية – اسس تبتنى عليها ، وينابيع تستقى منها ، لا تبتنى على غيرها ، ولا تستقى من سواها . وهي : «الكتاب» و «السنة»

« وما يرجع إليهما أو إلى أحدهما » فكل حكم بني على هذين الأساسين،أو استقى من هذين الينبوعين مباشرة أو بواسطة الحاكي عنهما أو عن أحدهما، بكشفه عنه بأحد طرق الكشف المعتبرة عقلاً أو شرعاً ، فهو حكم الله الذي لا مرد له ، وغير معذور من خالفه ونبذه ، وأما ما لم يبن عليهما ويستقى منهما من الأحكام ولو بالواسطة فهو عندهم من زخرف القول وباطله ، ومن البدع التي هي ضلالة في الدين ، وتنكب عن نهج المسلمين .

لذلك كانت مصادر الأحكام الاجتهادية عندهم أربعة : الكتاب ، السنة ، الإجماع ، العقل ، والأخيران حجيتهما باعتبار حكايتهما عن الأولين . ولذا لا يعتبران إلا في حالة الكشف عنهما ، أو عن أحدهما بكشف معتبر ، وإلا فلا حجية لهما بوجه : وما كان لمسلم مهما بلغ من رقي فكري، ومقدرة علمية ومكانة دينية ، أن يشرع في الدين من تلقاء نفسه ، باستحسان عقلي ، أو بقياس ظني ، أو بوجه في الرأي ، لا يمت إلى الكتاب والسنة بصلة وإن بعدت ، فإنه يكون مصداقاً لقوله تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون — الظالمون — الفاسقون » على ما جاء في الآيات الثلاث ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ من سورة المائدة، وإذن لتعددت الأحكام، ولم يبق لقوله ﷺ، لسان صدق ، ولا معنى حق ، فإنها على هذا الفرض ، تختلف باختلاف الآراء ، وباختلاف المناسبات ، وباختلاف المقتضيات الزمنية ، وتتجدد كما يتجدد اولئك جميعاً ، فالاجتهاد عندهم — وهو ملكة علمية يقتدر معها على استنباط الحكم الشرعي — إنما يكون حجة على الحكم الاجتهادي، ومصدراً شرعياً له ، فيما إذا بنيت أحكامه على أساس الكتاب والسنة ، ولو كان ذلك أصلاً عملياً عقلياً أمضاه المشرع ، أو أصلاً شرعياً وقاعدة عملية عامة مثل قوله ﷺ : كل شيء لك حلال حتى تعلم أنه حرام بعينه،في حال الاشتباه في حلّية شيء أو حرمته، ومثل قوله ﷺ : رفع عن امتي تسعة أشياء : الخطأ والنسيان ، وما اكرهوا عليه ، وما لا يطيقون ، وما لا يعلمون ، وما اضطروا اليه ، والحسد ، والطيرة ، والتفكر في

الوسوسة بأمر الخلق ما لم ينطق بسفه ، ومثل قاعدة (العسر والحرج) المستقاة من قوله تعالى : « ما جعل عليكم في الدين من حرج » « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، وقاعدة : (لا ضرر ولا ضرار في الاسلام) ، ومثل قاعدة : (من ملك شيئاً ملك الاقرار به) ، وقاعدة : (اليد أمارة الملكية) ، ومثل قاعدة: (على اليد ما أخذت حتى تؤدي) الى غير ذلك من القواعد الكثيرة العامة ، التي جمعت فأوعت ما يحتاج اليه الانسان في أفعاله ومعاملاته ، حاضراً ومتجدداً ، فإنه لم تجد لحادثة حكماً في الكتاب فإنك تجده في السنة التي هي أوسع بسطاً وأوفر جمعاً للأحكام ، وحيث إن الامور الكلية ، هي أفسح افقاً ، وأكثر شمولاً للأفراد ، وضع المشرع الأقدس قواعد عامة بنحو القضايا الحقيقية ، التي يحكم فيها على الحقيقة السارية في عموم الأفراد ، محققة أو مفترضة ، لا خصوص المحقق منها ، لتماشي شريعته تطور الحياة وتساير مختلف الحضارات ، ولتعالج كل مشكلة في حكم التشريع الاسلامي ، فلا تدع موضوعاً بلا حكم ، ولا مشكلة بلا حل ، سواء كان الموضوع في الموضوعات القديمة أو الحديثة ، مثل مخترعات القرن العشرين أو ما يخترع فيما بعد ، فالاجتهاد عند الامامية تنحصر حجيته ومصدريته للأحكام بتلك المصادر التي أفصحنا عنها . ويتقيد بها كما يتقيد بمؤهلات اخر من علم بالكتاب والسنة ، وعلم باللغة ، وعلم بالقواعد العربية وما إلى ذلك ، وإن كان مطلقاً في سوى ذلك ، فلا يتقيد بمذهب من المذاهب ولا برأي من الآراء ، بل هو فوق المذاهب والآراء ، يصدر به صاحبه عن نظره وخبرته ومقدرته العلمية فحسب . وهو بهذا النحو من الإطلاق مع تلك القواعد العامة بعمومها الواسع – كافٍ وافٍ – بمعالجة مشاكل المسلمين التي تعرض لهم في تطور حياتهم ، وظروفها المختلفة من حيث الحكم التشريعي ، بلا حاجة إلى الأخذ بنظام (اوربي) جديد (أو نحو فقه جديد) أو اللجوء إلى حرية الاجتهاد وإطلاقه حتى من الكتاب والسنة ، فللمجتهد أن يجتهد برأيه ولو كان مستمداً من قياس ظني ، أو امور استحسانية كما كان يفعله أبو حنيفة ، ومن حذا حذوه من علماء المسلمين .

ولقد اطلعت على مقال الدكتور أحمد أمين بك في العدد الثاني من السنة الثالثة من رسالة الاسلام بعنوان (الاجتهاد في نظر الاسلام) يدعو فيه إلى فتح باب هذا الاجتهاد بحريته الواسعة، ويدّعي أن به تحل مشاكل المسلمين، قال في ص١٤٦ (والذي يحل مشاكلنا ، هو فتح باب الاجتهاد ، بعد أن أغلقه العلماء . ثم قال: فالاجتهاد الذي نريده ، هو الاجتهاد المطلق لا الاجتهاد في المذهب ، فهو يشمل كل شيء حتى في تقييد النص ووقف العمل به متى استوفى المجتهد شروط الاجتهاد المبينة في كتب اصول الفقه) ثم قال في ص١٤٧ : (وإمامنا في ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذكر عنه أحكاماً مصدرها ذلك الاجتهاد ، منها : عدم إعطاء المؤلفة قلوبهم سهمهم من الزكاة ، لأنه أدار الحكم على العلة وجوداً وعدماً لعدم حاجة الإسلام إلى تأليف القلوب لكثرة من دخل فيه ، لذلك وقف إعطاءهم الزكاة ، ومنها: حكمه بوقوع الطلاق ثلاثاً ممن حلف بالطلاق ثلاثاً. مع أن القرآن يقول : الطلاق مرتان .. والطلاق الثلاث مرة من المرتين ، ولكن لما رأى إكثار الناس من الحلف بالطلاق أدبهم بذلك، ومنها : حكمه برفع حد المسلم حدّ الشرب ، لما رآه يؤدي إلى تنصره والتحاقه بالقسطنطينية ، ومنها: حكمه برفع حد السرقة عن مسلم سرق في أيام المجاعة ، وإلزام قبيلته بدفع ثمن الناقة ، لأنهم أجاعوه فسرق. ثم قال: فكان كما قلت يدير الحكم على حسب العلة، فإذا لم تتحقق العلة لم يحقق المعلول . ثم نقل عن رئيس جماعة الشورى في الأندلس أنه حكم على عبد الرحمن الناصر إذ واقع زوجته في شهر رمضان ، بصيام شهرين متتابعين تعييناً مخالفاً ترتيب خصال الكفارة لأنه أمير وغني ، ومن السهل عليه تحرير رقبة ، فلا بد له من عقوبة رادعة ، وهي الحكم عليه بصيام ستين يوماً بدل يومه الذي أفطره ، تحقيقاً لمقصد الشريعة : وهو في باب الاستناد إلى ذلك الاجتهاد ، ثم قال : فالاجتهاد الذي نريده من هذا القبيل ، فإذا جد للمسلمين موقف، درس موقفهم بعينين ، احداهما : مقاصد الشريعة الكلية : والاخرى موقف المسلمين

الحاضر ، وفي كل عصر نجد مسائل تحتاج إلى هذا الاجتهاد ، بدليل ما كان يرد على المرحوم الشيخ محمد عبده من مسائل جديدة يطلب أصحابها الفتوى الإسلامية فيها : مثل ذبيحة أهل الكتاب ، ولبس القبعة إذا اضطر الناس اليها ، ونحو ذلك في الأقضية التي تجد في العالم الذي هو في تطور مستمر ، فكل يوم تظهر أحداث تتطلب أحكاماً شرعية ، فما لم تقابل بالاجتهاد العاجل ومجابهة الموقف ، أصيب المسلمون بالحرج ثم قال : وكان علماء الفرس – يعني الإمامية – أوسع صدراً في هذا ، وأكثر قبولاً لنظرية الاجتهاد لولا أنهم أكثروا من شروط هذا بما يساوي الاجتهاد المقيد ، ونحن نريد الاجتهاد المطلق .

أقول : لقد أحسن الدكتور كثيراً في الدعوة إلى فتح باب الاجتهاد ، فإنه الوسيلة الوحيدة لبقاء الشريعة الإسلامية ، واستقائها من ينابيعها بعد فقد المشرع وحافظ شرعه ، وهو واجب بنحو الوجوب الكفائي على عامة المسلمين ، لحفظ تلك الأحكام التي لا يسوغ للمسلمين إهمالها وتركها في معرض الزوال والاضمحلال على أن سد باب الاجتهاد معناه الحجر على العقول والأفهام أن تعرف حكم الله بالنظر والدليل ، وهو خلاف مذاق الشرع الإسلامي الذي بني على منطق العقل وحض على النظر والاعتبار ، وخلاف حكمة تشريع الأحكام التي هي العمل بها فإن العمل بالأحكام فرع معرفتها ، وإذا جاز لأحد من الناس ولو كان صحابياً ، أن يجتهد برأيه في الأحكام ، فإن غيره يساويه في ذلك إذا حوى مؤهلات الإجتهاد ، بلا فرق ولا امتياز ، على أن العقول والأفهام في تطور وتفاضل فربما كان غير الصحابي أرقى فكراً ، وأحد ذهناً ، وأذكى قلباً ، وأصوب نظراً منه ، فكيف يرخص له بالاجتهاد دون غيره ، لكن على شريطة أن لا يكون للاجتهاد في الحرية ما لا يتقيد معها بكتاب ولا بسنة ، حتى يفسح المجال لدعوى الاجتهاد في الكثير من الناس ، وتحدث الفوضى التي توجب سد باب الاجتهاد حفظاً للشريعة من أن تكون في مهب الأهواء والآراء .

ولكن يؤخذ على الدكتور في كلامه مآخذ :

منها : أنه يدعو إلى فتح باب الاجتهاد المطلق بنحو لا يتقيد بحكم الكتاب والسنة ، كما يفهم ذلك من قوله : « فالاجتهاد الذي نريده من هذا القبيل ، بعد ذكر الأحكام التي صدر بها عمر بن الخطاب عن اجتهاده الحر الذي لم يبن على الكتاب ولا السنة ، وإنما بني على الاستحسان العقلي ، أو العلة المستنبطة بالظن ، ومثل هذا الاجتهاد لا يكون حجة ولا مصدراً للأحكام الشرعية التي هي توقيفية لا يجوز أن يتعدى بها حدود ما أنزل الله (أما الحكم الأول) فإن المؤلفة قلوبهم ليسوا محصورين بالكفار الذين يستمالون للجهاد ، بل أعم منهم ومن المسلمين الذين في نياتهم ضعف ، وكان منهم أبو سفيان ، والأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصين ونظائرهم ، وكانوا مسلمين يومئذ ، وقد جعلهم الشافعي أربعة أقسام : قوم لهم نظراء ، فإذا أعطوا رغب نظراؤهم ، وقوم في نياتهم ضعف ، فيعطون لتقوى نياتهم ، وقوم بأطراف بلاد الإسلام اولو قوة بمن يليهم من الكفار إذا اعطوا منعوا الكفار من الهجوم على المسلمين ، وقوم جاوروا قوماً وجبت عليهم الزكاة إذا اعطوا منها جبوها للإمام بلا حاجة إلى عامل . وإن كان الصحيح أن المؤلفة قلوبهم قسمان : كفار استميلوا بالزكاة للجهاد ، ومسلمون في نياتهم ضعف . هذا معنى المؤلفة قلوبهم الذي هو موضوع الحكم ، وأما الحكم أعني فرض سهم لهم ووجوبه ، فبقاؤه ، وإن كان محل خلاف بين العلماء ، ولكنه الحق بقاؤه لإطلاق الآية وظهور الحكم في الاستمرار الزماني ، ووقف العمل به عبارة عن نسخه وقطع استمراره ، وهو لا يجوز إلا بسند شرعي معتبر ، أما ما ذكره من دوران الحكم مدار العلة وجوداً وعدماً ، وحيث انتفت العلة وهي الحاجة الى التأليف لكثرة من دخل في الإسلام فينتفي معلولها ، وهو الحكم فيؤخذ عليه :

أولاً : أن ظاهر أخذ وصف في موضوع حكم ، دخالته نفسه في الحكم وعليته له لا شيء آخر ، فظاهر قوله تعالى : « والمؤلفة قلوبهم » أن التأليف علة الحكم لا الحاجة الى التأليف ، ولا هو في ظرف الحاجة ، فالعلة باقية فيجب بقاء الحكم .

وثانياً : لو سلم ذلك فإن انتفاء العلة ممنوع ، إذ المؤلفة قلوبهم غير محصورين بمن يؤلفون لحاجة الجهاد حتى يقال لسنا بحاجة اليهم لكثرة من دخل في الإسلام بل الحاجة إلى التأليف لتقوية نيـــات ضعفاء المسلمين وتثبيتهم ، إذ لا خير في إسلام بلا يقين ، وهم موجودون في كل زمان، فلا وجه لانتفاء الحكم مع وجود علته ، ولو اريد انتفـــاء العلة حتى بالنسبة لضعفاء المسلمين لكثرة من دخل في الإسلام ، فان ذلك من الغرابة بمكان ، فان الخليفة الثاني عند نسخه هـــذا الحكم لم يكن للاسلام هذه الكثرة المفرطة حتى لا يبالي بمن ثبت ومن لم يثبت، على أنه ليس من الحكمة عـدم المبالاة بمثل هؤلاء الضعفاء ممن يريد لو استطاع أن يجمع الناس جميعاً تحت راية الإسلام ، ويثبتهم على مبادئه .

وثالثاً : أنه لو حصرنا العلة بالحاجة إلى الجهاد فإنا نمنع انتفاء الحكم : ذلك لأن علل الشرع ومقاصده من قبيل الدخيل في مقتضى الحكم وعلته التـامة إذ هي علل غائية له ، فقد يتوقف على شرط غيرها ، وقـد يمنع من تأثيره مانع ، فلا يمكن ــ والحالة هذه ــ استكشاف حكم منها وجوداً أو عدماً ، إلا فيما علم بنحو الجزم أن المقصد من قبيل الغاية المنحصرة ، وأنها مع إرادة المشرع (سبب كاف) لتشريع الحكم ، وهنا لم يعلم أن التأليف ولو من جهـــة الحاجة اليه كذلك ، لجواز أن يكون للمشرع للحكم مقصد آخر لم نطلع عليه ، وعدم العلم بالوجود لا ينفي الوجود ، فلا وجه لانتفـــاء الحكم إلا الاستنباط الظني وهو لا يغني عن الحق شيئاً ، مع أنا قـــد نحتاج الى الجهاد وإلى التأليف من أجله ، خصوصاً في الظروف العصيبة التي يمنى بها المسلمون على مر العصور ، (وأما الأحكام البقية) فهي صريحة المخالفة للكتاب ، ولا وجه لهـــا لأنها في قبال النص الصريح ، فهل يجوز مثل هـــذا الاجتهاد اقتداء بالخليفة الثـاني وباجتهاده (الحر) ، وأما ما قـاله في ص ١٤٨ من أن الإسلام مرن بطبعه يتحمل مثل ذلك ، فقد جعل الاجتهاد مصدراً من مصادر الشريعة ، وأباح النبي ﷺ لمعاذ ابن جبل أن يجتهد برأيه ، فيؤخذ عليه أن فيما قاله النبي ﷺ لمعاذ عندما أراد

إرساله قاضياً إلى اليمن روايتين : إحداهما : أنه قال له عندما سأله : بمَ تحكم ؟ قال : بما في كتاب الله . قال : فإن لم تجد فيه ، قال : بما في السنة، قال : فإن لم تجد فيها ، قال : أجتهد برأيي ، فقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسوله لما يحبه الله ورسوله . والاخرى : أنه قال له بعد قوله أجتهد برأيي : لا ، ابعثْ إليّ أبعثْ اليك . فالاولى معارضة بالثانية ، فلا حجية بها : مضافاً الى أننا لو سلمنا الرواية الاولى ، فان مراد معاذ من الاجتهاد الذي أقره عليه النبي ﷺ إنما هو ما كان يصدر به عن الكتاب والسنة استنباطاً بالاجتهاد أو عما يرجع اليها أو الى أحدهما ، والمراد من قوله ﷺ : فإن لم تجد في الكتاب أو في السنة ، يعني صراحة ونصاً بلا حاجة الى إعمال فكر أو مشقة اجتهاد ، فليس المراد بالاجتهاد الذي أقره النبي إلا ما يصلح بنظر الشريعة أن يكون حجة على الحكم لا مطلق الاجتهاد ولو كان بقياس ظني أو علة مستنبطة بالظن ، كيف والآيات الناهية عن الحكم بغير ما أنزل الله بمرأى من المسلمين جميعاً ومسمع ، فضلا عمن انزلت عليه ، فلا وجه لجعل مثل هذا الاجتهاد مصدر تشريع بين المسلمين،لذلك قيّد الإمامية الاجتهاد بمصادر لا تخرج عن دائرة الكتاب والسنة . وفي ذلك غنى وكفاية .

رسالة الاسلام :

من المعلوم أن النص على مصارف الزكاة في الآية لا يدل على وجوب وجودها جميعاً واستمرارها في كل زمان ، ولكن إذا وجدت هذه الأصناف الثمانية، كان الكل منها نصيبه من الزكاة ، وإذا وجد بعضها كان هو المستحق ، وليس على الإمام ولا المؤمنين أن يعملوا على إبقاء الأصناف الثمانية بحيث لا ينقرض منهم صنف ، بل ليس ذلك في قدرتهم .

إذا تبين هذا ، فالقضية التي قضى فيها عمر رضي الله عنه ، ليست هي حرمان المؤلفة قلوبهم مع وجودهم ، ولكن هي عدم الاعتراف بوجودهم وجوداً

معتبراً فيه هذا الوصف الذي هو التأليف، إذ التأليف فعل مصلحي يقدر الإمام الحاجة اليه فيفعله، أو عدم الحاجة اليه فيتركه، فإذا فعله كان ذلك منه اعترافاً بوجود هـذا الصنف من المستحقين، وكان عليه أن يعطيهم حقهم ونصيبهم في الزكاة، وإذا لم يفعله لأنه لم يرَ داعياً الى فعله كان ذلك منه حكماً بعدم وجود هذا الصنف فيؤول نصيبه الى باقي الأصناف، وهذا ما أراده عمر، فهو لم يحرم قوماً نص القرآن على إعطائهم حتى يقال إنه نسخ حكماً قرآنياً وإنما أعلن الامة أنه ليس فيها على عهده من يسمى « مؤلفاً قلبه » لأن التأليف لا يكون إلا حيث يشعر الإمام بحاجة الإسلام اليه ولا حاجة الآن في نظره، فليس هنـاك تأليف، ومن ثم فليس هناك مؤلفة قلوبهم.

ويوضح ذلك أنـه لا يوجد الآن رق، فالصنف الخامس من الأصناف التي نصت عليها الآية (وفي الرقاب) غير موجود، فلا يقال إن الإمام الذي حكم بمنع الرق فامتنع تبعاً لذلك إعطاء أحد نصيباً من الزكاة باسم الرق، قـد نسخ حكماً قرآنياً بإعطاء مستحق، وإنمـا الأمر أمر انعدام صنف من الأصناف، فإذا أراد أحد أن يناقش عمر في حاجة الإسلام إلى التأليف حينذاك أو عدم حاجته إليه، فهذا موضوع آخر هو محل الاجتهاد ولا علاقة له بوضع النص.

ويقول الاستاذ الكاتب بعـد ذلك: « وأما الأحكام الباقية فهي صريحة المخالفة للكتاب، ولا وجه لها لأنها في قبالة النص الصريح ».

ونقول له: أما في مسألة الطلاق الثلاث، فإن الأمر قد اشتبه على كثير من المتكلمين في هـذا الموضوع، فالذين ينقدون صنيع عمر يقولون: كيف جاز له أن يخالف نص القرآن في قوله تعالى: «الطلاق مرتان» وما كان على عهد الرسول ﷺ من أنه إذا قـال الرجل لزوجته أنت طالق ثلاثاً عدت واحدة؟ كيف يجعلها عمر ثلاثاً؟ وهل غاب عنه أنّ تَجعُّل الألفاظ والصيغ سبباً في كذا، إنما هو حكم وضعي ليس لأحد أن يجتهد فيه أو يبدله؟

ولكن الحقيقة أن عمر لم يتعرض لوقوع الطلاق ثلاثاً، ولم يعارض حكم الله

أو حكم رسوله وحاشاه ، ولكنه أخرج الأمر على غير هذا ، فرأى أن الرجل إذا قال لزوجته أنت طالق ثلاثاً في لفظ واحد ، كان ذلك سبباً في وقوع طلقة واحدة ، ومعنى هذا أنه يحق له مراجعتها بعد هذا القول ، فهو قد جاء إلى هذا الحق فعاقب الناس على استعجالهم فيما كانت لهم فيه أناة بسلبهم إياه وحرمانهم منه ، وللإمام أن يعاقب بالحرمان من بعض المباحات إذا وجد مصلحة في ذلك ، كما تفعل الحكومات الآن في « منع التجول » بالليل مثلاً لظروف تقضي بذلك ، مع أن التجول في ذاته مباح ، فالخلاصة أن عمر لم يجعل الصيغة سبباً في وقوع ثلاث طلقات ، بينما جعلها الشارع سبباً في وقوع طلقة واحدة ، وإنما رأى أن يعاقب من يفعل ذلك – وهو مخالف للسنة – بحرمانه من حق له هو الرجعة ، بمقتضى ما له من الهيمنة والسلطان ، لا بمقتضى التشريع ومعارضة النص .

وأما عدم حده رضي الله عنه للمسلم الذي شرب ، لما رأى الحد يؤدي إلى تنصره والتحاقه بالقسطنطينية ، وعدم حده السارق في عام المجاعة ، فالأمر فيهما يسير ، فالأول تأجيل للحد لا إلغاء له ، والثاني اعتبار للضرورة التي تبيح الإقدام على المحرم كأكل الميتة للمضطر .

الاجتهاد والنص

للباحث الأديب الاستاذ
صدر الدين شرف الدين — لبنان

كتاب «الاجتهاد والنص» ثمرة من ثمرات الشجرة الطيبة المباركة التي غرست ونمت وأينعت تحت شمس الإسلام الساطعة ، وأفاءت على الدنيا ظلالاً وارفة من العلم والعمل والغيرة والوفاء ، نعني بها المغفور له السيد العلامة الأكبر الشيخ شرف الدين الموسوي الذي اختاره الله إلى جواره في أوائل العام الماضي .

وهذه كلمة بقلم ابنه الأديب يصور بها بعض انطباعاته عن أبيه العظيم ، وعن كتابه القيم . [التحرير]

١ — تابعت هذا الكتاب الجليل في تنزلاته ، وشاهدت بناءه المحكم وهو ينمو ويتكامل رويداً رويداً في أناة الإبداع ، ومهل التجويد ، وإعادة النظر .

كنت أدخل على مؤلفه الخالد في ساعات المخاض ، فأجده مندمجاً بالموضوع ، يحيي الفكرة تأملاً ، ويفرغها همهمة ، فإذا استقام له القالب — فنهض ، في فنه الذواق ، بالمحتوى — أملاه على كاتبه تخطيطاً يعود اليه غير مرة قبل وضعه بصيغة

نهائية ، ولا يفرغ منه إلا إذا تناغم في سمعه أداء وإيقاعاً ، وتماسك في يده نسجاً وتحابكاً ، وانسجم في عينه خطاً ولوناً .

كانت الكلمة عند أبي حاسة سادسة لا يرضيه منها إلا أن تجمع إلى شروط الصحة مقاييس الجمال ، وفضيلة الوضوح .

وإني لأراه محاطاً بكتل من المراجع بعضها مفتوح المصاريع ، وبعضها قد كفاه على وجهه ، وهو يقرأ في أحدها ملصقاً بوجهه ، وقد ضيق يسرى عينيه وأغمض اليمنى ، ثم ملقياً كتابه وماشطاً كريمته بأصابعه يستعين على التأمل سابح النظر في أجواء عليا، وعوالم خفية ، فلو كلمته خلال استلهامه لما سمعك، أو لما وعى عنك ما تريد .

ولم تكن شيخوخته المحملة بالأثقال الجسام إلا شابة العقل ، فتية الهمة ، لا تضعفها السن عن الغوص والتحليق ، ولا تلهيها مسئولياته العامـة المعقدة عن ميدان الفكر كما لو تخصص له وانفرد به ، فقد كان مجلسه هذا بين الكتب في آخر أيامه هو مجلسه للناس يقضي فيهم ، ويحل مشكلاتهم ، بالمعهود من بشره وبشاشته ودقة موازينه ، فإذا فرغ من حاجات المراجعين عاد إلى موضوعه فتابع خطواته من حيث أوقفها ، وما أكثر ما يوقفها في غير موقف ، كانت ذاكرته غاية في ضبط الاختزان ودقة التسجيل .

٢ ـ كثيراً ما كان ـ نضر الله وجهه ـ يأمرني بمناقشة ما يجهز من آثاره ، ولعله كان يبعثني بهذه المشاركة على الفهم،ويدفعني إلى التركيز الذهني، ولم يكن عليّ بالتشجيع إذا أنس بي حسن الالتفات ، أو سلامة النظر .

قال لي مرة ـ وهذا الجزء من الكتاب موشك على التمام ـ : « ستكون مقدمة هـذا الكتاب بقلمك يا بني ، إني أحب أن تضعه في إطاره من سلامة القصد وخدمة الفكر ، فإن محركات البحث الحقيقية في هذا المضمار قد تخفى

على كثير من القراء ، وقد يحورها كثير من ذوي الأغراض فيرسلوها في المدار الخطر على وحدة الامة وألفة قلوبها » .

ثم أعاد أمري بوضع المقدمة المطلوبة مرات عديدة بعد هذا القول ، حتى هممت بالأمر ، فتأملت الموضوع ، ورسمت تصميمه ، ولخصت مضمونه ذات أمسية بشرح شفهي أرضى أبي يوم ذاك وأعجبه ، ثم حيل بيني وبين المقدمة بخطوب وأرزاء كان آلمها فجيعتنا بفقده أثناء محنة لم يبق في لبنان شبر لم يثخن به فسادها ، إذ تعرضت البلاد لأزمات في الأخلاق والاقتصاد والسياسة لا يعرف التاريخ نظيرها في السوء والشر ، ولا يهمنا من أمر هذا الفساد في هذا الصدد إلا ما يظهر فداحة الخسارة بفقد المؤلف في ضوء اشتداد الحاجة إلى أمثاله من الزعماء والقادة الحقيقيين .. الزعماء الذين تتجه اليهم الآمال والقلوب أيام الفزع.

٣ ـ وبعد أعوام ثلاثة خرجت من السجن فلم أجد أبي واحسرتاه ، ولكني وجدت الكتاب مطبوعاً يتقدمه بحث غني أصيل بقلم العلامة السيد محمد تقي الحكيم ووجدت في بحث العلامة الحكيم المنهجي إشباعاً للقول يدنيني الى الفضول والتطفل إذا حاولت العودة الى وضع « الكتاب في إطاره من سلامة القصد وخدمة الفكر » ، فقد أوضح الاستاذ الحكيم ـ في نصاعة وإشراق ـ أسس الكتاب ومبادئه في مدارها العلمي ، ومجراها الإسلامي ، ومع تعمق ما جاء في البحث لا مجال لافتئات ، ولا لسوء فهم ، غير أني مدين لأبي بوصايا يأمرني البر والوفاء بتنفيذ السهل منها إذا تعذر الصعب ، فإن وفقت في هذه الكلمة الى قول غير معاد كانت خدمة ، وإلا فحسبي قضاء فرض ، وتسديد قسط مستطاع من ديون كثيرة .

٤ ـ « النص والاجتهاد » مصطلحان من مصطلحات الفقه الإسلامي ، تولى الاستاذ الحكيم شرحها في ضوء « الاصول » شرحاً كافياً ، وهما ـ في جملة القول ـ أساسان للفصل بالأحكام نقلاً واستنباطاً ، فالنص ـ ويشمل الكتاب

والسنة من الأدلة – مركز أساسي لا يصح تجاوزه فيما قدم من أحكام وحلول صريحة في مختلف الوقائع والقضايا ، سواء في هذا ما كان عقدياً أو « عبادياً » أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو غير هذه الوجوه من وجوه النشاط الإنساني، والاجتهاد ينطلق من المركز الأساسي بوعي المسلمات والقواعد الى الحكم على ما سكت عنه النص أو أجمله أو أطلقه أو عدله أو عدل عنه ، ومعنى هذا أن الاجتهاد إنما يكون اجتهاداً بعد تسليحه بأدواته ووسائله العلمية ماشياً في طول النص – كما يعبر الفقهاء – دائراً في مجراه ، وإلا كان في « عرضه » بدعة وخروجاً ، ولكي يكون الرأي في عرف ما سليماً يجب أن تدعمه مبادىء هذا العرف وأنظمته التحتية .

هذه هي المشكلة التي يثيرها اسم الكتاب في عنوان موضوعه ، أما الدافع الى إثارة هذه المشكلة فهو ما أحصاه المؤلف أثناء تتبعه الواسع من اجتهادات – إن صح التعبير – لأجلاء من الصحابة والتابعين تخالف الاصول المتبعة للاجتهاد أو العمل بالرأي .

٥ – يحسن في هذا الموقع من كلامنا أن نطرح السؤال التالي :

أية فائدة تترتب على إحياء مشكلة فكرية مضى زمانها ؟ ألا يجر إحياؤها فتنة تؤخر المرحلة في موعد تقدمها ، وتفرق الكلمة في ملتقى تجمعها ؟

السؤال وجيه إذا سمحنا للحذر المحموم أن يسيطر على أفكارنا متسللاً اليها من قلق الحياة العامة بالشكوك والأوهام ، أما إذا قيس بالمعايير الموضوعية الثابتة فيترجم بالوجه الآتي : أية فائدة تترتب على الاهتمام بالفقه واصوله ؟ وهو سؤال إن زاد معناه على الافكوهة كان تحيفاً على الواقع ، وإزاحة لموضوع فكري خطير عن مكانه الراسخ في حياتنا القائمة ، فتقويم الاجتهاد وضبط موارد استخدامه عمل فكري قيم في ذاته ، وهو أكبر قيمة بمعطياته التطبيقية في تتبع مجراه ابتداء من دور التأسيس الى أدوار التعقيد انتهاء ، من طريقه

الصاعد بين مختلف الحاجات والمشاكل والتيارات في سير دقيق مرن كثيراً ما يختلط طرفاه فيلتبس إبداع الاجتهاد ببدعة الاعوجاج ، وقد امتحنت بالخبط بينها فمــلا فرق كثيرة في فيض النشاط العقلي ، متحركة من يوم الناكثين والمارقين الى العصر الذهبي العباسي من القرون الوسطى .

ثم لا تنحصر أهميــة هذا البحث في حدود المنهج التاريخي ، بل تتعداه الى منهجي العلم والعمل المرتبطين بنظامنا التحقي الذي هو الإسلام ، وهو مــا يزال قــائماً بحمد الله ، فالنص وتحديد الموقف الاجتهادي منه ليسا من « العاديات » الأثرية ، ولا من اللغات البائدة ، وإنما هما أساس يرتفع فوقه بحركة حيــة واقع الملايين ... عشرات الملايين من المسلمين ، وتدور على قطبه حيــاتهم في فلكها الأوسع .

النص: موضع « الثبات » في الفقه الإسلامي، والاجتهاد : مسلحاً بقواعده العقلية يعوض عن قانون التحول إن لم يكنه ، ولكي لا يشكل « الثبات » جموداً يعيق التطور كان الاجتهاد ، وكانت مهمته تليين النص وتطويعه للحياة ، ومدّه في المرتقى الحضاري ، لا إلغاءه أو الانحراف عنه ، لأن إلغاء النص والانحراف عنه يفضيان الى نسخ القواعد الثابتة ،وابتداع شريعة جديدة غريبة عنا لا تستند الى فلسفتنا ، ولا تخرج من خصائصنا وعرفنا .

وبهذا يتضح أن إثارة هــذه المشكلة في متجه الوعي الحديث تعتبر خطوة أمامية تستحث الطبقة المختصة من العلماء المسلمين على الانبعاث من هــذا الأصل بروح الإسلام السمح الى تحديد موقفنــا من جملة القضايا الجديدة على نحو يثبت شخصيتنا الإسلامية الخاصة بين التيارات الحديثة الغازية .

وليس من الرجعية في شيء الرجوع في تحديد مفهوم الاجتهاد إلى مناقشة السلوك الاجتهادي في الصدر الأول ، وإنما هو الحرية المساعدة على تصحيح هذا

المفهوم وفق الرأي الأصوب في مصدره ، وتيسيره مستقيماً للارتقاء بـه ومنه في يومنا الحاضر ، أما ما يخشى فهمه من الاجترار الطائفي العفن فلا يسبق إلا إلى أذهان الجامدين والمرضى والمجرورين بحروف الاستعمار ، فالواعون من العرب والمسلمين ، المنادون بالوحدة هنا وهناك ، تحرروا من عصبيات التاريخ ، وعادوا امة واحدة ، فهم لا يرون التاريخ إلا من زاويته العلمية بوصفه اختباراً يقدم لهم التجارب من ماضيهم ، ليفيدوا من حسناته إيجاباً ، ومن مساوئه سلباً في بناء الحاضر والمستقبل ، أما أحداثه التي كانت تفصل قمصان عثمان ، وتستخرج منها تيارات عاطفية تلبسها لباس العقائد والأفكار فقد مضت مع مراحلها ، ومن عرض لها الآن منا فإنما يقصد إلى تحقيق تاريخي يعرف بسيرنا في مراحل الصراع في سبيل إصلاح الخطأ ، لا لتعميقه ، وفي سبيل حصر هـــذا الإصلاح في الحاضر ، وإنمائه في المستقبل لا في ماض انقضى فلا سبيل إلى عودته .

إن ما أحرزه العرب والمسلمون من الإدراك والرشد يكافىء تقدم المرحلة أو يكاد ، وهي درجة من اتساع الذهن تكفي لتدارس هـــذه المشكلة بروح موضوعي حر يعيد الينا معنويات تفكيرنا المستقل في تبادله ، المرتبط باسسنا الحضارية التي كفت عن العطاء لأسباب معروفة ، وبحث النص والاجتهاد من دور التأسيس إلى دور التقنين ليس اتجاهاً وراثياً – كما قلنا – إذا جرّد من الأحقاد ، والأغراض ، وإنما هو تأكيد للاتجاه الحديث باتجاه قديم يحتوي محركاً ديناميكياً أصيلاً في تركيبنا العقلي التقدمي المنفتح المنتج الفعال .. إنــه وصل لتحركنا المتدفق بحركاتنا قبل أن يحال بينها وبين السير .

٦ – يحسب الكثيرون أن ارتباط الاجتهاد بالنص يضعف طاقته على التجديد ، ويعجزه عن مسايرة التطور في ميادين النشاط الحاضر .

هذا خطأ كما يبدو ، فارتباط الاجتهاد بالنص ضروري ، لا لأنه تقليد ديني محض ، أو لأنه محتوم بقاعدة مكتسبة من قرار علمي فقط ، بـل لأنه – قبل

هـــذا وذاك — مصدر أصالتنا ، وحاجز ثابت لا يسمح بالخروج عن مقوماتنا الأساسية ، ويأذن بهضم الثقافات الاخرى ، بل يأمر بهـذا شرط تأنيسه وفق طريقتنا ، وتطويعه لمبادئنا وآدابنا ، وإخراجه ممهوراً بطابعنا ، وفي الاجتهاد هذا المعهد العظيم ، باب للقاء عالمي لا تحسبه ضيقاً ، ومدخل يتسع لكل جديد نافع من الحضارة الآلية ، ومن المعروف اتساعه في القرون الوسطى للحضارات اليونانية والفارسية والهندية وفق شرطنا ، وعلى الوجه الذي أكسب حضارتنا صفة التفوق في العالم ، ومرد هذه المرونة العظيمة في اجتهادنا عظمة في مرونة النصوص التي ارتبط بها ، ولم يسمح له بالانفكاك عنها ، فالعائد إليها يجد فيها شمولاً يجمل من آياتها ما وصفت نفسها بـه — في يقين العلم — من كونها خاتمة الشرائع في الأزل ، وشريعة الحياة إلى الأبد ، ومعنى هـذا أن النص منذ البدء وُضِع خميرة ، خميرة صالحة للتطور ، وأنـه لوحظ به حين وضعه انطباقه على حاجات عصره ، وتطبيقه على ما ينمو منها أو يتجدد بعده .

وزيادة في الإيضاح نلتفت إلى تكامل « التنزيل » شيئاً فشيئاً وفق سنة النشوء ، مجارياً قانون التطور حسب التجارب ، وقل مثل هـذا في « السنة » « الكتاب » في تنزلاته ، وملقية الضوء على المتشابه من محكماته ، في بنـــاء يتألف منها شاءه الله طبيعياً لهذه الشريعة كي يشدها بما تشتد به أحياء هـــذه الأرض وكائناتها ، ويخرجها مع هذا عجباً في إتقان السبك ، وعظمة المضمون، وامتداد البقاء .

٧ — متى تقرر « الاجتهاد » مبدأ ؟

آن لنا أن نطرح هـذا السؤال لارتباطه الوثيق بأساس الكتاب « الاجتهاد والنص » فما لم يكن هذا المبدأ مقرراً في عهـد النبي ﷺ ، لا تشمل مخالفته اجتهادات المتأولين المعروضة في الكتاب بالبداهة .

وفي الجواب نرى قبل كل شيء أن تقرير هـذا المبدأ في عهد النبي قضية قياسها معها ، فالمشترع الحكيم لا ينسى أساساً كالاجتهاد يطور به شريعته وهو يصنعها شريعة أبد ، ويعلم أن الحياة لا تقف بعده كما مر .

وإنه لمن الثابت — بعد هـذا — في الموثوق من الحديث ، والصحيح من التاريخ ، أن النبي وجّه رسله ومبعوثيه إلى البلدان النائية نحو العمل بالرأي استناداً إلى الكتاب .

رجل الدين
ومصدر الأحكام الشرعية

لحضرة صاحب الفضيلة
الاستاذ الشيخ محمد جواد مغنيه

يمكن التعبير عن رجل الدين ووظيفته بأنه «مامور تبليغ» مجتهداً كان أو مقلداً ، فالمجتهد ينقل عن الكتاب والسنة ، والمقلد ينقل عمن يقلده .

وليس لرجل الدين أية سلطة تشريعية مهما بلغت مقدرته العقلية ، ومنزلته العلمية والدينية ، بل ليس لأصحاب رسول الله ﷺ مجتمعين ، ولا للتابعين وعلماء المسلمين كافة أن يضعوا أحكاماً وقوانين دينية من عند أنفسهم ، بل إن تعاليم الرسول ما هي إلا وحي يوحى ، وتبليغ عن الله سبحانه ، وليس للرسول فيها سوى شرف الرسالة الإلهية ، وفضل الأمانة في تبليغها ، وعظمة الجهاد في سبيل بثها وإحيائها « ما على الرسول إلا البلاغ » .

إذن على رجل الدين أن يبني أحكامه وأقيسته وتحقيقاته في كل أمر من امور الشرع على أساس الكتاب والسنة ، فإن تجاوزهما إلى اجتهاد لا يستند ابتداء ولا ينتهي بوسيلة مشروعة الى أحد هذين الأصلين فقد تجاوز حده، واتخذ لنفسه سلطة الاستقلال في التشريع التي لم يخولها الدين للأنبياء والأوصياء، وهذه بديهة ليست محلا للنظر والبحث في أي مذهب من المذاهب الإسلامية، ومرجعها

إلى قول الله تعالى : « إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين » . « ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون » . « يا أيهـــا الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » . فلم يأمر الله سبحانه ــ عند التنازع والالتباس ــ بالرجوع إلى المحسنات والتعليلات التي لا تمتّ إلى الكتاب والسنة بصلة قريبة أو بعيدة ، وقد اتفقت كلمة المذاهب على أن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة .

أمـا الشيء الذي لا نص عليه بالذات فيستخرج حكمه من عمومات الكتاب والسنة : « ما فرّطنا في الكتاب من شيء » . « ونزلنـا عليك الكتاب تبيـاناً لكل شيء » . فقول الله : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » يدل بعمومه على حليـــة كل قديم وجديد لم يقم الدليل على حرمته ، وأظهر منه في الدلالة حديث : (رفع عن امتي ما لا يعلمون) كما دل قوله سبحانه : « ما جعل عليكم في الدين من حرج » . « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . وحديث : (لا ضرر ولا ضرار) . على أن الأحكام الثابتة لعناوينها لا تشمل مورد الحرج والضرر ، فوجوب جلد الزاني الثابت بآية « الزانيـة والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » لا يتجه على من يؤدي جلده إلى هلاكه ، وصوم شهر رمضان لا يطلب من المريض .

إن الآيات والأحاديث الدالة على أحكام عامة لا يحصيها العد والبيان، ومعها لا نحتاج إلى تصريح خاص في حادثة تعرض لنا من جديد، بل نثبت بها أحكاماً لموضوعات لم يرد فيها نص بالخصوص ، وننفي أحكاماً عن بعض أفراد المفـاهيم التي ثبت حكمها بالدليل القطعي، ننفي الحكم الثابت في مرحلة التشريع والإنشاء

لمصلحة أهم وأقوى وغاية أنفع وأسمى ، وهذا الميدان الفسيح يغني عن كل تعليل لا شاهد عليه من التنزيل .

ولو تتبعنا أقوال الفقهاء ولاحظنا الأدلة التي يعتمدونها لاستخراج الحكم ، لرأينا كثيراً منهم يخرج أحياناً عن هذه الجادة القويمة من حيث يقصد السير عليها والتعبد بسلوكها ، فمنهم من شدد في اتباعها ، وبالغ في التضييق إلى حد استلزم إهمال الدليل ومخالفته مع قيامه ووضوحه .

نقل عن مؤمن أنه دعي إلى حضور ختان ، فلم يجب ، وقال : لم يكن يدعى له على عهد رسول الله ﷺ .

ونجد هذا النوع من التشديد عند المتقدمين — في الغالب — ومنهم من أفرط واندفع مع خياله يعلل ويحلل ، ويبني المقدمات ، ويستخرج نتائج يزعم أنها شرعية وهي بعيدة عن نصوص الشرع وروحه بُعد السماء عن الأرض ، ويكثر هذا النوع في الكتب المؤلفة في العصور الأخيرة للشيعة والسنة .

فالقدامى يكادون يقفون عند النص الخاص ، حتى كأن لم يكن في الكتاب والسنة عمومات وقواعد كلية ، ومن المتأخرين من يتجاوز حد المطلقات والعمومات ، ويطلق العنان لخياله وفلسفته .

والطريقة المثلى أن يخرج اولئك من افقهم الضيق المحدود ، وينظروا نظرة أبعد وأكمل ، وأن يقف هؤلاء عند المصدر الوحيد للدين ، عند القرآن وأحاديث الرسول ، فإن الوقوف عند هذين الأصلين يركز الفقه على أسس علمية صحيحة ثابتة ، ويقضي على الخلاف والارتباك السائدين بين فقهاء المسلمين وأئمة المذاهب .

لقد علق بالدين من جراء العادات والتقاليد والحضارات المختلفة المتباينة

أشياء حسبها كثير من الناس جزءاً منه وركناً من أركانه، وكانت السبب الأكبر في انقسام المسلمين، وتعدد مذاهبهم، وتناحرهم، وما هي من الدين في كثير أو قليل.

لقد رأينا رجالاً ينعتهم الناس بلقب الفلاسفة والعلماء والادباء، يعللون ويفسرون أعمالهم بمنطق العلم والعقل، مع أن الكثير منهم يستمد تفكيره من نفسه وظروفه، فمن الجائز – والحالة هذه – أن يستنبط الفقيه أحكاماً بهذا الدافع، وهو يحسب أن رائده منطق العلم والدين.

إن الإسلام قد حذر من الظالم لنفسه ولغيره، وممن كثرت أوهامه ولم يثبت على رأي، فألغى شك كثير الشك في الصلاة والطهارة، ولم يعول على شهادته إذا شهد بنجاسة شيء في يده أو يد غيره.

إن الغرض من هذه الإشارة أن يتنبه المصلحون من رجالات الإسلام الى تنقية الدين من الشوائب وتحريف المبطلين، وأن يقيسوا الأحكام الشرعية بقياس الكتاب والسنة فقط، لا بما جاء في كتاب قديم، أو بما قاله عالم كبير، ولا يؤيدوا أحكام الشرع إلا بقول كفء عرف بالعلم والاعتدال في الذوق والسلامة في التفكير، ونبذ العصبيات، ولم يتغلب على عقله ودينه شيء من السياسة والوراثة.

بهذه الوسيلة، وهي الرجوع إلى دستور الإسلام الخالد، نستطيع أن نقرب بين المذاهب الإسلامية في اصولها وفروعها، وإذا كان من خلاف فينحصر في مفاد بعض الآيات ودلالتها، وفي ثقة الراوي، وضبطه.

لقد رأينا الشيعة يعولون على نقل من خالف مذهبهم إذا كان أميناً صادقاً، كما رأينا السنة يعتمدون على رواة الشيعة الثقاة في كثير من الموارد.

ومتى كانت اصول الاستنباط ، ومؤهلات الاجتهـــاد ، وشرائط النقل معلومة متفقاً عليها لدى الجميع ، قلّ الخلاف والتنازع ، وحصل القرب والوئام في أكثر المسائل التي أوجبت التفرقة ، وأبعـدت شقة الخلاف بين المسلمين ، ولم يبق بين المذاهب سوى فوارق عادية ، وامور جزئيـــة ، كتفسير لفظ ، أو تقييد مطلق ، أو تخصيص عـام ، أو نسخ آية ، أو النظر في مدى ثقـة راوٍ ، أو نحو ذلك ، ومثل هـــذا لا يؤسس مذاهب مستقلة ، ولا يكوّن طوائف عدة .

العمل بالحديث وشروطه

عنـــد الامامية

لحضرة صاحب الفضيلة
الاستاذ الشيخ محمد جواد مغنيه

إن مصادر الإسلام ومبادئه اصولاً وفروعاً أربعـة : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والعقل .

معنى السنة :

ومعنى السنة باصطلاح العلمـاء : قول النبي ﷺ ، أو فعله ، أو تقريره ، ومعنى التقرير : الرضا والموافقة .

أدلة الثبوت :

وقد نستكشف رضا النبي وموافقته من الكتاب ، أو الإجماع ، أو العقل ، وقد يحصل لنا الوثوق بأنه قال، أو فعل، أو وافق، عن طريق النقل والرواية.

وعقدنا هذا البحث لإثبات السنة بطريق النقل والرواية فقط ، وعلى الأصح لبيان القيود والشروط التي يجب توافرها في الخبر الحاكي عن السنة عند الإمامية.

وقد ذهبوا إلى أن الباحث المنقب عن السنة النبوية لا يجوز أن يعتمد لإثباتها على خبرته الشخصية ، ومجرد اجتهاده ونظره، مهما كان مصدر الظن والاجتهاد،

ولا على مجرد خبر الراوي أياً كان ، وكانت صفته ، وإنمـــا تثبت السنة بخبرين لا غير : الخبر المتواتر ، والخبر الواحد .

الخبر المتواتر :

وعرفوا الخبر المتواتر بأنه خبر جماعة بلغوا من الكثرة مبلغاً أحالت العادة اتفاقهم وتواطؤهم على الكذب، على شريطة أن يستوي التواتر في جميع الطبقات، بحيث تكون الطبقـــة الاولى التي أخذت عن صاحب السنة مباشرة متواترة ، وكذا الطبقة الثانية والثالثة، ولا تشترط العدالة في رواة الخبر المتواتر بالاتفاق، أمـــا عددهم فلا يتعين بحد ، والمهم أن نعلم بامتناع التواطؤ على الكذب ، وأن يكون الخبر من شأنه وطبعه مفيـــداً للعلم ، بحيث لو اطلع عليه ذو الفطرة السليمة لعلم بوجود السنة ، فلو افترض أن شخصاً اطلع عليه، ولم يحصل له العلم، لسبب من الأسباب يكون — مع ذلك — حجة عليه ، ويلزمه العمل به [١] .

الخبر الواحد :

الخبر الواحد في اصطلاح العلماء : هو الذي لا يبلغ حد التواتر ، سواء أكان الراوي له واحداً ، أو أكثر ، فوصف الوحدة هنا يراد به عدم التواتر ، لا عدم التعدد ، وبتعبير ثان أن المتواتر اخـــذ « بشرط شيء » أي بشرط التواتر ، والواحد اخـــذ « بشرط لا » أي بشرط عدم التواتر ، والخبر الشامل لهما معاً « لا بشرط » أي لا يشترط فيه التواتر ولا عدمه ، ومن هنـــا قالوا : « إن كلاً من الخبر المستفيض والخبر المشهور نوع من الخبر الواحد » .

---

(١) وبهذا يتبين ما في قول صاحب (الاصول العامة للفقه المقارن) فقد جاء في صفحة ١٩٦ طبعة اولى : « أن المدار على العلم ، فإن حصل فهو الحجـة » . ويلاحظ بأن المدار على صفة التواتر الذي من شأنه أن يفيد العلم نوعاً ، وإن لم يحصل للفرد ... هذا ، إلى أن الخبر المتواتر ليس بأسوأ حالاً من الخبر الواحد ، اللهم إلا أن يدعى بأن الخبر المتواتر هو الذي يحصل منه العلم الشخصي ... وهذا مجرد دعوى .

والمستفيض في اصطلاحهم ما رواه أكثر من اثنين ، ولم يبلغ مبلغ المتواتر ، والمشهور ما اشتهر على الألسن ، وفي الكتب ، وإن كان راويه واحداً ، وعليه تكون الاستفاضة وصفاً لراوي الخبر لا للخبر ، والشهرة وصفاً للخبر لا للراوي .

أما الخبر الذي حصل العلم بصدوره من القرائن الداخلية أو الخارجية ، كخبر « إنما الأعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نوى » أما هذا ، وما اليه فلا جدال ولا نقاش بين العلماء في أنه حجة معتبرة ، لا للشهرة أو الاستفاضة ، ولا للتواتر أو أي شيء آخر ، بل لمجرد العلم بالصدور الذي هو حجة بنفسه ، وبدون جعل جاعل .

وبهذا يتبين معنا أن كلا من الخبر المتواتر ، والمحفوف بالقرائن المفيدة للقطع يجب الأخذ به ، والاعتماد عليه بالاتفاق . أما الخبر الذي لم يبلغ حد التواتر ، ولم يعلم بصدوره من القرائن فهو محل الكلام والبحث ، سواء أكان مستفيضاً ، أو مشهوراً ، أو غريباً ، لم يروه إلا فرد ، ولم يشتهر على الألسن ، ولا في الكتب .

وتكلم الفقهاء عن هذا الخبر من جهات شتى : تكلموا في أصل صدوره عن صاحب السنة ، وقسموه من هذه الجهة إلى أقسام : صحيح وضعيف وحسن وموثق ، وتكلموا في جهة الصدور ، وأنها لبيان الواقع أو غيره ، وأيضاً تكلموا في متنه ، والمعنى الظاهر من لفظه ، وفي إرادة هذا الظهور ، وفي الدليل على اعتباره ووجوب العمل به . أما نحن فينحصر كلامنا في أصل الصدور ، وبالأصح في ذكر شروط السند التي تسوغ نسبة الخبر إلى صاحب السنة في حال عدم العلم والقطع بصدوره عنه ، وبديهة أن أهم شيء في الحديث هو الإسناد ، لأنه كالأساس للبناء .

الشروط :

اتفق الإمامية — إلا من شذ — [1] على أن السنة تثبت برواية الراوي ، ثم

(١) ذهب ابن قبة ومن تبعه إلى وجوب الاختصار على الخبر المتواتر ، والمحفوف بالقرائن =

اختلفوا فيما بينهم ، فقال بعضهم : إن كل خبر يحصل منه الظن بالحكم الشرعي ، أو بحجية الخبر فهو حجة متبعة ، سواء أكان الراوي ثقة ، أم غير ثقة ، واستدل هؤلاء « بأنا نعلم بوجوب الرجوع إلى السنة والعمل بها تماماً كما يجب الرجوع إلى القرآن الكريم ، فإن أحرزنا السنة بالعلم فذاك ، وإلا فلا بد من الرجوع إلى الظن لتعيينها » . ومعنى هذا أن علينا أن نطيع أوامر الله بطريق العلم ، فإن تعذر العلم وانسد بابه وجب الامتثال بأقرب الطرق إلى العلم ، وليس من أقرب الطرق اليه الظن .. وهذا في حقيقته عمل بالظن لا بالخبر الواحد ، والعمل به عمل بلا دليل ، بل قام الدليل على تحريم العمل بالظن ، لأن مجرد الشك في حجية الشيء ، أي شيء ، دليل على عدم حجيته ، هذا ، إلى نص القرآن الكريم على أن الظن لا يغني عن الحق شيئاً .

ومهما يكن ، فقد استثنى علماء الإمامية من تحريم العمل بالظن موارد قام الدليل القطعي عندهم على اعتبارها ، وأنها تماماً كالعلم ، منها الظن الحاصل من الخبر الواحد إذا كان راويه مسلماً عاقلاً بالغاً موثوقاً ضابطاً .

اشترطوا الإسلام في الراوي ، مع أن غير المسلم قد يكون صادقاً في النقل ، وربما أصدق من بعض المسلمين ، اشترطوا الإسلام تعظيماً لنبوة محمد والإيمان بها ، وبديهة أن المجنون لا يعتمد عليه في شيء ، والصبي ملحق به ، واشترطوا الوثوق والأمانة في النقل للاحتراز من الكذب ، أما الضبط فلأن المغفل قد يزيد أو ينقص ، ويغير ويبدل فيما يسمع .

القوي والضعيف :

يعتقد كل من السنة والشيعة أن في أحاديثهم القوي والضعيف ، والصحيح

القطعية ، وعدم العمل بالخبر الواحد إطلاقاً ، وحاول بعض العلماء أن يوجه ذلك بما يرجع إلى قول الأكثرية الغالبة ، فقال : إن مراد ابن قبة ومن إليه عدم العمل بالخبر الواحد الذي لم يجمع الشروط ، ومهما يكن فإن هذا القول متروك .

والسقيم ، ومن هنا وضعوا علم الرجال ، وألفوا فيه العشرات من الكتب للغربلة والتصفية . قال المحقق القمي في الجزء الثاني من كتاب القوانين ص ٢٢٢ طبعة سنة ١٣١٩ ﻫ : « إن دعوى قطعية أخبارنا – أي العلم بصحتها جميعاً – من أغرب الدعاوى.. مع أن في الأخبار الموجودة في كتبنا ما يدل على أن الكذابة والقالة قد لعبت أيديهم بكتب أصحابنا ، وأنهم كانوا يدسون فيها » .

وروى الشيخ الأنصاري في كتاب (الرسائل) الذي هو عمدة التدريس في النجف أن الإمام الصادق قال : « إنا أهل بيت صديقون لا نخلو من كذاب يكذب علينا . إن الناس اولعوا بالكذب علينا ، كأن الله افترضه عليهم ، ولا يريد منهم غيره .. إن لكل منا من يكذب عليه » .

ونقل صاحب سفينة البحار في الجزء الأول مادة « حدث » : أن بعض أهل البصرة جمع الأحاديث الموضوعة ، وعرضها على الإمام الصادق .

وفي إحدى خطب نهج البلاغة ذكر الإمام رواة الحديث ، وفي طليعتهم « المنافق الذي لا يتأثم ولا يتحرج من الكذب على رسول الله متعمداً » .

وأفضل كتب الحديث عند الإمامية كتاب (الكافي) للكليني ، ومع هذا ضعّف علماؤهم الكثير من أحاديثه ، وأحصى بعض الفضلاء الأحاديث التي ضعّفها ووهّنها العلامة المجلسي في شرحه للكافي ، فبلغت الالوف .

والآن ، وأنا أكتب هذه الكلمات تركت القلم ، ورجعت الى اصول الكافي ، وعددت ثلاثين حديثاً من أوله ، فوجدت منها ثلاثة عشر حديثاً ضعيفاً ، وثمانية أحاديث مرسلة ، وحديثين راويها مجهول ، والسبعة الباقية من الثلاثين بين صحيح وموثق بشهادة الشارح المتتبع العلامة المجلسي الذي وصف الكافي بأنه « أضبط الاصول وأجمعها ، وأحسن المؤلفات وأعظمها عند الإمامية » .

فهل بعد هذا يقال : إن لدى الإمامية صحاحاً في الحديث ، أو صحيحاً واحداً من أوله الى آخره ؟

ولو صدق هـــذا القيل لكان احتجاج مجتهد على مجتهد إمامي بحديث من الكافي تماماً كالاحتجاج بآية من آي الذكر الحكيم ، مع أن لكل مجتهـد إمامي أن يرفض أي حديث لا يرتضيه في الكافي وغيره ، ويأخذ بحديث موجود في البخاري أو مسلم ، ولا يحق لأحد أن يحتج عليه من وجهة دينية أو مذهبية .

من هو الثقة عند السنة ؟

ذكرت في كتاب (الشيعة والتشيع) ما يلي :

سألني أحد الإخوان : أصحيح أن السنة يشترطون في الراوي أن لا تكون فيه رائحة التشيع ؟ وهل وجدت في كتبهم مصدراً لهذا القول ؟

قلت له : هذا قول المتعصبين منهم [١] ، وليس مبـــدأ عاماً عند علمائهم ، فقد نقل الغزالي عن الشافعي في كتاب المستصفى أنه قال : « تقبل شهادة أهل الأهواء إلا الخطابيــة من الرافضة ، لأنهم يرون الشهادة بالزور لمن وافقهم بالمذهب » .

وقال الخضري في كتاب اصول الفقه : « أمـا المبتدعون ببدع غير مكفرة فأكثرهم ـ أي أكثر علمـــاء السنة ـ على القول بقبول رواياتهم ، وهو المعقول ما داموا لا يدينون بالكذب ، ولا نظن هـذا معتقداً لأي طائفة من المسلمين ، وإن نسب إلى الخطابية أنهم يدينون بالشهادة لمن يوافقهم في الاعتقاد » [٢] .

وروى أصحاب الصحاح الستة عن رجـال من الشيعة ، كإبان بن تغلب ، وجابر الجعفي ، ومحمد بن حازم ، وعبيد الله بن موسى ، وغيرهم .

---

(١) راجع كتاب (فواتح الرحموت) المطبوع مع المستصفى ، ص ١٤٠ ج ٢ ، لتعرف من هؤلاء المتعصبون ... إن أحببت أن تعرفهم .

(٢) جاء في أحاديث أهل البيت : أن الخطابية يشهد بعضهم لبعض بالزور ، والخطابيــة نسبة لأبي الخطاب محمد بن مقلاص ، وكان في عهد الامام جعفر الصادق ، وقد تبرأ منه الامام ولعنه .

من هو الثقة عند الامامية ؟

والذي جرى بين علماء السنة جرى أيضاً بين علماء الإمامية ، حيث اشترط البعض أن يكون الراوي إمامياً ، وذهب المحققون منهم إلى الاكتفاء بمجرد الوثوق بصدق الراوي ، إمامياً كان أو غير إمامي ، من هؤلاء العلامة الحلي في كتاب (الخلاصة) ومنهم صاحب القوانين ، قال في الجزء الأول ما نصه بالحرف: « الأظهر قبول أخبار غير الموثقين منهم – أي غير الإثني عشرية – فإن التثبت يحصل بتفحص حال الرجل في خبره ، فإذا حصل التثبت في حاله ، وظهر أنه لا يكذب في خبره فهذا تثبت » .

وقال السيد القزويني في حاشيته على الجزء الثاني من القوانين : « إن المعتبر تحصيل ما يوجب الوثوق بصدق الرواية » .

وجاء في كتاب (تنقيح المقال) ج ١ ص ٢٠٦ : « ورد النص عن الإمام أن نأخذ برواية من خالفنا دون ما رآه ، وقد لزمنا بذلك العمل بالخبر الموثوق الذي هو في اصطلاح العلماء من كان ثقة غير إمامي » .

وقال الشيخ الأنصاري في (الرسائل) عند كلامه في الخبر الواحد : « إن الإمام الصادق قال : « خذوا ما رووا ، وذروا ما رأوا » . ثم قال الأنصاري: « والأخبار متواترة بالأخذ بخبر الثقة والمأمون » .

وقال السيد محمد تقي الحكيم في (الاصول العامة) ص ٢١٩ طبعة اولى : « اعتبر الشيعة الإمامية أخبار مخالفيهم في العقيدة حجة إذا ثبت أنهم من الثقاة ، وأسموا أخبارهم بالموثقات ، وهي في الحجية كسائر الأخبار ، وقد طفحت بذلك جل كتب الدراية لديهم »[1] .

---

(١) اهتم الامامية بالحديث اهتماماً بالغاً ، وألفوا فيه كتباً متنوعة : النوع الأول : أدرجوا فيه الأحاديث بالفاظها ، والثاني : تكلموا فيه عن أحوال الراوي ، وهل هو ثقة أمين أو لا ؟ وهذا هو علم الرجال ، والثالث : تكلموا فيه عن حكم الحديث بمجموعه ، وقالوا : إن كان الحديث كذا فحكمه كذا ، وأسموه علم الدراية .

وبهذا يتبين معنــا أن علماء السنة والشيعة متفقون على أن مقياس العمل بالحديث هو الثقة بصدق الراوي ، وأمانته في النقل ، سنياً كان أو شيعياً تماماً كالحكمة يأخذها المؤمن أنّى وجدها .

وبالتالي، فقد كتبت هذه الكلمة الموجزة بمناسبة الحركة المباركة التي تعتزم القيام بها « دار التقريب » من جمع الأحاديث المتفق عليها بين السنة والشيعة ، والتي ترتكز على الوثوق بصدق الراوي ، جمعها في كتاب واحد ، عملاً بمبــدأ الدار ، وتحقيقاً لهدفهــا الإنساني الإسلامي ، وبهذا تقدم الدار شهادة العدل والصدق على أن الفريقين يصدران من معين واحد .

أخذ الله بيدها ، وكتب لجميع مشاريعها الخيرية النجاح والفلاح .

الباب السادس

مَصَادِرُ الشَّرِيعَةِ وَأَسْبَابُ الاختِلافِ فِيهَا

- أسباب الاختلاف بين أئمة المذاهب .
- أسباب الاختلاف التي تختص بها السنة .
- الاختلاف في تكيف السنة باعتبار مواردها.

أسباب الاختلاف

بين أئمة المذاهب الاسلامية

لفضيلة الشيخ محمد محمد المدني
الاستاذ بكلية الشريعة بالأزهر

— ١ —

القرآن والسنة هما المصدران الأساسيان للشريعة الإسلامية ، وكل ما عداهما لا بد من استناده إلى أحدهما .

أسباب الاختلاف التي يشترك فيها الكتاب والسنة :

(أ) الاشتراك اللفظي : اختلافهم في المراد بالقرء في آية العدة — اختلافهم في المراد بقوله تعالى : « أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح » — اختلافهم في قبول شهادة القاذف بعد توبته .

(ب) التردد بين المعنى اللغوي والمعنى العرفي . تحقيق في ذلك وقانون عام لشهاب الدين القرافي .

(جـ) التردد بين الحقيقة والمجاز . اختلافهم في المراد من قوله تعالى : « أو ينفوا من الأرض » وقوله : « وثيابك فطهر » وتعليق طريف لابن حزم متصل بهذا .

(د) العموم والخصوص : هل خطاب الذكور في الشريعة يعم الإناث
فصل ممتع لابن حزم في مخاطبة النساء ، كالرجال ، بكل ما في الشريعة .

* * *

للشريعة الإسلامية مصدران رئيسيان ، كل حكم فيها لا بد من استناده إلى أحدهما ، إما مباشرة أو بواسطة استناده إلى شيء يستند إلى أحدهما .

وذلك لأنها شريعة إلهية لا مُشرع فيها إلا الله ، إما بكلامه الذي يبلغه رسوله ، وإما بالأحكام التي يقررها أو يبينها الرسول بوحي صادر اليه من الله ، فإذا رأيت أصلاً يذكر بجانب هذين الأصلين كالإجماع أو القياس أو المصالح أو العقل أو كذا أو كذا ، مما اتخذ مصدراً لإثبات حكم ، فاعلم أن هـذا الأصل مستند في تقريره والاعتماد عليه إلى الكتاب أو السنة ، وكل أصل لا يستند إلى الكتاب أو السنة فلا يعتد به ، ولا يكون أصلاً من اصول الشريعة الإسلامية .

وعلى ذلك فالطريق الذي سلكه ، أو يسلكه ، المتعرف لحكم الشريعة الإسلامية في شيء ما ، هو البحث عنه في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ فإما أن يجده في أحدهما مباشرة ، وإما أن يجد ما يدل عليه في شيء مستند اليهما من إجماع أو قياس أو عقل أو غير ذلك من الأدلة التي اعتبرت مستَمدة منهما ، ومستندة اليهما،غير أن الفهم في كثير مما جاء به الكتاب الكريم أو السنة النبوية يختلف ، لأنهما جاءا باللغة العربية ، واللغة العربية لها خصائصها في الألفاظ والأساليب ، ومنها تعدد معاني الألفاظ على سبيل الاشتراك ، وترددها أحياناً بين الحقيقة والمجاز ، وتصرف العرف في بعضها ... ... إلى غير ذلك .

وتنفرد السنة مع هذا بأنها متفاوتة في ثبوتها وطرق هذا الثبوت ، فتحتاج إلى عناية في تمييز ما يصلح الاحتجاج به مما لا يصلح .

والأدلة الاخرى المستندة اليها ، بعضها منازعٌ فيه ، وكذلك شأن القواعد الاصولية أو الفقهية التي اتخذت ضوابط للفهم والاستنباط ، فإن كثيراً من هذه وتلك يدخل الخلاف في أصله أو في تطبيقه .

وعلى هذا يمكننا أن نرْجع أسباب الخلاف إلى ما يأتي :

(١) الأسباب التي تتعلق بفهم القرآن والسنة .

(٢) الأسباب التي تخص السنة .

(٣) الأسباب التي تتعلق بالقواعد الاصولية أو الفقهية .

(٤) الأسباب التي تتعلق بأدلة التشريع الأصلية غير الكتاب والسنة .

وسبيلنا في هـــذه الدروس أن نتحدث عن هذه الأقسام إن شاء الله تعالى بالقدر الذي يتسع له الوقت ، مع إيثار ما هو أهم من غيره .

وليس الغرض الاستيعاب ، ولكن فتح المجال أمام الطلاب ، فعليهم أن يدخلوه بأنفسهم باحثين مستكملين ، وبالله التوفيق .

(١) أسباب الاختلاف التي يشترك فيها الكتاب والسنة :

القرآن الكريم والسنة القولية جاءا باللغة العربية ، وهذه اللغة كما قلنا لهـــا خصائص في الوضع والاستعمال :

ففيها ألفاظ مترددة بين معـــان مختلفة ، إما بسبب تعدد الوضع — أي أن اللفظ الواحد قد وضع لأكثر من معنى ، أو التركيب الواحد قـــد يفهم بأوجه متعددة من الفهم — وإما لدوران التعبير اللفظي أو التركيبي بين الحقيقة والمجاز ، أو بين المعنى اللغوي والمعنى العرفي .

وقد يعبر بالعام يراد به ظاهره من العموم .

وقد يعبر بالعام يراد به الخاص .

وقد يستفاد المعنى من اللفظ المنطوق ، وقد يستفاد معنى من وراء هـــذا المنطوق ... إلى غير ذلك .

وقد عنى علماء الاصول ببيان ذلك ، وبحثوا كلامه بحثاً دقيقاً ، ووجد بين الباحثين خلاف في كثير منه ترتب عليه خلاف في الفهم والاستنباط ، وتقرير الأحكام الفقهية .

(أ) فمن هذا أن اللغة العربية قد تطلق اللفظ الواحد على أكثر من معنى ، وقد يرد التعبير فيها صالحاً لأن يراد به أكثر من معنى ، لذلك لا بد للناظر الذي يصادفه مثل هذا أن يجتهد في تعرف المعنى المراد ، ويلتمس ما يدله عليه ويجعله يرجحه .

(١) فمثلا لفظ « القرء » : تطلقه اللغة العربية على كل من الحيض والطهر ، وفي ذلك يقول صاحب القاموس : « والقَرْء – ويضم – الحيض والطهر : ضد » ونقل البَطليوْسي عن يعقوب بن السكيت وغيره من اللغويين أن العرب تقول: أقرْأت المرأة إذا طُهرت ، وأقرأت إذا حاضت .

ومن الأول قول الأعشى الأكبر (واسمه ميمون بن قيس) :

أفي كل عام أنت جاشِمُ غزوة ... تشُد لأقصاها عزيم عزائكا
مورِّثة مـالاً وفي الحي رفعةً ... لما ضاع فيها من قروء نسائكا

يريد أنه لا يفرغ – بسبب الغزو – للنساء ، فتضيع قروءهن أي أطهارهن لأن الأطهار هي أوقات اتصال الرجال بالنساء .

ومن الثاني قول الراجز :

يا رب ذي ضِغْن عليّ قارض ... يُرى له قرءٌ كقرء الحـائض

وعلى هذا فهو لفظ مشترك بين معنيين ، وقد ورد في القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » .

ولا خلاف بين العلماء في أن المراد به في الآية أحد هذين المعنيين ، لا بمجموعهما ولكنهم اختلفوا في تعيين المراد منهما ، وقد نقل صاحب « نيل الأوطار » المذاهب في ذلك عن صاحب البحر إذ يقول :

« فعن أمير المؤمنين علي ، وابن مسعود ، وأبي موسى ، والعترة ، والحسن البصري ، والاوزاعي ، والثوري ، والحسن بن صالح ، وأبي حنيفة وأصحابه : المراد به في الآية الحِيَض » .

وعن ابن عمر وزيد بن ثابت ، وعائشة ، والصادق ، والباقر ، والإمامية ، والزهري ، وربيعة ، ومالك ، والشافعي ، وفقهاء المدينة ، ورواية عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : أنه الأطهار .

قال ابن رشد : والفرق بين المذهبين أن من رأى أنها الأطهار قال : إنه إذا دخلتْ الرجعية في الحيضة الثالثة لم يكن للزوج عليها رجعة وحلت للأزواج ، ومن رأى أنها الحِيَض لم تحل عنده حتى تنقضي الحيضة الثالثة .

وقد استدل الذين يرونها الأطهار ، بما نقل عن ابن الأنباري اللغوي المعروف من أن القرء الذي هو الحَيْض يجمع على أقراء لا على قروء ، وعلى ذلك جاء الحديث : « دعي الصلاة أيام أقرائك » .

ومما استدلوا به أيضاً القاعدة التي تقول : إن العدد يُذكَّر مع المؤنث ، ويُؤنَّث مع المذكر كما في قوله تعالى : « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً » ، والحيضة مؤنثة ، والطهر مذكر ، فلو كان المراد الحِيَض لقال : « ثلاث قروء » فلما قال : « ثلاثة قروء » علمنا أنه يعد أشياء مذكرة وهي الأطهار .

ويتعقب البَطَلْيَوْسي هذا بقوله : « وهذا لا حجة فيه عند أهل النظر ،

وإنما لم يكن فيه حجة لأنه لا يُنْكَر أن يكون القرء لفظاً مذكراً يعني به المؤنث ، ويكون تذكير «ثلاثة» حملاً على اللفظ دون المعنى ، كما تقول العرب : « جاءني ثلاثة أشخص وهم يعنون نساء » والعرب تحول الكلام تارة على اللفظ ، وتارة على المعنى ، ألا ترى إلى قراء القراء : « بلى قد جاءتِكَ آياتي فكذبتِ بها » بكسر الكاف والتاء وفتحها .

واستدل الآخرون بأحاديث فيها التعبير بالحيض في هذا المقام ، كحديث عائشة : « أمرت بريرة أن تعتد بثلاث حيض » وحديثها الآخر : طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان » وحديث ابن عمر : « عـــدة الحرة ثلاث حيض ، وعدة الأمة حيضتان » .

ومما تمسك به القائلون بأنها الحيض أن العدة إنمـــا شُرعت لتَبَيُّن براءة الرحم ، وإنما يكون هذا التبين بالحيض لا بالطهر .

قال ابن رشد في كتابه « بداية المجتهد » بعد أن ذكر ما يحتج به كل فريق : ولكلا الفريقين احتجاجات طويلة ، ومذهب الحنفية — أي القائلين بأنهـــا الحيض — أظهر من جهة المعنى ، وحجتهم من جهـــة المسموع متساوية أو قريب من متساوية [1] .

(٢) ومثل ذلك ، أنهم اختلفوا : هل للأب أن يعفو عن نصف الصدق في ابنته البكر إذا طلقت قبل الدخول أو ليس له ذلك .

وسبب اختلافهم هو الاحتمال الذي في قوله تعالى : « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح » .

وذلك أن لفظة « يعفو » تقال في كلام العرب بمعنى : « يُسقِط » وبمعنى :

---

(١) بداية المجتهد : ص ٧٤ ج ٢ طبعة صبيح .

« يَهَب » كما أن عبارة : « الذي بيده عقدة النكاح » يحتمل أن يكون المراد بها « الولي » ويحتمل أن يكون المراد بها « الزوج » فإذا فُسِّرت « يعفو » بمعنى « يُسقط » فإنها تكون مناسبة للأب ، لأن تركه النصفَ الذي تستحقه ابنته ، إسقاط ، وإذن يكون هو المراد بقوله تعالى : « أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح » .

وهذا قول جماعة منهم : إبراهيم ، وعلقمة ، والحسن ، ومالك ، والشافعي في القديم .

وقد دعاهم إلى هذا أن الله تعالى قال في أول الآية : « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة ، فنصف ما فرضتم » فذكر الأزواج وخاطبهم بهذا الخطاب ، ثم قال : « إلا أن يعفون » فذكر النساء ، ثم قال : « أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح » فهو صنف ثالث ، فلا يرد إلى الزوج المتقدم إلا إذا لم يكن لغيره وجود ، وقد وجد وهو الولي ، فهو المراد .

أما إذا فسر « يعفو » بمعنى « يهب » فإنه حينئذ يكون مناسباً للزوج ، لأنه هو الذي اذا دفع كل المهر — وليس عليه إلا نصفه — فقد وهب النصف الآخر ، وبذلك يكون هو المراد بقوله تعالى : « أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح » .

وقد اسند هذا القول إلى علي ، وشريح ، وسعيد بن المسيب ، واختاره أبو حنيفة ، والشافعي في مذهبه الجديد .

وقد روى الدارقطني عن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة من بني نصر ، فطلقها قبل أن يدخل بها ، فأرسل اليها بالصداق كاملاً وقال : أنا أحق بالعفو منها . قال الله تعالى : « إلا أن يعفوا أو يعفوَ الذي بيده عقدة النكاح » .

وأيدوا ذلك بحديث رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « وليُّ عقدة النكاح هو الزوج » .

وإذن تكون الآية — على هـذا — قد جعلت العفو تارة من الزوجة بأنها تسقط حقها إذا شاءت ، وتارة من الزوج بأنه يهب النصف الآخر لمن طلقها إذا شاء [١] .

فقد تبين أن أساس الخلاف بين المختلفين في مسألة « القرء » ومسألة « العفو » راجع إلى الاحتمال الذي وجد في التعبير بلفظ مشترك صالح لأن يراد به أكثر من معنى ، فاحتاج الحمل على أحدهما إلى قرينة تعين عليه وترجحه ، وهذا ما فعله كل من الفريقين .

(٣) ومن ذلك أنهم اختلفوا في فهم قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » .

وذلك أن هـذه الآية قررت عدة أحكام مترتبة على القذف ، ثم جاءت باستثناء ، فالأحكام هي :

١ — الجلد المفهوم من قوله تعالى : « فاجلدوهم ثمانين جلدة » .

٢ — وعدم قبول الشهادة المفهوم من قوله تعالى : « ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً » .

٣ — وكون القاذف فاسقاً ، وهو مفهوم من قوله تعالى : « وأولئك هم الفاسقون » .

وقد جاء الاستثناء بعد هذه الجمل المتعاطفة ، فهل يعود اليها كلها ؟ أو يعود إلى الجملة الأخيرة فقط ؟

فقال شريح القاضي ، وابراهيم النخعي ، والحسن البصري ، وسفيان الثوري ،

---

(١) راجع تفسير القرطبي ص ٢٠٦ ج ٣ ، وبداية المجتهد ص ٢٠ ج ٢ .

وأبو حنيفة : يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط ، وبذلك لا تكون الآية مفيدة أن التوبة من القذف ترد للتائب ما كان مُنعه من مركز الشهادة ، بل يظل القاذف بعد التوبة غير مقبول الشهادة .

وقال جمهور العلماء : يعود الاستثناء إلى كل الجمل ، غير أننا علمنا أن التوبة لا تسقط حقوق العباد ، فلم نُعمل الاستثناء في استحقاق القاذف الجلد ، ولم نقل بسقوط حد القاذف بتوبته ، فيبقى بعد ذلك : الفسق وردّ الشهادة ، وكلاهما يرتفع بتوبة القاذف ، وبذلك تكون الآية دليلاً على قبول شهادة القاذف إذا تاب .

ويروى عن الشعبي أنه قال: الاستثناء من الأحكام الثلاثة ، إذا تاب وظهرت توبته ، لم يُحدّ وقبلت شهادته وزال عنه التفسيق ، لأنه قد صار ممن يُرضى من الشهداء ، وقد قال الله عز وجل : « وإني لغفار لمن تاب » الآية [١] .

وقد أيّد الفريق الأول مذهبهم بمعنى عقلي : هو أن رد الشهادة من تمام الحد والعقوبة ، فإن الله جعل على القاذف نوعين من العقوبة : عقوبة بدنية ، وهي الجلد ، وعقوبة أدبية ، وهي الحرمان من مركز الشهادة ، فكما أن التوبة لا ترفع الجلد لأنه حق من حقوق العباد ، فكذلك لا ترفع العقوبة الأدبية التي هي ردّ الشهادة ، لهذه العلة نفسها .

ومن الفريق الثاني من قال : تقبل شهادته في كل شيء إلا في القذف ، وكذلك من حُدّ في شيء من الأشياء فلا تجوز شهادته بعد التوبة فيما حُدّ فيه ، وذلك قول مُطرّف وابن الماجشون . وروى العتبي مثله عن أصْبَغ وسحنون من المالكية ، ونقله الوَقّار عن مالك [٢] .

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٢٧٩ طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) الوقار (كسحاب) لقب زكريا بن يحيى الفقيه المصري – المصدر السابق وحاشيته ص ١٨٠ .

وهـذا أيضاً تحكيم لمعنى عقلي ، هو أن الذي ُحدّ في شيء من قذف أو زنا أو خمر أو لعـان ، يكون في شهادته شبهة من حيث تعلق رغبته النفسية ، ولو لم يشعر ، بأن يوجد في مجتمعه من يحدّ مثله ، ليخفف ذلك من حزنه على مـا أصيب به ، فان الاشتراك في المصائب يهونهـا ، وتلك نظرة تدل على أن فقهاءنا يدخلون في اعتبارهم هذه المعاني النفسية ، أو الاجتماعية ، وما يشبهها .

وينقد ابن رشد المالكي مذهب الحنفية ومن وافقهم ، فيقول : إن ارتفـاع الفسق مع استمرار رد الشهادة أمر غير مناسب في الشرع ،أي خارج عن المعهود فيه ، لأن الفسق متى ارتفع قبلت الشهادة .

ويقول الشعبي لهم : يقبل الله توبته ولا تقبلون شهادته ! ويقول الزجاج : ليس القاذف بأشد جرماً من الكافر ، فحقه إذا تاب وأصلح أن تقبل شهادته .

ومما يتصل بالخلاف في ذلك أن الحنفية — ويوافقهم على ذلك من المالكية ابن القاسم وأشهب وُسحنون — يقولون : إن القاذف يظل مقبول الشهادة حتى يحد ، فإذا حد ردت شهادته أبداً ولو تاب ، أي أن رد الشهادة لا يثبت بمجرد القذف ، ولكن بالحد على القذف ، ومنطقهم في ذلك أن صلاحيته للشهادة ثابتة من قبل ، فلا تسقط إلا بالحد ، أي بتمام العقوبة ، ومن ناحية اخرى فإن المعنى الذي تسقط به شهادة إنسان هو نزول مستواه الأدبي في مجتمعه ، وهذا لا يكون إلا بالعقوبة الفعلية ، وهي تمام الحد .

ولكن مخالفيهم لا يرضون عن هذا ، فيقول الشافعي رضي الله عنه : هو قبل أن يحد شر منه حين حد ، لأن الحدود كفارات ، فكيف ترد شهادته في أحسن حاليه دون أخسّهما ؟

ويقول ابن حزم في هذا المعنى ، وفيما تقدم من تفرقة المالكية بين شهادته فيما حد فيه ، وشهادته في غير ما حد فيه :

« والعجب من أصحاب أبي حنيفة في تركهم ظاهر الآية وميلهم إلى رأيهم الفاسد فإن نص الآية إنما يوجب ألا تقبل شهادته بنص القذف ، وليس في ذلك أن شهادته لا تسقط إلا بعد أن يحد، فزادوا في رأيهم ما ليس في القرآن، وخالفوا الآية في كل حال ، فقبلوا شهادته أفسق ما كان قبل أن يحد ، وردوها بعد أن طهر بالحد، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام في كثير من الحدود أن إقامتها كفارة لفاعليها ، وهم أهل القياس بزعمهم ، فهلا قاسوا المحدود في القذف على المحدود في السرقة والزنا» — أي أن المحدود في السرقة أو في الزنا تقبل شهادته، فالمحدود في القذف ليس أسوأ حالاً منهما ، وإلا لكان القذف بالزنا أشد من ارتكاب الزنا نفسه — ثم يقول ابن حزم : « وقد شاركهم المالكيون في بعض ذلك فردوا شهادة المحدود فيما حد فيه وأجازوها فيما لم يحد فيه »[(١)] .

(ب) وقد يكون الاختلاف راجعاً إلى تردد اللفظ - مفرداً كان أو مركباً — بين أن يكون مقصوداً به المعنى اللغوي ، أو معنى عرفي اشتهر فيه .

مثال ذلك اختلاف ابن القاسم وأشهب من المالكية فيمن قال : « والله لا آكل رؤوساً » .

وذلك أن لفظ الرؤوس في اللغة صالح لأن يراد به كل الرؤوس دون تفرقة بين رؤوس الأنعام ورؤوس الأسماك مثلا ، ولكن العرف القولي جرى على أن لفظة الرؤوس إذا ذكرت بجانب الأكل فالمراد بها رؤوس الأنعام خاصة ، فلا يكاد الناس يركبون لفظ (أكلت) مع الرؤوس إلا وهم يقصدون رؤوس الأنعام بخلاف لفظ (رأيت) ونحوه ، فإنهم يركبونه مع رؤوس الأنعام وغيرها .

فالعبارة التي حلف بها الحالف إن حملت على معناها اللغوي ، فإنه يحنث إذا أكل شيئاً من رؤوس الأنعام أو من رؤوس غيرها ، وذلك هو رأي ابن القاسم ،

(١) الإحكام لابن حزم ج ٤ ص ٢٤ .

وإن حملت على المعنى العرفي الذي نقل التعبير اليه ، فإنه لا يحنث إلا إذا أكل شيئاً من رؤوس الأنعام خاصة .

وابن القاسم وأشهب لا يختلفان في أصل القاعدة ، وهي تقديم النقل العرفي على الوضع اللغوي ، ولكنهما يختلفان في كون هذه العبارة ، وهي : (لا أكلت رؤوساً) قد غلب عليها المعنى العرفي حتى أصبح هو المتبادر منها ، فابن القاسم يسلم استعمال أهل العرف لذلك،ولكنه يقول إن هذا الاستعمال لم يصل إلى الغاية الموجبة للنقل ، وأشهب يرى أنه وصل إلى هـــذه الغاية ، وفي ذلك يقول شهاب الدين القرافي :

« وضابط النقل أن يصير المنقول اليه هو المتبادر الأول من غير قرينـــة ، وغيره هو المفتقر إلى القرينة ،فهذا هو مدرك القولين ، فاتفق أشهب وابن القاسم على أن النقل العرفي مقدم على اللغة إذا وجد واختلفا في وجوده هنا ، فالكلام بينهما في تحقيق المناط »[١] .

وقد بين القرافي هذه المسألة في كتابه الفروق ، وأتى لها ببعض الأمثلة التي توضحها وتبين أن العرف القولي يحكم على الوضع اللغوي ، ويعتبر ناسخاً له ، ومن قوله في ذلك : « وبهـذا القانون تعتبر جميع الأحكام المترتبة على العوائد ، وهو تحقيق مجمع عليه بين العلماء ، لا خلاف فيه ، بل قـد يقع الخلاف في تحقيقه : هل وجد أم لا ... وعلى هذا القانون تراعى الفتاوى على طول الأيام، فمهما تجدد في العرف اعتبره ، ومهما سقط أسقطه ، ولا تجمد على المسطور في الكتب طول عمرك ، بل إذا جاءك رجل من غير أهل إقليمك يستفتيك، فلا تجره على عرف بلدك ، واسأله عن عرف بلده ، وأجْرِه عليه ، وأفتِه بـه دون عرف بلدك

---

(١) الفروق للقرافي ج ١ ص ١٧٥ .

والمقرر في كتبك ، فهذا هو الحق الواضح . والجمود على المنقولات أبداً ضلال في الدين ، وجهل بمقاصد علماء المسلمين ، والسلف الماضين »[1] .

وتالله إنها لوصية ثمينة ، وأساس متين من الاسس التي ينبني عليها الإئتلاف ، وعدم الشطط عند الاختلاف .

★ ★ ★

(ج) ومن أسباب الخلاف في الفهم : أن الكلمة قد تكون مترددة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي ، فيحملها مجتهد على معناها الحقيقي ، ومجتهد على معناها المجازي ، مستعيناً كل منهما بما يدله على ما رأى ، ويرجحه له .

ومن أمثلة ذلك :

(١) أنهم اختلفوا في المقصود من النفي في قوله تعالى : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتَّلوا أو يُصلَّبوا أو تُقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفَوا من الأرض » .

منهم من قال : المراد المعنى الحقيقي للنفي ، وهو الإخراج من الأرض ، وذلك أنه لم يجد في نظره مانعاً من إرادة الحقيقة وهي الأصل الذي يصار اليه ويترجح المراد من الألفاظ به حين لا تصرف عنه قرينة ، فجعل إخراج المفسد المحارب من الأرض التي ارتكب فيها جرائمه ، عقوبة من العقوبات ، ورآها عقوبة جرت بمثلها عادة الشريعة وورد الحديث بها في مثل « وتغريب عام » وأشار إليها القرآن الكريم في مثل قوله تعالى : « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم » حيث سوّى بين النفي والقتل ، ثم هي تشبه

(١) المصدر نفسه ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

عقوبة الضرب في أنها عقوبة معتادة معروفة ، فلا مانع إذن من حمل اللفظ على معناه الحقيقي ، وإرادة هذه العقوبة ، وهذا ما قال به جمهور الفقهاء .

أما الحنفية فقد رأوا أن هناك ما يصرف عن إرادة المعنى الحقيقي، واعتمدوا في ذلك على معنى عقلي ، وذلك أن النفي إن اريد به الإخراج من الأرض ، أي من جميعها ، لم يكن ذلك ممكناً إلا بالقتل ، والقتل عقوبة تقدمت فلا يكرر ذكرها ، وإن اريد بـه الإخراج من أرض الإسلام إلى أرض الكفر فلا يصح ، لأنه لا يجوز الزج بالمسلم إلى دار الكفر ، وقـد وجدنا الشريعة تنهى عن إقامة الحدود إذا ضرب المسلمون في أرض العدو ، خوفاً من أن تلحق الحدود أنفة فيهرب إلى أرض الكفر ويفتن في دينه، وإن اريد بالأرض أرض اخرى إسلامية غير الـتي ارتكب فيها جريمته ، لم يتحقق الغرض المقصود من كف أذاه عن المسلمين ، إذ هو إنما ينتقل من وسط إسلامي إلى وسط إسلامي آخر ، ومن هنا قالوا : المراد بالنفي معناه المجازي وهو السجن ، لأن فيه عقوبته وكف أذاه ، وهو يشبه النفي في أن كلا منهما إبعاد عن المجتمع ، وإقصاء للمجرم عنه ، والعرب تستعمل النفي بمعنى السجن ، قال بعض الشعراء يذكر حاله في السجن:

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلسنا من الأموات فيها ولا الأحياء
إذا جاءنا السجان يوماً لحاجـة عجبنا وقلنا: جاء هذا من الدنيا!

(٢) اختلفوا في فهم قوله تعالى : « وثيابك فطهر » هل يدل على وجوب إزالة النجاسة أو لا دلالة له على ذلك؟ وخلاصة الأمر في ذلك أن العلماء متفقون على أن إزالة النجاسة مأمور بها شرعاً لورود أدلة كثيرة غير هـذه الآية تفيد ذلك ، ولكنهم اختلفوا : هل ذلك الأمر الوارد في الأدلة على سبيل الوجوب ، أو على سبيل الندب الذي يعبر عنه أحياناً بكونه « سنة مؤكدة » .

فبالأول يقول جمهرة العلماء .

وبالثاني يقول مالك وأصحابه .

وقد وقعت المناقشة في هذا الفرع بين المختلفين، وكان من عناصرها هذه الآية: فمن حمل التعبير فيها على المعنى الحقيقي للتطهير والثياب المحسوسين، رأى فيها دليلاً على وجوب إزالة النجاسة. أما المالكية فيقولون: إن هذا تعبير على سبيل الكناية يراد به تطهير القلب، فهو كما يقال: فلان طاهر الذيل، كناية عن العفة، وفلان كثير الرماد، كناية عن الكرم، ونحو ذلك، وعلى هذا فلا دخل له في الموضوع، ولا حجة به.

ومما نذكره على سبيل الطرافة — لما فيه من تصوير شدة بعض الفقهاء أحياناً — ما علق به ابن حزم الظاهري — وهو بصدد الكلام على ورود المجاز أو عدم وروده في لسان الشرع — إذ يقول:

«... وقد ذكر رجل من المالكيين — يلقب «خُوَيْزَ مَنْدَاذ»[1] — أن للحجارة عقلاً، ولعل تمييزه يقرب من تمييزها! ويقول: إن من الدليل على أنها تعقل قوله تعالى: «وإن من الحجارة لما تتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله» فدلّ ذلك على أن لها عقلاً... أو كلاماً هذا معناه... وأعجب العجب أن هؤلاء القوم يأتون إلى الألفاظ اللغوية فينقلونها عن موضوعها بغير دليل فيقولون: معنى قوله تعالى: «وثيابك فطهّر» ليس الثياب المعهودة، وإنما هو القلب، ثم يأتون إلى ألفاظ قام البرهان الضروري على أنها منقولة عن موضوعها في اللغة إلى معنى آخر، وهو إيقاع الخشية على الحجارة، فيقولون: ليس هذا اللفظ منقولاً عن موضوعه، مكابرة للعيان، وسعياً في طمس نور الحق، وإقراراً لعيون الملحدين الكائدين لهذا الدين، ويأبى الله إلا أن يتم نوره وبالله تعالى التوفيق» اهـ. كلام ابن حزم.

(١) هو أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله المالكي الأصولي من أهل البصرة، توفي في حدود الأربعمائة. إقرأ الإحكام لابن حزم وحواشيه ص ٢٣ ج ٤ وما بعدها.

(د) ومن أسباب الخلاف في فهم القرآن والسنة أيضاً : أن اللغة العربية قد يرد فيها العام مراداً به عمومه الشامل لكل ما يطلق عليه اللفظ ، وقد يرد فيها العام مراداً به بعض ما يدل عليه وهو العام المخصوص .

(١) وقد يكون ذلك واضحاً لا يخفى على أحد ، فلا يُختلف في معناه مثل قوله تعالى : « « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » فهذا من العام المراد به ظاهره ولا خصوص فيه ، ومثله قوله تعالى : « يا أيهـا الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » أما قوله تعالى : « ما كان لأهل المدينـة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » فهو بحسب اللفظ عام، ولكن يراد به خصوص المطيقين غير ذوي الأعذار ، ومثله قوله تعالى : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم » .

(٢) وقد يكون المراد من اللفظ العام خفياً فلا يُدرى هل يُحكم بعمومه أو بخصوصه ، فمن الناس من يجريه على العموم حتى يتبين أنه مخصوص ، ومن الناس من يقول هو خاص حتى يتبين عمومه ، ومن الناس من يوجب البحث قبل الحكم بأنه عام أو خاص ... الخ .

(٣) ومما يتصل بذلك اختلافهم فيما إذا ورد الأمر باللفظ الموضوع للذكور هل يكون خاصاً بالذكور دون الإناث حتى يقوم دليل على دخول الإناث فيه ؟ أو يدخل فيه الإناث من أول الأمر حتى يأتي دليل على أنهن غير داخلات ؟

فالذين يقولون بالأول يعتمدون في قولهم هذا على أن اللغة فرقت بين الحديث عن الذكور والحديث عن الإناث ، وجعلت لكلٍّ لفظاً خاصاً به، فكما لا يجوز أن نفهم من الحديث عن النساء باللفظ الموضوع لهن شموله للرجال بنفس اللفظ ، لا يجوز كذلك أن نفهم من الحديث عن الرجال باللفظ الموضوع لهم شموله للنساء بنفس اللفظ ، ولكن نلتمس شمول الحكم للنساء من أدلة اخرى .

والذين يقولون يدخل الإناث فيما ذكر عن الرجـــال حتى يتبين أنهن غير

داخلات، يعتمدون في ذلك على أن اللغة العربية إذا اجتمع الرجال والنساء غلبت الرجال وتحدثت عن الفريقين باللفظ الخاص بالرجال، والشريعة عامة والرسول مبعوث بها للرجال والنساء جميعاً، فالأصل في كل خطاب بها أن يوجه إلى سائر المكلفين والمكلفات، وإن جاء الخطاب للرجال خاصة، لكن إذا تبين أن النساء غير داخلات في هذا الخطاب فاللفظ حينئذ خاص.

وابن حزم من القائلين بالثاني:

ويترتب على هذا كثير من الاختلاف في الفروع.

ومن كلام ابن حزم في ذلك وهو يناقش مخالفيه (١) [فإن قالوا: فأوجبوا عليهن النفار للتفقه في الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، أي بعموم قوله تعالى: « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين». وقوله تعالى: « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» ونحو ذلك من الخطاب الموجه إلى الرجال - « قلنا - وبالله تعالى التوفيق: نعم هذا واجب عليهن كوجوبه على الرجال، وفرضٌ على كل امرأة التفقه من كل ما يخصها كما ذلك فرضٌ على الرجال: ففرض على ذات المال منهن معرفة أحكام الزكاة، وفرض عليهن كلهن معرفة أحكام الطهارة والصلاة والصوم وما يحرم من المآكل والمشارب والملابس وغير ذلك كالرجال ولا فرق، ولو تفقهت امرأة في علوم الديانة الزمنا قبول نذارتها، وقد كان ذلك: فهؤلاء أزواج النبي ﷺ وصواحبه، فقد نقل عنهن أحكام الدين، وقامت الحجة بنقلهن ولا خلاف بين أصحابنا وجميع أهل نحلتنا في ذلك، فمنهن سوى أزواجه ﷺ: ام سليم، وام حرام، وام عطية، وام كرز، وام شريك، وام الدرداء وام خالد، وأسماء بنت أبي بكر، وفاطمة بنت قيس، وبسرة، وغيرهن، ثم في التابعين عمرة وام الحسن، والرباب وفاطمة بنت المنذر وهند الفراسية

(١) الإحكام لابن حزم ص ٨١ ج ٣ وما بعدها.

ـ أو القرشية ـ وحبيبة بنت ميسرة ، وحفصة بنت سيرين ، وغيرهن ، ولا خلاف بين أحد من المسلمين قاطبة في أنهن مخاطبات بقوله تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » و « من شهد منكم الشهر فليصمه » و « ذروا ما بقي من الربا » و « حرمت عليكم الميتة والدم » و « الذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم » و « وأشهدوا إذا تبايعتم » و « لله على الناس حج البيت » و « أفيضوا من حيث أفاض الناس » و « هل أنتم منتهون » و « ابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح » وسائر أوامر القرآن ، وإنما لجأ من لجأ هذه المضايق في مسألة أو مسألتين ، تحكموا فيهما وقلدوا فاضطروا إلى مكابرة العيان ، ودعوى خروج النساء من الخطاب بلا دليل ... وقد قال الله تعالى : « وإنه لذكر لك ولقومك » وقال أيضاً : « وأنذر عشيرتك الأقربين » فنادى ﷺ بطون قريش بطناً بطناً ، ثم قال يا صفية بنت عبد المطلب ، يا فاطمة بنت محمد ! فأدخل النساء مع الرجال في الخطاب الوارد كما ترى .. وعن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت : « كنت أسمع الناس يذكرون الحوض ، ولم أسمع ذلك من رسول الله ﷺ ، فلما كان يوم من ذلك ، والجارية تمشطني ، فسمعت رسول الله ﷺ يقول : « أيها الناس » فقلت للجارية : استأخري عني ، قالت إنما دعا الرجال ولم يدع النساء ، فقلت : إني من الناس] .

[..واحتج بعضهم بقوله تعالى: «إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات» فالجواب وبالله التوفيق . إنه لا ينكر التأكيد والتكرار ، وقد ذكر الله تعالى الملائكة ثم قال : « وجبريل وميكال » وهما من الملائكة ، ويكفي من هذا ما قدمناه من أوامر القرآن المتفق على أن المراد بها الرجال والنساء معاً ، بغير نص آخر ، ولا بيان زائد إلا اللفظ . وكذلك قوله : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم » ، بيان جلي على أن المراد بذلك الرجال والنساء معاً ، لأنه لا يجوز في اللغة أن يخاطب الرجال فقط ، بأن يقال لهم : « من رجالكم » . وإنما كان يقال من أنفسكم . وبالله تعالى التوفيق] .

— ٢ —

بلوغ الحديث أو عدم بلوغه — قبول الحديث أو عدم قبوله — أمثلة من نقد الحديث : نقد ابن حزم لحديث في زكاة الفطر — نقد الحنفية لحديث المصراة — تحقيق في أساس القبول : لا ينبغي أن ترفض الرواية لمجرد صدورها من مخالف في المذهب — المعول عليه هو كون الراوي صادقاً — رأي الرازي — رأي ابن حزم — هل يجب بيان سبب التعديل والتجريح — السنة تأخذ برواية الشيعة والشيعة تأخذ برواية السنة والعبرة عند الجميع بصدق الراوي .

★ ★ ★

أسباب الاختلاف التي تختص بها السنة :

من أهم أسباب الإختلاف في السنة :

١ — بلوغ الحديث أو عدم بلوغه .　　　٢ — قبول الحديث أو عدم قبوله .

(أ) من جهة النظر في السند .　　　(ب) ومن جهة النظر في المتن .

أولاً ـ بلوغ الحديث أو عدم بلوغه :

(١) كان أصحاب رسول الله ﷺ هم الذين أخذوا منه ورووا عنه، وكانوا متفاوتين في حظهم من الأخذ ، وفي إقبالهم على الرواية ، فكان رسول الله ﷺ

يُسأل عن المسألة ، ويحكم بالحكم ، ويأمر بالشيء أو ينهى عنه ، ويفعل الشيء أو يعرض عنه ، فيعي ذلك من يحضره ، ويغيب عمن غاب عنه .

فلما توفي رسول الله ﷺ تفرق أصحابه في البلاد ، فأخذ أهل كل بلد عمن لديهم من الأصحاب ، وفي ذلك يقول ابن حزم : « فقد حضر المديني ما لم يحضر البصري ، وحضر البصري ما لم يحضر الشامي ، وحضر الشامي ما لم يحضر البصري ، وحضر البصري ما لم يحضر الكوفي ، وحضر الكوفي ما لم يحضر المديني ، كل هذا موجود في الآثار ، وفي ضرورة العلم بما قدمنا من مغيب بعضهم عن مجلس النبي ﷺ في بعض الأوقات ، وحضور غيره ، ثم مغيب الذي حضر أمس وحضور الذي غاب ، فيدري كل واحد منهم ما حضر ، ويفوته ما غاب عنه ، هذا معلوم ببديهة العقل ، وقد كان علم التيمم عند عمار وغيره ، وجهله عمر وابن مسعود فقالا : لا يتيمم الجنب ولو لم يجد الماء شهرين ، وكان حكم المسح عند علي وحذيفة رضي الله عنهما وغيرهم ، وجهلته عائشة وابن عمر وأبو هريرة وهم مدنيون ، وكان توريث بنت الابن مع البنت عند ابن مسعود وجهله أبو موسى ... »[1] .

(١) فمن أمثلة ذلك ما أخرجه مسلم من أن ابن عمر كان يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن ، فسمعت عائشة بذلك فقالت : يا عجباً لابن عمر هذا يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن ، أفلا يأمرهن أن يحلقن رؤوسهن . لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد ، وما أزيد على أن أفرغ على رأسي ثلاث إفراغات .

(٢) ومنها ما ذكره الزهري من أن هنداً لم تبلغها رخصة رسول الله ﷺ

---

(١) الاحكام لابن حزم ص ١٢٦ ، ١٢٧ ج ٢ .

في الاستحاضة — وهي التي ينزل عليها الدم بعد أقصى مدة الحيض — فكانت تبكي لأنها لا تصلي .

(٣) ومنها ما روي عن رفاعة بن رافع قال : بينما أنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، إذ دخل عليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا زيد بن ثابت يفتي الناس في المسجد برأيه في الغسل من الجنابة ، فقال عمر : عليَّ به ، فجاء زيد ، فلما رآه عمر قال : أيْ عدوُّ نفسه ! قد بلغتَ أن تفتي الناس برأيك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين، والله ما فعلت ، ولكن سمعت من أعمامي حديثاً فحدثت به من أبي أيوب ، ومن ابيّ بن كعب ، ومن رفاعة بن رافع ، فقال عمر : عليَّ برفاعة بن رافع ، فقال : قد كنتم تفعلون ذلك إذا أصاب أحدكم المرأةَ فأكسَل أن يغتسل ؟ فقال : قد كنا نفعل ذلك على عهد رسول الله ﷺ ، لم يأتنا فيه عن الله تحريم ، ولم يكن فيه عن رسول الله ﷺ شيء ، فقال عمر : ورسول الله ﷺ يعلم ذلك ؟ قال : ما أدري . فأمر عمر بجمع المهاجرين والأنصار ، فجُمعوا وشاوَرهم ، فشارَ الناسُ أن لا غسل ، إلا ما كان من معاذ وعلي ، فإنهما قالا : إذا جاوز الختانُ الختانَ وجب الغسل ، فقال عمر : هذا وأنتم أصحاب بدر قد اختلفتم ، فمَن بعدكم أشد اختلافاً ! فقال عليّ : يا أمير المؤمنين إنه ليس أحد أعلم بهذا — من شأن رسول الله ﷺ — من أزواجه ، فأرسل الى حفصة ، فقالت : لا علم لي ، فأرسل الى عائشة ، فقالت : إذا جاوز الختانُ الختانَ فقد وجب الغسل ، فقال : لا أسمع برجل فعل ذلك إلا أوجعته ضرباً — يريد عدم الاغتسال من الإكسال — [١] .

٢ — ثم جاء بعد ذلك عصر التابعين فأخذ كلٌّ بما علم من رواية عن الصحابة ، وغاب عن بعضهم كذلك ما علمه غيرهم . ثم أتى بعد التابعين فقهاء الأمصار ،

---

(١) أعلام الموقعين : ص ٦٣ - ٦٤ ، ج ١ .

كأبي حنيفة ، وسفيان ، وابن أبي ليلى ، وابن جريج ، ومالك ، وابن الماجشون ، وعثمان البتي ، وسوار ، والأوزاعي ، والليث ، وزيد بن علي ، وجعفر بن محمد ، وغيرهم ، فمنهم من كان في الكوفة ، ومنهم من كان بمكة ، ومنهم من كان بالبصرة ، ومنهم من كان بالمدينة ، ومنهم من كان بالشام ، ومنهم من كان بمصر ... الخ .

فجروا على تلك الطريقة من أخذ كل واحد منهم عن التابعين من أهل بلده فيما كان عندهم ، واجتهادهم فيما لم يجدوه عندهم وهو موجود عند غيرهم (١) .

ثانياً ـ قبول الحديث أو عدم قبوله :

قد يقبل بعض المجتهدين حديثاً لتوافر شروط القبول في نظره ، ويردّه آخر لعدم توافر شروط القبول عنده ، ويقع على ذلك وجوه : منها ما يرجع الى السند ، ومنها ما يرجع الى المتن .

١ ـ فيما يرجع الى السند :

(١) ما استدل به الشافعية من حديث مروي عن عبادة بن الصامت حيث قال : « صلى رسول الله ﷺ الصبح فثقلت عليه القراءة ، فلما انصرف قال : إني أراكم تقرؤون وراء إمامكم ، قال : قلنا يا رسول الله إي والله ، قال : لا تفعلوا إلا بأمّ القرآن ، فإنه لا صلاة لمن يقرأ بها » . رواه أبو داود والترمذي .

وقد استدل الشافعية بهذا الحديث فيما استدلوا به على وجوب قراءة الفاتحة على المأموم ، وفي هذا الحديث يقول ابن قدامة المقدسي صاحب (المغنى) : حديث عبادة لم يروه غير ابن إسحق ونافع بن محمود بن ربيع ، وابن إسحق مدلس ، ونافع أدنى حالاً منه .

---

(١) الإحكام لابن حزم ص ١٢٦ ج ٢ .

وهذا النوع كثير ، وهو أساس هام من أسس الخلاف ، ولا سيما بين السنة والإمامية والزيدية ،فكل فريق منهم يرى أحاديث ثبتت عنده لا يراها الآخر ، بسبب تجريحهم من رواها ، أو عدم الأخذ عنه لأمر آخر قام لديهم [١] .

(٢) ومن ذلك اختلافهم في العمل بالحديث المرسل — وهو قول غير الصحابي قال رسول الله ﷺ — فبعضهم يرى العمل به ، وبعضهم لا يرى ذلك .

قال ابن الصلاح : الاحتجاج بــه مذهب مالك وأبي حنيفة وأصحابهما في طائفة ، والشيعة يأخذون بالمرسل إذا علم من حال مرسله أنه لا يرسل عن غير الثقة فينظمونه في سلك الصحاح ، كمراسيل محمد بن عمير [٢] .

ويقول ابن كثير : إن الاحتجاج بــه محكي عن الإمام أحمد بن حنبل في رواية ، وأما الشافعي فنص على أن مرسلات سعيد بن المسيب ، حسان ، قالوا: لأنه تتبعها فوجدها مسندة ، والذي عوّل عليه كلامه في «الرسالة» أن مراسيل كبار التابعين حجة إن جاءت من وجه آخر ولو مرسلة ، أو اعتضدت بقول صحابي أو أكثر العلماء ، أو كان المرسل لو سمي لا يسمى إلا ثقة ، فحينئذ يكون مرسله حجة ولا ينتهي الى رتبة المتصل [٣] .

(٣) وقد يقع في نفس من بلغه الحديث أن راويه قد وهم ولم يحفظ .

وقد نقل مثل هذا عن الصحابة وعمن بعدهم :

ومن أمثلة ذلك على عهد الصحابة : ما فعلته عائشة في الخبر الذي رواه ابن عمر عنه ﷺ ، من أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه ، فقضت عائشة عليه بأنه لم يأخذ الحديث على وجهه : مرّ رسول الله ﷺ على يهودية يبكي عليها أهلها

(١) لنا في هذا الشأن تعقيب سيمر بك قريباً .
(٢) الرسالة « الوجيزة » للشيخ بهاء الدين العاملي ص ٣ طبع إيران .
(٣) الباعث الحثيث لابن كثير ص ٣٨ — ٣٩ .

فقال : « إنهم يبكون عليها وإنها تعذب في قبرها » فظن العذاب معلولاً للبكاء فجعل الحكم عاماً على كل ميت .

وشبيه بهذا فيما بعد الصحابة ما رواه ابن ماجه عن إسماعيل بن محمد الطلحي عن ثابت بن موسى العابد الزاهد عن شريك الأعمش عن أبي سفيان عن جابر مرفوعاً : « من كثرت صلاته بالليل حَسُنَ وجهه بالنهار » قال الحكم : « دخل ثابت على شريك وهو يملي ويقول : حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال، قال رسول الله ﷺ ، — وسكت ليكتب المستملي — فلما نظر إلى ثابت قال: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار ، وقصد بذلك ثابتاً لزهده وورعه ، فظن ثابت أنه متن ذلك الإسناد فكان يحدث به ، وقال ابن حبان : « إنما هو قول شريك قاله عقب حديث الأعمش عن أبي سفيان عن جابر مرفوعاً « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم » فأدرجه ثابت في الخبر[1] .

٢ — ومما يرجع إلى المتن :

(١) نقد ابن حزم لحديث قيل إن الحسن رواه عن ابن عباس جاء فيه أنه خطب في آخر رمضان على منبر البصرة فقال : أخرجوا صدقة صومكم، فكأن الناس لم يعلموا فقال : مَنْ ههنا من أهل المدينة ؟ فقوموا إلى إخوانكم فعلموهم فإنهم لا يعلمون : فرض رسول الله ﷺ هذه الصدقة صاعاً من تمر أو شعير أو نصف صاع من قمح على كل حر أو مملوك ، ذكر أو انثى ، صغير أو كبير ، فلما قدم علي رأى رخصَ الشعير . قال قد أوسع الله عليكم فلو جعلتموه صاعاً من كل شيء .

قال ابن حزم : وهذا الحديث قبل كل شيء لا يصح لوجوه ظاهرة .

أولها : أن الكذب والتوليد والوضع فيه ظاهر كالشمس ، لأنه لا خلاف

---

(١) الباعث الحثيث الى معرفة علوم الحديث لابن كثير ص ٧٧ .

بين أحد من أهل العلم بالأخبار أن يوم الجمل كان لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ثم أقام علي بالبصرة في جمادى الآخرة ، وخرج راجعاً إلى الكوفة في صدر رجب ، وترك ابن عباس بالبصرة أميراً عليها ، ولم يرجع علي بعدها إلى البصرة ، هذا ما لا خلاف فيه من أحد له علم بالأخبار ، وفي الخبر المذكور ذكر تعليم ابن عباس أهلَ البصرة صدقةَ الفطر ، ثم قدم علي بعد ذلك ، وهذا هو الكذب البحت الذي لا خفاء به ، ووجه ثان أن الحسن لم يسمع من ابن عباس أيام ولايته البصرة شيئاً ، ولا كان الحسن حينئذ بالبصرة ، وإنما كان بالمدينة – هذا مما لا خلاف فيه بين أحد من نقلة الحديث ، وأيضاً وجه ثالث فإنه حديث مفتعل لا يصح ، لأن البصرة فتحها وبناها – سنة أربع عشرة من الهجرة – عتبة بن غزوان المازني – بدري مدني – ووليها بعده المغيرة بن شعبة ، وأبو موسى ، وعبد الله بن عامر ، وكلهم مدنيون ، ونزلها من الصحابة أزيد من ثلاثمائة رجل ، منهم عمران بن الحصين ، وأنس بن مالك ، وهشام بن عامر ، والحكم بن عمرو ، وغيرهم ، وفتحت أيام عمر بن الخطاب ، وتداولها ولاته ، إلى أن وليها ابن عباس بعد صدر كبير من سنة ست وثلاثين من الهجرة فلم يكن في هؤلاء من يخبرهم بزكاة الفطر ، بل ضيعوا ذلك وأهملوه ، واستخفوا به أو جهلوه مدة أزيد من اثنين وعشرين عاماً : مدة خلافة عمر بن الخطاب ، وعثمان رضوان الله عنهما ، حتى وليهم ابن عباس بعد يوم الجمل ؟ أترى عمر وعثمان ضيعا إعلام رعيتهما هذه الفريضة ؟ أترى أهل البصرة لم يحجوا أيام عمر وعثمان ، ولا دخلوا المدينة فغابت عنهم زكاة الفطر إلى بعد يوم الجمل ؟ إن هذا لهو الضلال المبين ، والكذب المفترى ، ونسبة البلاء إلى الصحابة رضوان الله عليهم ، إن هذا الخبر ما يدخل تصحيحه في عقل سليم ، وما حدث الحسن – والله أعلم – بهذا الحديث إلا على وجه التكذيب له ، لا يجوز غير ذلك (١) .

ولا شك أن هذا نقد جيد يدل على تعمق في البحث ، وطول باع .

---

(١) الإحكام لابن حزم ج ٢ ص ١٣٢ .

ومن ذلك موقف الحنفية من الحديث المعروف بحديث « المصَرّاة »[١]، وهو ما روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « لا تُصَرُّوا الإبلَ والغنم فمن ابتاعها بعد فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها: إن شاء أمسك، وإن شاء ردها وصاعاً[٢] من تمر.

فمقتضى هذا الحديث أن للمشتري أن يرد، وعليه في هذه الحالة أن يدفع للبائع صاعاً من تمر، سواء أكان اللبن قليلاً أم كثيراً، وأن اللبن لا يرد للبائع كأن التمر بدل منه.

وثبوت الخيار بالتصرية بين الرد والإمساك هو مذهب الجمهور، وبه قال عبد الله بن مسعود، وابن عمر، وأبو هريرة، وأنس، والشافعي، ومالك، والليث وابن أبي ليلى، وأحمد، وإسحاق، وأبو يوسف، وزفر، أخذاً بهذا الحديث.

وقال أبو حنيفة: لا يثبت بذلك خيار، لأن نقصان اللبن ليس بعيب، ولهذا لو وجدها ناقصة اللبن عن أمثالها لم يثبت له الخيار.

ولذلك يرد كثير من الحنفية هذا الحديث، ولا يثبتون الرد بالتصرية، ولا يوجبون رد الصاع من التمر، لأن هذا يخالف الاصول الفقهية في نظرهم، من جهات:

من جهة أن اللبن ضمن فيه بالتمر، والتمر ليس مثلياً ولا قيمياً للبن، والقاعدة أن ضمان المثليات يكون بمثلها، والقيميات بقيمتها.

ومن جهة أنه قد حدد قدر الضمان بالصاع ولم ينظر إلى كمية اللبن، والقاعدة عندهم أن الضمان إنما يكون بقدر التالف.

---

(١) المصراة: هي الدابة التي ربط ضرعها ليجتمع اللبن فيه، من قولك: صريت الماء في الحوض – بتخفيف الراء المفتوحة وتشديدها إذا جمعته – والبائع يفعل ذلك ليوهم المشتري أن لبنها كثير، غشاً له.

(٢) الصاع: مكيال قديم قدر بقدحين وثلث قدح.

ومن جهة أن اللبن ضمن فيه بالتمر مع بقائه، والقاعدة أن الأعيان إنما تضمن عند هلاكها [١] .

والشيعة الإمامية يرون التصرية من قبيل التدليس، وإن لم تكن عيباً، ويقولون: إذا ردها رد معها اللبن الذي احتلبه منها، ولو فقد دفع مثله؟ ويعتمدون في ذلك على خبر آخر رواه أبو داود في سننه «كتاب البيوع، الباب ٤٦» وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من ابتاع محفّلة [٢] فهو بالخيار ثلاثة أيام فإن ردها رد معها مثل أو مثليْ لبنها قمحاً»، وعلى هذا فقد يزيد الواجب على الصاع من التمر وقد ينقص، وهذا الحديث الأخير هو الذي يوافق قاعدتهم في اعتبار التصرية تدليساً يوجب الرد، وفي رد اللبن أو مثله لأنه ملك البائع. وحملوا الحديث الآخر ـ لو ثبت ـ على صورة ما إذا تعذر اللبن ومثله مع مساواة الصاع لقيمته. فتحصل أن فريقاً يعدها عيباً ويثبت بها الخيار، على ما جاء في الخبر الأول، وأولئك هم الجمهور، وفريقاً يعدها تدليساً وليست بعيب، ويثبتون بها الخيار، واللبن أو قيمته إن لم يكن، وهم الإمامية، وفريقاً لا يعدها عيباً ولا تدليساً، وذلك قول أبي حنيفة ومن تبعه.

(٤) وبعضهم يرى عدم العمل بالحديث الذي تركه أهل الفقه والفتوى مع عدم الطعن في روايته.

وممن يرون ذلك: أبو حنيفة ومالك والشيعة الإمامية، لأن إهمال الفقهاء له وعدم عملهم به مع أنه منهم على مرأى ومسمع يكشف عن وجود قرينة تستدعي الإعراض عن ذلك الحديث بالخصوص، وإن كان الراوي له صادقاً [٣]،

---

(١) راجع نيل الأوطار للشوكاني ص ٢١٦ ج ٥ طبع المطبعة العثمانية، وأعلام الموقعين لابن قيم الجوزية ص ٥ ج ٢، ثم تذكرة الفقهاء للحلي الامامي ص ٣٦٦ ج ٧ وفيها رأي الامامية.

(٢) هي المصراة، وسميت محفلة لأنه جمع فيها اللبن، ولهذا سمي اجتماع الناس محافل.

(٣) كتاب «مع الشيعة الامامية» لفضيلة الاستاذ الشيخ محمد جواد مغنيه، ص ٧٣.

أما الشافعي فإنه يرى العمل به لقوته .

ومثال ذلك حديث القلتين، فإنه حديث صحيح روي بطرق كثيرة، ولكنه لم يظهر في عهد سعيد بن المسيب ، والزهري ، ولم يمش عليه المالكية ولا الحنفية وعمل به الشافعية [١] .

هذه أمثلة أردنا أن نبين بها الاختلاف الراجع إلى العمل ببعض الأحاديث من جانب وتركها من جانب آخر ، ولم نرد الاستقصاء في الأنواع ولا في الأمثلة.

تحقيق في أساس القبول والرد من حيث السند :

ونودّ أن نقول هنا كلمة عن رأينا في الخلاف الذي سببه استمساك كل فريق بما جاء عن طريق رواته ، ورفضه الأخذ بما جاء عن طريق رواة مخالفيه ، فنقول : إن هذا النوع من الخلاف لا مبرر له ، ولا ينبغي أن يعتد به في الفقه ، ونستطيع — نحن معاشر المتأخرين من مختلف المذاهب الإسلامية — أن نتخلص منه ونسير على أساس آخر هو أن ننظر من حيث السند إلى صدق الراوي وضبطه، أو كذبه وغفلته ، ولا شأن لنا بكونه يرى كذا في المعارف الكلامية أو في الامور التي لا تتعلق باصول الدين ، ما دام لا يعتقد جواز الكذب لتأييد مذهبه ، ونؤيد هذا الرأي بما يأتي :

أولاً : انه لا ارتباط بين ما يعتقده الإنسان وما يتصف به من الصدق أو الكذب أو الضبط أو السهو ، فكم من صادق ضابط في روايته ، وهو مع ذلك يعتقد شيئاً هو مخطىء فيه ، وكم من مصيب فيما يعتقد ولكنه مع ذلك معروف بالكذب أو بالغفلة ، ونحن مكلفون بالعمل بما ثبت عن رسول الله ﷺ من أي طريق صحيح منضبط ، لا من طريق معين دون سواه .

(١) « حجة الله البالغة » للدهلوي ص ١٤٧ ج ١ .

نعم إن العلماء يردون رواية الكافر ، وهــذا ليس سببه أنهم لا يتصورون الصدق منه ، أو يتصورون غلبة الكذب عليه ، ولكن يتصورون فيه أن عداوته للمسلمين تحمله على محاولة تضليلهم ، وإفساد دينهم ، أما المخالف من أهل القبلة ما دام لا يرى الكذب لنصرة مذهبه جائزاً ، فإن المحققين من العلمــاء لا يرون رد روايته لمجرد خلافه ، وهذا هو الإنصاف ، لأن كلا من المتخالفين متأول في أمر ليس من الاصول التي لا مناص من الإيمان بهــا ، فأحدهما لا يكفر الآخر بمخالفته ، فلا يكون منصفاً إلا إذا عذره واحترم حقه في الاجتهاد والنظر ، فله أن يقول لصاحبه : أنت مخطىء في رأيك ، وليس له أن يقول له : أنت كاذب في روايتك لأنك مخطىء في رأيك .

قال الإمام فخر الدين الرازي : « أجمعت الامة على أنه لا تقبل رواية كافر ، من يهودي أو نصراني — إجماعاً — سواء عُلم من دينه الاحتراز عن الكذب أو لم يعلم — أي لأن مخالفته في الدين تجعله عدواً للمسلم ، وتجعل الشأن فيه عــدم النصيحة وعدم تحرّي الصدق — قال : والمخالف من أهل القبلة — إذا كفّرناه كالمجسم وغيره — هل تقبل روايتــه أم لا ؟ والحق أنه إن كان مذهبه جواز الكذب لا تقبل روايته وإلا قبلناها وهو قول أبي الحسين البصري »[1] .

هذا كلام الإمام الرازي ، ولا شك أنه رأي منصف ، بل إننا نستطيع أن نصفه بالتسامح ، لأنه جعل المجسم ممن تقبل روايته ، فما بالك بمن لا يصل مذهبه إلى القول بالتجسيم ؟

ولابن حزم في ذلك كلام جيد ، قال :

« هل نقبل نقل أهل الأهواء وروايتهم ؟ فقولنا في هــذا — وبالله تعالى

---

(١) راجع حاشية روضة الناظر المسماة « نزهة الخاطر العاطر » للشيخ عبد القادر أحمد بن مصطفى بدران الرومي ثم الدمشقي — ص ٢٨١ ج ١ وما بعدها — طبعة المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤٢ .

التوفيق — أن من يشهد بقلبه ولسانه أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله وأن كل ما جاء به حق ، وأنه بريء من كل دين غير دين محمد ﷺ ، فهو المؤمن المسلم ، ونقله واجب قبوله إذا حفظ ما ينقل ، ما لم يمل عن إيمانه إلى كفر أو فسق ، وأهل الأهواء ، وأهل كل مقالة خالفت الحق ، وأهل كل عمل خالف الحق ، مسلمون أخطأوا ما لم تقم عليهم الحجة ، فلا يكدح شيء من هذا في إيمانهم ولا في عدالتهم ، بل هم مأجورون على ما دانوا به من ذلك وعملوه أجراً واحداً ، إذا قصدوا به الخير ، ولا إثم عليهم في الخطأ ، لأن الله تعالى يقول : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمَّدت قلوبكم » ونقلهم واجب قبوله كما كانوا ، وكذلك شهادتهم ، حتى إذا قامت على أحد منهم الحجة في ذلك من نص قرآن أو سنة ، ما لم تخص ولا نسخت ، فأيما تمادي على التدين بخلاف الله عز وجل ، أو خلاف رسوله ﷺ ، أو نطق بذلك : فهو كافر مرتد ، لقوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجَر بينهم » الآية . وإن لم يدن لذلك بقلبه ، ولا نطق به لسانه . لكن تمادى على العمل بخلاف القرآن والسنة ، فهو فاسق بعمله ، مؤمن بعقده وقوله ، ولا يجوز قبول نقل كافر ولا فاسق ولا شهادتهما ، قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ » الآية ، وقد فرق بعض السلف بين الداعية وغير الداعية — يريد الداعية لمذهبه — وهذا خطأ فاحش ، وقول بلا برهان ، ولا يخلو المخالف للحق من أن يكون معذوراً ، بأنه لم تقم عليه الحجة ، أو غير معذور لأنه قامت عليه الحجة ، فإن كان معذوراً ، فالداعية وغير الداعية سواء ، كلاهما معذور مأجور ، وإن كان غير معذور لأنه قد قامت عليه الحجة ، فالداعية وغير الداعية سواء وكلاهما إما كافر كما قدمنا ، وإما فاسق كما وصفنا ، وبالله تعالى التوفيق (١) .

ويقول الطوفيّ الحنبلي : إن المحدث إذا كان ناقداً بصيراً في فنه جاز له أن

(١) الاحكام لابن حزم ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ ج ٤ .

يروي عن جماعة من المبتدعة الذين يفسقون ببدعتهم كعباد بن يعقوب — وكان غالياً في التشيع — وحريز بن عثمان — وكان يبغض علياً رضي الله عنه — (١) .

ومما يتصل بهذا أن أهل الاصول قد تكلموا في قبول التعديل والتجريح ، إذا لم يبين سببهما ، فالتعديل لا يشترط بيان سببه استصحاباً لحال العدالة ، وممن يقول بذلك الإمامان : أحمد بن حنبل والشافعي ، وفي ذلك دليل على أن حال المسلم محمول على العدالة الإسلامية ، ومذهب أبي حنيفة أن مجهول الحال من المسلمين يعتبر عدلاً وتقبل روايته من حيث العدالة ، واستشهدوا لذلك بأن النبي ﷺ قبل شهادة الأعرابي برؤية الهلال ولم يعرف منه إلا الإسلام ، فقد روى عكرمة عن ابن عباس قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : إني رأيت الهلال — يعني رمضان — فقال : أتشهد أن لا إله إلا الله ؟ فقال : نعم . رواه أبو داود وغيره ، وروى أيضاً عن عكرمة مرسلاً بمعناه وقال : فأمر بلالاً فنادى في الناس أن يصوموا وأن يقوموا ، وفي رواية النسائي قال : « يا بلال أذّن في الناس فليصوموا غداً » .

وأما سبب الجرح فيشترط بيانه ، وممن يقول بذلك الشافعي وأحمد في أحد قوليه ، وذلك لاختلاف الناس في سبب الجرح ، واعتقاد بعضهم ما لا يصلح أن يكون سبباً للجرح جارحاً ، كشرب النبيذ متأولاً ، فانه يقدح في العدالة عند مالك مثلاً ، ولا يقدح عند الحنفية ، وكمن يرى إنساناً يبول قائماً فيبادر بجرحه لذلك ، ولا ينظر في أنه متأول مخطىء أو معذور ، لما في الحديث أن رسول الله ﷺ بال قائماً لعذر كان به ، فينبغي بيان سبب الجرح ليكون على ثقة واحتراز من الخطأ والغلو فيه ، قال الطوفيّ رحمه الله تعالى : « ولقد رأيت بعض العامة وهو يضرب يداً على يد ويشير إلى رجل ويقول : ما هذا إلا زنديق ، ليتني

---

(١) راجع « نزهة الخاطر » في الموضع الذي سبق ذكره .

قدرت عليه فأفعل به وأفعل ، فقلت ما رأيت منه ؟ فقال : رأيته وهو يجهر بالبسملة في الصلاة [١] .

ثانياً : أنه ليس في المذاهب الستة (المالكية والحنفية والشافعية والحنابلة والإمامية والزيدية) من يرى جواز الكذب على رسول الله ﷺ فقد صح عنه أنه قال : « من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » وقد جاء هذا الحديث بلفظه أو بمعناه في روايات صحيحة في هذه المذاهب ، وقد بلغ من تشديد الشيعة الإمامية في ذلك أنهم يجعلون الكذب على رسول الله ﷺ مفسداً للصوم ، وأنه إذا وقع عمداً من صائم في رمضان ، وجب عليه القضاء والكفارة كما يجبان على من تعمد سائر المفطرات [٢] .

ثالثاً : قد بينا من قبل أن خلاف هؤلاء جميعاً بعضهم وبعض : ليس من قبيل الخلاف على الأصول التي يكون بها المسلم مسلماً ، ويجحودها أو جحود شيء منها يخرج من ربقة الإسلام ، وإذن فينبغي ألا ينظر في التجريح لمجرد أن الراوي يرى مذهباً من هذه المذاهب ، فكما لا يجوز أن يقول ذلك أحد من الشيعة عن مخالفه من شافعي أو مالكي ... الخ ، لا يجوز كذلك أن يقوله السني عن الإمامي أو الزيدي ولا العكس ، ولكن المعول عليه هو كون الراوي كاذباً أو ليس بكاذب .

وهذا عند التحقيق ما يعمل به السنة والإمامية والزيدية ، وإن تراءى من النظرة العاجلة أن كلا من الفريقين يرفض ما عند الآخر :

فالشيعة الإمامية مثلاً يشترطون في الحديث الذي يسمونه « الصحيح » أن يكون الراوي إمامياً ثبتت عدالته بالطريق الصحيح وفي الحديث الذي يطلقون

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٩٥ .

(٢) المراجعات للشيخ شرف الدين الموسوي ص ٥٠ مطبعة العرفان سنة ١٣٧٣هـ بالمراجعة رقم ١٤ .

عليه لفظ « الحسن » أن يكون الراوي إمامياً ممدوحاً ، ولم ينص أحد على ذمه أو عدالته ، وهذا إنمـــا هو اصطلاح لهم فيما يسمى « الصحيح » وفيما يسمى « الحسن » وليس كون الراوي إمامياً شرطاً في الصحة أو الحسن بالمعنى المفهوم لغة ، ويدل على ذلك — أي على أن الأمر أمر اصطلاح وتسمية — أنهم يذكرون إلى جانب هذين النوعين حديثاً يسمونه « الموثق » وهو ما رواه مسلم غير شيعي ولكنه ثقة أمين في النقل ، ويعملون به كما يعملون بالنوعين الأولين [1] وقـــال أحـــد محققيهم : « الموثق هو ما رواه العدل غير الإمامي الموثوق بنقله ، المعلوم من حالة التحرز عن الكذب والمواظبة على الحديث على ما هو عليه » ثم ذكر المحقق بعضاً ممن عملت الإمامية بروايته وليس بشيعي فقـــال : « وممن عملت الطائفة بروايته من أهل السنة حفص بن غياث ، وغياث بن كلوب ، ونوح ابن دراج السكوني ... الخ . وقـــال الشيخ محمد حسن الصدر في تعليقه على ذلك بكتابه (الشيعة) [2] « فأنت ترى أن الشيعة كانت — ولا تزال — تأخـــذ عن السني إذا عرفت منه الصدق وعلمت منه التحفظ ، ومن المعلوم أن الشيعة لا تفحص عن الحديث عندما يرويه المخالف لأنـــه صادر من غير شيعي ، لأن طريقة الفحص تسير عليها الشيعة مع السني والشيعي من غير أي خصوصية » .

وقد قبل البخاري وغيره من أصحاب كتب الصحاح التي يعتمدها أهل السنة كثيراً من الرواة المعروفين بالتشيع ، وفي ذلك يقول الشيخ شرف الدين الموسوي الشيعي الامامي في كتابه (المراجعات) [1] « تشهد بهذا — يريد احتجاج أهل السنة برواية الشيعة — أسانيد أهل السنة وطرقهم المشحونة بالمشاهير من رجال الشيعة ، وتلك صحاحهم الستة وغيرهـــا ، تحتج برجال من الشيعة وصمهم الواصمون بالتشيع والانحراف ، ونبزوهم بالرفض والخلاف والتنكب عن الصراط

---

(١) « مع الشيعة الامامية » للاستاذ محمد جواد مغنيه ص ٧٢ وراجع في ذلك أيضاً « الرسالة الوجيزة » للشيخ بهاء الدين العاملي ص ٣ .

(٢) ص ١٣٤ .

وفي شيوخ البخاري رجال من الشيعة نبزوا بالرفض ، ووصموا بالبغض ، فلم يقدح ذلك في عدالتهم عند البخاري وغيره ، حتى احتجوا بهم في الصحاح ، بكل ارتياح » .

ثم ذكر الشيخ الموسوي مائة من الرواة الذين أخذ بهم أهل السنة وهم من الشيعة ، ونحن نورد بعض ذلك ليتبين للقارىء منهج البحث . قال [٢] :

أبان بن تغلب بن رياح القارىء الكوفي :

ترجمه الذهبي في ميزانه فقال : أبان بن تغلب (م عو) الكوفي شيعي جلد لكنه صدوق ، فلنا له صدقه وعليه بدعته ، قال: وقد وثقه أحمد بن حنبل وابن معين وأبو حاتم، وأورده ابن عدي وقال : كان غالياً في التشيع، وقال السعدي: زائغ مجاهر إلى آخر ما حكاه الذهبي عنهم في أحواله، وعده ممن احتج بهم مسلم وأصحاب السنن الأربعة أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، حيث وضع على اسمه رموزهم ، ودونك حديثه في صحيح مسلم والسنن الأربعة عن الحكم ، والأعمش ، وفضيل بن عمرو ، وروى عنه عند مسلم ، سفيان بن عيينة وشعبة وإدريس الأودي ، مات رحمه الله سنة إحدى وأربعين ومائة .

اسماعيل بن زكريا الأسدي الخلقاني الكوفي :

ترجمه الذهبي في الميزان قال : إسماعيل بن زكريا — ع — الخلقاني الكوفي صدوق شيعي ، وعده ممن احتج بهم أصحاب الصحاح الستة ودونك حديثه في صحيح البخاري عن محمد بن سوقة ، وعبيد الله بن عمر ، وحديثه في صحيح مسلم عن سهيل ، ومالك بن مقول، وغير واحد ، أما حديثه عن عاصم الأحول

---

(١) ص ٤٩ .
(٢) انظر ص ٥٢ وما بعدها من « المراجعات » .

فموجود في الصحيحين جميعاً وروى عنه محمد بن الصباح ، وأبو الربيع عندهما ، ومحمد بن بكار ، عند مسلم ، ومات سنة أربع وسبعين ومائة ببغداد ، وأمره في التشيع ظاهر معروف ... الخ .

جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي الكوفي :

ترجمه الذهبي في ميزانه فذكر أنه أحد علماء الشيعة ، ونقل عن سفيان القول بأنه سمع جابراً يقول : انتقل العلم الذي كان في النبي ﷺ إلى علي ، ثم انتقل من علي إلى الحسن ، ثم لم يزل حتى بلغ جعفراً (الصادق) وكان في عصره — ... وكان جابر إذا حدث عن الباقر يقول — كما في ترجمته من ميزان الذهبي — حدثني وصي الأوصياء ، وقال ابن عدي — كما في ترجمة جابر من الميزان — عامة ما قذفوه به أنه كان يؤمن بالرجعة ، وأخرج الذهبي في ترجمته من الميزان بالإسناد إلى زائدة ، قال: جابر الجعفي رافضي يشتم...ووضع الذهبي على اسمه رمزي أبي داود والترمذي ، إشارة إلى كونه من رجال أسانيدهما ونقل عن سفيان القول بكون جابر الجعفي ورعاً في الحديث ، وأنه قال ما رأيت أورع منه ، وأن شعبة قال : جابر صدوق وأنه قال أيضاً : كان جابر إذا قال أنبأنا وحدثنا وسمعت ، فهو أوثق الناس ، وأن وكيعاً قال : ما شككتم في شيء فلا تشكو أن جابراً الجعفي ثقة ، وأن ابن عبد الحكم سمع الشافعي يقول : قال سفيان الثوري لشعبة لئن تكلمت في جابر الجعفي لأتكلمن فيك. اهـ كلام الشيخ شرف الدين .

والخلاصة : أن المسألة في رأي المحققين ، وفيما يجب أن نأخذ به ، إنما هي مسألة صدق أو كذب ، وضبط أو عدم ضبط . والحق أحق أن يتبع ؟

— ٣ —

السنة منها تشريع ومنها غير تشريع ، السنة منها تشريع عام وتشريع خاص مثال للتعريف باسلوب المناقشة والاستدلال : القضاء بشاهد ويمين .

الاختلاف في تكييف السنة باعتبار مواردها :

ومن أسباب الاختلاف الراجعة الى السنة التردد في تكييف بعض ما صدر عن النبي ﷺ من أقوال وأفعال وأحكام في الخصومات ، وتصرفات في مختلف الوجوه التي كان يباشرها .

وذلك أن النبي ﷺ قد اجتمعت له صفات : فهو رسول من ربه يبلغ الناس ما امر بتبليغه ويسألونه أحياناً عن حكم الله فيما يعرض لهم فيجيبهم به ، وهو إمام للمسلمين ينظر في شئونهم ، ويتعهد مصالحهم ، ويؤلف جيوشهم ، ويبعث بعوثهم ، وكان أحياناً يجلس مجلس القضاء فيسمع الدعاوى ويحقق ، ويطلب البينات ويستحلف ، ويفصل في الخصومات، وكان مع هذا كله إنساناً له شخصيته البشرية وما يصدر عنها من أقوال وأفعال .

ومن الواضح أن تكييف ما صدر عنه ﷺ ، باعتبار جهة من هذه الجهات له أهميته القصوى في الفقه ، لأن هذا التكييف تترتب عليه آثار جوهرية في الأحكام واعتبار أدلتها من حيث العموم أو الخصوص والدوام أو التوقيت ، ومن حيث وجوب التقيد بها ، أو عدم وجوبه وغير ذلك .

ولهذا عُني العلماء قديماً وحديثاً بالتنبيه على وجوب ملاحظة هـــذه الجهات والتفرقة بين مقتضياتها . وصفوة القول في هذا الموضوع ترجع إلى ما يأتي :

السنة تشريع وغير تشريع :

١ ــ لا يمكن أن يقال أن النبي ﷺ قد تمحض للرسالة وزالت عنه مقتضيات بشريته ، وأنه لا يتكلم ولا يتحرك ، ولا يأمر ولا ينهى ، إلا عن وحي يوحى ، وذلك أن رسالته لم تخرجه عن بشريته وكونه إنساناً يحب ويبغض ، ويُسر ويحزن ، ويدركه الجوع والعطش ، والراحة والتعب . ويزور ويزار ، ويساوم في البيع والشراء ويساوَم ، ويخبر عما رأى بعينه أو سمع باذنه ، كما يخبر سائرُ الناس عما رأوا وسمعوا ، ويجلس مع أصحابه فيأخذ معهم أحياناً في الأحاديث المعتادة التي لا تمت إلى التشريع بصلة ، ويطلب إلى من معه من خادم أو زوجة أو صاحب ، أن يناوله شيئاً أو ينحّي عنه شيئاً ، أو يقرّب إليه شيئاً ، وقد يمشي فيسرع أو يبطىء ، وقد يحب لوناً من الألوان فيؤثره على غيره ، أو صنفاً من الطعام أو اللباس تميل إليه نفسه ، وقد يستريح إلى هيئة من هيئات الجلوس ، ويضيق بهيئة اخرى ، وقد يكون من عادته أن يزاول أمراً من اموره الخاصة على طريقة معينة ، وقد يقول قولاً في الطب أو الزراعة عن ظن يظنه ، أو عن تجربة ينقلها عن غيره ، وهكذا من كل ما يصدر عنه من شئون بشرية في أحواله العادية والجبيلية .

وقد أنزل الله عليه في محكم تنزيله ما يدل على أن أمره دائر بين البشرية والوحي ، حيث يقول : «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ» ، وورد عنه ﷺ أنه قال : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فأنا بشر » ورووا « أن نفراً دخلوا على زيد بن ثابت فقالوا له : حدثنا حديثَ رسول الله ﷺ ، قـــال : كنتُ جاره ، فكان إذا نزل عليه الوحي بعث إليّ فكتبته له ، فكان إذا ذكرنا الدنيا ، ذكرها معنا ، وإذا

ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ، فكل هذا احدثكم عن رسول الله ﷺ (١) .

ومثل ذلك ما روي عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : « جالست النبي ﷺ أكثر من مائة مرة ، وكان أصحابه يتناشدون الشعر، ويتذاكرون أشياء من امور الجاهلية وهو ساكت ، وربما تبسّم معهم (٢) .

٢ — ولذلك فرّق علماء الاصول بين مـــا صدر منه ﷺ ، عن جبلة أو عادة ، وما صدر منه ممـــا سبيله التشريع ، فقالوا : إن الأول غير داخل فيما يطالَب الناس بالاقتداء به ، وإن الثاني تطالَب به امته على حسب مـــا ورد من إيجاب أو تحريم أو غير ذلك، ومن دوام أو توقيت، ومن عموم أو خصوص .

قال إمام الحرمين في البرهـــان : « والأفعال الجبلية كالسكون والحركة والقيام والقعود ، وما ضاهاها من تغـــاير أطوار الناس ، فإذا ظهر ذلك ، فلا استمساك بهذا الفن من فعل رسول الله ﷺ » .

وقال الآمدي : أما ما كان من الأفعال الجبلية كالقيـام والقعود والأكل والشرب ونحوه فلا نزاع في كونه على الإباحة بالنسبة اليه وإلى أمته .. وأما ما عرف كون فعله بياناً لنا ، فهو دليل من غير خلاف وذلك إما بصريح ما قاله ، كقوله : « صلوا كما رأيتموني اصلي ، وخـــذوا عني مناسككم » أو بقرائن الأحوال (٣) .

والأمر في الأقوال كالأمر في الأفعال، فما ظهر أنه قاله من قبيل العادة والجبلة فلا تشريع فيه ، ولا يلزم الاقتداء به .

---

(١) حجة الله البالغة ص ١٢٨ ج ١ .
(٢) هامش الموافقات ج ٤ ص ٧٢ ط الرحمانية بمصر .
(٣) الاحكام للآمدي ص ٢٤٧ ج ١ ط المعارف سنة ١٩١٤ .

٣ ـ غير أن مـا يضاف الى كل واحد من هذين الجانبين : جانب البشرية ، وجانب التشريع ، قد يكون الأمر فيه واضحاً لا يكاد يشتبه فيه أحد ، وقـد يكون موضع خفاء فيُشتَبه فيه ويُختلف في الحكم عليه : هل هو من هذا القبيل أو ذاك .

(أ) فمثلا في جانب مـا صدر عنه ﷺ بصفته البشرية ، وردت السنة بأشياء واضحـة من مثل : « كان أحب الألوان اليه الخضرة ــ كان أحب الثمر اليه العجوة ــ كان أحب الرياحين اليه الفاغية (وهي نوار الحناء) ــ كان أحب الشراب اليه اللبن ــ كان إذا أخـذ أهلَه الوعكُ أمر بالحساء فصنع ، ثم أمرهم فحسَوْا ويقول انه ليَرْتُو ـ أي يقوي ــ فؤاد الحزين ويسرو ــ أي يزيل ــ عن فؤاد السقيم ــ كان إذا اعتمّ سَدَلَ عمامته بين كتفيه ــ كان يدير العمامة على رأسه ويغرزها من ورائه ، ويرسل لها ذؤابة بين كتفيه ــ كان إذا استراث الخبر ــ أي استبطأه ــ تمثل بقول طرفة : « ويأتيك بالأخبار من لم تزود » ــ كان إذا اشتكى أحدٌ رأسه قال : اذهب فاحتجم ، وإذا اشتكى رجله قال : اذهب فاخضبها بالحناء[١] .

فهـذا كله واضح فيه أنه لم يكن صادراً عن وحي ، وأنه ليس مصدراً للتشريع ، ويلحق بهذا ما ورد من مثل قوله ﷺ : « من اصطبح كل يوم سبع تمرات من عجوة لم يضرّه سم ولا سحر ذلك اليوم الى الليل » . وما روي من أنه ﷺ ، مرّ على قوم بالمدينة يلقحون نخلا ، فقـال : ما يصنع هؤلاء ؟ فقالوا : يلقحون ، فقال : مـا أظن يغني ذلك شيئاً ، فاخبروا بذلك فتركوه فخرجت شيصاً ، فذكر ذلك للنبي ﷺ ، فقال : إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإني إنما ظننت ظناً ، فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به » وفي رواية : « أنتم أعلم بامور دنياكم » .

---

(١) راجع الجامع الصغير حرف ك تجد كثيراً من أمثلة هذا النوع .

إلى غير ذلك مما سبيله الظن الإنساني ، في الشؤون العادية الدنيوية ، كالزراعة والطب ونحوهما .

ويلحق بهذا أيضاً ، ما كان سبيله سبيل التدبير الإنساني أخذاً من الظروف الخاصة ، كتوزيع الجيوش على المواقع الحربية وتنظيم الصفوف في الموقعة الواحدة ، والكمون والكر والفر واختيار أماكن النزول ، وما الى ذلك مما يعتمد على وحي الظروف والدربة الخاصة ... » [1] .

ويلحق بذلك أيضاً ، ترك ما ترك عن جبلة ، كالذي روى من أن رسول الله ﷺ : امتنع عن أكل الضب ، وقال : « إنه لم يكن بأرض قومي ، فأجدني أعافه » قال الشاطبي في الموافقات : فهذا ترك للمباح بحكم الجبلة فلا حرج منه [2] .

(ب) وفي الجانب الآخر وردت السنة أيضاً بأشياء واضحة لا يشتبه في أنها من التشريع كأن يقول إن الله حرم عليكم كذا ، أو أباح لكم كذا ، أو أوجب عليكم كذا ، وكأن يبين مجملا في الكتاب ، أو يخصص عاماً ، أو يأمر بقربة ، أو يحكم بصحة عبادة أو بطلانها ، أو بصحة معاملة أو فسادها ، أو يشترط شروطاً في عقد ، أو نحو ذلك .

ومن هذا قوله ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » ، وقوله : « من زرع في أرض قوم بغير إذنهم فليس له من الزرع شيء ، وله نفقته » وقوله : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » وقوله : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها » .

ومن الأمثلة في باب كان الذي مر : كان إذا استفتح الصلاة قال : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك — كان يكبر يوم عرفة

---

(١) فقه القرآن والسنة لفضيلة الاستاذ الشيخ محمود شلتوت ص ٣٨ .

(٢) الموافقات ص ٣٠ ج ٤ .

من صلاة الغداة إلى صلاة العصر آخر أيام التشريق - كان يَقصر في السفر ويُتم، ويُفطر ويصوم. وبالجملة كل ما ورد عنه مما يظهر فيه أنه وجّهه تشريعاً وتبليغاً.

وقد فصل العلماء في هذه الناحية ما يستفاد منه الوجوب والحرمة وغيرهما من الأحكام.

(ج) ومن أمثلة ما اشتبه الأمر فيه، هل هو من قبيل التشريع أو لا :

الرمل في الطواف - فالجمهور من أهل الفقه ذهبوا إلى أنه سنة من سنن الحج، أخذاً من أن رسول الله ﷺ فعله، وذهب ابن عباس إلى أنه إنما كان لمعنى وقع اتفاقاً، وذلك أن المشركين كانوا يقولون حينما رأوا المسلمين : لقد حطمتهم حمى يثرب، فأراد النبي ﷺ وأصحابه أن يظهروا بمظهر الأقوياء الذين لم يضعفهم مرض، فرملوا، وليس ذلك بسنة. وفي ذلك يقول عمر رضي الله عنه: ما لنا وللرمل كنا نتراءى به قوماً أهلكهم الله ؟

ولكنهم ذكروا أن عمر مع هذا لم يمنع الرمل، لأنه خشي أن يكون له سبب آخر، أي أن يكون مقصوداً بالتشريع [1].

ومن ذلك اختلافهم في أفعال تقترن بعبادات : كاضطجاعه ﷺ على شقه الأيمن بعد صلاة الفجر، وركوبه في الوقوف بعرفة، وجلسة الاستراحة بين السجدة الثانية والقيام لركعة ثانية أو رابعة.

وقد تختلف أنظارهم في فعل من أفعاله لا يتصل بعبادة كإرساله عليه الصلاة والسلام شعر رأسه الى اذنيه، إذ ذهبت طائفة إلى أن هذا الفعل من السنة، وذهب آخرون إلى أنه من قبيل العادة.

وشبيه بهذا ما يروى من أنه ﷺ كان يأخذ من لحيته من عرضها وطولها،

(١) حجة الله البالغة ص ١٢٩ ج ١.

وكان يحف شاربه ، وما يروى عنه من أنه قال : « قصوا الشارب وأعفوا اللحية » وذلك أن اتصال الأمر بالفعل يسر لبعض الناس الظن بأنه قربة ، وإن كان في جانب الزي والهيئة .

وبهذه المناسبة نقول : إن بعض العلماء يرى أن التأسي برسول الله ﷺ في كل ما صدر عنه — ولو كان في نواحي العادة والطبيعة — مستحب وهو قول غريب ، لم يعنَ الاصوليون بحكايته ، وأغلب الظن : أن ذلك مما أخرجه صاحبه مُخرج ما يروى عن ابن عمر رضي الله عنهما ، من أنه كان مولعاً بتتبع أفعال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتحرى مواضع صلاته وسجوده وسيره في سفره ونزوله ، وما كان يحبه من طعام أو شراب، ونحو ذلك ، فكان يفعل مثله تشبهاً به ، ولكن ذلك محمول على قصد التبرّك وإرضاء عاطفة الحب، لا على أن ذلك من الأحكام التشريعية .

★ ★ ★

مما ذكرنا يتبين أن العلماء متفقون على أن من أفعاله ﷺ ما صدر على سبيل العادة والجبلة وتلبيــة مقتضى البشرية في نواحيها المختلفــة ، ومنها ما صدر على سبيل التشريع . فليس هناك خلاف على هذا المبدأ ، وإنمـا الخلاف في بعض ما يشتبه الأمر فيه كالأمثلة التي ذكرناها .

السنة تشريع عام وخاص :

أشرنا فيما سبق الى أن تكييف ما صدر عن الرسول ﷺ باعتبار منصب من مناصبه الأربعة التي ذكرناها ، له أهميته القصوى في الفقه لأن هذا التكييف تترتب عليه فروق جوهرية في الأحكام واعتبار أدلتها .

وقد بيّنا الفرق بين ما يصدر عن شخصيته البشرية، وما يصدر عنه بالصفة التشريعية ، والآن نفرق بين ما يصدر عنه من التشريع فنقول :

١ — إن ما صدر عنه ﷺ قد يكون تبليغاً عن الله تعالى وتشريعاً يتبين فيه أنه مبلغ عن الله ، وذلك كالأمثلة التي ذكرناها من بيان لمجمل الكتاب ، أو تخصيص لعامه ونحو ذلك .

وحكم هذا أنه تشريع عام باقٍ الى يوم القيامة « فإن كان مأموراً به أقدم عليه كل أحد بنفسه ، وكذلك المباح وإن كان منهياً عنه اجتنبه كل أحد بنفسه »[(١)] .

ويلحق بهذا ما جاء على سبيل الفتوى ، بأن يسأله سائل عن حكم الله تعالى في أمر فيجيب بهذا الحكم ، فانه لا يعدو أن يكون مجيباً بما أوحى اليه به ، فيكون مطبقاً للنص ، أو بما اجتهد فيه فيكون أيضاً واجب الاتباع دائماً ، إذ اجتهاده ﷺ ، بمثابة الوحي ، فقد أثبت جمهور المحققين من العلماء أنه عليه الصلاة والسلام لا يُقَرّ على الخطأ فيما سبيله سبيل التشريع من فتوى أو اجتهاد .

٢ — وقد يصدر عن رسول الله ﷺ شيء، بوصفه إماماً ورئيساً للمسلمين، « فيكون مصلحة للامة في ذلك الوقت وذلك المكان وعلى تلك الحال »[(٢)] ، فراعى فيه التي راعاها رسول الله ﷺ .

ومن هذا بعث الجيوش للقتال، وصرف أموال بيت المال في جهاتها، وجمعها من محالّها ، وتولية القضاة والولاة ، وقسمة الغنائم ، وعقد المعاهدات ، ونحو ذلك من كل ما يظهر أنه تدبير لشؤون الامة ، وتنظيم لامورها .

(١) الفروق لشهاب الدين القرافي ص ٢٠٥ ج ١ ط اولى مطبعة دار إحياء الكتب العربية سنة ١٣٤٤ . راجع أيضاً ما ذكره القرافي في هذا الموضوع من الأمثلة التي تردد الفقهاء فيما تلحق به . وقد ذكرها أيضاً فضيلة الاستاذ الشيخ محمود شلتوت في كتابه (فقه القرآن والسنة) صفحة ٤٠ .

(٢) زاد المعاد ، لابن القيم ، ص ١٩٤ ج ٢ الطبعة الاولى بمطبعة محمد محمد عبداللطيف سنة ١٣٤٧ هـ — ١٩٢٨ م .

وينبغي أن يُتنبه هنـا الى أن إمامة الرسول ﷺ للمسلمين تتفق في بعض الجوانب مع إمامة غيره من أئمـة المسلمين ، وتخالفها في بعض الجوانب ، وإذن فكل ما يصدر من الرسول ﷺ في إمامته مما سبيله سبيل التدبير البشري ، والتنظيم الذي يفعله القادة والأئمة ، تركيزاً لشؤون الامة ، إنمـا يجب فيه على الأئمة رعاية المصالح التي راعاها رسول الله ﷺ ودرء المفاسد التي أراد درءها وإن اختلفت الطريقة باختلاف الزمان والمكان ، والظروف والأحوال . وأما ما كان في هذا الشأن من أوامر جاء بها الوحي كطريقة معاملة الأسرى ، وإعطاء الأمان للمحاربين ، وضرب الجزية ونحو ذلك ، فيأخـذ أيضاً حكم التشريع ، وهو الذي تمتاز به إمامة الرسول عن غيرها من الرياسات ، فقد رسم لها الشارع فيها صراطاً مستقيماً ، غير ما تسير عليه الامم اللادينية .

وقد يتصرف عليه الصلاة والسلام بوصف القضاء كأن يحكم في قضية خاصة بحكم لا يقترن بما يدل على العموم ، فلا يكون حكمه به تشريعاً عاماً ، وإنمـا يكون قضاء جزئياً ، ولا يجوز لأحد أن يقدم عليه إلا بحكم حاكم ، وذلك مثل فصله في دعاوى الأموال ،أو أحكام الأبدان ونحوها بالبينات والايمان والنكول والقرائن والأخـذ بقول أهل الخبرة ، ونحو ذلك من كل ما يُعتمد عليه في القضاء وفي مثل هـذا يقول النبي ﷺ ، لعلي رضي الله عنه : « الشاهد يرى ما لا يرى الغائب » .

وإنما قلنا لا يقترن بمـا يدل على العموم ، لأنه إذا اقترن بذلك كان عاماً ، مثل ما روي من أنه ﷺ : « قضى ألا يقتل الوالد بولده »، وقضى أن الحامل إذا قتلت عمداً لم تُقتل حتى تضع ما في بطنها ، وحتى تكفل ولدها .

« وإذا قالوا إن الحكم في الواقعـة الجزئية لا يتعدى إلى أمثالها من وقائـع

فإنما يريدون الحالات التي تنتج حكماً خاصاً لا يتعدى غير المحكوم له أو عليه أو به »[١] .

★ ★ ★

هذا ما اتسع له المجال من أسباب اختلاف الأئمة الراجعة الى الكتاب والسنة.

ونورد هنا – على سبيل التطبيق أو التعريف بأسلوب المناقشة والاستدلال – مثالاً من الفروع الفقهية التي دار حولها الخلاف ، يتجلى فيه بعض ما ذكرنا في هذا الجانب ، وذلك هو :

القضاء بشاهد ويمين :

من المسائل الخلافية التي كانت مثاراً للجدل والمناقشة مسألة القضاء بشاهد ويمين من قبل صاحب الدعوى . والعلماء في هذا الفرع الفقهي فريقان :

أحدهما : يرى أنه لا يجوز القضاء بذلك ، أي أنه إذا عجز المدعي عن الإتيان بشاهدين أو شاهد وامرأتين ، ولم يستطع إلا أن يأتي بشاهد واحد يحلف معه بأن دعواه حق ، فإن القاضي لا يقبل منه ذلك ولا يقضي له به .

ومن هذا الفريق زيد بن علي ، والزهري والنخعي ، وابن شبرمة والاوزاعي وعطاء والحكم بن عيينة وغيرهم .

والفريق الآخر : يرى أن يحكم بالشاهد واليمين .

ومن هذا الفريق فقهاء المدينة والأئمة الثلاثة – غير أبي حنيفة – وجماعة من الصحابة والتابعين منهم الخلفاء الأربعة ، وابن عباس ، وعمر بن عبد العزيز ،

(١) راجع رسالة (نقض مقال الهجرة وشخصيات الرسول) التي كتبها فضيلة الاستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين من صفحة ٧٥ وما بعدها .

وشريح ، والشعبي ، وجعفر بن محمد ، والناصر ، والهادوية ، وإياس بن معاوية ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وربيعة ، وعبد الله بن عتبة ، ويحيى بن عمر ، وابن أبي ليلى ، وأبو الزناد . وأكثر أهل العلم .

أدلة المذهب الأول : وهم المنكرون للجواز :

استدلوا بالكتاب الكريم وبالسنة :

١ — فأما الكتاب الكريم فقوله تعالى : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء» وقوله جل شأنه : « وأشهدوا ذوي عدل منكم » .

ففي هاتين الآيتين يطلب القرآن إشهاد رجلين ، وفي الآية الاولى منهما ينص على أنه عند عدم وجود العدلين يستشهد رجل وامرأتان ، فلم يذكر الله تعالى الشاهد واليمين فلا يجوز القضاء به لأنه يكون قسماً زائداً على ما قسمه الله ، وهذه زيادة على النص وذلك نسخ ، ولا يجوز نسخ حكم قرآني إلا بقرآن أو بسنة متواترة ، أو — على الأقل — بسنة مشهورة ، وليس في المسألة شيء من ذلك .

ويمكننا أن نراجع هذا الاستدلال الى نقط ثلاث لكي تتحدد المناقشة فيها .

الاولى . أن الله تعالى قسم الشهادة التي أمر بها قسمين : رجلين ، أو رجل وامرأتين ، ولم يذكر قسماً ثالثاً ، ولو كان هناك قسم ثالث لذكره ، لأن المقام مقام بيان والاقتصار في مقام البيان يفيد الحصر .

الثانية : أننا إذا قبلنا شهادة المدعي مع يمينه فقد زدنا على الكتاب ، والزيادة على الكتاب نسخ وهو لا يجوز إلا بمتواتر أو مشهور .

الثالثة : أنه ليس في المسألة ما يصلح لنسخ هذا النص ، فلا متواتر ولا مشهور .

٢ ـ وأما السنة فثلاثة أحاديث من رواية مسلم وأحمد :

الأول : قوله ﷺ : « لو يعطى الناس بدعواهم لادّعى اناس دماء رجال وأموالهم ، ولكن اليمين على المدعى عليه » .

فهـذا الحديث يجعل « اليمين » على « المدعى عليه » أي أن جنس اليمين وجميع أفرادها لا تتوجه إلا الى المدعى عليه ، فإذا جعلنـا المدعي يحلف مع الشاهد فقد جعلنا فرداً من أفراد اليمين متوجهاً الى غير الناحية التي قصر رسول الله ﷺ جميع الأفراد عليها .

الثاني : قوله ﷺ : « البينة على المدعي واليمين على من أنكر » فالرسول ﷺ قصر جميع أفراد البينات على المدعي وجميع أفراد الأيمان على من أنكر ـ أي المدعى عليه ـ وهذا تقسيم وتوزيع يتضمن أنه لا تتوجه يمين الى المدعي ، فكيف يقبل منه شاهد ويمين ؟

الثالث : قوله ﷺ لمدّع : « شاهداك أو يمينه » فقد جعل الأمر دائراً بين شيئين ليس منهما شاهد ويمين من جانب هذا المدعي ، ولو كان الحكم بالشاهد واليمين جائزاً لذكره الرسول ﷺ للمدعي وفتح له بابه .

بهذا استدل المنكرون لجواز الحكم بالشاهد واليمين ، واستمسكوا برأيهم في ذلك حتى حسبوا القضية من المسلمات ، وأن القول بقبول الشاهد واليمين قولٌ منكر في الدين .

فمن ذلك أن الزهري سُئل عن اليمين مع الشاهد فقال : هـذا شيء أحدثه الناس ، لا بد من شاهدين . وزعم عطاء أن أول من قضى به عبـد الملك بن مروان ، كما زعم الحكم بن عيينة أنه بدعة وأن أول من حكم به معاوية . وقال محمد بن الحسن من أصحاب أبي حنيفـة : « من قضى بالشاهد واليمين نقضت حكمه » . وقد قرر الحنفية لذلك أن من حكم به لا ينفذ حكمه ، وإذا رفع الى قاض آخر أبطله ، قـال في متن التنوير وشرحه : « وإذا رفع اليه حكم قاض

آخر نفذه إلا ما خالف كتاباً أو سنة مشهورة أو إجماعاً ، ومن ذلك ما لو قضى بشاهد ويمين المدعي ، لمخالفته للحديث المشهور: « البينة على المدعي واليمين على من أنكر » فإنهم مع قولهم بإنفاذ حكم القاضي المخالف لمذهبهم ، يرون في مثل هذا الفرع عدم جواز التنفيذ ، ويوجبون على القاضي الحنفي أن يبطله ، كأن هذا الفرع ليس من المسائل الاجتهادية .

فلننظر بعد هذا فيما قاله مخالفوهم :

أدلة المذهب الثاني ، وهم المجيزون :

هؤلاء يثبتون مذهبهم بالسنة ، ويردّون على أدلة مخالفيهم..

(أ) فأما ما استدلوا به من السنة فيما روي من أن رسول الله ﷺ قضى بالشاهد واليمين ، وقد ورد هذا من طرق عدة ، عن كثير من الصحابة ، وذكر ابن الجوزي عددهم فإذا هم أكثر من عشرين صحابياً ، وأصح طرقه حديث ابن عباس الذي قال فيه الشافعي : « هذا الحديث ثابت لا يرده أحد من أهل العلم لو لم يكن معه غيره ، مع أن معه غيره مما يشده » . وقال ابن عبد البر: لا مطعن لأحد في إسناده .

(ب) وأما ردهم على ما يقوله مخالفوهم ، فانه يرجع الى ما يأتي :

أولاً : فيما يتعلق بالاستدلال بالقرآن :

١ — ليس في قول الله تعالى: « واستشهدوا شهيدين من رجالكم.. » الآية ، ما يُردّ به قضاءُ رسول الله ﷺ في اليمين مع الشاهد ، ولا أنه لا يتوصل الى الحقوق ولا تستحق إلا بما ذكر فيها لا غير ، فليست القسمة في الآية حاصرة ، ولم تفد العبارة الحصر ، ويؤيد ذلك أن العلماء أجمعوا على أنه إذا لم يأتِ المدعي ببينة ، وتوجهت اليمين على المدعى عليه فنكل عنها ، أنه يُقضى عليه بنكوله ويمين الطالب وليس القضاء بالنكول ويمين الطالب مما يتناوله نص الآية ، فكيف يقال مع هذا الإجماع أن الآية حاصرة ؟

٢ ــ وما دامت الآية غير حاصرة ، فإذا زادت السنة طريقاً فلا تكون معارضة للنص، ومن ثمّ لا تكون ناسخة ، لأن النسخ معناه إزالة الحكم الأصلي ورفعه ، وهنا لا رفع ولا إزالة ، وإنما هو إضافة طريق ثالث لا مانع من إضافته ، ما دام التعبير القرآني لم يفد أن الحكم إنما يكون بأحد الطريقين اللذين ذكرهما وأنه لا ثالث لهما .

ثانياً : فيما يتعلق بالسنة :

١ ــ أما الحديث الذي يقول « شاهداك أو يمينه » على فرض صحته ، فإنه كان في واقعة عجز فيها المدعي عن البينة ورضي المدعى عليه فتخوف المدعي وقال : « إذن يحلف ولا يبالي » فقال رسول الله ﷺ « شاهداك أو يمينه » أي ليس لك إلا ذلك في هذه الحالة ، وهي غير موضع النزاع ، لأن النزاع إنما هو حيث يكون هناك شاهد واحد وأراد المدعي الحلف مع هذا الشاهد ، أما هنا فقد عجز المدعي عن إقامة أي شاهد ، فليس هناك إلا الإنتقال الى يمين المدعى عليه .

٢ ــ وأما الحديثان الآخران فقد جاءا على الشأن في مبدأ الخصومة ، فإن الأصل أن تبدأ الخصومة بدعوى المدعي ، ثم ببينته ، فإن عجز عن البينة توجهت اليمين على المدعى عليه ، فإن نكل انقلبت اليمين على المدعي ، وقضى له بيمينه مع نكول صاحبه ، وهذا لا ينافي أن المدعي قد يأتي بشاهد واحد ويضم إلى هذا الشاهد يمينه فيُحْكم له به ، فليس في الحديثين تعارض مع هذه السنة المشهورة المقضي بها على عهد الرسول ﷺ ومن بعده .

هذا ما استدل به الفريق الثاني : فريق القائلين بالحكم بالشاهد واليمين ، وهم يرون ذلك واضحاً لا ينبغي أن يصار إلى خلافه ، ويعجبون من موقف المعارضين فيه ، فيقول القرطبي : العجب مع شهرة الأحاديث وصحتها التظاهر

بدعوى من عمل بها حتى نقضوا حكمه واستقصروا رأيه ، مع أنه قد عمل بذلك الخلفاء الراشدون ... الخ [١] .

ويقول ابن قدامة في كتابه المغنى : « وقول محمد في نقض من قضى بالشاهد واليمين يتضمن القول بنقض قضاء رسول الله ﷺ والخلفاء الذين قضوا به ، وقد قال الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » ، والقضاء بما قضى به محمد ابن عبد الله ﷺ أولى من قضاء محمد بن الحسن المخالف له [٢] .

ويقول الشوكاني في نيل الأوطار : « جميع ما أورده المانعون من الحكم بشاهد ويمين غير نافق في سوق المناظرة عند من له أدنى إلمام بالمعارف العلمية ، وأقل نصيب من إنصاف ، فالحق أن أحاديث العمل بشاهد ويمين زيادة على ما دل عليه قوله تعالى « واستشهدوا شهيدين » الآية ، وعلى ما دل عليه قوله ﷺ (شاهداك أو يمينه) غير نافية للأصل فقبولها متحتم » [٣] .

★ ★ ★

وقد دارت مناقشات بعد هذا تناولت الأحاديث المروية من حيث الرواية والسند ، ومن حيث الدلالة على المعنى المتنازع فيه ، ومن هذا :

١ — أن بعض مؤلفي الحنفية — وهو الزيلعي — طعن في بعض روايات القضاء بالشاهد واليمين ، وهو ما جاء عن طريق ابن عباس وقال فيه الشافعي : « إنه ثابت لا يرده أحد من أهل العلم » فيقول الزيلعي : إنه ضعيف يرويه

(١) تفسير القرطبي ص ٣٩٢ الجزء الثالث طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) المغنى ص ١١ ج ٢ الطبعة الاولى مطبعة المنار سنة ١٣٤٨ هـ.

(٣) نيل الأوطار ص ٢٨٦ ج ٨ .

ربيعة عن سهيل بن أبي صالح ، وأنكره سهيل فلا يبقى حجة بعد أن أنكره المروي عنه .

وقد رد الآخرون على ذلك بأن سبب إنكار سهيل ما رواه ربيعة : « أن سهيلا اصيب بعلة أذهبت بعض عقله ونسي بعض حديثه فقال لا أحفظه ولا أتذكره . وهذا لا يضر بعد أن ثبتت رواية الحديث من طرق اخرى حسان وبعضها صحيح »[١] .

وقد أورد صاحب «منتقى الأخبار» هذا الحديث الذي هو موضوع الجدال من جهة سنده هكذا ، وعن ربيعة عن سهيل بن أبي صالح عن أبي هريرة قال : « قضى رسول الله ﷺ باليمين مع الشاهد الواحد » رواه ابن ماجه والترمذي وأبو داود وزاد : قال عبد العزيز الدَّرَاوَرْدي : فذكرت ذلك لسهيل فقال : أخبرني ربيعة ، وهو عندي ثقة ، أنني حدثته إياه ولا أحفظه . قال عبدالعزيز: وكان قد أصاب سهيلا علة أذهبت بعض عقله ، ونسي بعض حديثه ، فكان سهيل بعد ذلك يحدثه عن ربيعة عنه عن أبيه .

٢ ـ ومن هذا أن الزيلعي كما طعن في سند الحديث أوّلَ في معناه فقال : « لو سلمنا صحة الحديث فيحتمل أن يكون معناه : قضى تارة بشاهد ، أي بجنسه ، وتارة بيمين ، فلا دلالة فيه على الجمع بينهما كما يقال : ركب زيد الفرس والبغل ، والمراد على التعاقب ، ولئن سلم أنه يقتضي الجمع فليس فيه دلالة على أنه يمين المدعي ، بل يجوز أن يكون المراد يمين المدعى عليه ، ونحن نقول به لأن الشاهد الواحد لا يعتبر ، فوجوده كعدمه ، فيرجع الى يمين المنكر ، عملا بالمشاهير »[٢] .

---

(١) مقارنة المذاهب للاستاذين الشيخ شلتوت والشيخ السايس ـ في فصل القضاء بشاهد ويمين.
(٢) المصدر نفسه .

وقد تعقب ذلك ابن العربي فقال : « إن ذلك جهل باللغة ، فإن المعية تقتضي أن تكون من شيئين في جهة واحدة لا في المتضادين »[١] .

يريد أن الواو في قوله : « قضى بشاهد ويمين » للمعيـــة ، وأنها تقتضي وحدة الجهة التي جمعـا فيها ، وقـد صرح في الروايات الاخرى بلفظ « مع » : « قضى بالشاهد مع اليمين » ، وفي بعضها : « قضى بشهادة شاهد واحد ويمين صاحب الحق » .

★ ★ ★

هـذا جانب من مناقشات الفريقين ، والحق أن القضاء بشاهد ويمين جائز لما ذكره القائلون به ، فحجتهم واضحة ، ولا وجه لما يقول الحنفية من أن الزيادة على النص نسخ ، وقد تحدث العلماء في نقض أصلهم هذا وأوردوا عليهم كثيراً من الأمثلة التي قبلوا فيها زيادة السنة على القرآن ، وممن تحدث بذلك ابن القيم في كتابه « أعلام الموقعين »[٢] والشوكاني في « نيل الأوطار »[٣] والقرطبي في تفسيره[٤] وغيرهم .

ومن أحسن ما قيل في الرد على المانعين ما أورده ابن القيم حيث يقول :

« القرآن لم يذكر الشاهدين والرجل والمرأتين في طرق الحكم التي يحكم بهـا الحاكم ، وإنما ذكر هذين النوعين من البينات في الطرق التي يحفظ بها الإنسان حقه ... وما تحفظ به الحقوق شيء ، وما يحكم به الحاكم شيء آخر ، فإن طرق الحكم أوسع من الشاهدين ، والرجل والمرأتين » .

---

(١) نيل الأوطار .
(٢) ٣٧٩ ج ٢ طبعة الكردي بمصر .
(٣) إرجع إلى الجزء الثاني والأرقام التي ذكرناها .
(٤) في تفسير قوله تعالى : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم » بالجزء الثالث ، وقد ذكرنا أرقام الصفحات من قبل .

وقد سبقه ابن قدامة بتقرير هذا الوجه حيث يقول : « ولأن الآية واردة في التحمل دون الأداء ولهذا قال: «أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الاخرى» والنزاع في الأداء .

وممن أشار إلى هذا أبو الحسن الطبرسي من علماء الإمامية في القرن السادس في تفسيره « مجمع البيان » فقد نبّه على أن الآية إنما هي في الاشهاد حيث قال في تفسير قوله تعالى : « واستشهدوا » أي : اطلبوا الشهود وأشهدوا رجلين .. ثم قال بصيغة التمريض والتضعيف : « وقيل هذا أمر للقضاة بأن يلتمسوا عند القضاء بالحق شهيدين من المدعي عند إنكار المدعى عليه »[1] .

* * *

وبعد أن تبينا ما دار من مناقشة في هذه المسألة الخلافية ، نستطيع أن نلخص أسباب الخلاف فيها كما يأتي :

١ ـ الاختلاف في فهم الآية : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم .. » الخ : هل فيها ما يدل على حصر طرق الإشهاد في طريقين لا ثالث لهما ، أو ليس فيها ذلك ؟ فالذين يقولون : لا يجوز الحكم بالشاهد واليمين ، يرون أن الآية حصرت الأمر في الطريقين ، لأنها ذكرت الطريق الأول . ثم بينت أنه في حال عدم إمكانه فالانتقال يكون إلى الطريق الثاني . ولو كان هناك ثالث لبينته، إذ المقام مقام بيان ، والاقتصار في مقام البيان يفيد الحصر . أما الذين يرون الحكم بالشاهد واليمين فيقولون : لا حصر في الآية ، لأن المقام ليس مقام بيان كل ما يصح الحكم به وإنما هو بيان أن هذين الطريقين كلاهما صالح ، وأنه لا يشترط الرجلان ، بل يمكن الانتقال منهما إلى طريق آخر .

---

(١) ص ٣٩٨ المجلد الأول طبع مطبعة العرفان بصيدا سنة ١٣٣٣ هـ .

هـذا ، وفي ضوء ما رجح – من أن الآية ليست في الاستشهاد الذي يطلبه القضاة للحكم، وإنما هي في التحمل وإرشاد أصحاب الحقوق إلى التماس ما يثبتون به حقوقهم – نستطيع أن نقرر أن مـا جاءت به السنة لا يعارض الآية ، وأن الآية إنما ترسم لأصحاب الحقوق وهم بصدد حفظ حقوقهم أهم الطرق للاستشهاد عند التعامل ، والمتعاملان حينئذ في سعة ويستطيعان أن يستشهدا رجلين ، أو رجلاً وامرأتين ، وشتان بين هـذا الظرف وظرف التقاضي ، فقد يكون أحد الرجلين مـات ، أو إحدى المرأتين مثلاً ، فهل يضيع حق صاحب الحق مع إمكان إثباته بشاهد ويمين كما قضت بذلك السنة ؟

٢ – الاختلاف في الأحاديث من جهة الرواية، وفي المعنى الذي تفيده ، فقد طعن المانعون في الأحاديث التي استدل بها المثبتون، ثم أوّلوا معانيها أو حاولوا هذا التأويل فلم يوفقوا في نظر مخالفيهم .

٣ – القاعدة التي يقول بها الحنفية ليست صالحة للتطبيق هنـا ، لأن الزيادة إنما تكون نسخاً إذا كانت معارضة للأصل رافعة لحكمه ، أمـا إذا أضافت فلا تكون ناسخة ، ثم هي قاعدة غير مسلمة في نفسها ، فإنه قد ثبت بالسنة أشياء كثيرة زيادة على مـا في القرآن ، مثل تحريم نكاح المرأة على عمتها ، ومثل قطع رجل السارق العائد ، ومثل التحريم بالرضاع لكل ما يحرم من النسب ، وقـد زاد الحنفية أنفسهم على القرآن فشرطوا في الصداق ألا يقل عن عشرة دراهم ، والقرآن ليس فيه ذلك ، وجوّزوا الوضوء بنبيـذ التمر بخبر ضعيف ، وأخذوا بحديث توريثه ﷺ بنت الابن السدس مع البنت ، وبحديث من قتـل قتيلاً فله سلبه ... الخ .

وحجتهم في الأخـذ بهذه الأحاديث وترك أحاديث الشاهد واليمين ، أن الاولى بلغت حد الشهرة فصلحت للأخذ بهـا زيادة عما في القرآن ، أما الاخرى

فلم تصل إلى ذلك في نظرهم ، وقـــد رد عليهم بأنها وصلت إلى حد من الشهرة كبير ، إذ رواها كثير ، وعمل بمقتضاها عدد من الصحابة والتابعين .

ولكل وجهة هو موليها ، والله الموفق للصواب .

★ ★ ★

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمـــد وآله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه الهداة الراشدين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

الباب السابع

مقالات علمية واصلاحية
من خلال رسالة الاسلام

- رمضان ، رمز تقريب القلوب وتأليف الشعوب
- الشخصية المحمدية
- من زلات المستشرقين
- محنة التراث الخالد
- الدراسات الاسلامية في اللغات الاوروبية
- الدين والسياسة
- منهج الاسلام في تحرير العقل والفكر
- المدرسة بجانب المسجد
- الاسلام ، الأزهر ، التقريب وفقه الشيعة

رمضان
رمز تقريب القلوب وتأليف الشعوب

لحضرة صاحب السماحة العلامة الجليل السيد
هبة الدين الحسيني الشهير بالشهرستاني
من كبار العلماء في العراق

قال الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه الكريم :

« شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

كم لهذا الشهر الكريم من مزايا في الدين والتاريخ : فيه بدأ نزول القرآن ، وهو دستور الإسلام ، ومنبع علومه ، وحارس شريعته ، وفيه انتصر المسلمون في أول غزوة وهي غزوة بدر الكبرى ، فاستقرت دولتهم ، وقويت شوكتهم ، وأمر أمرهم ، وأصبحوا أمة ذات سلطان وهيبة ، بعد أن كانوا قوماً مهاجرين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، وفيه ليلة القدر التي هي بنص القرآن الكريم خير من ألف شهر .

يمتاز شهر رمضان في الدين والتاريخ بهذه الميزات الثلاث، وكل واحدة منهن ذات معنى خاص ، وشأن خطير :

فأما القرآن الكريم فإنه أفضل كتب الله أنزله على أفضل رسله ، فكان آيته الكبرى الخالدة على الزمان ، ولم يكن خلود هـــذا الكتاب وإعجازه لقوى البشرية راجعاً فحسب الى البلاغة وقوة البيان مما أدى الى سجود العرب البلغاء له ، وخفضهم للرؤوس إذعاناً واعترافاً ، وإنمـا كان أيضاً لما أودعه الله إياه من علم وإيحاءات وإرشادات ، ومن تهذيب للنفوس وتقويم للأخلاق ، وأنه لا ينافي علماً ثبتت صحته بالدليل والبرهان، ولا يعارض صلاحاً يمكن للبشر أن يعتمدوا عليه في ترقيــة شئونهم ، وإقرار السلام والأمن بينهم ، وما تزال مبادئه ومثله وقواعد أحكامه ومناهجه هي النور الذي يهدي الحيران، ويرد الشارد، ويضيء آفاق الحياة ، ولن يزال كذلك في مستقبل الدهور والأزمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

وليس القرآن وسيلة الهدى للعرب فقط — وإن بدىء بهم — بل اهتدى بأنوار معارفه العالية عامة البشر ، كما أنه ليست الاستفادة من القرآن مقصورة على إصلاح العقائد والعادات فقط ، بل أفاد العالم في توجيههم الى عـــلوم الطب والطبيعة وأسرار كائنات الأرض وكامنات السماء ، وأفــاد العرب خصوصاً في تقويم اللسان وتقوية البيان وتوسيع فنون اللغة والبلاغة والأدب .

فإذا أهلّ شهر رمضان فإنه يذكر المسلمين بهذا ، وينبههم اليه تنبيهاً قوياً ، وكأني بالقرآن الكريم يطلّ من علياء سمائه على المسلمين في كل بقعـة من بقاع الأرض مع هلال رمضان فيناديهم : أنا الهدى فهل من مهتد ؟ أنا النور فهل من مستضيء ؟ أنا شعار مجدكم ، وعنوان عزكم ، ورمز عظمتكم ، أنا هدية الله اليكم ، أنا رحمة الله فيكم ، أنا المنهاج القويم ، أنا الصراط المستقيم ، بي تعزون ، وبمبادئي تسودون ، فاعتصموا بي فأنا حبل الله ، واستظلوا بلوائي فأنا ظل الله « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله » .

فإذا أنصت المسلمون الى هذا النداء ، وأجابوا داعي الله فأصلحوا أنفسهم ، ورجعوا الى كتاب ربهم ، فأجدر بهم أن ينالوا مجد الدنيا ومجد الآخرة !

أمـا إذا استقبلوا القرآن على أنه كتاب يُتلى لمجرد التعبد بتلاوته ، أو كان تكريمهم إياه مقصوراً على عدم مسّه إلا على طهارة ، أو على حمله تفاؤلاً باستصحابه أو دفعاً لما يتوقع من أخطار ، أو كتابة بعض آياته في مصاحف منسقة بخط جميل ، ورسم جميل ، وتعليقها على حوائط البيوت والمحالّ ، أو كانت عنايتهم به في حدود التمرن البلاغي ، والتطبيق الأدبي ، كما تدرس النصوص الأدبيـة دراسة لفظية ، فأهون بهذا كله ، وما أبعده عما أنزل الله له كتابه العزيز .

وأما غزوة بدر الكبرى فما أعظمها في تاريخ الإسلام فخراً ، وما أجدرها بالبقاء والخلود ، وأن نحتفل بذكراها كما نحتفل بأعز شيء في هـــذا الوجود . إن المسلمين قبل بدر كانوا مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس ، لم تكن لهم دولة يُخشى بأسها ولا يُحسب حسابهـا ، كانوا في « يثرب » ضيوفاً على الأنصار يشاركونهم مساكنهم وأقواتهم ومتاعهم ، وكانت تأتيهم الأنبـاء من مكة بأن القوم قـــد استبدوا بأموالهم وبيوتهم ، وآذوا كل من ينتسب إليهم ، فكانت قلوبهم تتنزى ألماً ، وصدورهم تغلي حقداً على هؤلاء المبطلين الذين لم يرعوا جانب الحق ، ولم يُبقوا على الرحم ، ولم يحسبوا حساباً لأي معنى من المعاني الإنسانية الشريفـة ، حتى إذا واتتهم الفرصة في بدر انتهزوها فضربوا في صدر الكفر ، وفلقوا هام المشركين ، وأفهموا مكة أنهم قوة تُخـاف ، وأن الله سيجعل من هذه الحفنـة المشتتة المبعثرة امة قوية تعلي كلمة الله ، وتنشر عدل الله ، وتبث رحمة الله ، وتخدم شريعة الله .

فلنذكر برمضان هـــذه الذكرى بعد ذكرى نزول القرآن ، فهي ذكرى التوطيد والتشييد بعد اعتناق شرعة الحق ، واستقبال الدستور الإلهي الخالد .

وأما « ليـــلة القدر » التي أنزل الله فيها كتابه ، واختارها ظرفاً لأعظم حادث يعرفه الناس من صلة الأرض بالسماء ، فقـد جعل الله ظرفها هو هـذا الشهر أيضاً ، وجعل لهـا فضلاً على سائر الليالي حيث تضاعف فيها الحسنات ، وتماض الرحمات ، فهي بما أنزل الله فيها من كتابه رمز لأعظم هبـــة رحمانية

وهبها الله للعقول ، وهدى بها الإنسانية ، وأخرجها من الظلمات الى النور ، وهي بما يفيض الله فيها رمز لأكرم معاملة بين الخالق والمخلوق ، والرب والمربوب : وإلا فأي فيض أعظم من هذا الفيض ؟ يقوم العبد لله ليلة خاشعاً خاضعاً متبتلاً ، فيقبل الله عليه بإحسانه ، ويضاعف له في جزائه حتى يمنحه على ليلة واحدة ثواب ألف شهر ، وحقّ لهذه الليلة أن تكرَّم ، فإنها ليلة القرآن وكفى .

تلك مزايا ثلاث من مزايا « رمضان » ، ومن أهم مزاياه أيضاً أنه ربيع اتحادنا ، ورمز تقريب القلوب ، وتأليف الشعوب ، وموسم اجتماعي تعمر فيه المساجد والمعابد ، وتكثر فيه أندية الخلطاء والخلصاء ، ويتزاور الإخوان والجيران ، وحداناً وزرافات ، مما يؤدي الى تصفية القلوب ، وتزكية النفوس ، وغسل الصدور من حفائظ الأحقاد والإحن ، باعتذار هذا لذاك ، وحنان ذاك على هذا ، وحركات جاذبية الحب من كلٍّ الى كل ، وكثرة التردد والتودد ، وبذلك صار سيد الشهور ، كما في الحديث المأثور .

ومن مزايا هذا الشهر المبارك فرض الصيام في أيامه ، والصيام خير وسيلة لإصلاح النفس ، لإصلاح الجسم ، لإصلاح المجتمع .

وفيه إشعار المسلمين بأنهم امة واحدة ، لا فرق بين قاصيهم ودانيهم ، ولا بين غنيهم وفقيرهم ، يصومون معاً ، ويفطرون معاً ، ويشعر بعضهم بشعور بعض .

وقد أشار الإمام جعفر بن محمد عليه السلام الى أهم الغايات في فلسفة الصوم قائلاً : « إنما فرض الله على عباده الصوم ليستوي الأغنياء والفقراء في هذا البلاء ، وليدرك الأغنياء ما يجري على هؤلاء ، فيؤثروهم على أنفسهم رحمة وحناناً فتزول أخطار المجتمع » .

فيا أيها المسلمون :

ها هو ذا قـــد أظلّكم شهر رمضان ، شهر الهدى والفرقان ، وفي هدى القرآن كل الخير والبركة من صلاح وإصلاح ، وتعاون وتضامن . فوحّدوا صفوفكم ، ووحّدوا قلوبكم ، ووحّدوا شعوبكم « واعتصموا بحبـــل الله جميعاً ولا تفرّقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

« واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيّدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » .

الشخصية المحمـــدية
تحت ضوء المقررات النفسية الحديثة

للكاتب الكبير الاستاذ محمـــد فريد وجدي
صاحب دائرة المعارف – القرن العشرين
ومدير مجـلة الأزهر

يشتمل هذا البحث على خمسة مواضيع ، هي :

١ – بناء المجتمع الإسلامي . ٢ – منزلة العلم في الإسلام .
٣ – الحكمة في الإسلام . ٤ – الرق في الإسلام .
٥ – حصة العالم الحيواني من هذه النفسية العالية .

– ١ –

بنـــاء المجتمع الإسلامي

ممـا هو مقرر في علم الاجتماع : أن أول ما يولد الاجتماع يظهر على حالة أسر تمتزى لجد بعيد العهد أو قريبه ، فيعيش الشعب الكبير على هذه الشاكلة مئات من السنين في حالة تناحر بين هـذه الاسر ، فإذا بلغت بعض هذه الاسر درجة

أرقى مما كانت عليه في الحياة ، واضطرتها الحالة المعاشية الى التعاون نشأ فيها ميل للتضام والتساند ، ميل طبيعي لا أثر للاختيار فيه ، فتصبح هذه الاسر الكثيرة أمة تجاورها أمم ، فتعيش جميعها تحت سلطان النواميس الاجتماعية العامة على النحو الذي رأينا عليه الامم التاريخية وكما نرى عليه الامم اليوم من العلاقات المتبادلة التي تقتضيها الحياة الإنسانية العامة .

ومما يجب ذكره أن الامم التي تتألف حديثاً ، لا تولد حاصلة على جميع مميزات الاجتماع طفرة ، بل تحدث فيها قلاقل واضطرابات لا مناص منها ، وقد تطول مدة هذه الاضطرابات ، وتمنى الجماعة منها بعنت شديد ، ثم تنتهي هذه الاضطرابات بعد أن تزول جميع أسبابها ، ويعيش الآحاد في ظلال الاجتماع آمنين مطمئنين حتى تعصف بامتهم عوامل الانحلال ، فتفنى في مجتمعات اخرى ، وفي التاريخ العام عبرة للمتأملين .

فلما تألفت أكثر القبائل الى أمم ، وأمكن اتصال بعضها ببعض ، وتعددت الأديان وكان أكثرها قد ادخل عليه ما ليس منه حتى التحق بالوثنية ، واستعدت العقول لقبول دين عام يوحد وجهتها ويسني[1] الفتها ، ويصحح عقائدها ، اقتضت الحكمة أن يكون ذلك على يد أمة لا عهد لها بدين سماوي ، ولا كتاب إلهي ، ولا مطمع سياسي أو مطمع عالمي ، تنشأ إنشاء ، وتحلى بجميع الصفات التي تؤهلها لمهمتها العالمية طفرة لا على سنة ناموس الترقي ، تأثيراً في النفوس بالاعجاز .

بعث الله خاتم رسله محمداً لإحداث هذا الحدث العالمي الفذ ، فأنزل عليه الدين في نقائه الأول خالصاً من جميع الشوائب البشرية ، وأتمّ على يديه تأليف أمة مثالية في عشر سنين ، وهي الامة التي أعدّها الحق لنشر الدين الحق ، وإيقاظ العقول من سباتها التقليدي الىالنظر في الوجود والاستفادة من خصائصها الفطرية للوصول الى الحقائق الإلهية نقية من كل ما يلابسها من وساوس الظنون ،

(١) سنى الأمر تسنية : سهله ويسره .

وأوهام النفوس ، لتحدث في العالم ما أراده الخالق له من نقاء العقائد ، وصحة الايمان ، وسلامة الصدور .

قلنا فيما تقدم : (وأتم على يديه تأليف أمة مثالية) وأردنا بذلك أنها بنيت على أكمل الأصول وأرقاها ، فقد جرت العادة أن الأمم يحدث تأليفها تحت تأثير الحاجات الحيوية ، والضرورات المعيشية ، ولكن الأمة الاسلامية لم يحصل تأليفها على هذه السنة الطبيعية ، فلم يحدث في قبائل العرب من ضرورات الحياة الاجتماعية ما يدفعها للتآلف ، ولكنها تألفت بدوافع من حاجات العقول والأرواح كشفها القرآن للنفوس ، وبثتها حكمته في العقول ، فأجمعت منقادة بسموها على الأخذ بها ، والذياد عنها ، ونشرها في الآفاق لتخليص البشرية من أوهام علقت بعقولها في أدوار قصورها ، فصرفتها عن سعادتها أحقابا طويلة .

فالأمة الاسلامية كما ترى تألفت بتأثير المبادىء العالية على عقول آحادها ، وبفعل الاصول القوية في نفوسهم ، فكانوا قلة ممتازة لم يتفق وجود ما يشبهها في زمن من الأزمان ، فان قلت يفضل الواحد منهم ألفا ممن تألفوا تحت تأثير الحاجات المعاشية ، والضرورات المادية ، لم تك مبالغا ، فقد ثبت أنهم بعددهم المحدود تغلبوا على الأمة العربية برمتها في عشر سنين ، ثم لما وجهوا وجوههم لنشر دعوتهم في الآفـاق سحقوا — في أيام معدودة — جيوش الأكاسرة والقياصرة التي وجهـت لردهم ، وأسسوا — في عقود من السنـين تعد على الأصابع — مملكة لا تغرب عنها الشمس ، وهـذا ما لم يحدث له شبيه في العـالم الانساني في مدى تاريخه كله .

فهذا الاجتماع الذي قام على المبادىء العالية ، والأصول القوية ، وكل الله أمره الى رسوله محمد ﷺ ليحفظ تماسكه ، ويصون تلاحمه ، وهو لم يعهد بهذه المهمة الخطيرة الى رجل لم يبلغ كماله الروحي والعقلي ، فيقصر في فهم الحكمة الالهية من ايجاده الدين العام على الأمة العربية ، فيخرجها عن حدود مهمتها أو يعجز عن حملها على العمل به ، ولكنه أوحاها الى روح علوية حاصلة على أكمل

ما يمكن أن يتحلى به عامل للوصول الى هذه الغاية البعيدة ... فكان في جميع أوامره ونواهيه يحاول أن يحفظ على الأمة وجودها المـــادي كأمة عالمية ، ووجودها المعنوي كأمة مثالية ، حتى أدت هذه الأمانة الى العالم كله في رقعـة من الأرض يختلف اليها جميع سكان الكرة الأرضية ، فتعم الدعوة جميعهم على هذا الوجه .

فلم يترك محمد ﷺ مجالاً من مجالات النشاط الروحي والعقلي والعملي الا خصه من توجيهاته بما يناسبه من لفت النظر اليه ، وبيان الحكمة منه ، ووضع الحدود له ، وذود الآراء المضللة عنه ، مما اختصت كتب السنة باستيعابه وفيها من وجوه حكمته وأساليب تربيته ، ووسائل تقويمه ما يشهد بأن عبقريته قد فاقت أكمل ما عرف عنها عند عظماء رجال العلم والفلسفة .

قلنا قد وكل الخالق جل شأنه الى رسوله محمد ان يرب الاجتماع الذي أوجده الاسلام بما يحفظ تماسكه ، ويصون تلاحمه ، حتى يؤدي مهمته العالمية ، فقام بما عهد اليه على أكمل وجـه ، ونحن في هذه العجالة نأتي على بعض ما كان يسنه لامته مما يحفظ مجتمعهم من التصدع ، وما يجعله يقاوم الأحداث المحللة لأقوى الروابط الاجتماعية ، وأحكم الوشائج القومية ، وقد أثبت التاريخ أنـه نجح في ذلك نجاحا باهراً ، فقد مرت على جماعة المسلمين أحداث تعتبر غاية في الخطورة واثارة النفوس ، كوفاة النبي ﷺ ، وضرورة تعيين من يخلفـه على زعامـة الأمة ، وارتداد كثير من قبائل العرب ، والثورة على عثمان بن عفان ، واستبداد معاوية بالشام ، وتصميم علي بن أبي طالب على اسقاطه ، وقتل أمير المؤمنين علي ، وتفرد معاوية بالسلطان المطلق ، وخلافة ابنـه يزيد من بعده ، وكلها أحداث من الخطورة بمكان بعيد ، فقد كان بعضها يكفي لأن يقسم أمة عريقة في الاجتماع الى أحزاب وشيع يقاتل بعضها بعضاً ، ويريق بعضها دماء بعض ، فما ظنك بأمة قريبة العهد بالاجتماع كانت لا تزال نعرة الجاهلية تطن في آذانها؟ .

أفلا ترى أن تمسكها بالوحدة الاجتماعية مع توالي هذه المحللات عليها ، وعملها المتواتر على عدم التصدع والانهيار ، يدلان دلالة قاطعة على ان هذا الاجتماع الفذ الذي أوجده الاسلام ، كان أقوى اجتماع شهده العالم منذ تألفت المجتمعات الى ذلك العهد بل الى عهدنا هذا ؟ فان اختلاف الجماعات المتمدنة في المذاهب السياسية والاقتصادية جعل من بعضها أعداء لبعض ، حتى قاتل بعضها بعضاً وسقطت دولهم الى الأبد ..

قلنا : قد وكل الحق جل وعز الى النبي ﷺ أن يرب هذا الاجتماع ويقيه التصدع ، فكان في أداء مهمته من الحكمة وبعد النظر والحيطة من أدواء المجتمعات ، اجتماعيا حكيماً بز جميع أراكين هذا العلم ، وتفوق عليهم تفوقاً لا وجه للتردد فيه ..

أدرك محمد ﷺ أن الاصلاح الذي أراده الله للعالم لا يقوم الا بواسطة أمة تصدق في القيام به ، وتنشره في آفاق الأرض ولو كانت تبقى منزوية في حيزها فلا يمكن أن تؤدي مهمتها العالمية ، فصرح بذلك في قوله :

« الاسلام أحوج الى الجماعة من الجماعة الى الاسلام » وهو قول يدل على نظرة عميقة في فلسفة الاجتماع وكانت هذه الفلسفة لم توجد بعد ، فوجه كل همته لبناء المجتمع الاسلامي بحيث لا يعتريه الانحلال أجيالاً متعاقبة ، حتى يتم ما ندب اليه من اذاعة كلمة الله الفاصلة للعالم كافة ، فجاء من أقواله ﷺ في المؤاخاة بين آحاد المسلمين ، وفي وجوب تضامنهم وتضافرهم حتى يصبحوا كرجل واحد تحركه ارادة واحدة ، قوله :

« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم ، كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالحمى والسهر » .

« من لم يهتم للمسلمين فليس منهم » .

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ..

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

« من فارق الجماعة شبراً فمات ، فميتته جاهلية » .

ولما كانت همة المسلمين الأولين منصرفة بعد استقامة عقيدتهم الى العبادة والتقرب الى الله ، بين لهم النبي ﷺ ان السهر على صيانة الاجتماع الاسلامي أفضل من سائر العبادات التي كانوا يقدسونها ، ويعتقدون سموها ، فقال في هذا الباب :

« نظر الرجل لأخيه على شوق ، خير من اعتكاف سنة في مسجدي هذا ».

« اصلاح ذات البين خير من عامة الصلاة والصوم » . « من قضى لأخيه المؤمن حاجة فكأنما خدم الله عمره » . « من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل او نهار ، قضاها او لم يقضها ، كان خيراً له من اعتكاف شهرين » . « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة ؟ قالوا بلى ، قال : اصلاح ذات البين ، وفساد ذات البين هي الحالقة » ..

ولم يكتف النبي ﷺ بهذا فقرر لهم ان العمل على تقوية الاجتماع يقي من عذاب يوم القيامة ، وعذابها تقشعر من سماعه الأبدان . فقال : « من زحزح عن المسلمين شيئاً يؤذيهم ، كتب الله له به حسنة ، ومن كتب له حسنة أوجب له بها الجنة » . « من أقر عين مؤمن أقر الله عينه يوم القيامة » . « اذا التقى المؤمنان فتصافحا ، قسمت بينهما سبعون مغفرة ، تسع وستون لأحسنهما بشراً » ..

كل هذه الأحاديث وكثير من أمثالها ، مما ليس له نظير في دين من الأديان ، ولا جاء على لسان واحد من المصلحين الاجتماعيين ، جعلت من جماعة المسلمين أمة كرجل واحد ، واذا بلغت أمة هذا الحد من التضام والتعاون ، فلا يمكن ان تنحل او تختل بتأثير الحوادث العادية ، ويكون لا بد لحدوث ذلك الانحلال من عوامل أقوى منها تتنزل من ضعف إيمانها بصدر الوصايا التي ذكرت بعضها

في هذه العجالة ، وطروء الضعف على هذا المصدر يصعب في قرن او قرنين ، وعوامله أكثرها علمية او فلسفية تطرأ على شكل شبهات ، وهي لا تحدث في الامم الا بعد ان يبلغ العلم فيها أشده بعد عدة أجيال ، أي بعد أن يكون الغرض المقصود من التبليغ العام قد تم وأحدث في العالم ثمراته المرجوة ، وهذا هو الذي حدث فعلا ، فبعد أن أتم الاسلام تأليف امته المثالية في مدة من الزمن لا تكفي لتأليف قبيلة ، وبعد أن قامت هذه الامة المثالية بأحداث الانقلابات الاجتماعية ، والتطورات الفكرية ، والتوجيهات الأدبية في الأمم كافة ، وبعد أن أصبحت حجة الله قوية ، بل بديهية ، استوى العالم كله ازاءها ، فمن استهدى بنورها ، وسار على سمتها ، بلغ الغاية مما خلق له ، ومن تنكبها وسلك غير سبيلها فقد حقت عليه كلمة الله وأصبح من النادمين « قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

— ٢ —

منزلة العلم في الاسلام

أثبتنا في المقال الذي تقدّم هذا ، ما شرح به النبي ﷺ آيـة الفطرة الدينية ، وبينا الآفاق العالية التي جال فيها فهمه القديم ، في تحديد هذا المعنى الخطير الذي أصبح الأساس العلمي الركين للدين في الفلسفة الحديثة .

ولكن الأوهام المتغلبة كثيراً مـا تشتبه بالشعورات الفطرية ، وتجد لدى مروجيها ما تستند اليه من الاهواء الموروثة ، فما الذي يفرق بين ما هو هوى موروث ، وما هو ميل فطري في النفس كسائر ميولها الفطرية .

لا شيء غير العلم، العلم المستند الى الحقائق الطبيعية ، وهذا هو ما عمد اليه محمد ﷺ فشرع يدعو إليه في ألوان من التعبير ، وضروب من التحضيض ، لم تؤثر عن غيره في العالم كله ، فاما بلاد العرب فان هذه الدعوة لم تؤثر فيها عن احد غيره ، وكانت غريبة لدى قوم ظلت الامية صفة مميزة لهم قروناً كثيرة ، وأما في اوروبا حيث نشأت الفلسفة اليونانية والمدنية الرومانية ، فان التعصب للدين في ذلك العهد كان آخذاً بخنقها الى حد عادى معه أهلها اهل العلم، واعتبروا المشتغل به والداعي اليه زنديقاً ؛ وبقيت هذه الحالة قائمة الى نحو القرن الخامس عشر الميلادي ، وما زالت تشتد حتى كانوا يحرقون المشتغلين بالعلم ، ويمثلون بأجسادهم وقد احصى متأخرو المؤرخين ضحاياه فبلغوا اكثر من ثلاثمائة ألف في نحو ثلاثة قرون !

فهذه الصيحة بالعلم كانت لا تجد لها صدى إلا لدى أتباع محمد ﷺ في بلاد العرب ، التي كانت لا تمت الى مصادر العلم بسبب، وقد أثمرت ثمرتها، قال العلامة (دريبر) المدرس بجامعة (هارفارد) بالولايات المتحدة الامريكية في كتابه : (المنازعة بين العلم والدين) :

« إن اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة ٦٣٨ أي بعد وفاة محمد بست سنين ، ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الكتب العلمية اليونانية ، وقدروها قدرها الصحيح. الخ». وأنت خبير أن المسلمين انتهت إليهم بعد ذينك القرنين زعامة العلم في العالم كله ، وكانت مدنهم في آسيا وأوروبا مثابة للأمم كافة يقصدها مريدو الاستفادة من سائر بلاد العالم ، فيشمر كونهم فيما حصلوا عليه من أنوار المعارف ، ليخرجوا بلادهم الأوروبية من ظلمات الجهل ، وقد شهد علماء أوروبا وفلاسفتها أن بلادهم مدينة للمسلمين بعلومها وفلسفاتها وصنائعها ، وهي شهادة تؤيدها الأسانيد التاريخية ، والكتب المترجمة عن العربية التي لا تزال ماثلة في مكتباتهم ، والتي لا يزال بعضها يدرّس في جامعاتهم الى اليوم .

ليس غرضنا هنا أن نبين مدى تأثير العلوم التي أقام دولتها المسلمون في مدنية أوروبا ، وإنما مقصدنا أن نجلي الفطرة العلوية للشخصية المحمدية التي اصطفاها قيم الوجود للقيام بخاتمة الأديان الإلهية .

إني أستطيع ان اؤكد — وعهدة هذا التأكيد عليّ — أن العلم لم يجد داعياً إليه ، ومحبباً فيه ، في جميع بلاد العالم من أول عهد الناس به إلى يومنا هذا مثل ما وجده في محمد ﷺ . ذلك لأنه أدرك لسمو فطرته ، أن العاطفة الدينية المجردة عن العلم ، قد تستجيب لباطل مموه ، وقد تصبو لهوى مزخرف ، وقد يدعوها حب البحث إلى الخوض في الشؤون العلوية ، فتتردى في مهاوي الضلالات وتجمد عليها ، وأنت خبير أن الأديان السابقة على الإسلام قد خرجت بتحريف الجاهلين عن صُرطها القيمة ، بل استحالت إلى وثنية بحتة ؛ ويريد الحق ان يحفظ للاسلام طابعه الإلهي ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا احيط بسياج من العلم ، وتجلى كل هذا على حقيقته لمحمد ﷺ فكان باعثاً قوياً له على الدعوة إليه ، في ألوان شتى من البيان ، فكان مما أثر عنه أنه قال : « اطلبوا العلم ولو بالصين ، فإن طلبه فريضة على كل مسلم » وهذا أول تصريح لداعية ديني بأن يستنفد الإنسان وسعه لطلب العلم حتى لو كان لا سبيل إليه إلا بالإنتقال إلى أبعد بلاد العالم .

وانظر إلى قول محمد ﷺ : « ليس مني إلا عالم او متعلم » ، وقوله : « كن عالماً أو متعلماً ولا تكون الثالثة فتهلك » تجده يجرد من الانتساب إلى الدين ، الجاهلَ الذي رضي بجهله فجمد عليه ، وينذر بالهلاك ، من اكتفى بالدخول في الإسلام وأهمل أن يزداد علماً .

ومن أعجب ما يؤثر عن النبي ﷺ ، وهو قول يدل على غاية لا تدرك من سمو الإدراك ، وعلى بعد في النظر ليس بعده مرمى ، قوله : « من ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حقه ، ووضعه في غير منزلته التي وضعه الله بها حيث يقول وما اوتيتم من العلم إلا قليلا » . فلعمري إذا كان هذا القول حقاً ، وهو حق لا مرية

فيه ، فهو ليس من مدارك امة لقبت بالامية ، ولا من حظ بلاد ليس بها أثارة من علم ، بل ليس من مألوفات الامم كافة في عهد عرف قادته بمحاربة العلم ، والحط من سمعته في سبيل ترويج مزاعمهم الدينية .

هذا ولم يُغفل محمد ﷺ وجهاً من وجوه الحث على الاستزادة من العلم إلا أتى به . من ذلك قوله : « ليس الحسد والملق من خلق المؤمن إلا في طلب العلم » .

ولما خشي أن يطغي الميل إلى العبادة على الميل الى العلم ، صرح بأن طلب العلم من أجل حزوب العبادة ، وأكثرها ثوابا ، فقال : « مجالسة العلماء عبادة » وقال : « العلم أفضل من العبادة وملاك الدين الورع » . وقال في رفع أقدار العلماء ، والإشادة بكرامتهم : « بين العالم والعابد سبعون درجة » . ومن هنا أخذ ابن عباس رضي الله عنه تفسيره لقوله تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات » ، قوله إنها سبعون درجة ، أي أن درجة العلماء أرفع من درجة المؤمنين غير العلماء سبعين ضعفاً . وقال ﷺ — وهو قول لا يتذوقه إلا من عرف أثر العلم في بناء الامم وفي تقويم امورها — : « لموت عالم أيسر من موت قبيلة » أي أن المجتمع يُنكب من موت عالم أكثر مما ينكب من موت قبيلة ، وهذه غاية لا تدرك في تعظيم شأن العلم .

فلا غرو بعد كل هذا أن يندفع المسلمون في طلب العلم اندفاعاً لم يؤثر عن امة قبلهم ، فحذقوا كل ما كان شائعاً منه بعد أن ترجموه إلى لغتهم ، ولم يقفوا عند هذا الحد بل نقبوا عن مصادره في المكتبات الأجنبية فأخذوا منها كل ما وجدوه لليونانيين والسريانيين وغيرهم وترجموه إلى لغتهم وتدارسوه بهمة لا تعرف الملل حتى أتقنوه وعملوا به وزادوا مادته ثروة ، واكتشفوا علوماً جديدة سجلت لهم في صحائف الخلود . كان هذا كله ببركة العبقرية المحمدية التي تجلت في شخصيته الكريمة تجلياً لم يحفظ مثله لرجل غيره من الناس أجمعين .

— ٣ —

الحكمة في الاسلام

الحكمة في اللغة العربية تعني العلم والحلم والعدل والنبوة ، ومن معانيها ما يمنع من الجهل ، ومنها أيضاً كل كلام يوافق الحق ، ومنها وضع الشيء في موضعه ، وصواب الأمر وسداده ، وقد توسع فيها المشتغلون باللغة فأطلقوها على الفلسفة تعريباً لهذه الكلمة اليونانية ، وقد جاء ذكرها في القرآن العظيم عشرات من المرات موافقة لكلمة الكتاب أو العلم او النبوة ، فقال تعالى موجها الكلام الى نساء النبي ﷺ : « واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة » وقال في بيان مهمة النبي : « يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » .

وجاءت كلمة الحكمة في الكتاب الكريم مستقلة ، من ذلك قوله تعالى : « يؤتي الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الألباب » .

وقد أشعرنا الكتاب الكريم بأن هذه الحكمة نور عقلي شائع بين جميع الامم قديماً وحديثاً ، قال تعالى : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكاً عظيماً » وقال تعالى : « وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة » فالحكمة على هذا الاعتبار أرفع درجة من الفلسفة ، لأنها المولدة لها ، والحاكمة عليها ، وإنما تمتاز الفلسفة عنها

بمظهرها العلمي ، وقالبها الفني ، وقبولها للنظام الاسلوبي الذي يتأتى معه انتسابها للأفراد والجماعات ، وإمكان جعلها موضوع دراسة منظمة .

قد وصفنا الحكمة بأنها نور عقلي ، مريدين بذلك أنها متولدة من النور العقلي الذي خص الخالق به النوع البشري ، وجعله هادياً له يأخذ بيده في ظلمات الحياة الأرضية ، ويدله على ما هو بحاجة إليه من المحاولات الفكرية والجسدية ، ليستطيع ان يعيش في بيئة ألقى به فيها عارياً وبغير عتاد ، وقد هداه هـذا النور العقلي المستمد من النور الإلهي الى جميع مرافق حياته ، ودله على سبيلي الخير والشر ، والنافع والضار ، وعلى ما به قوامه ومصلحته وارتقاؤه ، وما فيه هلاكه وتعسه وارتكاسه ، والمتأمل في الإنسان لأول عهده بهذا العالم يعجب كيف استطاع ان يرتقي عن تلك السذاجة الحيوانية التي نشأ عليها ، ويبلغ الى الدرجة التي هو فيها اليوم من الارتقاء العقلي والخلقي ، وممـا هُدي اليه من الصناعات والفنون ، وما كشفه من مساتير الكون ومكنونات العلوم ؛ ولا يجد مناصاً للخروج من هذه الحيرة إلا بالتسليم بمهمة الرسل الذين كان يرسلهم الخالق إليه بين حين وآخر يفتحون أمامه طرق التأمل في قوى الكون ، والنظر الى ما حوله من وسائل الطبيعة ، وحمله على توجيه قواه الأدبية إلى ما يرفعه عن حضيض الحيوانية ، ويدفع به للنظر فيما بين يديه وما حوله من ظواهر الوجود وإمكان الاستفادة منها لحياته الشخصية والاجتماعية ، وإلى ما يجب ان يستشعره من الواجبات الذاتية والعمومية ؛ فتشبع جو الحياة الإنسانية على هذا النحو بالحكم النيرة ، والاصول القيمة ، وذاع العلم بهـا حتى أصبحت من المقررات الأولية لدى الناس أجمعين ، إلا أهل الشذوذ الأدبي من الذين اتخذوا لأنفسهم من الفلسفة التشاؤمية خطة خاصة من التفكير المعاكس ، عُرفوا به بين الناس ، وهم قلة لا يعتد بها حتى قد لا تصادف منهم في كل مليون من الناس واحداً .

هذا النور الساطع من الحقائق الحكمية ، المنتشر في جو العقلية البشرية ، هو الحكمة التي يتردد ذكرها على ألسنة العلماء والفلاسفة من أقدم العصور ،

وجاء ذكرها في الكتاب الكريم ، وهي بهـذا الاعتبار تخالف الفلسفة خلافاً جوهرياً ، لأن هذه هي المذهب الذي يتخذه المشتغلون بفهم حقائق الوجود ، وسيلة لإدراك تلك الحقائق ، وكيفية انطباقها وتطبيقها على الموجودات ، وعلى سيرة الإنسان ومحاولاته ، لبلوغ المثل العليا في سلوكه وفي أعماله ، ومن أجل ذلك تعددت وجهات نظر الفلاسفـة ، وتخالفت ثمرات جهودهم الى حـدود بعيدة ، ومن هذه الناحية خالفت الفلسفة العلم أيضاً ، فالعلم هو مجموع المعارف التي حصل عليها الإنسان بالنظر والاستقراء والتحليل والتركيب ، فهو مجموعة محققة من العلم بالكون والكونيات ذات حدود مقررة ، فأين الفلسفة من هذه الاستقرار ، وهي لتصديها لفهم الوجود ، وإدراك العلل الأولية التي تبنيـه وتهدمه ، وفي اللانهاية المحيطة بالعالم ، وتعيين علاقاتنا بها جرياً وراء بناء مذهب عقلي يربط ما يقع تحت حسّنا من الكائنات المختلفة ، ويعين لكل منها مكانه ومهمته من المجموعة العامة بحيث توافق الحقيقة ولا تشذ عنها ، قلنا أين الفلسفة من هذا الاستقرار ، وقد انقسم القائمون بها الى مذاهب وشيع ، إلا الفلسفة الحسية فانها بعد قبولها ما لا يثبت ثبوتاً علمياً من الاصول قد فنيت في العلم ، وزالت عنها صبغة الفلسفة .

ولكن الحكمة لا تنتهي قط إلى مثـل هـذه النهاية ، لأنهـا لا تحاول فهم الوجود فهماً علمياً ، بل هي تكتفي بتحديد علاقتنا به تحديداً يقره العقل العلمي والناموس الأدبي ، وتجعل دائرة عملهـا محصورة في دائرة شئوننا الحيوية ، وسيرتنا الاجتماعية وهذه مجالات يمكن الوصول منها إلى المثل العليا التي ترقي بالإنسانية الى أبعد ما يمكن أن تصل إليه علمياً وعملياً ، وأرفع ما يتأتى أن تسمو إليه جسدياً وروحياً ، وهي التي يعنيها العلماء بكلمة الحكمة ، ويشرفها الخالق بالتنويه بها في كتبه السماوية .

وقد أدرك النبي ﷺ بسمو فطرته حقيقة ما قصده الخالق منها على الوجه

الأكمل ، وفهم مدلولها فهماً أداه الى الدعوة إليها ، والتنويه بها تنويهاً يشف عن سمو تقديره لها ، ومبلغ ما تستفيده الإنسانية منها ؛ فقال : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها » الضالة من الإبل ما انقطعت عن صاحبها بضيعة فهو يتطلبها جهده ، لأنها مطيته التي لا يستطيع قطع طريقه بدونها ، شبه الله الحكمة في ضرورتها للانسان يقطع بها طريقه الى حضرته العلية ، بالضالة ، وهذا تشبيه بديع يؤذن بأن الحكمة من ضروريات المؤمن بحيث قد يهلك بدونها ، كما قد يهلك سالك الفلوات بدون ناقتــه التي يقطعها بها ، وما أدى رسول الله ﷺ الى هذا التعبير البديع إلا ما أمده الله به من سمو الإدراك ، وبعد مدى النظر في الحقائق ، وفهمه لمهمة الإنسان في هذه الحياة الدنيا .

وقد زاد هذا التحضيض لالتقاط الحكمة أنىّ كانت ، بوجــه من التعبير يدعو إلى غاية الاهتمام بالحكمة ، وهو قوله ﷺ : « خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت » فقد يكون قائلها سفيهاً أو زنديقاً أو وثنياً أو ملحداً ، فيتأثم المسلم أن يأخذها عنه ، فتدارك رسول الله ﷺ هذا الأمر ، وحض على المبادرة إلى التقاط الحكمة ، بصرف النظر عن الإنسان الذي صدرت منه ، ولو كان مثالاً للخسة ، ومباءة للدنس ، وفي رواية أخرى : « خذ الحكمة ولو من مشرك » وهذا نهاية ما يمكن أن يبلغه التحضيض على تصيد الحكمة من كل مظانها ، ولا يعقل أن يبلغ الداعي إليها هذا الحد من التعبير إلا إذا كان على أصل أصيل من فهم الحقائق ، وطريق الوصول إليها .

— ٤ —

الرق في الاسلام

لم يُحل الإسلام الرق إلا في حق من يؤسر في حرب شرعية ، أي مستوفاة لما تقره الشريعة من بواعثها وغاياتها ؛ أما ما يكون منها مثاره اختطاف الولدان والبنات بشن الغارات على القبائل السودانية أو غيرها ، مما اعتيد اتخاذ العبيد والجواري منها ، فعمل جاهلي لا يجوز لأمة مسلمة أن تقدم عليه ، وإن فعلت كان عليها وزره ، وتحمل تبعاته ، ما أبقت عليه أو تغاضت عنه ، يروى أن واحداً من أهل العلم المسلمين أراد أن يشتري عبداً يستعين به ، فلم يهتد إلى واحد تنطبق شروط الشرع الإسلامي على وسائل أسره ، فأقلع عن شرائه متورعاً عن التورط في أمر إثمه أكبر من نفعه .

ومن يتأمل في الوسائل التي كان يتذرع بها الذين كانوا يقومون باختطاف الغلمان والبنات من بلاد السودان ، وتكديسهم في الحجرات الضيقة جياعاً وعطشى ليحملوهم منها إلى السفن التي توزعهم على البلاد التي تروج بها تجارتهم ، يخيل إليه أن هؤلاء من الأنعام التي أعدت للذبح ، لا أنهم من البشر الذين لهم حق في الحياة وفي التمتع بمزاياها كسائر إخوانهم من ذرية آدم وحواء .

ولما اكتشف الأوروبيون أمريكا كانوا يرسلون بسفنهم إلى شواطىء افريقيا فيختطفون من السود الوفاً ويقذفون بهم فيها حتى تضيق بهم ، فكان يموت منهم وهم فيها عدد كبير ، فيقذفون بهم في اليم ، ويسخرون من بقى في تمهيد الأراضي للزراعة ، مثلهم فيها كمثل الأنعام ، غير متكلفين في مأكلهم وملبسهم ما هو

ضروري للحياة فتجتاحهم الأمراض والأوبئة ، مع أنه لولاهم لشق على الأوربيين تمهيد تلـك الأراضي واستغلالها ، فكان هؤلاء الأسرى يعيشون محرومين من الحقوق الاجتماعية ، بل والبشرية أيضاً ، فلا حق لهم يطالبون به ، ولا حامي لهم يلجأون إليه ، ولا يزال في أمريكا عشرات الألوف من ذراريهم عاشوا فيها منبوذين إلى عهد غير بعيد ، فلما أهلّ لديهم عهد الدستور ، منح السود بعض الحقوق ، ولكن النفوس لم تر رأي الدستور ، فبقي السود منحطين في نظر البيض ، حتى كانوا يمنعونهم من غشيان المحلات العامة ، ولم تخف وطأة هـذا الاضطهاد إلا في السنوات الخمسين الماضية من القرن الذي نحن فيه ، ولم تزل منه بقية هنالك .

أين هذا مما شرعه الاسلام في الاسترقاق منذ أربعة عشر قرناً ، إذ حصره في أسرى الحروب الشرعية ، لا في السود ولا في أي جنس بعينه ، فليس لمسلم حق في أن يشتري إنساناً لم يكن أسير حرب شرعية ، فأين هذا مما كانت عليه الامم بل أين هم مما شرعه في حق من يحـل أسره من حسن المعاملة ، والرفق والرحمة ، مما حلى الله به خاتم رسله من فهم معنى الحياة البشرية ، وفقه أصولها القيمة ، والوعي الصحيح للعدالة المثالية التي عجز عن وعيها إلى عهده أئمة العلم ، وأراكين الفلسفة .

وقبل أن نلم بالوصايا التي جاءت في الاسلام في موضوع الرق والأرقاء نعطي القراء فذلكة عن تاريخ الاسترقاق عند الأوروبيين الذين أكثروا من التشنيع علينا بسببه كأننا الذين ابتدعوه أو اسرفوا فيه :

وجد الاسترقاق منذ وجد الانسان ، فإن القوي يغلب الضعيف ويأسره ويسخره لخدمته .

وكان المصريون القدامى والبابليون والبراهمة الهنديون والفرس يتخذون الأرقاء ويعاملونهم بقسوة وحشية .

وكان اليونانيون الأولون يتخذونه أيضاً ، وأقره كبار فلاسفتهم ، ومنهم أفلاطون وأرسطو، بل زعم الأخير أن أرواحهم كأرواح الحيوانات غير مخلدة.

أما الرومانيون فقد توسعوا في الاسترقاق إلى حد بعيد ؛ واتفقت الأمم القديمة على استعمال القسوة ضد الأرقاء .

وقد أقر الاسرائيليون الاسترقاق ولم يتناولوه بأقل تغيير .

ولما جاءت الديانة المسيحية اعتبرت الاسترقاق شرعياً ، وقد ذكر العلامة « دريبر » الاستاذ بجامعة (هارفارد) بالولايات المتحدة الأمريكية : أن آباء الكنيسة كانوا يكاثرون الكونتات في اقتناء الأرقاء .

أول قانون صدر في أوروبا لتخفيف ويلات الاسترقاق كان قانون الامبراطور « بترونيا » الروماني ، وهو يحرم على السادة إلزام أرقائهم بمقاتلة الوحوش إلا بإذن القاضي !.

وفي عهد الإمبراطور أنتونان الروماني صدر أمر يقضي بأن من يقتل عبده يعاقب بغرامة !

نعم صدر قانون في عهد الإمبراطور (كاوبوس) الروماني يقضي بأن من يقتل عبده يعتبر مرتكباً لجناية القتل ، ولكن بطل العمل بهذا القانون بموت واضعه.
وأول قانون صدر في شأنهم بعد القرون الوسطى كان سنة (١٦٨٥) وقد جاء فيه : انه إذا اعتدى أحد الزنوج أقل اعتداء على سيده ، أو على أحد الأحرار ، أو ارتكب أخف السرقات فان جزاءه القتل .

وصدر في عهد لويز الرابع عشر الفرنسي أي في القرن الثامن عشر هذه الفقرة: « إن من توفية حق النظام أن لا نتنازل عن احتقار الجنس الأسود مهما كانت منزلته ، وقد حصل التصميم على إبقاء الحكم الاعتباري الذي يحرم ذوي الألوان وذريتهم من امتيازات الجنس الأبيض إلى أبد الأبيد » .

أين هذا مما رفع به الإسلام قدر الانسانية من المساواة بين جميع أبنائها ، بصرف النظر عن الأجناس والألوان ، فقال رسوله محمد ﷺ : « ليس لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أسود فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح » ، فهدم بهذا الأصل الخطير حوائل الألوان التي كانت تحول دون إقرار العدل في نصابه في جميع البلدان ، ثم قرر للأرقاء الحقوق نفسها التي للأحرار ، بل جعل للأرقاء ، وهو أرفع علم يمكن نصبه للعدالة المثالية ، مزايا ليست للأحرار ، وذلك بإعفاء الأرقام من أنصاف العقوبات التي يحكم بها على الأحرار في الجرائم المختلفة ...

وهنا يحسن بنا أن نعرض على القراء طائفة من الأحاديث في هذا الشأن ، تبين سمو النفسية المحمدية ، ومبلغ ما وصلت اليه من الكمال . قال ﷺ : « اتقوا الله فيما ملكت ايمانكم ، أطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون . فما أحببتم فأمسكوا ، وما كرهتم فبيعوا ، فان الله ملككم أياهم ولو شاء لملكهم اياكم » .

وسأله رجل فقال : يا رسول الله ، كم أعفو عن الخادم ؟ فصمت رسول الله ﷺ ثم قال : « اعف عنه في كل يوم سبعين مرة » .

قال ابن المنكدر : إن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ ضرب عبداً له فجعل العبد يقول : أسألك بالله ، أسألك بوجه الله فلم يعفه . فسمع رسول الله ﷺ صياح العبد ، فانطلق اليه . فلما رأى الصحابي رسول الله أمسك يده . فقال له رسول الله : سألك بوجه الله فلم تعفه ، فلما رأيتني أمسكت يدك . قال الرجل فانه حر لوجه الله يا رسول الله . فقال له النبي : لو لم تفعل لسفعت وجهك النار » .

وقال ﷺ : « أرقاؤكم اخوانكم (تأمل) استعينوهم على ما غلبكم ، وأعينوهم على ما عليهم » .

وقد اقتدى أصحاب رسول الله به، وأنزلوا أرقاءهم المنزلة التي أرادها لهم، على اعتبار أنهم إخوانهم لا عبيدهم. ومن ذلك ما يروى: «أن أبا هريرة رأى رجلاً على دابته وغلامه يسعى خلفه. فقال له يا عبد الله احمله خلفك فانما هو أخوك روحه مثل روحك، فحمله، ثم قال أبو هريرة: لا يزال العبد يزداد من الله بُعداً ما مُشي خلفه».

وقال الإمام الزهري: «متى قلت للمملوك أخزاك الله، فهو حر».

وقد جرى المسلمون في جميع العصور على مبادى الرحمة لهم، وكان من أظهر ثمراتها: أن كثيراً من الأرقاء وصلوا تحت سلطانهم إلى أعلى المراتب، وأرفع المناصب، ومنهم من تولى الملك أيضاً. وهذا أغرب ما نرويه عند ذكر الاسترقاق.

والفضل في هذا كله لخاتم المرسلين محمد ﷺ فانه لسمو روحه ورجاحة عقله، أدرك أن الاسترقاق عرض زائل لا يمنع أصحاب الكفايات العقلية والنفسية من بلوغ أقصى ما يبلغه أي إنسان من المراتب الأدبية والمادية. وكان النبي ﷺ أول من طبق هذا على العمل فولى بلالا المدينة، وكان فيها أبو بكر وعمر وكثير من كبراء الصحابة، ولم يمنعه من توليته أنه كان عبداً حبشياً لأبي بكر وهو الذي أعتقه.

فهذه الروح العَلوية، ولا أقول العبقرية، هي التي جعلت محمداً محمدا؟

— ٥ —

حصة العالم الحيواني من هذه النفسية العالية

إن الروح المحمدية التي اصفاها الحق سبحانه لنشر دينه العام في العالم بلغت من السمو إلى الحد الذي استأهلت فيه أن يكل إليها خالق الوجود تربية الأمة التي سيعهد إليها أن تتولى هذه المهمة الخطيرة .

وقد رأيتَ مما ذكرنا في فصولنا السابقة كيف قامت هذه الروح بمهمتها في وسط جاهلية جهلاء ، ولم تدع مظنة من مظان الانحراف الخلقي ، أو غريزة من غرائز الوحشية الاولى ، إلا انتزعتها وأحلت محلها عاملاً إصلاحياً يؤديها إلى مثلها الأعلى ؛ كما لم تبق ناحية من النواحي التي يصل إليها السلطان الآدمي إلا نالت حصتها من العدل والرعاية ، حتى العالم الحيواني في ظل هذه الروح العلوية ، مصداقاً لقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

كان النوع الإنساني قبل العهد الإسلامي لا يقيم للعالم الحيواني وزناً ، حتى إن الفلسفة اليونانية التي سيطرت على العقول قروناً طويلة ، تعتبر الحيوانات كائنات مجردة من الحقوق ، لا يقام لحياتها وزن ،وليس لها أقل حق على الإنسان وكيف يقام لها وزن ، وقد قرر أعلام الفلسفة وعلى رأسهم افلاطون وأرسطو ، أنها كائنات مجردة من الروح ، مثلها كمثل الجمادات ، فلما جاء الإسلام قرر أن لها أرواحاً ، وأنها تحشر يوم القيامة ، ويحاسب من أساء اليها ، ويجازى على ما صنعه بها ، جزاء وفاقا ، ألم يقل النبي ﷺ : « دخلت امرأة النار في هرة حبستها ، لا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض » .

كان هذا أول صوت ارتفع في الأرض يصرخ بأن للحيوانات أرواحاً تحشر ، وأن من أساء إليها يعذب بدخول جهنم .

من الذي قال قبل الإسلام إن للعصفور حقاً يطالب به يوم القيامة فيؤدي إليه ، ويعذب مهتضمه عذاباً نكراً ؟ قال النبي ﷺ : « من قتل عصفوراً بغير حق سأله الله عنه يوم القيامة » .

ومن الذي قال قبل الإسلام إن إسداء البر إلى حيوان قد يكون سبباً في الحظوة برحمة الله ؟ قال النبي ﷺ : « إن الله يرحم عبده المؤمن برحمته العصفور » .

ومن الذي قال قبل الإسلام ان الله جل شأنه يلعن من يتجارى على التمثيل بعصفور ؟ قال النبي ﷺ : « لعن الله من مثل بالعصفور » .

فإذا علمت ان لعنة الله للعبد هي أكبر عقوبة يمكن ان يجرها إنسان على نفسه بسوء عمله ، ادركت كنه التشديد الوارد في الإسلام في وجوب مراعاة حقوق الحيوان .

ومن الذي أوصى قبل الإسلام مقتني المطايا بالرحمة بها ، والإحسان إليها ، ومراعاة راحتها ، والقيام بواجباتها ؟ قال النبي ﷺ : « اركبوا هذه الدواب سالمة ، واتدعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق فرب مركوبة خير من راكبها ، واكثر ذكراً لله منه .

نعم من الذي قال مثل هذا أو قريباً منه ؟ أليس من أعلى مراتب التنويه بالعالم الحيواني قوله ﷺ في هذا الحديث « فرب مركوبة خير من راكبها ، وأكثر ذكراً لله منه » ؟ .

وقد ثبت في القرنين الأخيرين للباحثين في العالم الحيواني أن للحيوانات مدارك وعقولاً محدودة ، وأنهم تقبل التعلم إلى حد ما ، وقد وصل المشتغلون بتربيتها وتقدير قواها الادراكية ، إلى العلم بأن أكثر الحيوانات ادراكاً القردة

من طبقة الشامبانزية والأورانج أوتانج ، والفيلة والكلاب والهررة ، وأنها تقبل التعليم إلى حد ما، فوصلوا إلى تعليم هذين الصنفين الأخيرين طريقة التفاهم بواسطة الكتابة ، لا بأيديهما ولكن بوسيلة أخرى ، وهي بأن يتلو صاحبهما الحروف الهجائية ، فيضرب الحيوان الأرض عند ذكر مخاطبه الحروف التي يتألف منها جواب سؤاله . فرأوا أنهما يجيبانه على ما يسألان عنه بلهجة طفلية في درجة عقلية الانسان في سنته الرابعة من حياته ، وما وصل المشتغلون بهذه التجارب إلى هذه النتيجة إلا بعد عناء كبير وصبر طويل .

ومن يشاهد ما وصل إليه القردة والهررة والكلاب والفيلة والخيول وغيرها من فهم ما يطلبه مدربوها منها من القيام بالحركات والألعاب ، لا يشك في أنها تفهم ما تؤمر به وتؤديه على الوجه الذي تلقته منهم وهذه التأدية منها تدل على أنها متمتعة بفهم وادراك إلى حد ما ، وهو ما كان ينكر عليها إلى عهد قريب .

* * *

اما بعد فالذي قدمناه من فصولنا تحت عنوان (النفسية المحمدية) يسمح لنا ان نتساءل هل بلغ رجل في هذا العالم من وفور العقل ، وبعد النظر ، وسمو الفطرة وسعة المدارك، وحسن التقدير، وجلالة المبادىء، والتجرد من الأهواء ، واكتمال الإنسانية،ما بلغه (محمد بن عبد الله) رسول رب العالمين إلى الامم كافة؟

إذا جحد جاحد هذه الصفات فإن ما قام به ﷺ من الدعوة إلى الدين الحق ، وما سنه من شرائع للداخلين فيه ، وما اذاعه بأحاديثه من حكمته وتعاليمه ، لأدلة محسوسة لا تقبل النقض على صحة ما نذهب إليه .

إنه ما من فيلسوف أو مشترع ممن عنى العالم بنشر آرائهم ومذاهبهم إلا تؤخذ عليه سقطات ، وتسجل عليه انحرافات ، سوى خاتم المرسلين محمد بن عبدالله ﷺ فإن كل ما قاله اصول لا معدى عنها لأمم تريد أن تعيش كريمة ،

وقواعد لا بد منها لأرواح تتعطش ان تنال البر وتقيمه ، لا تصادف فيها عوجاً ولا أمتاً ، ولا تجد فيها النفوس الكريمة ما يصدها عن ان تتخذه لبلوغ غاياتها سمتا ، بل ولا يعثر فيهـا النقاد على مثل ما يعثرون به في كثير من المذاهب الفلسفية من الشطط المؤدي إلى الحيرة ، أو الغلو الباعث على العجز .

* * *

هذه النفس التي أعدها الحق أمينة على وحيه ، وأمدها من فضله بما أهّلها لأن تكون واسطة بينه وبين خلقه ، جديرة بما أسنده إليها من هداية عباده ، وخليقة بأن يختصها بمنزلة من الكرامة لم تنلها غيرها وهي الماثلة في قوله تعالى :

« إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيهـا الذين آمنوا صلوا عليـه وسلموا تسليما » .

فقه وأدب :

حماية الحيوان في شريعة القرآن[1]

لحضرة الكاتب الاستاذ توفيق الفكيكي المحامي ببغداد

رحمة الحيوان : في الكتاب ، في السنة ، في سيرة الصحابة ، في نظرة الفقهاء وأهل الحديث ، في مجلة الأحكام ، في نظام الحسبة ، أخذ الثأر لحق جوار الحيوان في الجاهلية والاسلام ، حمامة زياد بن سلمى ، الأعجم ، رد على الدكتور أحمد أمين ومقلديه ، حماية الحيوان من الفطرة العربية ، ودليل على الرحمة الاسلامية .

من أبرز الصفات التي اتصفت بها شريعة الإسلام الغراء ، صفة الرحمة ، فلا تخلو سورة من سور القرآن الكريم من ذكر الرحمة والبشارة الرحماء بحسن المآب ، كما كانت الرحمة من أعظم صفات الكمال المحمدي حيث وصف الله تعالى رسوله الأكرم ﷺ بها بقوله سبحانه : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) وهذه النعوت الشريفة من أهم السجايا الخلقية التي تحلى بها أشرف خلقه ، قد ارتكزت على أساس الرحمة وقوة الوجدان العامر بالرأفة والرقة ، فكانت رسالته ﷺ رحمة للخلق أجمعين (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وقد شملت هذه الرحمة كل من يمشي من حيوان على وجه الأرض ، وكل طائر طار في الجو وسبح في الماء .

---

(١) سيعرف القارىء الكريم الباعث على تحرير هذا المقال في خاتمته .

ومعنى الرحمة على ما جاء في كتاب « مفردات القرآن » للعلامة النحرير الراغب الأصفهاني ، هو رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم ، وعلى هـذا قول النبي الكريم ﷺ ذاكراً ربه إنه لما خلق الرَّحِمَ قال لها : (أنا الرحمن وأنت الرَّحِمَ ، شققت اسمك من اسمي ، فمن وصلك وصلته ، ومن قطعك بتته) فالرحمة منطوية على معنيين : الرقة والاحسان ، فركز تعالى في طبائع الخلق الرقة وتفرد بالإحسان، كما أن لفظ الرحم من الرحمة فمعناه الموجود في الناس من المعنى الموجود لله تعالى ، فتناسب معنياهما تناسب لفظيهما ، وقوله تعالى : (ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون) تنبيه إلى أنها في الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين ، وفي الآخرة مختصة بالمؤمنين .

لقد صدع الكتاب العزيز بحماية الحيوان وعدم ظلمه ومعاملته بالرفق والرأفة والرحمة ، من ذلك قوله تعالى :«وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » قال مجاهد رضي الله عنه أي انها أصناف مصنفة تعرف باسمائها و « أمثالكم » بمعنى أشباهكم في إبـداع الله إياهـا وخلقه لها ، كما أبدع وأحسن صوركم، وقيل إنما مثلت الامم من غير الناس بالناس في الحاجة إلى مدبر يدبرهم في أغذيتهم وأكلهم ولباسهم ونومهم ويقظتهم وهدايتهم إلى مراشدهم ، كما هدى الآدميين في أحوالهم ومصالحهم ، وأنهم يموتون ويحشرون كما تموتون وتحشرون ، فأصنـاف المعجماوات في الدواب والطيور أشباهكم في الطبائع والغرائز ، وبين سبحانه وتعالى بهذه الآية سر الرحمة بأنه لا يجوز للعباد أن يتعدوا في ظلم البهائم من أنواع الحيوانات مطلقـاً ، فإن الله خالقهـا والمنتصف لها [١] .

وقال أحد الأفاضل المعاصرين[٢] : فما من حيوان ذي كبد رطبة إلا وفي الاحسان إليه والرحمة به أجر ، ورطوبة الكبد كناية عن الحياة ، إذ مظهر

---

(١) عن تفسير مجمع البيان للطبرسي من علماء الامامية .
(٢) هو فضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم الجبالي أحد كبار علماء الأزهر .

الحياة رطوبة الأكباد . وقد توسع بعضهم في معنى الرحمة وعموم حكمها لكل حيوان فقال حتى هذه الفواسق المؤذية مع الأمر بقتلها، ينبغي ألا تقتل بالعطش وألا تقتل صبراً ، بل ينبغي إحسان قتلها ، فلو أمكن الجمع بين إروائها وقتلها كان في إروائها ثواب كما يقتل من يستحق القتل من الآدميين بعد إروائه إن كان ظمآن ، وكما تسقي الشاة قبل ذبحها عملاً بقوله ﷺ : « إن الله كتب الاحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة » وقد نهى عن المثلة في القتال ، ويتجلى لك الوعيد بأشد مظاهره في قوله ﷺ : « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض[1] » . فهذه هي الدعوة القرآنية المباركة الداعية إلى الرفق والرحمة بأصناف البهائم وجميع أنواع الحيوان التي تحس بحرارة الألم الأليم ، وتشعر بلذة الراحة والنعيم .

في السنة :

لقد مدح سبحانه وتعالى رسوله الأعظم ﷺ بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » وكان الرفق من شمائله العالية ، وفضيلة من فضائل رسالته السامية ، وهو من أكبر مظاهر خلقه العظيم « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » لهذا نراه ﷺ قد حبب المسلمين الرفق لأنه روح التربية المحمدية ، فقال ﷺ : «لو كان الرفق خلقاً يرى ما كان فيما خلق الله شيء أحسن منه ».

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل شيء قفل وقفل الإيمان الرفق » وعنه أيضاً : قال رسول الله ﷺ : « إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف». وقال رسول الله ﷺ : « من كان رفيقاً في أمره نال ما يريده من الناس » وقال ﷺ : «إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق » وقال ﷺ : « من أعطى حظه من الرفق

---

(١) خشاش الأرض: هوامها وحيواناتها الصغيرة .

أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من خير الدنيا والآخرة » وعن جرير رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من يحرم الرفق يحرم الخير كله » وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إن الرفق ما كان في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه » وقد ورد في الأثر « إن الله رحيم وإنما يرحم من عباده الرحماء » وقال بعض الحكماء : إن من الناس من تفسد إنسانيته فيصبح غير إنسان ، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

وأمعنت السنة النبوية الكريمة في الإيصاء بالحيوان والرفق المتناهي بالبهائم والرحمة العظيمة بالعجماوات ومن سيرته الشريفة في ذلك :

(١) مر ﷺ على قوم وقوف على ظهور دوابهم ورواحلهم يتنازعون الأحاديث . فقال ﷺ : «لا تتخذوها كراسيّ لأحاديثكم في الطرق والأسواق فربّ مركوب خير من راكبه » فنهى ﷺ أن يجعل الحيوان المتصرف ، بمنزلة الجماد الثابت ، والشيء النابت .

(٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «لا تتخذوا ظهور دوابكم منابر ، إنما سخرها الله لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، وجعل لكم الأرض ، فعليها فاقضوا حاجتكم »[١] .

(٣) وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه[٢] قال : كان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدف أو حائش نخل[٣] فدخل حائطاً لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل فلما رأى رسول الله ﷺ حنّ وذرفت عيناه ، فأتاه رسول الله ﷺ فمسح ذفراه[٤] فسكت فقال : من ربّ هذا الجمل ؟ فقال فتى

---

(١) أخرجه أبو داود . (٢) أخرجه أبو داود (٣) حائش النخل أو الشجر : ما اجتمع منه . (٤) ذفرى البعير : الموضع الذي يعرق من قفاه خلف أذنيه ويجعل فيه القطران ، وهما ذفريان .

من الأنصار : هو لي يا رسول الله . فقال : « أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها ؟ فإنه شكا إليّ أنك تجيعه وتدئبه »[١] .

(٤) ورأى رسول الله ﷺ قرية نمل قد أحرقت ، فقال : من أحرق هذه ؟ فقال من معه : نحن ، قال : (إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار)[٢] .

(٥) وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ركبت بعيراً فيه صعوبة فجعلت أردده ، فقال ﷺ : (عليكِ بالرفق) .

(٦) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا عند النبي ﷺ فدخل رجل فأخرج بَيْض حُمَّرة ـ وهي ضرب من الطيور أحمر اللون ـ فجاءت الحمرة ترف على رأس الرسول ﷺ ، فقال الرسول ﷺ لأصحابه : أيكم فجع هذه ؟ فقال رجل أنا يا رسول الله أخذت بيضها ـ وفي رواية الحاكم ـ أخذت فرخها ، فقال ﷺ : « رده ، رده ، رحمة لها »[٣] .

(٧) وفي سنن أبي داود من حديث عامر قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل رجل عليه كساء ، وفي يده شيء قد لف عليه طرف كسائه فقال : يا رسول الله إني لما رأيتك ، أقبلتُ فمررت بغيضة شجر ، فسمعت فيها أصوات فراخ طائر ، فأخذتهن فوضعتهن في كسائي ، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي ، فكشفت لها عنهن ، فوقعت عليهن فلففتها معهن ، وهاهن فيه معي ، فقال ﷺ : ضعهن عنك فوضعتهن ، وأبت أمهن إلا لزومهن ، فقال النبي ﷺ لأصحابه : « أتعجبون لرحمة أم الفراخ فراخها ؟ قالوا : نعم ! يا رسول الله ، قال : فو الذي بعثني نبياً الله أرحم بعباده من أم هؤلاء الأفراخ بفراخها . ارجع بهن حتى تضعهن من حيث أخذتهن ، فرجع بهن وأمهن ترفرف عليهن .

---

(١) تدئبه : تتعبه بكثرة استعماله . (٢) أخرجه أبو داود .
(٣) من كتاب الحيوان للدميري .

(٨) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي ، فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له . قالوا : يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً ؟ قال : « في كل كبدٍ رطبة أجر » .

من سيرة الصحابة :

وقد اقتدى أصحاب رسول الله ﷺ بسيرته النبيلة في الرفق بالحيوانات وحمايتها من الظلم والعنف ، فمن وصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلى عامله على الصدقات : « فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه ، فإن أكثرها فله، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به ، ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها ، ولا تسوءن صاحبها فيها ... ولا توكل بها إلا ناصحاً شفيقاً ، وأميناً حفيظاً غير معنف ولا مجحف ، ولا ملغب ولا متعب . فإذا أخذها أمينك فأوعز إليه ألا يحول بين ناقة وفصيلها، ولا يَمْصُر[١] لبنها فيضر ذلك بولدها، ولا يجهدنها ركوباً ، وليعدل بين صواحباتها في ذلك وبينها، وليرفه على اللاغب ، وليستأن بالنَّقِب والظالع[٢] ، وليوردها ما تمر به من الغُدُر ، ولا يعدل بها عن نبت الأرض إلى جوادّ الطرق ، وليروّحها في الساعات وليمهلها عند النِّطاف[٣] والأعشاب ... الخ[٤] .

---

(١) المصر : حلب ما في الضرع جميعه .

(٢) الظالع : الذي ظلع أي غمز في مشيه ، والنقب ذو النقب ، وهو رقة خف البعير حتى تكاد الأرض تجرحه .

(٣) النطاف : جمع نطفة ، وهي الماء الصافي ، والنطف : الدلو ، وليلة نطوف يجيء فيها المطر حتى الصباح ، والناطف : السائل من المائعات .

(٤) أعتقد لو كان الدكتور أحمد أمين بك قد اطلع على هذه الوصية الثمينة دون سواها من تعاليم الاسلام لما قال بأن حماية الحيوان فكرة مانوية عند تعليقه على أبيات زياد الأعجم .

ومن وصية أبي بكر رضي الله عنه إلى يزيد بن أبي سفيان : « إني موصيك بخصال : لا تغدر ، ولا تمثل ، ولا تقتل هرماً ولا امرأة ولا وليداً ، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً ، إلا ما أكلتم ، ولا تحرقن نخلاً ، ولا تخربن عامراً ، ولا تغُل ولا تجبُن[١] » .

وأخرج ابن الجوزي عن المسيب بن دارم قال : رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضرب جمّالاً ويقول : حمّلت جملك ما لا يطيق .

وجاء في كتاب الام للامام الشافعي رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب قدم مكة فدخل دار الندوة يوم الجمعة وأراد أن يستقرب منها الرواح إلى المسجد فألقى رداءه على واقف في البيت فوقع عليه طير من هذا الحمام فأطاره ، فانتهزته حيّة فقتلته ، فلما صلى الجمعة دخل عليه نافع بن عبد الحرث وعثمان بن عفان ، فقال لهما عمر : أحكما عليّ في شيء صنعته اليوم : إني دخلت هذه الدار وأردت أن أستقرب منها الرواح إلى المسجد ، فألقيت ردائي على هذا الواقف ، فوقع عليه طير من هذا الحمام ، فخشيت أن يلطخه بسلحه ، فأطرته عنه ، فوقع على هذا الواقف الآخر ، فانتهزته حيّة فقتلته ، فوجدت في نفسي بأني أطرته من منزلة كان فيها آمناً إلى موقعة كان فيها حتفه ، فقال نافع لعثمان : كيف ترى في عنز ثنية عفراء نحكم بها على أمير المؤمنين ؟ قال لهما عمر : أرى ذلك فأمر بها وذبحها .

في أحكام الفقهاء وأهل الحديث :

ذهب فقهاء الامة عليهم الرحمة إلى أبعد حدود النظر فيما يتعلق بالرفق بالحيوان مما لم نجده في الشرائع السماوية الاخرى ولا في الشرائع الوضعية غريبة

---

(١) « لا تغل » من الغلول وهو الخيانة عامة ، وخص بعضهم به الخيانة في الفيء والمغنم ، ومنه « وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة » وجبز له من المال جبزة – بوزن كتب – : قطع له منه قطعة .

كانت أو شرقية ، فقد قرروا قواعد مهمة ، وفرّعوا مسائل دقيقة لا يحصرها العد ، لم تصل بعد إليها أذهان فقهاء القانون في العصر الحاضر، ولم تخطر على بال مؤسسي جمعيات حماية الحيوان من أبنـاء المدنية الحديثة في زمن الذرة ، وإليك بعض تلك المسائل :

(١) يجب النفقة للبهائم المملوكة سواء أكانت مأكولة اللحم أم لا ، فإن امتنع صاحبها أجبره الحاكم على بيعها ، ولو كان لهـا ولد ولم يفضل عنه من لبنها لم يجز أخذ شيء من لبنها ، ولو أجدبت الأرض وجف علف البهائم، ولو امتنع مالكها أجبر على بيعها [١] .

(٢) لو أخذ أحد طعام إنسان في برية أو مكان لا يقدر فيه على طعام أو شراب فهلكت دابته ضمن (؟) ، ولو اقتنى أحد سنوراً فأكل فراخ الناس ضمن ما يتلفه [٢] .

(٣) وذكر في (باب كراء الإبل والدواب) من كتاب الام للشافعي رضي الله عنه ما يأتي :

ينبغي للسلطان أن يوكل رجلا من أهل الرفقة بأن يعلف الدابة ويحسب ذلك على رب الدابة والإبل ، وإن ضاق ذلك فلم يوجد أحـــد غير الراكب ، يؤمر الراكب بالعلف ويستوفي قيمته من صاحبها .

وفي بيض النعامة يصيبه المحرم، قال عطاء رحمه الله: إن أصبت بيض نعامة وأنت لا تدري ، غرمتها تعظم بذلك حرمات الله تعالى . (قــال الشافعي) : وبهذا نقول لأن بيضة من الصيد جزء منه لأنها تكون صيداً ، ولا أعلم في هــذا مخالفاً ، لأن هذا إتلاف قياساً على قتل الخطأ .

وقال أبو حنيفة رحمه الله : لو ضرب الراعي شاة ففقأ عينها أو كسر رجلها ضمن ، وعند أبي يوسف ومحمد : لو ساق الاجير المشترك الأغنام بأن صعد الجبل

---

(١) و (٢) عن التحرير للعلامة الحلي أحد علماء الامامية في القرن السابع الهجري .

أو مكاناً مرتفعاً فتردى منهـا فعطب يضمن لإمكان التحرز ، وكذا لو ساقها فعطبت منها شاة بسياقه بأن استعجل عليها فعثرت فانكسرت رجلها أو اندق عنقها فعليه الضمان بالإتفاق ، وكذا الحكم في (البقار) لو ساق البقر فتناطحت فقتل بعضها بعضاً ، أو وطىء بعضها بعضاً في سَوقه ، أو استعجلها في السّوق فنفرت بقرة منها فكسرت رجلها ، أو ساقها في الماء لتشرب فغرقت ، ضمن .

(٥) إذا ركب الدابة وقد لبس من الثياب أكثر مما كان عليه حين استأجرها يضمن بقدر مـا زاد من لباسه ، ومن اكترى حماراً بسرج فـنزع عنه السرج وأسرجه بسرج زائد في الوزن فحينئذ يضمن عند أبي حنيفة ، وكذا إذا كبح الدابة بلجامها أو ضربها فعطبت ، ضمن عنده أيضاً .

(٦) لو فقأ أحد عيني الطير أو الكلب أو السنور يضمن لما انتقص من قيمته كالشاة والجمل ، وعن أبي يوسف يضمن النقصان في جميع البهائم .

(٧) البعير السكران إذا قصد إنساناً فقتله المصُول عليه دفعاً لشره يضمن قيمته ، وكذا الحكم في نتف ريش الطائر فيغرم بقدر ما نقص منه[١] ويفديه[٢] إذا مات من نتف الريش ، أو يصير طيرانه ممتنعاً .

هذا وقد بلغ الامامَ أحمدَ بن حنبل رضي الله عنه أن رجلاً وراء النهر يروي أحاديث ثلاثة ، فرحل الإمام أحمد إليه فلما ورد عليه وجده يطعم كلباً فسلم عليه أحمد فرد عليه السلام ، ثم اشتغل باطعام الكلب ولم يقبل على الإمام ، فوجد الإمام في نفسه شيئاً ، إذ أقبل الرجل على الكلب ولم يلتفت إليه ، فلما فرغ الرجل من إطعامه الكلب ، إلتفت إلى الإمام وقال : لعلك وجدت في نفسك إذ أقبلت على الكلب ولم أقبل عليك ، قال : نعم ! فقال : حدثني الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من قطع رجاء

(١) من أراد التفصيل فليراجع باب الضمان من كتاب الفقه فيرى العجب العجاب من رحمة الاسلام بالحيوان . (٢) اذا كان محرما في الحج .

من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامة فلن يلج الجنة » ثم قال الرجل : أرضنا هذه ليست بها كلاب ، وقد قصدني هذا الكلب فخفت أن أقطع رجاءه ! فقال الإمام أحمد يكفيني هذا الحديث .

وجاء في طبقات ابن السبكي رحمه الله أن الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه لما نام يوم الجمعة جاء الهر فنام على كمه ، فاستيقظ وقت الصلاة فقطع كمه ولم يزعجه فلما فرغ من صلاته وذهب الهر ، أعاد كمه إلى موضعه .

هذا وقد نصت المادة (١٢٩٥) من مجلة الأحكام — القانون المدني العراقي — على أن شرط الصيد أن يكون ممتنعاً عن الانسان بقدرته على الفرار برجليه أو جناحيه ، فإن صار إلى حال لا يقدر معها على الفرار والخلاص كغزال مثلاً وقع في بئر ، فيكون قد خرج عن حال الصيدية .

في نظام الحسبة :

كان من عمل المحتسب النظر على أرباب البهائم للمحافظة عليها فمن جملة واجباته أن يأخذ أرباب البهائم بعلوفتها إذا قصروا ، وألا يستعملوها فيما لا تطيق ، وكذلك ينظر في الضوال ، فإن قصّر واجدها فيها ؛ يعده مسئولاً عنها ويكون ضامناً للضالة ، ومن ذلك : إذا قدم البيطار إلى معالجة الدواب بغير خبرة فيسبب هلاك الدابة أو عطبها يلزمه أرش ما نقص من قيمتها من طريق الشرع ، ويعزره المحتسب من طريق السياسة . ويقول القرشي في كتابه (الحسبة في الاسلام) : وينبغي للبيطار ان يعتبر حافر الفرس والدابة قبل تقليمه ، فإن كان أحنف أو مائلاً نسف في الجنب الآخر قدراً يحصل به الاعتدال ،وإن كانت يد الدابة قائمة جعل المسامير المؤخرة صغاراً والمقدمة كباراً . وإن كانت يدها بالضد من ذلك صغر المقدمة وكبر المؤخرة ، فلا يبالغ في نسف الحافر فتعمش الدابة ، ولا ترخي المسامير فيتحرك النعل ويدخل تحته الحصي والرمل وترهص الدابة ، ولا يشد الحافر بقوة فتزمن الدابة .

وفي الأحكام السلطانية لأبي يعلى الحنبلي : يمنع من خصاء البهائم ويؤدب عليه ، وقال الامام أحمد في رواية حرب : وقد سئل عن خصاء الدواب والغنم للسمن وغير ذلك فكرهه ، إلا أن يخاف عضاضه .

اخذ الثأر لحق جوار الحيوان في الجاهلية والاسلام :

كان العرب قبل الاسلام قد قدست الحيوان وعبدته ، ومن آثار ذلك عندهم أنهم يجتنبون قتله ظناً منهم أنهم لو قتلوه لجوزوا به ، وكان كليب قد عرف واشتهر في الجاهلية بحامي الصيد، وكان يقول صيد ناحية كذا وكذا في جواري فلا يصيد أحداً منه شيئاً ، حتى ضرب به المثل في العز فقيل (أعز من كليب وائل) وليس على الأرض بكري أو تغلبي اجار رجلا أو بعيراً إلا بإذنه ، ولا يحمي حمى إلا بأمره، وكان إذا حمى حمى لا يقرب ، وقصة الناقة (سراب)، بينه وبين ابن عمه جساس مشهورة في تاريخ الأدب العربي، وخلاصتها أن كليباً كان يخرج ويدور في حماه فإذا هو بحمَّرة على بيض لها، فلما نظرت إليه صرصرت وخفقت بجناحيها فقال : أمنّ روعك ، أنت وبيضك في ذمتي ، ثم قال :

يا لك مـــن حمرة في معمرى خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري

ثم خرج بعد ذلك يطوف فإذا هو بأثر بعير لا يعرفـه قد وطىء البيض فشدخه فرمى كليب فصيل ناقة البسوس لقاء شدخ بيض الحمرة ، فقتله وكان ذلك سبب حرب البسوس بين أبناء الأعمام ، وفي ذلك يقول جساس [١] :

إنمـا جاري لعمري فاعلموا أدنى عيـــالي
وأرى للجار حقـــاً كيميني من شمـــالي
وأرى ناقـــة جاري فاعلموا مثـــل جمالي

(١) الأغاني ج ٤ ص ١٤٠ - ١٥٠ وج ٥ ص ١٦٠ — ١٨٠ .

إن للجار علينا دفع اضيم بالعوالي
فأقلي اللوم مهلا دون عرض الجار مالي
سأؤدي حق جاري ويدي رهن مقالي
أو أرى الموت فيبقى لؤمه عند رجالي

وقد اشتهر في الجاهلية كثير من رجالات العرب وساداتهم بحماية الحيوان، حتى كان ثور بن شحمة، وهو أحد أشرافهم يسمى: «بمجير الطير» فكان الطير لا يثار ولا يصاد بأرضه لجواره له (١)، ولما جاء الاسلام أقر الرسول الكريم ﷺ هذه العادة العربية الحسنة، وهي من الأخلاق الحميدة الرفيعة، وحث عليه السلام على التمسك بأهدابها، ومن أبلغ ما يؤثر من الزجر عن إيذاء الجار قوله ﷺ: «إن أنت رميت كلب جارك فقد آذيته» فتأدب المسلمون بهذا الأدب السامي، وجروا على سنته.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه (٢)».

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة»(٣).

حمامة زياد الأعجم:

تغنّي أنت في ذممي وعهدي وذمة والدي إن لم تطاري
وبيتك أصلحيه ولا تخافي على صِغَر مزغّبة صغار (٤)

---

(١) عن كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب.
(٢) أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم.
(٣) الفرسن: خف البعير، وقد استعير للشاة فسمي ظلفها به.
(٤) الصغر - بكسر الصاد -: أصغر الأولاد يقال: هو صغرة أبويه أو صغرة أولاد أبويه، والجمع صغر - بكسر أوله وفتح ثانيه. وزغب الفرخ - بتشديد الغين على صيغة الماضي -: نبت زغبه أي ريشه فهو زغب كحذر، ومزغب.

فإنك كلما غنيت صوتاً ذكرت أحبتي وذكرت داري
فإما يقتلوك طلبت ثأراً له نبأ لأنك في جواري

وكان الاستاذ الدكتور أحمد أمين بك قد علق على هذه الأبيات في كتابه فجر الإسلام بما يأتي :

« ... وذكروا أن حبيب بن المهلب لما سمع هذا الشعر قتل حمامته فاستعدى زياد عليه المهلب فحكم له بدية جارته . أفلست ترى معي أن هـذا الشعور على هذا النحو جديد لم أعرّفه للعرب من قبل ؟ ولعل عليه مسحة مانوية من حماية الحيوان ثم استدرك في الحاشية فقال : « لست أعني الشعور بحماية الحيوان لأنه في جواره ، إذ يظهر أن هذا كان عند العرب في الجاهلية ولكن أعني تجسيم هذا المعنى حيث يستعدى الوالي بطلب الدية » .

وقد قلدّتْ رأيه هـذا أديبة عراقية [١] ورجحت قوله باتهام الشاعر زياد بالمانوية حتى عدّته من جراء ذلك من جملة شعراء الشعوبية أما تاريخ حياة هـذا الشاعر وسيرته وجهاده في سبيل الاسلام وخدمة العروبة تحت لواء القائد عثمان ابن أبي العاص وموسى الأشعري في فتح (اصطخر) وغيرها في بـلاد فارس فتدحض حجة المتهمين له بالمانوية والشعوبية ، وهو القائل في — أمير بن أحمد اليشكري — لما استخلف على جيش سجستان حين اضطرب أمر عثمان بن أبي العاص فيها .

لولا أميرٌ هلكت يشكر ويشكر هَلْكَى على كل حال[٢]

وقد عدّه ابن سلام في الطبقة السادسة من شعراء الإسلام ، ومما يفند هـذه المزاعم في حقه أيضاً قصته مع كعب الأشقري شاعر الازد عنـد هجوه (عبد القيس) قبيلة — زياد — بقصيدته التي مطلعها :

---

(١) هي السيدة عاتكة بنت عدنان العسكري .
(٢) معجم الادباء ج : ١١ صحيفة : ١٦٨ .

إني وإن كنت فرع الازد قد علموا أخزى إذا قيل عبدالقيس أخوالي

فلما بلغ زياداً غضب وقال : يا عجباً للعبد ابن العبد ابن الحيتان والسرطان يقول هـذا في عبد القيس وهو يعلم موضعي فيهم ، والله لأدعنه غرضاً لكل انسان ثم قال :

هل تسمع الازد ما يقال لها في ساحة الدار أم بها صمم
اختتن القوم بعـد ما هرموا واستعربوا ضلة وهم عجم

فشكاه كعب إلى المهلب وأنشده هذين البيتين فقال له المهلب : أنت أسمعتنا هذا وأطلقت لسانه فينا وقد كنت غنياً عن هجاء عبد القيس وفيهم مثل زياد ، فاكفف عن ذكره ، ثم دعا بزياد فعاتبه فقال : أيها الأمير . اسمع ما قال فيّ وفي قومي ، فإن كنتُ ظلمته فانتصر ، وإلا فالحجة عليـه ، ولا حجة على امرىء انتصر لنفسه وحسبه وعشيرته .

وله شعر كثير في الدفاع عن شرف عشيرته عبد القيس وأحسابها التي يعتز بالإنتساب إليها ، ويفخر بموضعه منها ، ولا مجال لذكره هنا . وقـال صاحب الأغاني في ترجمته هو زياد بن سليمان[١] مولى عبد القيس أحد بني عامر بن الحرث ثم أحـد بني مالك بن عامر . وعن محمد بن العباس اليزيدي كان ينزل اصطخر فغلبت عليه العجمة على لسانه فقيل له الأعجم .

ولو كان على الحال الذي اتهمه به الاستاذ أحمد أمين بك ومقلدوه لاشتهر به بين أبنـاء عصره ، بل بالعكس كانت مواقفه منهم تدلنا على خلاف ذلك . كما رأينا في هجوه كعباً الأشقري بقوله : (واستعربوا ضلة وهم عجم) وكما في حكاية الأغاني من تهيب الفرزدق ذلك الشاعر الفحل هجاءَ عبد القيس لمقـام زياد فيهم ، وقد بعث إليه الفرزدق : لا أهجوا قوماً أنت منهم أبداً . فلو كان

(١) وفي معجم الادباء : هو زياد بن سلمى بن عبد القيس أبو أمامة العبدي المعروف بزياد الأعجم .

الفرزدق، وهو سيد شعراء عصره ، يرى فيه ما يراه ادباء عصرنا، من أحاسيس المانوية والنزعات الشعوبية ، لما سكت عنه وتركه أبداً بعد أن هجاه ذلـــك الهجاء القاسي ، بل لحطم عظامه ودقها دقاً ، وفضح مانويته ، وندّد بشعوبيته بغير واحدة من فرائده وخرائده الحسان ، وتركه غرضاً لكل لسان .

هـــذا وإذا رجعنا إلى أبيات زياد في (حمامته) نجد أن تجسيم المعنى فيها والذي لم يعرفه الاستاذ أحمد أمين بك للعرب من قبل ، قد أخذه زياد من معاني شعر جساس الذي قاله في – سراب – ناقـــة سعد الجرمي الذي نزل بجوار البسوس خالة جساس بن مرة ، بل إن المعاني قـــد تجسدت في أبيات جساس وكليب بصورة لم تخطر على بال الشاعر زياد الأعجم ، ولم يتصورها خيـــاله ، وتدركه شاعريته بالرغم من تفاوت العصر وتبدل ألوان الحياة، وتغير أساليب العيش التي لها الأثر الفعال في مشاعر الشعراء وأخيلتهم وانفعالاتهم ، كما لا يخفى على ادباء عصرنا الألباء .

ثم لا ندري ما هو نوع الاختراع والإبـــداع الشعري في تجسيم المعنى في أبيات زياد ، الذي أبهر الدكتور أحمد أمين بك ؟ أما قول زياد :

فإما يقتلوك طلبت ثأراً   له نبأ لأنك في جواري

فإنه لم يتضمن إلا علة الجوار لطلب ثأر حمامته لا أقل ولا أكثر ، بينما نرى في شعر جساس أكثر من علة لأخذ ثأر (سراب) وهو فوق ذلك لم تحدثه نفسه بأخذ الدنانير عوض ثأره مهما بلغت كما فعل زياد ، وأنه لم ير كفئاً لدم الناقـة – سراب – إلا مهجة ابن عمه « كليب » حامي حمى تغلب ، وسيد ربيعة كلها، حتى طحنت الحرب جماجم هاميم بكر وتغلب ، وقد استعرت نيرانها بين أبناء الأعمام أربعين سنة ، فكان – دم كليب – مثلاً من الأمثال .

فهل يا ترى كان كليب وجساس وثور بن شحمة مجير الطير في الجاهلية على مذهب المانوية لحمايتهم الحيوان ؟ وهل كانت تعاليم الاسلام العاليـة في رحمة البهائم وبيض الطيور ، وكذلك وصايا الصحابة الكرام ، وأحكام فقهـــاء

الشريعة وأهل الحديث من هذه الامة ، ونظام الحسبة في الاسلام بشأن الرفق بالعجماوات ، كل ذلك مستمداً من المانوية الكاذبة ؟ كما وصفها المتنبي الحكيم :

وكم لظلام الليل عندي من يدٍ   تُخبّر أن المانوية تكذب

أليس من الأرجح والأفضل القول بأن زياداً الأعجم ذلك الشاعر الاسلامي العربي المجاهد في سبيل الله، كان قد استمد خياله الشعري في أبياته من التقاليد العربية الأصيلة ، وتعاليم الشريعة المحمدية السمحة ، من قبل أن تشيع الفاحشة المانوية في الوسط الاسلامي بأجيال . وما اتهام شعر زياد بالمسحة المانوية من قبل الأديب الكبير الاستاذ أحمد أمين بك ومقلديه، إلا كاتهام الجاحظ للأصمعي بالمانوية ، حين اختلفا في مسألة (القدر) .

وبعد فإن ما بسطناه من الكلام المفصل يكفي للبرهان على أن حماية الحيوان كانت من الفطرة العربية السليمة ، ومصداق الرحمة الاسلامية قبل أن تعرف المانوية الملحدة في ديار العرب والمسلمين، وفي هذا مقنع لرائد الحق والإنصاف.

من زلات المستشرقين

لحضرة السيد الاستاذ عبدالوهاب حمودة

يراد بكلمة المستشرقين كل من تجرد من أهل الغرب إلى دراسة بعض اللغات الشرقية كالفارسية والتركية والهندية والعربية وتقصى آدابها طلباً لمعرفة شأن أمة أو أمم شرقية من حيث أخلاقها وعاداتها وتاريخها وديانتها أو علومها وآدابها إلى غير ذلك من أسباب رقي الامم وحياتها العقلية .

وأول عهد الغربيين بالاستشراق يرجع إلى القرن العاشر الميلادي . ذلك أن القوم لما شهدوا ما بلغه المسلمون من حظ عظيم في العلوم الطبيعية والطبية والرياضية والفلكية وغيرها من علوم الحياة ، وبهرهم ما رأوا من آثارها في ازدهار حضارتهم ، انبعثوا في طلبها وتقليب النظر فيها والانتفاع بقضاياها ، يترجمون ما يقع لهم من الكتب العربية[1] في حياتهم العملية ، فأقبلوا على دراسة العربية ليتهيأ لهم ما طلبوا ، ثم جعلوا يترجمون ما يقع لهم من الكتب العربية في تلك العلوم إلى اللاتينية التي كانت لغة العلوم والآداب في ذلك الزمان.

ولقد ظلت هذه الحركة مشبوبة طوال القرون الوسطى، تتنافس فيها الامم وتتبارى الدول . وشاعت في القرون الوسطى لغتان فقط من لغات الشرق بين العلماء ، وهما : اللغة العبرية التي كانت تعتبر لغة الإنسان الأول ، واللغة العربية

ا

(١) تلك اللغة كانت لغة العلوم للمسلمين في تلك الأزمنة .

التي كانت مهمة لكثرة البشر الذين يتكلمون بها ، ولشهرة فلاسفة الإسلام ، أمثال : ابن رشد ، وابن سينا . ولذلك أنشىء في باريس منذ أواسط القرن الثالث عشر للميلاد درس عام لتدريس اللغة العربية .

على أن إقبال الغربيين على درس اللغات الشرقية وتفهمها لم يكن الغرض منه مقصوراً على الانتفاع بما خرج فيها من العلوم فحسب ، بل لقد طلبوا ذلك أيضاً للأغراض التجارية ، وطلبوه بحظ أعظم من هذا لتيسير التبشير بالمسيحية في البلاد الشرقية . فقد قضى مجمع فينـا سنة (١٣١١م) وكان برئاسة أكلمنت الخامس أن تؤسس في باريس واكسفورد وبولون دروس عربية وعبرانية و كلدانية لتخريج وعاظ وأهل جدل أشداء لتنصير المسلمين واليهود. وأنشأ الفرنشيسكان والدوميليكان من الرهبنات الكبرى أديارهم دروساً في هذه اللغات ، فأصبحت إيطاليا مهد حركة لجحث في الاستشراق، وأخذوا بنوع خاص يدرسون العبرية للتعمق في فهم أسرار التوراة وتنصير اليهود ، ويدرسون اللغة العربية لتنصير المسلمين . فكانت رومية أول مدينـة في العـالم طبع فيهـا كتاب عربي عقيب اختراع الطباعة ، وهو : « قانون ابن سينا » .

وفي أواسط القرن الثامن عشر لمـا أخذت أوروبا تتحفز لاستعمار الشرق أخذ علماؤها يبحثون في تأليف جمعيات لهذه الغاية فانشئت منذ ذلك العهـد في أوربا وأمريكا عدة جمعيات المستشرقين وأقدمها عهداً الجمعيـة الآسيوية في باريس التي اسست سنة (١٨٢٢ م) بمعرفة شيـخ المستشرقين من الفرنسيين سلفستر دي ساس ثم انشئت معاهد للغات الشرقية في جميع الدول تابعة هذه المعاهد لوزارة المستعمرات أو لوزارة الخارجية المشرفة على الشئون السياسية فلا عجب إذن إذا رأينا المستشرقين يجهدون في تصوير الشرق بصورة بشعة قبيحة في أخلاقه وعاداته وآرائه ويتجنون على الإسلام في كتاباتهم ونشر ما يدعو إلى التشكك في الدين الإسلامي وإلى تزعزع اليقين في صحة كتابه الكريم وصدق الرسول الأمين . فهم لا يعفون عن الاتهام فيما يكنونه ولا يترفعون عن الهوى

فيما يبحثونه اللهم إلا نفر قليل منهم رزق الإنصاف أو أرغمه التاريخ على الاعتراف بفضل القرآن على الإنسانية وآثار تعاليمه في إنقاذ البشرية .

فكان هؤلاء المستشرقون ضروباً ثلاثة ، فضرب لم يملك ناصية اللغة فأخطأ في نشر الكتاب وفي فهم النصوص لكنه حفل بامور شكلية لا فائدة لنا فيها .

وضرب ثان أثرت في دراساتهم مآرب السياسة والتعصب للدين ، فوجهوا الحقائق وفسروها بما يوافق أغراضهم أو ما يسعون إليه . ولعل هذا الضرب هو الذي دفع الشرقيين من المسلمين العرب أن يرتابوا بالمستشرقين جميعاً لأن من المؤسف أن يسخر هؤلاء العلم الذي يسمو به الإنسان لإذلال الإنسان أو استعباده أو الاعتداء على تراثه أو الطعن على عقيدته بغير الحق .

بقي فريق ثالث اوتي الكثير من سعة العلم ، والتمكن من العربية والإخلاص للبحث والتحرر والإنصاف فكانت دراساتهم مثمرة وأعمالهم نافعة وبحوثهم جديرة بالتجلة والاحترام .

فمن الإنصاف في الرأي والأمانة في الحديث أن نعترف لهم بالأثر البعيد في بعث اللغة العربية وآدابها بطبع نفائس الكتب في مطابعهم والتعليق عليها . وإلحاق الفهارس الميسرة للاستفادة منها .

فضلاً عما عالجوه من البحوث المختلفة عن بلاد الشرق وتواريخها وأخلاق أممه وعاداتهم وشرائعهم ولغاتهم وعلومهم وفنونهم مما كان الغرب منه في جهالة تامة .

فإذا كان المستشرقون قد أغاروا على الشرق فنقلوا إلى لغاتهم علومه وفنونه فما أجدرنا نحن بأن نستغرب كما استشرقوا فننقل إلى لغاتهم محاسن ديننا وجمال تعاليمنا ونبين لهم أسس مدنيتنا وسمو مثلنـا حتى يتذكروا أن الشرق مهـد الحضارات وأن تعاليم الإسلام منبع المدنيات وأن القرآن دستور الإنسانية كفل لها أهنأ السعادات .

بيد أن للمستشرقين زلات ارتكبوا أكثرها عن عمد استجابة لنياتهم وتحقيقاً

لأغراضهم ووقعوا في القليل منها عن خطأ في فهم النصوص وعجز عن الغوص إلى أعماقها والاهتداء إلى فهم أسرارها .

فنحن إذا فتحنا هذا الباب واهتممنا بالكشف عن زلاتهم والكتابة في تصحيح أخطائهم فما ذلك إلا لأن الشرق اليوم متصل أشد اتصال بالغرب والغرب يهاجم الشرق في ميادين مختلفة أهمها في نظر الغرب المستعمر التشكيك في العقائد والزلزلة في اليقين وهم يستعينون في ذلك بشتى الطرق منها نشر المستشرقين لمؤلفات كلها سموم وطعون في اسلوب جذاب ، وثوب شفاف من التفكير الحر الخداع ، ولنا شباب يقرأ تلك الطعون في مؤلفاتهم بلغاتهم تارة وبما يُترجم له اخرى إلى اللغة العربية وينشر بين ظهرانينا ، فإذا لم نقم بتفنيد آرائهم وتزييف اعتراضاتهم والكشف عن خبيئهم عششت تلك الشبه في أفكار شبابنا فنشئوا ملحدين زنادقة يروجون لتلك الشبه وينشرون لتلك الأباطيل وينظرون إلى الدين نظرتهم إلى ثوب بالرث ويطيرون مع الأفكار الإلحادية والآراء الإباحية .

فالباطل لا يقهر ولا يذوب إلا إذا اصطدم بقوة الحق وصولة أهله . وقوة الحق إما أن تكون مادية ،وإما أن تكون فكرية ، فالغلبة في آخر الأمر للحق لا محالة « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

ولنبدأ الآن في التكلم عن تلك الزلات .

يقول شيخ المستشرقين الاستاذ (نولدكه) وهو من كبارهم وعمدتهم وأهم مؤلفاته في الألمانية . منها (تاريخ القرآن) نال عليها الجائزة في الأكاديمية الفرنساوية .

أنحى هذا المستشرق بالنقد المر ، والاعتراض القاسي على اسلوب القصص في القرآن . فقال (نولدكه) في دائرة المعارف البريطانية تحت مادة (قرآن) « وعلى الجملة فبينما نجـد سوراً كثيرة من القرآن تعتبر من غير شك ذات قوة بيانية جديرة بالتقدير والاعتبار حتى بالنسبة للقارىء غير المسلم إذا بالكتاب من ناحية الجمال الفني في المقام الأول .

« ولكن لكي نبدأ بما نقدر على نقده دعونا ننظر في بعض القصص الطويلة فهناك نشاهد العنف والجفاف يحلان محل الرصانة الملائمة بسير الأبطال وإن الربط الضروري سواء أكان في التعبير أم في تسلسل الحوادث مفقود في أكثر الأحيان حتى يمكن أن يقال إن فهم تلك القصص أسهل علينا نحن من فهمها لاولئك الذين سمعوها لأول مرة . وذلك لأننا نستطيع أن نطلع عليها في مصادر اخرى لا تتيسر لاولئك المعاصرين لمحمد . » « ونجد على طول الخط جزءاً كبيراً من اللغو والحشو الزائد ولا نجد في أي جزء تقدماً ثابتاً في القصص » .

وقد ذكر هذا النقد نفسه مختصراً « نيكلسون » في كتابه « تاريخ العرب الأدبي » .

والرد على ذلك نقول :

إنه لا يجوز مقابلة اسلوب القصص في القرآن باسلوبه في التوراة وذلك لاختلاف الأغراض فيهما. ففي التوراة حوادث تاريخية منظمة تجري فيها الأخبار مجراها الواضح العادي . أما القرآن فإنه يقصد من عرض هذه القصص التوسل إلى التهذيب والعبرة فلم يكن المقصد الأسنى منها مجرد سرد حكاية وقصة بل البلوغ بالقارىء والسامع معاً إلى مغزى أدبي أو عظة سامية كأن يعلم الناس أن الله في جميع الأزمان الغابرة كان دائماً أبداً يكافىء الأخيار ويعاقب الأشرار .

فسنة القرآن الكريم في ذكر القصص والوقائع مخالفة للمعهود من ذلك في أساليب التاريخ : من سردها مرتبة كما وقعت مفصلة كما حدثت وإن سبب هذه المخالفة في الترتيب مرتبط بالغاية التي يقصدها القرآن من ذكر تلك القصص وسرد تلك الأخبار فهو لا يسردها لأجل أن تكون تاريخاً محفوظاً على صورة كتب التاريخ التي تسجل فيها الوقائع على حسب زمن وقوعها وإنما هو يذكرها لأغراض له يعمد إليها وأهداف يقصد بلوغها : من موعظة وعبرة وأحكام عملية ومن تبيان لسنن عامة في سير المجتمع ونواميس مطردة في حياة الامم وإصلاح الجماعات .

ذكر الاستاذ الإمام رحمه الله في تفسيره لسورة البقرة :

« القرآن حملات روحية خطابية لا يقصد بهـا تسلسل الخبر ولكن تستخدم فيها القصة للتذكير أو التهويل. فالقرآن ليس سفر تاريخ ولم تذكر أخبار الأولين فيه ليتلقاها المخاطبون كما يتلقون مسائل التاريخ فلا يضيره ألا تكون قصصه مسرودة فيه ومرتبة على نحو ترتيبها في كتب التاريخ وإنما هو يذكرها كلمـــا سنحت لها مناسبة مقدمة أجزاؤها أو مؤخرة موجزة أو مسهبة .

« وإن الباحثين في التاريخ لهذا العهد قد رجعوا إلى هـــذا الاسلوب الذي سلكه القرآن من حيث التقديم والتأخير وقالوا ستأتي أيام يستحيل فيها ترتيب الحوادث والقصص بحسب تواريخها لطول الزمن وكثرة النقل مع حاجة الناس إلى معرفة سير الماضين وما كان لها من النتائج والآثار في الحاضرين » . « وقالوا إن الطريق إلى ذلك هو أن ننظر في كل حادثة من حوادث الكون كالثورات والحروب وغيرها ونبين أسبابها ونتائجها من غير تفصيل ولا تحديد لجزئيات الوقائع بالتاريخ » .

« فهذا ضرب من ضروب الإصلاح العلمي جاء به القرآن وأيده سير الاجتماع في الانسان » .

ونحن إذا درسنا أدب القصة في اللغات الأجنبية وضح لنا أن بلغاء كتاب الافرنج في عصورهم الأخيرة إذا ما أفرغوا مبادىء الأدب والأخلاق وأطوار الإجتماع في قالب قصة قدّموا وأخروا في أجزاء موضوعها بحيث تقرأ فاتحـــة القصة فلا تفهم شيئاً، ثم كلما تسلسل الحديث بك ازددت فهماً لها وتعقلاً لموضوعها وأغراض مؤلفها . وكلهم يقول : إن هـذا الاسلوب في وضع القصة هو أبلغ في التأثير وأشد في الإيقاظ وتحريك النفوس .

أما سر تكرار قصص الأنبياء في القرآن فقـــد ذكره ابن قتيبة في كتابه « مشكل القرآن » قال :

« أما تكرر الأنباء والقصص فإن الله عز وجل أنزل القرآن نجوماً في ثلاث

وعشرين سنة بفرض بعد فرض تيسيراً على العباد وتدريجاً لهم إلى كمـــال دينه ووعظ بعد وعظ تنبيهاً لهم من سِنة الغفلة وشحذاً لقلوبهم بتجدد الموعظة » .

وكانت وفود العرب ترد على رسول الله ﷺ الإسلام فيقرئهم المسلمون شيئاً من القرآن فيكون ذلك كافياً لهم وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة فلو لم تكن الأنبـاء والقصص مُثنيات ومكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى قوم ، وقصة نوح إلى قوم . فأراد الله بلطفه ورحمته أن يُشهر هذه القصص في أطراف الأرض ويلقيها في كل سمع ويثنيها في كل قلب وأن يزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير .

— ٢ —

ألف (جولد تسيهر) كتابه : « المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن » .

في هذا الكتاب عند بحث القراءات ، زلات لا يمكن السكوت عليها ، وقد كان كل همّ المؤلف أن يدلل على أن الإختلاف في القراءات إنما كان عن هوى من القراء ، لا عن توقيف ورواية . وهـذا هو سر خطئه في منهجه ، حيث لم يعتبر أن القراءات إنما هي رواية بالسند الصحيح ، وهي سنة يتبعها الآخر عن الأول، ونسي أن القراء لم يأخذوا قراءاتهم إلا بعد بحث وتمحيص للسند،وللرجال الذين أخذوا عنهم ، ونسي أيضاً مقياسهم الذي وضعوه ليميزوا بين صحيح القراءة وسقيمها ، وبين متواترها وشاذها ، ثم نقله عن كتب غير جديرة بالنقل منها ، والإرتكان إلى آراء ضعيفة لا يقيم لها علماء القراءات وزناً .

هذا إلى خطئه في فهم النصوص ، وعجزه عن الغوص إلى أعماقهـــا وفهم أسرارها .

يقول في ص ٤ : والقسم الأكبر من هـذه القراءات يرجع السبب في ظهوره

إلى خاصية الخط العربي ، فإن من خصائصه أن الرسم الواحد للكلمة الواحدة قد يقرأ بأشكال مختلفة تبعاً للنقط فوق الحروف أو تحتها ، وعــدم وجود الحركات النحوية ، وفقدان الشكل في الخط العربي جعل للكلمة حالات مختلفة كانت السبب الأول في ظهور حركة القراءات فيما أهمــل نقطه أو شكله من القرآن » .

هذا الرأي خطأ من أساسه ، فإن القراءات رويت وتدووات وشاعت قبل تدوين المصاحف بالخط العربي .

كما كان القرآن محفوظاً في الصدور قبل تدوين المصاحف ، وجمع القرآن بقراءاته ثم حين دُوّنت المصاحف لم يكن النقط قد عرف، ولا الشكل اخترع، فظهرت حركة القراءات قبــل النقط والضبط ، فكانت قراءتهم للكلمة على حسب ما يروون وينقلون ، لا على حسب ما يقرءون في المصاحف .

يقول أبو شامة في شرح الشاطبية :

والقراءة نقل فما وافق منها ظاهر الخط كان أقوى ، وليس اتبــاع الخط بمجرده واجباً ما لم يعضده نقل ، فإن وافق فيها ونعمت ، ذلك نور على نور ، كما في قوله تعالى في سورة الحج : « ولؤلؤاً » فقرأ عاصم ونافع بالنصب هنا وفي فاطر ، وقرأ الباقون بالجر فيهما ، وقــد رسم بالألف في الحج خاصة دون فاطر ، فلو اتبعوا الخط والرسم فقط ، لقرءوا ما في الحج بالألف ، وما في فاطر بالخفض .

ومن أخطاء (جولد تسيهر) أيضاً أنــه كان يحمّل القراءة ما لا تحتمله ، ويتطوع في تفسير السبب الذي حمل القارىء على اختيار هذه القراءة ، والقارىء نفسه بريء من هذا الاستنباط ، بل ويصرح أحياناً بمــا يخالفه ، ولكنه حرص (جولد تسيهر) على التشكيك في القراءات ، وإثبات أنها من محض الرأي لا النقل ، يحمله يسلك ذلك السبيل .

من ذلك ما ذكره من قوله في ص ٥ : « وقــد رأى بعض شيوخ المفسرين

(قتادة البصري المتوفى سنة ١١٧ هـ) أن الأمر بقتل النفس ، أو قتل العصاة في قوله تعالى : « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم » (البقرة ٥٤) هو من القسوة والشدة بحيث لا يتناسب مع الفعـــل ، فقرأ : « فاقيلوا أنفسكم » أي حققوا الرجوع والتوبة من الفعل بالندم على ما فعلتم ، وفي هذا المثال نرى وجهة نظر موضوعية كانت سبباً أدى إلى القراءة المخالفة » .

أرأيت إليه كيف يصور قراءة قتادة أنهـــا من اجتهاده وعدم رضائه على المعنى الذي تدل عليه القراءة الاخرى،ولا ندري من أين استقى (جولد تسيهر) وجهة نظر قتادة هذه ؟ وكيف جاز أن يعتبر هذه القراءة من قتادة رأياً ارتآه ليناسب المعنى ، ونسي أن الأصل في القراءة ، النقل والرواية ، وأن قتادة لم يذكر في أي مرجع ممـا هو تحت أيدينا من كتب التفسير أو كتب القراءات هذا الرأي ، بل الأمر بالعكس .

ذكر أبو حيان في تفسيره :وقرأ قتادة فيما نقل المهدوي وابن عطية والتبريزي وغيرهم « فأقيلوا أنفسكم » وكان المعنى أن أنفسكم قد تورطت في عذاب الله بهذا الفعل العظيم الذي تعاطيتموه من عبادة العجل ، وقد هلكت فأقيلوها بالتوبة والتزام الطاعة ، وأزيلوا آثار تلك المعاصي بإظهار الطاعات .

وذكر ابن كثير في تفسيره ١/٩٢ : وقال قتادة: أمر القوم بشديد من الأمر فقاموا يتناحرون بالشفار يقتل بعضهم بعضاً،حتى بلغ الله فيهم نقمته، فسقطت الشفار من أيديهم فأمسك عنهم القتل ، فجعل لحيّهم توبة ، وللمقتول شهادة .

وذكر ابن جرير في تفسيره ١/٢٢٨ : حدثنا الحسن بن يحيى قال : أخبرنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر عن الزهري وقتادة في قوله : (فاقتلوا أنفسكم) قال : قاموا صفين ، فقتل بعضهم بعضاً حتى قيل لهم : كفوا . قـــال قتادة : كانت شهادة للمقتول وتوبة للحي .

وذكر القرطبي في تفسيره ١/٣٤٢ : قال تعالى : « فاقتلوا أنفسكم » قـال أرباب الخواطر : ذللوها بالطاعات وكفوها عن الشهوات ، والصحيح أنه قتل

على الحقيقة هنا ، قال سفيان بن عيينة : كانت توبة بني إسرائيل القتل ، وقرأ قتادة (فأقيلوا أنفسكم) من الإقالة أي استقيلوها من العثرة بالقتل .

قال جولد تسيهر : « وتتجلى هذه الظاهرة – ظاهرة القراءة بسبب أن المعنى غير مستساغ في نظر القارىء – في قوله تعالى في الآيتين الثامنة والتاسعة من سورة الفتح حيث يخاطب الله النبي قائلا : « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا » .

« فقرأ بعضهم بدلاً من (وتعزروه) بالراء (وتعززوه) بالزاي من العزة والتشريف » .

« وإني أرى في الانتقال من تلك القراءة إلى هذه القراءة – وإن كنت لا أجزم بذلك – أن شيئاً من التفكير في تصور أن الله قـد ينتظر مساعدة من الإنسان قد دعا إلى ذلك » .

ثم أحس (جولد تسيهر) أن هذا الرأي منقوض بما ورد في الآيات المتعددة من معنى التعزير ، وهو التقوية ، والنصر منسوباً إلى الله ، فلجأ إلى علة اخرى وهي قوله : « والتعبير بعزّر تعبير حاد يقوم على أساس من المساعدة المادية » مع أن اللغة العربية لا تفرق بين « عزّر ونصر » .

جاء في اللسان ٦/٢٣٦ : « عزّره : فخّمه وعظّمه وقوّاه ونصره » . قال الله تعالى : « لتعزروه وتوقروه » وقال تعالى : « وعزرتموهم » نصرتموهم – قال إبراهيم السري : وهذا هو الحق .

« والتعزير في كلام العرب : التوقير والتعزير النصر باللسان والسيف . وفي حديث المبعث ، قال ورقة بن نوفل : إن بُعث وأنا حي فساعزره وانصره » .

وذكر الطبري في تفسيره ١/٤٧ : معنى قوله « وتعزروه » تنصروه . قال ابن زيد : معنى التعزير في هذا الموضع التقوية بالنصرة والمعونة ، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والتعظيم والإجلال .

ثم انتقل (جولد تسيهر) إلى الكلام على الزيادات التي ذكرها بعض الصحابة تفسيراً لما غمض من الآيات، وقال في جرأة الذي يريد أن يسمم الآبار، ويزعزع الإيمان بالكتاب الكريم - (ويأبى الله إلا أن يتم نوره) :

« لم يتضح بعدُ تمام الوضوح هل هذه الزيادات - في الحقيقة - من الأصل نفسه أو انها ليست منه، وكان القصد منها مجرد الشرح والتفسير ؟ » .

« فاعتبرها بعض المتأخرين انها من الأصل . وتبريراً لهذا العمل - أعني إثبات التفسير بجانب الأصل - روى عن الصحابة أنهم أجازوا ذلك، وهو جواز إثبات بعض التفسير على المصحف وإن لم يعتقدوه قرآنا » .

أرأيت إلى التناقض، فمرة يقول : اعتبرت الزيادة من الأصل، ومرة يقول: وإن لم يعتقدوه قرآنا .

وحقيقة المسألة هو ما ذكره ابن الجزري ١/١٣١ النشر :

« نعم ربما يدخلون التفسير في القراءة إيضاحاً وبياناً لأنهم محققون لما تلقوه عن النبي ﷺ قرآنا، فهم آمنون من الالتباس، وربما كان بعضهم يكتبه معه، لكن ابن مسعود كان يكره ذلك ويمنع منه » .

هذا، وهذه الزيادات جميعها المخالفة للمصاحف العثمانية قد اعتبرت إما أخبار آحاد، والقرآن لا يثبت بخبر الآحاد، وإما أنها نسخت في الفرصة الأخيرة، وإما أنها تفسيرات زيدت على النص .

ثم تكلم (جولد تسيهر) بعد ذلك على أن هناك نوعاً من القراءات دعا إليه الترادف في اللغة .

وكنا نود لو عرف أن هناك نوعاً من القراءات يسمى القراءات الشاذة، منها هذا النوع من القراءات، وقد رُد ما دام مخالفاً للمصاحف العثمانية التي أجمع الصحابة على ما فيها، فضلاً عن أنها أخبار آحاد لا يثبت بها قرآن، أو هي من قبيل التفسيرات التي ذكرناها فيما سبق .

قال ابن الجزري في كتابه « المنجد » ٢١/ منجد المقرئين : « فنحن نقطع بأن كثيراً من الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يقرءون بما خالف رسم المصحف العثماني قبل الإجماع عليه ، من زيادة كلمة أو أكثر ، وإبدال اخرى ، ونقص بعض الكلمات ، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما ، ونحن اليوم نمنع من أن يقرأ بها في الصلاة وغيرها منع تحريم لا منع كراهة ، ولا إشكال في ذلك » .

جاء في تفسير أبي حيان ٧٢ / ٢ البحر المحيط : قال تعالى . « وأتموا الحج والعمرة لله » .

قرأ علقمة : « وأقيموا الحج » وقرأ ابن مسعود : « وأقيموا الحج والعمرة للبيت » .

— ٣ —

من زلات المستشرقين خوضهم في نقد اسلوب القرآن واجتراؤهم بالحكم على بلاغته وأسرار فصاحته ، ومن لهم بهذا القدر من اللغة ، والدرجة من التذوق ، وهم الأجانب الأعاجم والغرباء البعداء .

وهل ينتظر إنسان من أجنبي لم يتفيأ البيئة العربية ، ولم تتعود أذناه جرس اللغة العربية إلا من بعض ألفاظ تلقفها من هنا أو هنا ؛ أن يستطيع الحكم على كتاب الله الذى هو الآية الكبرى في الإعجاز ، والذي أنزله بلسان عربي مبين، وتحدى به قريشاً والعرب كافة ، وهم من هم في الفصاحة والبلاغة ، فقال جل من قائل : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » .

فماذا استطاع العرب جميعاً أن يفعلوه؟ لم يتقدم أحد لمطاولة القرآن ومحاكاة اسلوبه ، وكان ذلك العجز اعترافاً صريحاً منهم بصدق آية الرسول الكبرى .

وهل أتاك حديث عمر بن الخطاب حين ذهب ليقتل اخته وزوجها لأنهما صبآ ، فما كاد يسمع منها قوله تعالى : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » — إلى آخر الآيات — حتى أحس بقوته القدسية التي لا يقوى على صدها ، ودخل الإيمان قلبه ، فذهب إلى الرسول فبايعه .

وهذا الوليد يقول - وهو من فحول العرب ، وذوي أحلامها ، والمتصرفين في فصاحتها ، جاء إلى رسول الله ﷺ وقال : اقرأ على شيئاً من القرآن ، فقرأ عليه : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى » الآية ،فقال : أعـد ، فأعاد ، فقال الوليد : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، ما هذا بقول بشر .

فمن زلات المستشرقين واجترائهم على اسلوب القرآن ونقده ما جاء في دائرة المعارف البريطانية في بحث مادة « قرآن » فقد كان اسلوب القصص في القرآن وتكريره موضع هجوم وموطن طعن ، وهو هجوم قائم على الجهل بالأساليب ، وطعن متأثر بالتوراة وما جاء فيها من القصص ، يقول كاتب المقال تحت عنوان: « الضعف الاسلوبي للقرآن » :

« وعلى الجملة فبينما نجـد سوراً كثيرة من القرآن تعتبر من غير شك ذات قوة بيانية جديرة بالتقدير والاعتبار حتى بالنسبة للقارىء غير المؤمن ، إذا بالكتاب من ناحية الجمال الفني في المقام الأول » .

« ولأجل أن نبدأ بما نقدر على نقده ، دعونا ننظر في بعض القصص الطويلة ، فهناك نشاهد العنف والجفاف يحلان محل الرصانة الملائمة لسير الأبطال ، وأن الربط الضروري سواء أكان في التعبير أم في تسلسل الحوادث مفقود في أكثر الأحيان ، حتى يمكن أن يقال : إن فهم تلك القصص أسهل علينا نحن من فهمها لاولئك الذين سمعوها لأول مرة ، وذلك لأننا نستطيع أن نطلع عليها في مصادر اخرى لا تتيسر لاولئك المعاصرين لمحمد » .

« ونجد على طول الخط جزءاً كبيراً من اللغو والحشو الزائد، ولا نجد في أي جزء تقدماً ثابتاً في القصص » .

« وقصة يوسف دليل على هـــذا التباين في المقام التاريخي وما فيها من عدم اللياقة ،وقلة المناسبة الواضحة بالنسبة للقصة الرائعة في سفر التكوين من التوراة » .

« وكذا نجـد أخطاء متشابهة في الأجزاء غير القصصية ، فارتباط الأفكار مفكك إلى حد بعيد حتى تركيب الجمل ، وبناء الكلمات شاذ يظهر فيه الخلل الاسلوبي والتعقيد اللفظي ، أما ضعف التأليف فكثير الوقوع ، ولا يمكن أن نعتبره ترتيباً أدبياً صحيحاً ، فكثير من الجمـــل تبدأ بكلمة « وإذ » التي تظهر كأنها تحلق في الهواء ، حتى أن المفسرين اضطروا إلى إضافة تقدير « اذكر » ليسدوا هذا النقص ، ويصلحوا هذا الخلل » .

« فليس هناك مادة أدبية عظيمة واضحة في التكرار الذي لا لزوم له لنفس الكلمات والجمـل ، كما نرى ذلك واضحاً في سورة الكهف ، حيث تكرر فيها قوله : « حتى إذا » فهي قد تكررت ثماني مرات » .

واختصار القول أن محمـداً ليس بأي حال من الأحوال استاذاً للاسلوب أو البيان ، وهـذا الرأي سيوافق عليه أي شخص أجنبي يقرأ القرآن بروح العدل وعدم المحاباة أو التحيز ،مع شيء من معرفة اللغة دون أن يدخل في ذلك حساب التأثير الممل للتكرار الذي لا نهاية له » .

والرد على هذا الكاتب نقول :

أولاً : إن هذا القرآن ليس من تأليف محمد صلوات الله عليه حتى يوجه إليه النقص والعيب في اسلوبه وتعبيره بل هو من صنع خالق القوى والقدر .

ثانياً : إن العرب الذين هم أهل البلاغة وفرسان الكلام قـد تحدوا فعجزوا عن الإتيان بسورة من مثله،ولو كانوا وجدوا أي عيب في تأليفه لأسرعوا لإعلانه ومجابهة محمد به وهم أدرى ببلاغته وأسرار فصاحته .

ثالثاً : يجب على الكاتب التسليم بأن لكل لغـــة خصائصها ومعالم بلاغتها وسمات فصاحتها ، ولا يصح أن تقاس بلاغة لغة على اخرى وليس ما يعد عيباً في لغة يكون عيباً في لغة اخرى .

رابعاً : لا تجوز مقابلة اسلوب القصص القرآني بالقصص في التوراة لاختلاف الغرض في الكتابين .

ففي التوراة حوادث تاريخية منظمة تجري فيها الأخبـــار مجراها الواضح العادي .

يقول الاستاذ (فيلب حتي) استاذ الأدبيات السامية في جامعة برنستون يقول في كتابه « تاريخ العرب » ما ترجمته :

« إنما يقصد القرآن من عرض هــذه القصص التوسل إلى التهذيب والتأديب لا مجرد سرد قصة ، بل المقصود العظة الخلقية وتعليم الناس إن الله في الأزمان السالفة كان دائماً أبداً يكافيء الأخيار ويعاقب الأشرار وهذه سنته : أما قصة يوسف فقد جاءت في قالب واقعي جذاب والاختلافات اليسيرة في هذه وأمثالها من القصص الاخرى كقصة استجابة إبراهيم لدعوة الله الواحد الحق (٥٢ سورة الأنبياء) عن المعروف في التوراة لهـــا نظائرها التي تقابلها في المشنا والتلمود وسواهما من كتب اليهود القانونية » .

ويقول الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده :

إن القرآن حملات روحية خطابية ، لا يقصد بهـــا تسلسل الخبر ، ولكن تستخدم فيها القصة للتذكير أو التهويل ، ولذلك ترد مراراً ، وكثيراً ما تروى على سبيل الإشارة والتلميح .

والاسلوب الخطابي يقتضي التكرير . فالقرآن ليس سفر تاريخ ، ولم تذكر أخبار الأولين فيه ، ليتلقاها المخاطبون ، كما يتلقون مسائل التاريخ . (ولقد يسّرنا القرآن الذكر فهل من مدكر) .

فلا يضير القرآن أن لا تكون قصصه مسرودة فيه ، ومرتبة على نحو ترتيبها في كتب التاريخ ، وإنما هو يذكرها كلما سنحت لها مناسبة ، ويذكرها مقدمة أجزاؤها ومؤخرة ، موجزة أو مسببة ، كل ذلك للاعتبار بالنعم والنقم وللاستعانة بهذه القصص على الترغيب والترهيب ، والإيقاظ والتنبيه ، فتتأثر النفوس وتتيقظ القلوب .

أما سر تكرير قصص الأنبياء،فقد ذكر ابن قتيبة في كتابه (تأويل مشكل القرآن) : « أما تكرار الأنبياء والقصص،فإن الله عز وجل أنزل القرآن نجوماً في ثلاث وعشرين سنة ، بفرض بعد فرض تيسيراً على العباد ، وتدريجاً لهم إلى كال دينه ، ووعظ بعد وعظ تنبيهاً لهم من سِنة الغفلة ، وشحذاً لقلوبهم بمتجدد الموعظة .

وكان أصحاب رسول الله ﷺ إنما يقرأ الرجل منهم السورتين والثلاث والأربع ، والبعض والشطر من القرآن ، إلا نفراً منهم وفقهم الله لجمعه ، وسهل عليهم حفظه .

وكانت وفود العرب ترد على رسول الله ﷺ للاسلام فيقرئهم المسلمون شيئاً من القرآن ، فيكون ذلك كافياً لهم . وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة ، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثناة ومكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى قوم ، وقصة نوح إلى قوم ، فأراد بلطفه ورحمته أن يُشهر هذه القصص في أطراف الأرض ، ويلقيها في كل سمع ، ويثبتها في كل قلب .

ومن أسرار التكرير أيضاً أن في إبراز الكلام الواحد في صور كثيرة وأساليب مختلفة ، ما لا يخفى من الفصاحة .

منها أنه تعالى أنزل هذا القرآن ، وعن القوم عن الإتيان بمثله ، ثم أوضح

الأمر في عجزهم بأن كرر ذكر القصة في مواضع ، إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله ، بأي نظم جاءوا ، وبأي عبارة عبّروا .

ومنها أن القصة الواحدة لما كررت ، كان في ألفاظها في كل موضع زيادة ونقصان وتقديم وتأخير ، وأتت على اسلوب غير اسلوب الاخرى ، فأفاد ذلك ظهور الأمر العجيب ، في إخراج المعنى الواحد ، في صور متباينة في النظم وجذب النفوس إلى سماعها،لما جعلت عليه من حب التنقل في الأشياء المتجددة، واستلذاذها بها، وإظهار خاصة القرآن حيث لم تحصل مع تكرير ذلك فيه هجنة في اللفظ ، ولا ملل عند سماعه ، فباين ذلك كلام المخلوقين : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

يقول السيد محمد علي الهندي في كتابه (الدين الإسلامي) :

ويعترف كتاب الغرب بما فيهم المتعصبون منهم بمكانة القرآن الرفيعة في عالم الأدب والدين ، وهاك مقتطفات مما كتبوه عنه .

ويقول (سيل) في مقدمة ترجمته للقرآن :

إن اسلوب القرآن جميل وفياض ، وفي كثير من نواحيه نجد الاسلوب عذباً وفخماً ، وبخاصة عند ما يتكلم عن عظمة الله وجلاله . ومن العجيب أن القرآن يأسر باسلوبه هذا أذهان المستمعين إلى تلاوته سواء منهم المؤمنون به والمعارضون له،ويفسر المعارضون ذلك بقولهم إنهم قد سحروا بالقرآن وأسلوبه فأنصتوا إليه وأعجبوا به .

ويقول (جوتيه) :

لا يصح لنا أن نقيس القرآن بأي كتاب آخر من كتب الأدب من حيث عذوبة اللغة وطلاوتها ، وإنما نقيسه بالثورة التي أحدثها في نفوس المعاصرين لمحمد ، فقد نفذ القرآن إلى قلوب سامعيه بكل قوة وإقناع ، واجتث من ثناياها كل ما كان متأصلاً فيها من وحشية ،وانتزع كل همجية ،فأوجد ببلاغته وبساطته امة متمدينة من امة متوحشة .

ويقول (هرشفلد) :

ليس للقرآن مثيل في قوة إقناعه وبلاغته وتركيبه، وإليه يرجع الفضل في ازدهار العلوم بكافة نواحيها في العالم الإسلامي .

— ٤ —

من زلات المستشرقين المتكررة ، وهفواتهم الشائعة ، تصديهم للروايات الضعيفة يروجونها ، وللكتب التي ليست بذات ثقة في نقلها يعتمدون عليها وينقلون منها ، ثم يبنون على ذلك أحكامهم ، ويؤكدون استنباطاتهم .

ونحن لو أحسنا النية بهم لقلنا إن ذلك من ضيق في الاطلاع ، وتقصير في الإحاطة والدرس ، وعدم تدقيق في منهج البحث ، ولو أسأنا النية بهم لقلنا إن ذلك عن غرض وهوى، ومقصد مرصود، ونية مبيتة، وخروج عن المنهج السليم.

وسنكون في هذا البحث مع الاستاذ (الفريد جيوم) وهو استاذ اللغة العربية بجامعة لندن ، وله شهرة في العالم الإسلامي ذائعة مستفيضة ، وقد كان هو المشرف على تحرير كتاب (تراث الإسلام) الذي ترجم إلى عدة لغات .

فتاريخ هذا المستشرق حافل بالدراسات الإسلامية والعربية، لذلك سنتناول كتابه (الإسلام) بالنقد لبعض فصوله ، والذي حملنا على ذلك شهرة الاستاذ العلمية ومعاصرته ، ثم إن هذا الكتاب كان منذ أربع سنوات مقرراً على طلبة ليسانس الآداب قسم اللغة العربية .

جاء في ص ٨ من الفصل الذي عنوانه «التمهيل التاريخي»: (كانت «العزى» أم الآلهة عند أهل مكة ، وهناك دلائل كثيرة تبين أنها كانت معبودة منذ القرن الرابع بعد الميلاد ، وتقول الروايات : « إن محمداً في شبابه كان يقدم القرابين لها ») .

وهذه الرواية منقولة عن كتاب «الأصنام» لابن الكلبي حيث ذكر : « كانت العزى أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ويهدون لهـــا ، ويتقربون عندها بالذبح ، وقد بلغنا أن رسول الله ذكرها يوماً فقال : لقد أهديت للعزى شاة عفراء وأنا على دين قومي » .

أرأيت إلى الطعن الصريح في رسول الله من غير سند ولا نقل موثوق به ، أفما كان الأجدر بهذا الكاتب أن يبحث عن مبلغ الثقة بهذه الرواية ، وما رأي النقاد فيه ، وإذا أراد أن يعرف حكم النقد على هذه الرواية فليسمع :

إن علماء الحديث ونقاد الآثار والأخبار لا يرضون عن ابن الكلبي ولا عمن نحا نحوه من التاريخيين والأخباريين ، لا لشيء سوى أنهم تعرضوا لرواية الآثار دون أن تتوافر فيهم الشروط اللازمة فيمن يتصدر لهذا الضرب من النقل . فهؤلاء العلماء يجرحون أمثال ابن الكلبي ويحطون من أقدارهم ، لأنهم أقدموا تدوين الآثار ممزوجة ببعض الأساطير والأقاصيص .

قال السمعاني في كتاب « الأنساب » حين الحديث عن ابن الكلبي :

إنه يروي الغرائب والعجائب والأخبار التي لا أصول لها ، ويسبق السمعاني الإمام أحمد بن حنبل فإنه كان يكرهه ، وقد قال في حقه : « من يحدّث عن هشام ؟ إنما هو صاحب سَمَر ونسَب ما ظننت أحداً يحدث عنه .

ونص الذهبي في « طبقات الحفاظ » وكذا صاحب « شذرات الذهب » على أنه متروك الحديث .

ألا ترى إلى صاحب كتاب « الأغاني » وهو أبو الفرج الأصفهاني أنه ذكر في كتابه (١٦١ / ١٨) عن بعض أخباره التي رواها :

« وهذا الخبر مصنوع من مصنوعات ابن الكلبي والتوليد فيه بين » .

وفي (١٩ / ٩) عن أخبار اخرى رواها ابن الكلبي :

« هذه الأخبار التي ذكرتها عن ابن الكلبي موضوعة كلها ، والتوليد بين فيها وفي أشعاره ، وما رأيت شيئاً منها في ديوان دريد بن الصمة على سائر الروايات ، وأعجب من ذلك هـذا الخبر الأخير فإنه ذكر فيه مـا لحق دريد من الهجنة والفضيحة في أصحابه ، وقتل من قتل معه ، وانصرافه منفرداً ، وهـذا من أكاذيب ابن الكلبي ، وإنما ذكرته على ما فيه لئلا يسقط من الكتاب شيء قد رواه الناس وتداولوه » .

فأنت ترى أن أبا الفرج إذن يجمع كل ما قيل ، فهو يجمع الصادق وغـير الصادق لأنه لا يريد أن يخلو كتابه من شيء يعرفه الناس ، ولو كان هذا الذي يعرفونه من المصنوعات والأكاذيب ، وتلك ظاهرة من الظواهر التي تلازم الرواة كابن الكلبي .

وقد كرر الاستاذ جيوم هذه الفرية في (ص٢٦) من كتابه المذكور حيث قال :

« والقصة الوحيدة الحقيقية عن السنوات الاولى للرسول موجودة في مخطوط لم ينشر حتى الآن لأول مؤرخ لحياة الرسول وهو ابن إسحق ، وهذا نصها :

أخبرت أن رسول الله قال : حينما كان يتحدث عن زيد بن عمرو بن نفيل : « إنه أول من لامني على الوثنية ، ونهاني عن عبادة الأصنام ، وكنت قد قدمت من الطائف » إلى أن قال : « ثم لامني على عبادة الأوثان ، وبعد ذلك لم أقرب صنماً من أصنامهم ، أو أقدم له قرباناً ، إلى أن شرفني الله برسالته » فما مبلغ هذا الحرص من المستشرقين على أن يبعثوا الريبة في محمد صلوات الله عليه بإرخبارهم أنه كان يعبد الأصنام ويقرب القرابين إليها ، ولو كان هذا الخبر من غير سند أو تحقيق .

ولنذكر للاستاذ (جيوم) رواية لراو هو ينقل عنه كثيراً — وإن كان لنا رأي فيما يروي هذا الراوية — وهو ابن سعد في كتابه « الطبقات » ص١٣٩ جـ١ :

« عن عكرمة عن ابن عباس قال : حدثتني ام أيمن قالت : كانت بُوانة صنما

تحضره قريش تعظمه تنسك له النسائك ، ويحلقون رؤوسهم عنده ، ويعكفون عنده يوماً إلى الليل ، وذلك يوماً في السنة ، وكان أبو طالب يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى رسول الله ذلك، حتى رأيت أبا طالب غضب عليه . ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب، وجعلن يقلن إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا ، وجعلن يقلن ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ، ولا تكثر لهم جمعاً . قالت ام أيمن : فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ » .

وفي قصة (بحيرا) الراهب التي يسلم بها (جيوم) أن (بحيرا) قام إليه فقال يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تسألني باللات والعزى، فوالله ما أبغضت شيئاً كبغضهما ». هذا ما ذكره ابن سعد في ص ١٣٦ ج ١ .

وذكر في موطن آخر في ص ١٣٨ ج ١ :

أن رسول الله ﷺ حضر سوق بصرى فباع سلعته التي خرج بها،واشترى غيرها ، فكان بينه وبين رجل اختلاف في شيء ، فقال له الرجل : احلف باللات والعزى ، فقال رسول الله : « ما حلفت بهما قط وإني لأقر فأعرض عنهما » قال الرجل : القول قولك .

وقبل أن نمضي في نقد الاستاذ (جيوم) نرى من الانصاف أن نسجل له حسنة من حسناته ، كما تحدثنا عن سيئاته ، فإن النقد البريء هو النقد الذي يكشف عن المحاسن ، كما يكشف عن المساوىء . فقد دافع بحرارة عن تهمة طالما لصقها المستشرقون بمحمد صلوات الله عليه ، وهي رميه – وحاشاه – بالصرع في حال نزول الوحي ، بل أعلنوا أنها حالة مرضية .

ويقول (جيوم) في ص ٢٥ :

وقد ذهب جيل من المستشرقين في الماضي استناداً على الروايات التي تصنف

ما كان يعرض لمحمد من الجهد والتعب الذي كان يصاحب نزول الوحي ، ذهبوا إلى أن الرسول كان مصاباً بمرض الصرع ، وهذه التهمة كان قد ألصقها بـه من قبل كاتب بيزنطي ، ومثل هذا الغرض لا أساس له قط ، ونستطيع أن نعزوه – ونحن آمنون – إلى التحيز ضد النبي ، فإن دراسة هذه الظواهر النفسية لمثل هذه التجربة الدينية تجعل هذا الافتراض بعيد الاحتمال جداً ، نعم ان الأنبياء ليسوا اناساً عاديين ، ولكن هذا لا يتيح لنا أن نقول : أن سلوكهم هذا غير العادي مرده إلى حالة مرضية . وفوق ذلك كله فإن محمداً كان رجلاً لم يخنـه إدراكه السليم قط ، أما اولئك الذين ينكرون عليه اتزانه العقلي والنفسي ، فهم إنما يتجاهلون الشواهد القاطعة الدالة على نفاذ بصيرته في الناس ، وتقديره الحكم لما يجري في العالم خلال العصر الذي عاش فيه ، كما يتجاهلون ثباته في وجه المعارضة المستمرة ، حتى انه استطاع أن يجمع العرب على دين الإسلام . وقـد يكون لهذه التهمة سند لو أن محمداً ﷺ انهار في ساحة المعركة أو أثناء جدال معارضيه ، أو لو أنه كان يصاب بالإغماء حين تتأزم الامور ، إلا أن الشواهد التي لدينا تثبت عكس ذلك تماماً ، فافتراض وجود مرض الصرع ليس له أي أساس – في نظري – فضلاً عن أنه يسيء إلى جميع المسلمين » .

ويقول مستشرق آخر من أشد المتعصبين على محمد في كتاب له « الرسول » يذكر في ص ٥٥ رداً لتهمة الصرع أيضاً :

« ان الأكثرية تجزم بأن محمداً كان مصاباً بالصرع ، ولكن يؤكد كل طبيب أن المصاب بالصرع لا يفيق منه ، وقد ذخر عقله بأفكار لامعة ، ولا أن يصاب بالصرع من كان في مثل الصحة التي يتمتع بها محمد حتى قبل مماته باسبوع واحد ، فما كان الصرع ليجعل من أحد نبياً أو مشرعاً ، وما رفع الصرع أحداً إلى مراكز التقدير والسلطان يوماً ، ولو كان هناك من يوصف بالعقل ورجحانه فهو محمد ؟ .

محنة التراث الخالد
على أيدي أهل الجديد

لحضرة صاحب السماحة العلامة الاستاذ محمد تقي القمي
السكرتير العام لجماعة التقريب

لا أدري بالضبط، هل هي فكرة الأخذ بالجديد تشق طريقها الى علم الحديث، أم يد النقد والتحليل الذي يتشدق به الادباء المستغربون أو الغربيون المستشرقون، تمتد الى عيون كتب الحديث التي بقيت سليمة طوال القرون الماضية، لا يمسها الكتّاب والادباء التحليليون.

ولا أحسب القارىء يطالبني بمزيد من الإيضاح حول الموضوع وصيحات النقاد تصك سمعه بمناسبة وبغير مناسبة — ومن ورائها مصالح بعض الكتاب أو الناشرين — ينادون بتصفية الكتب التي سموها من قبل بالصحاح، بدعوى تصفيتها من الإسرائيليات وإسقاط ما لا يقبله العقل، واستبعاد ما يتنافى ودعوة التوحيد.

فكاتب يأخذ على الأحاديث أن فيها ما يخالف قواعد الصحة، وثان يزعم أن الإكثار من أكل ما حثت الأحاديث على تناوله يسبب مرض كذا، وثالث يجزم أن ما ورد في الصحاح لا يوافق ما وصل إليه العلم الحديث، ورابع يحسب نفسه تخلص من الأرض والأرضيات، فيحلق في أقطار السموات ويؤكد أن

ما جاء في الأحاديث لا يتفق وما ثبت في علم الفلك والنجوم، وربما يتجاوز الأمر هذه الحدود، فيدعي كاتب دعاوى مضحكة لا وجود لها في صحيح من كتب الحديث، ولا تدل إلا على قوة في الإختلاق وإغراق في الخيال السقيم.

أذكر أن محدثاً تكلم معي في جلسة خاصة وبحماس شديد في وجوب التخلص من الإسرائيليات وضرب مثلاً لذلك خلق السموات والأرض في ستة أيام، وبعد أن فرغ من محاضرته الطويلة، وظن أنه أقنعني، قلت له: «ولكن هذا في القرآن يا أخي، وليس من الإسرائيليات في الحديث كما تعتقد». فبهت واستولى عليه الوجوم.

ولا يحسب القارىء أني أريد الدفاع عما بين أيدينا من كتب الحديث، وما اختلفنا أو اتفقنا في تسميته صحاحاً، وأزعم أنها خلو من الإسرائيليات أو مما يخالف الحق، أو أجزم بأن كل ما في الصحاح صحيح - أخذاً بكلمة صحيح فلان كلا، بل يحتمل - في رأيي - أن كثيراً من الدوافع لعبت دورها في خلق ما ليس بواقع، وأن جبروت الحكم والسلطان جعل الرواة لا يظهرون كل ما عندهم، وأن بعض ذوي الأهواء قالوا عن الرسول ﷺ ما لم يقله - ومن ينكر ما للطغاة وحكام السوء من أثر على تراث له القداسة بعد القرآن؟ لست أنكر أن هناك دساً وخلقاً، ولكني مع ذلك أعارض أشد المعارضة في أن تمس كتب الحديث، ونستبيح لأنفسنا حق التصرف فيما نراه - نحن - من دس الدساسين.

كان لدى القدماء مقاييس وموازين للحكم على الأحاديث، استعملوها فيما سجلوه لنا. وربما كانوا على شيء من حسن الظن ببعض الرواة لمكانتهم وحسن القبول عنهم لما خفي من أحوالهم، وكيفما كان الأمر، فمما لا شك فيه أن الذين جمعوا هذا التراث الضخم، وكانوا أقرب منا إلى زمن مصدر الأحاديث، وأعرف منا برجاله، قد بذلوا غاية جهدهم وأرهقوا أنفسهم في التحري، والتزموا الأمانة والدقة. ولا اعتراض عليهم، وإنما الكلام ينصب على أن ما جمعوه فيه اسرائيليات وفيه ما ينافي الدعوة والعقل أو العلم الحديث. وهذه نقطة أستميح

القارىء أن أقف عندها لأقول : إن هـذا التراث تراث إسلامي خالد وملك المسلمين عامة ، لا لطائفة دون طائفة ، وإنه — بما له وعليه — مصدر كثير من الحركات الفكرية، وحجة للآراء المذهبية، ومبعث للعقائد الكلامية ، وما ليس ملكاً لفرد لا يتصرف فيه فرد ، ثم إن الأفكار تتغير بتغير الزمن ، بل تختلف في زمن واحد حول موضوع واحد ، وربما يظن من البديهيات ، فإذا أردنا أن نعالج النقص بحذف ما نراه — نحن — أنه من الاسرائيليات ، ورأى غيرنا أنه من صميم الإسلام أو العكس ، فأينا يكون على الحق ؟ وما هو المقياس الصحيح ؟

إن الذين أوصلوا إلينا هـذا التراث بذلوا غاية جهدهم في تسجيله وتحقيقه وتصحيحه ، فلا يجوز أن نقطع بتخطئتهم ، فإن ما يخالف عقولنا اليوم كان يوافق عقلية أبناء العصور السابقة ، ومن واجبنا أن نحمل هـذا التراث إلى من بعدنا ، وقـد يصل رجال الغد في أمره إلى ما لم نصل إليه — ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه .

أما مسألة معالجة ما ينافي التوحيد : فإن المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام بفضل دعوته الصريحة لا شك أنهم موحدين وليسوا بمشركين .

والقرآن الكريم الذي هو عصب الدعوة الإسلامية ، والذي لا يختلف اثنان في قداسته والأخذ به ، والذي هو نسخة موحدة لا تختلف في حرف ولا رسم، في العالم الإسلامي كله ، هذا القرآن وحده كفيل بتربية الموحد ، ومن يجرؤ أن ينكر هذا ، ومع ذلك هناك مسائل تراها طائفة أنها شرك كالتوسل بأصحاب القبور أو الشفاعة مثلاً ، فهل نعالج هـذه المسائل على أساس التوحيد الخاص بتلك الطائفة ؟ أو نعالجها بما يتفق ورأي كثير من المسلمين الذين لا يرون في هذا ما يمس فكرة التوحيد ؟ وهناك مسائل كلامية ليست وليدة اليوم ، وإنما ورثناها عن أقطاب الفكر والبحث وغوّاصي المعرفة في كل طائفة ممن كوّنوا لنا مدارس فكرية نعتز بها إلى اليوم . فعلى أي أساس نعالج هذه المسائل وماذا يكون المقياس ؟.

وهناك مسائل ترتبط بالعصبيات إلى حد بعيد، كتفضيل صحابي على صحابي، فربما رأى باحث غير هذا، أو رأى أن يسجل بعض المآخذ على بعض الأصحاب، مما لا ينافي رأي الآخرين في الصحابة، الذين يرون كل ذلك من دس الدساسين ووضع الواضعين، فإذا جرى البحث فيما يحذف وفيما يبقى بين هؤلاء وهؤلاء، فعلى أي أساس يكون ذلك، ومن الذي يؤخذ برأيه، ومن الذي يهمل؟ أم نحذف هذا وذاك مضافاً إليه ما لا يتمشى ومذاهب أصحاب المعارف الكلامية، وما لا يقره الطب الحديث بشأن الصوم أو ما وصل إلى خلافه علماء الفلك أو لا يتفق مع الذوق! ولو اقتحم هذا الميدان اثنان أو ثلاثة فلن يبقى لنا بفضلهم من هذا التراث شيء.

ونحن إذا نظرنا إلى الحديث من ناحية القداسة الدينية، وأنه كلام فوق كلام البشر، فليس لنا أن نقيسه بالمقاييس العـادية، أو نحكم عليه بعقولنا البشرية المحدودة، وإذا نظرنا إليه نظرة عادية فليس لنا حق التصرف فيه، فالكلام العادي قد يتفق مع بعض الأمزجة ويختلف مع بعضها الآخر، فواجبنا إذن أن نبقي عليه، مع ملاحظة أن من سبقونا غربلوا ما وصل إليهم، وسجلوا ما ثبت عندهم، وإن كان يخالف مذهبهم، حفظاً لهذا التراث واحتراماً لقداسته، وبلغ الحرص ببعضهم أن جمعوا ما نقـله رواة اشتهر عنهم الكذب في كتب خاصة، وذكروا أنهم لم يأخذوا بها، ورغم ذلك جمعوها لئلا تضيع، فقد يصدق الكاذب أحياناً في حديثه ويكون هذا الذي رواه صادقاً فيه.

وقد يكون للأحاديث المكذوبة أو المعلولة فوائد اخرى في غير الأحكام الشرعية، كأن يستدل بها بعض الباحثين على شيوع فكرة معينة في وقت الراوي الذي رويت عنه، أو على تأثر هـذا الراوي بثقافة خاصة، أو على غير ذلك، فليس الاستدلال بالأحاديث مقصوراً على استنباط الأحكام الشرعية منهـا، ولذلك يرى بعض اللغويين أن يستشهد بنصوص الأحاديث الموضوعة في اللغة، إذا عُلم أن تاريخ وضعها يرجع إلى العهد الذي يجوز الاستشهاد بكلام أهله، لأنها وإن كانت كذباً على الرسول في حكم شرعي، فإنها نص عربي.

إن الباب ليس مقفلاً أمام الباحث ، وله إن أراد التحري الدقيق أن يمحص تلك الكتب ويبحث حـال الرواة ، ويستعمل أساليب البحث العلمي الحر ، ويأخذ بما في تلك الكتب أو لا يأخذ بـه ، ويحكم على ما صححوه بأنه لا يعتمد عليه لكذا ، وعلى ما نبذوه بالصحة بدليل كذا ، وأمامه كتاب الله وهو الحكم المحكم يطرح مـا يعارضه . اما أن يتصرف في كتاب أو أثر على هواه فلا يجوز ، نعم لكل امرىء أن يؤلف كتاباً من عنده ولكن ليس له أن يتصرف فيما ليس ملكاً له بل هو لصاحبه أولاً ، وبالتالي للمسلمين عامة ، والأمانة العلمية تحتم علينا أن نوصله إلى أسلافنا كما تسلمناه .

ثم ماذا يكون الحـال لو جاءت طبقة أخرى من المولعين بالنقد والتحليل والغربلة فزعمت أن في القرآن ما لا يوافق العلم ، أو أن فيه مـا يجافي الذوق أو يخالف الطب ، أو مـا لا يعرفه علماء الهيئة ، أتراهم أيضاً يحاولون غربلة القرآن وقصره على ما يوافق عقولهم ؟

وأكرر ما قلته وهو أن من المحتمل أن يكون فيما نتداوله وننقل عنه ونستند إليه من كتب الصحاح شيء من الإسرائيليات أو ما أملته شهوات الحكم وميولهم أو مـا حكمت فيه بعض الإتجاهات ، ولكني اعارض أشد المعارضة في حذف كلمة مما وصل إلينا ، واكرر ما سبق أن ناديت بـه وهو أن الثقافة الإسلامية والتراث الإسلامي على إختلاف الطوائف والمذاهب ملك للمسلمين جميعاً ؟.

الدراسات الاسلامية في اللغات الأوربية

للكاتب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد

عادت الدراسات الإسلامية إلى نشاطها المعهود في اللغات الأجنبية بعد فترة وجيزة من الركود أو الانتظار .

وهـــذه الدراسات تعترضها أحياناً فترات من الانتظار والتوقف خـــلال الحروب والأزمات العالمية ، ثم تستأنف نشاطها في اتجاهها الأول ، أو في إتجاه جديد تمليه الحوادث والظروف .

ويصح أن يقال إن الدراسات الإسلامية في اللغات الأجنبية لم تنقطع قط زمناً طويـــلا منذ سبعة قرون ، أي منذ أن تنبه الأوربيون للدراسة في مختلف الشئون وتحركوا للنهضة التي اشتهرت باسم نهضة العلوم .

فمنذ القرن الثالث عشر أخذ الأوربيون في دراسة الإسلام ، فلم ينقطعوا عن هذه الدراسة إلا ريثما يعودون إليها بنشاط جديد ، إلا أن هذه الدراسات تتغير في موضوعها ، وفي غرضها ، وفي اتساع أفقها بـين آونة وأخرى . وهذا التغير في الغرض والوجهة يعنينا كما يعنينا موضوع الدراسة في جملته ، لأن التغير في موضوع الدراسة عظيم الدلالة على أحوال الغرب، وأحوال الحضارة والثقافة على التعميم . فإذا تتبعنا دراسة الإسلام بـين الغربيين من القرن الثالث عشر ، فنحن في الواقع نتتبع أطوار العالم كله خلال سبعة قرون .

مرت هـــذه الدراسة بمراحل كثيرة منذ القرن الحاضر ، ولعلها تلتقي في مراحلها المشهورة : وهي مرحلة الدفاع ، ومرحلة التبشير ، ومرحلة الاستعمار ، ومرحلة البحث العلمي الذي تشرف عليه السياسة الدولية ... وهي مرحلة عامة واسعة ، تطوي سائر المراحل من قريب أو بعيد .

كانت الثقافة الإسلامية هي الثقافة الغالبة على العقول في القرن الثالث عشر ، وكان مذهب الفيلسوف الأندلسي ابن رشد مذهب المفكرين جميعاً زهاء ثلاثة قرون ، وقد ترك هؤلاء المفكرون لغـة اللاتين واليونان ليقبلوا على دراسة اللغة العربية ، وشكا بعض ذوي الرأي — كما جاء في تاريخ دوزي أن المثقفين من الأوربيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم ، ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ، ولا يفعلون ذلك لإدحاضها والرد عليها ، بل لاقتباس الاسلوب العربي الفصيح ! .

فالدراسات الإسلامية التي اشتغل بها الأوربيون في تلك الآونة ، إنمـا كانت لتحويل المفكرين منهم عن هـــذه الوجهة : كانت للرد على الفلاسفة المسلمين وإدحاض أقوالهم ، وتجديد العناية باللاتينية واليونانية بدلاً من العربية ، وهذه هي مرحلة الدفاع الاولى ، وغايتها الكبرى أن يتخلص القوم من سيطرة الفكر العربي والدراسات العربية الإسلامية .

وبعد مرحلة الدفاع هذه بدأت مرحلة أخرى هي مرحلة الهجوم .

وكان الغرض منها استخدام المعارف الإسلامية في حركة التبشير الديني وحركة الدعوة الثقافية التي تصطبغ بصبغة التبشير ، ثم اتجهت حركة الدراسة الإسلامية بعـد وجهة التبشير إلى وجهة الاستعمار ، ثم عرف الاستعمار مصيره بين الامم الإسلامية ، وعرف أن هذه الامم خليقة في العصر الحديث أن يحسب لها حساب آخر غير حساب الأتباع والأذناب ، وأنها قوة عالمية تتقدم وتؤثر في مصير العالم بأسره ، ويتساءل العـــالم بأسره في الشرق والغرب عن حقيقتها ،

ويجب عليهم لمصلحتهم أن يفهموا هذه الحقيقة ولا يغالطوا أنفسهم فيها ، لأن المغالطة فيها تصيبهم بأضرارها قبل أن تصيب الامم الإسلامية .

من هنا كانت هذه المرحلة ، مرحلة البحث العلمي الذي تشرف عليه السياسة الدولية ، وكان القائمون به على الأكثر أساتذة من الجامعات ، أو معاهد البحوث ، بعد أن كانت هـــذه الدراسات الإسلامية وقفاً على المرسلين الدينيين ، ثم على الوكلاء المستترين أو الظاهرين .

ومن المفهوم بصفة عامة أن البحوث العلمية في عصرنا هذا تتناول سائر الامم كما تتناول الامم الإسلامية : تتناول أمماً كثيرة في القارتين: الإفريقية والأسيوية ، وتعرض من أحوال هذه الامم كل مــا يهم الاطلاع عليه ، ومنه شئون الدين والعقائد الخلقية إلى جانب الشئون التي ترتبط بالموقع ، والمناخ ، ومعالم الأرض ، وينابيع الثروة الطبيعية . وفي كل موسم من مواسم النشر تظهر العشرات من الكتب عن أكبر البلدان وأصغرها في أقطار العالم المعمور ، ويظهر معها الإعلان عن عشرات غيرها تصدرها المطابع في المواسم التالية . فليست العناية بالبحوث العلمية موقوفـة على أمم الإسلام ، ولا على الدراسات الإسلامية ، ولا فرق في عدد المؤلفات من حيث الكثرة والقلة بين مــا يؤلف عن الدراسات الإسلامية ، وما يؤلف عن سائر الدراسات . إلا أن يكون الفرق على قدر الفرق في حساب السكان والمساحات وما إليها .

لكن المحقق أن هناك فرقاً جوهرياً من حيث الروح والوجهة بين ما يكتب عن الإسلام وما يكتب عن سائر الامم . هناك فرق بـــين منهج التأليف عن الإسلام ومنهج التأليف عن الامم المتفرقة ، ولو كانت هذه الامم المتفرقة تــدين بعقيدة واحدة ، أو كان لها من الكثرة ما يساوي كثرة المسلمين في أوطانهم أو في أرجاء العالم بأسره .

فمعظم المؤلفين عن الإسلام لا ينسون أنه قوة روحية فعالة ، ولا ينظرون إلى مسائــل الثروة وظواهر الأوضاع الجغرافية والطبيعية كما ينظرون إلى تلك

القوى الروحية الفعالة ، وإلى ما كان لها من الأثر في تاريخ الماضي ، وما يكون لها من الأثر في الحاضر وفي مجرى الحوادث المقبلة .

ولا يفوت القارىء أن يلمح بين السطور عناية الباحثين بقدرة الإسلام على البقاء والإحتفاظ بهذه القوة الروحية الفعالة : هل يعيش الإسلام طويلاً محتفظاً بهـــذه القوة الروحية ؟ هل يشبع ضمائر أتباعه ويغنيهم عن الاعتصام بعقيدة روحية أو فكرية اخرى ؟ هل يقاوم غـــيره من القوى الروحية والفكرية في معترك المنازعات الدولية أو الاممية ؟.

إن المؤلفين الغربيين يكتبون عن الصين وعن الهند وعن الشعوب الإفريقية ، ولكنهم لا يكتبون عنها ليسألوا هـذه الأسئلة وأمثالها ، وربما سألوا عن قوتها العسكرية ، أو علاقتها السياسية ، وبحثوا عن قدرتهـــا على الثبات في معارك القتال ، وعن قدرتها على المقاومة في مضطرب السياسة الدولية ، إلا أن هـــذه الأسئلة شيء والسؤال عن القوة الاسلامية شيء آخر... لأنهم ينظرون إلى ثبات الاسلام في معارك الحرب والسياسة ، بل ينظرون إلى ما وراء ذلك ، وإلى ما هو أهم وأبقى من ذلك : ينظرون إلى ثبات الاسلام أمام الزمن بمـا اشتمل عليه من زعازع الأفكار ، وزلازل العقائد ، وتيارات الشكوك ، وصدمات القلق والحيرة ، وينظرون إلى معارك القوة الروحية قبل أن ينظروا إلى معارك الحرب والسياسة ، ويلوح من فلتات القلم وخفايا السطور أنهم يوازون بين هـــذه القوة الروحية الفعالة وبين ما يقابلهـا عندهم من قوى الروح والضمير ولا يدرون على التحقيق لمن تكون العاقبة في الزمن البعيد ، أو إذا انقضى هذا الزمن القريب .

ومن عناوين المؤلفات نلمح هذا الغرض مقصوداً أو غير مقصود .

فهذا مؤلف ضخم في عدة مجلدات يبحث عن المجتمع الاسلامي أمام الغرب ، وهـذا مؤلف يقاربه في الضخامة يبحث عن الإسلام في تاريخ العصر وما يليه ، وذلك مؤلف آخر يبحث عن قبـــلة الاسلام على مفارق الطريق . وإذا كتب الباحثون عن امة مسلمة كما يكتبون عن سائر الامم فلا يفوتهم أن يذكروا نصيبها

من تلك القوة الروحية الفعالة ، وأن يذكروا مقدار اعتمادها عليها في كفاح الزمن ، وفي كفاح الخصوم .

ولا ننسى أن الدراسات الجامعية تسهم بالقسط الأوفر من جملة هـذه الدراسات ، ولا ننسى أيضاً أن الجامعات تعمل في هـذه البحوث بمعونة الدول أو معونة المعاهد المتصلة بالأقطاب السياسية والاقتصادية ... ولكننا مع هـذا يجب ألا ننسى أن القراء هم المرجع الأخير في شيوع هذه المؤلفات ، وفي ظفرها بالثقة والإقبال، فلا بد من رغبة ذهنية أو نفسية يرضيها المؤلفون وراء المطالب الدولية التي لا تعني جميع القراء،ولا بد من فائدة أدبية في الكتاب تعطيه قيمته في معايير النقد والتقدير : إن الرغبة العامة في الغرب تتعطش إلى الحقيقة في أمر الدين ، تتعطش إلى حقيقة تروي ظمأها وتعيد إليها الطمأنينة على مصير الانسان في الغيب المجهول .

وقـد نظر الغربيون قديماً إلى الشرق وأخذوا منه كل ما اعتقدوه . وهم يعودون اليوم فينظرون إليه ولا ييأسون من ودائعه الروحية بعد أن يئسوا — أو كادوا — من ودائعه المادية ، وأولها في الحالتين : ودائع الاسلام .

الدين في معترك السياسة العالمية

لحضرة صاحب السماحة العالم الجليل الاستاذ محمد تقي القمي
السكرتير العام لجماعة التقريب

الدين قوة منذ وجد ، ومَثَلُ تلك القوة كمثل أية قوة تظهر في الأرض فينبري لها المعارضون والخصوم بغية القضاء عليها ، ويتجه إليها الطامعون والمستغلون رغبة في استغلالها لمصالحهم ، وفي هذا قضاء على مثله العليا وجوهر رسالته السامية .

والمتتبع لتاريخ الأديان يلاحظ أن أخطر خصوم الدين في كل عصر ، جاحدٌ ينكره ، أو مستغل يريد أن يسخره ، وأمامنا على ذلك أمثلة من التاريخ .

فقد طالما رأينا الدين في حرب مع منكريه ، ورأيناه في خصام مع مستغليه ، ورأينا الحكام والسياسات تلتمس فيه سنداً وعوناً ، ورأيناه في خدمة حاكم أو سياسة ، والويل للدين إن استغل في خدمة أشخاص أو سياسات .

والتاريخ يحدثنا عن الحروب الدامية بين الدين ومنكريه ، وعن ملوك حكموا باسمه ، لا اعتناقاً لمبادئه ، بل استغلالاً لقوته الهائلة كي يظفروا على عدوهم ، أو يطمئنوا على مجدهم ونفوذهم ، ويعيشوا بعونه في راحة وهناءة .

وكان الحكام يخالطون الكهنة أو يندمجون فيهم لا لشيء إلا رغبة في السيطرة على النفوس باسم الدين كي يجذبوهم إلى خدمتهم في شتى الميادين .

وكان الملوك يهدفون إلى تسخير الدين حين كانوا يتشحون بأثواب القداسة ويرأسون الديانات . وقد أسرف بعضهم في ذلك وحاول أن يفيد من ديانتين متباينتين في وقت واحد ، كما فعل قسطنطين ، الذي لم يكتف بأن يكون الكاهن الأعظم في الديانة الوثنية السائدة ، بل كان في نفس الوقت حامي المسيحية وناشر فكرتها ، ومؤسس القسطنطينية مركز الكنيسة الرومانية الشرقية .

على أن الدين رغم ما واجه من عنت خصومه ومستغليه في كل عصر ، ظل قوي النفوذ ، واسع السلطان ، مسيطراً على القلوب ، وذلك لأسباب أهمها أن العلم كان بيده ، بل كاد يكون احتكاراً لرجاله على مدى العصور . ولا نريد أن نوغل في القديم أكثر من هذا ، لنذكر القارىء بآثار كهنة سومر — أقدم الديانات — أو كهنة بابل ، أو غرائب علوم كهنة مصر ، أو أسرار مؤبذان فارس ، أو ما إلى ذلك ، بل حسبنا أن نذكره بأن العلم كان بيد الكنيسة المسيحية ، وأن الاسلام جعل للعلم قداسة كالدين ، فكان كل درس يبدأ باسم الله وبالتعوذ من الشيطان الرجيم ، وكان طلاب التفقه في الدين يدرسون الفلسفة والرياضة والفلك والطب والكيمياء ، كما كانت المعاهد الدينية هي نفسها مدارس علوم الحياة ، وعلماء الدين هم أساتذة تلك العلوم .

لكن معاهدنا الدينية الاسلامية هجرت كلياً علوم الحياة ، كما أن الغرب المسيحي انحرف عنها إلى حد كبير ، وإن ظلت المدارس الدينية في بعض بلادهم تساهم مساهمة كبيرة في تثقيف الشباب مع صبغهم بروح الدين ، والدليل على ذلك ما قرأناه في الصحف بالأمس القريب عما وقع في بلجيكا البلد الاوربي المتحضر ، تحت عناوين بارزة مثيرة مثل « بلجيكا على أبواب حرب أهلية » ومجمل الخبر أن الحكومة البلجيكية خفضت المعونة التي تقدمها إلى المدارس الكاثوليكية ، وأن هذا أثار أغلبية الشعب — وهم تلاميذ تلك المدارس طبعاً — فاحتشدت مظاهرة في الشوارع من مائة ألف كاثوليكي فيهم رئيس وزارة سابق احتجاجاً على هذا التصرف .

ولقد وقفت أمام هذه الأنباء التي شغلت الرأي العالمي أياماً وقفة طويلة ، وقرأت فيما بين السطور قوة الدين ومركز رجال الدين كأساتذة الجيل، وقارنت بين ربطهم الديني بالحياة وبين ما نحن عليه الآن .

ومنذ زهد رجال الدين في علوم الحياة ، بدأ العلم يشق طريقه غير آبه بالدين ولا حافل به ، وبدأ الشبان يفهمون أن العلم شيء والدين شيء ، وانصرفوا بكل عقولهم إلى العلم ، وانصرفوا بكل قلوبهم عن الدين ، حتى أصبحنا الآن أمـــام علماء يسخرون كل مـــا في الطبيعة لإثارة الشهوات ، وإشاعة جو من الرذيلة ، وها هم يشتغلون ليلاً ونهاراً خفية وجهراً ، ليطلقوا الذرة ، وليس يهمهم أن يدمر ذلك قارة بأكملها ، ثم هم يتسابقون في صنع صواريخ تطلق في الجو فتهلك الملايين بأشعتها دون أن تهوي إلى الأرض ، ولا يأبهون أن ينزل العذاب والشقاء بالبشر أجمعين .

والعلم سلاح قوي خطر ، إن وقع في يد الفضلاء نفعوا به الناس ، والتمسوا به الخير ، وأناروا به البصائر ، وهدوا به إلى عظمة الخالق ، وإن وقع في يـد السفهاء آذوا به كثيراً ، وأضروا بـــه كثيراً ، وجروا به على البشرية أفظع الشرور .

وقديماً فطن العلماء إلى هـــذه الحقيقة ، فالتزموا قواعد لم يحيدوا عنها طوال العصر ، ضمنوا بها بقاء العلوم في يـد الأخيار من أهل الفضيلة ، فحفظوا البشرية من الشرور ، فكهنة بابـل ومؤبذو فارس كانوا لا يبوحون بأسرار علومهم لمن ليس أهلاً لها ، ومن لا يُطمأن إليه خيفة أن يؤذي بـه أحد من الناس ، وكهنة مصر كانوا يقولون أن سر الموت والحياة هو سر الأسرار ، ولا بد أن يبقى سراً وإلا خربت الأرض ومن عليها .

وهكذا فقد العـلم في عصرنا صمام الأمان وهو الدين ، وانتقل سلاح العلم من أيدينا إلى أيدي غيرنا ، وتحول هـــذا السلاح النوراني من خدمة الخير المطلق ، وسخر في خدمة الشر المدمر .

فماذا فعلنا نحن رجال الدين ؟ إن الشقة بيننا وبين علوم الحياة ظلت تتسع حتى وصل الأمر إلى أنه لو عرض على طالب جامعي، أن يدرس في معاهد الدين لبهت وأخذ كأنما أنذر بالموت ، هذا بعد أن كانت المعاهد —إلى زمن غير بعيد— تلحق بالمساجد .

إن الدين كقوة فقد كثيراً من جنوده بتسريح الشباب من ميدانه، وباعتزال رجاله معترك الحياة بعد أن كانوا يعيشون في صميمها ويأخذون بيدهم التعليم وهو ضرورة للإنسان كالماء والهواء، بينما خصوم الدين ومستغلوه الذين كانوا في الماضي أفراداً أو جماعات متفرقة أو حكومات محلية محدودة القوى ؛ تحولوا إلى كتلتين عالميتين ، إحداهما تحاربه حرباً عنيفة قاسية ، والأخرى تحاول أن تستغله إستغلالاً كاملاً ، وكلتاهما تؤذي الدين ، وتقوض دعائمه ، وتعصف بكل مقوماته عصفاً .

نعم لقد أصبح الدين في العصر الحديث بعد ما ارتبطت أجزاء العالم المتباعدة يواجه كتلتين قويتين تشملان العالم تقريباً .

كتلة تنكره وتبني سياستها على محوه وتحاربه بشتى الوسائل وتصفه بأنه مخدر و « أفيون » للشعوب ، وتسف في التعريض به ، وتعزو إليه كل جدب يصيب النفوس وكل نقص يصيب الزروع .

وكتلة أخرى تظهر بمظهر المؤيد للدين رغبة منها في استغلاله ضد غريمتها ، فهي تعمر المعابد ، وتشجع على بناء الكنائس ، وتسرف أحياناً في هذا إسرافاً كثيراً (١) .

---

(١) يدل عليه ما نشرته أخيراً إحدى النشرات الفرنسية تحت عنوان (أكبر لوحة زجاجية في العالم) حيث تقول : (أوصت إحدى الكنائس الأمريكية خبيرين فرنسيين من مقاطعة « بريتاني » بصنع أكبر لوحة زجاجية ستزدان بها إحدى واجهات الكنيسة وسيكون طولها ٤٠ متراً وارتفاعها ١٧،٥ متراً ، وقد سبق للخبيرين المذكورين أن صنعا لوحة زجاجية أخرى بديعة لإحدى الكنائس بكندا) .

وهـذه الكتلة التي تتظاهر بتأييد الدين ، هي نفسها تتحفنا بأفكار وتقاليد وتصرفات أقل ما يقال فيها إنها تبث روح الاستخفاف بالدين ، وتغري الناس بالخروج على تقاليده وتعاليمه .

أليس في تصرفاتها بفلسطين الشهيدة دليـــل على الاستخفاف بالمسيحية والإسلام ؟

أليست هـذه الكتلة تفسد الشباب وتصرف الناس عن الدين بمـا تنشره من أفلام داعرة ، وأفكار إنحلالية .

ثم إننا كرجال للتقريب ، نرى أيادي تلك الكتلة – مـــع الأسف – في النشرات المفرقة ، والمحاولات البارعة لإيجـاد الخلاف أو توسيع شقته بين أبناء الدين الواحد ، وفي مقاومة أية فكرة تهدف إلى جمع الكلمة ، وأخيراً نرى هذه الكتلة لا تروج غير الخرافات ، وهي وحدها كفيلة بالقضاء على الدين .

هذا هو وضع الدين في العالم ومركزه في معترك السياسة العالمية ونصيبه من بطش الكتلتين العالميتين اللتين تهـدد كل منهما الاخرى وتبغي إفناءها ، واللتين تجران على العالم كله القلق الشامل والاضطراب الزائد ، والخوف وعدم الثقة .

والدين وحده يستطيع أن يتحكم في هذا الموقف ويتغلب على الأهواء البشرية وهستريا الحرب ، ويرد الطمأنينة إلى النفوس . ولكن كيف يُمَكن من أداء رسالته كقوة معنوية يحسب حسابها ، وترجع بالبشرية الى صوابها ؟

سؤال ليس من السهل الإجابة عنه في بقية مقال ، إلا أن ذلك لا يمنعنا من أن نشير إليه في عرض سريع ، وسوف نعود إلى تفصيله فيما بعد إن شاء الله .

التعليم كان سلاحاً بيد رجال الدين ، والعلم والدين لم يفترقا إلا في أوقات لا تكاد تذكر ، والتثقف والتدين كانا دائماً متلازمين ، ولم يكن الدين يعرف بدعة القديم والحديث ، ولا كان العلم ينتزع الشباب من أحضان الدين .

اعتزلنا وأوجدنا قديماً وجديداً . قدمنا سلاح التعليم لأنصار الجديد واكتفينا

بأن نحافظ على القديم ، وبذلك سرّحنا جنودنا من الشباب ، وتركناهم مطية لغيرنا ، وعرضة ليكونوا يوماً حرباً علينا .

نحن أمام جيل جديد فماذا أعددنا لهم اليوم لنضمن صلتهم بالدين غداً .

إن المعاهد انفصلت عن المعابد ، والمساجد ابتعدت عن المعاهد ، وبذلك انحرف العلم عن قدسيته ، والدين عن رسالته .

ولا خلاص إلا أن نهتم بالمعاهد اهتمامنا بالمساجد، بل لا نبني مسجداً إلا بنينا بجانبه معهداً، ولا معهداً إلا بنينا معه معبداً فليُعِدّ طلبة الدين أنفسهم ليكونوا رجال التعليم ،وبذلك يفتحون آفاقاً جديدة، ويخدمون العلم كما يخدمون الفضيلة، ويكتسحون المكاتب والمدارس والجامعات ، وينشىء منهم من يستطيع مدرسة أو مكتباً ، ومما لا شك فيه أنهم بعملهم هذا يضمنون للدين قوة وبقاء ، وللبشرية سلامة وأماناً ، ولأنفسهم مكانة تليق بهم في حاضرهم ومستقبلهم والله يوفق العاملين .

منهج الاسلام
في تحرير العقل والفكر

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ يس سويلم طه
من كبار علماء الأزهر

ظهرت دعوة الاسلام وشعوب العالم مغمورة بموجة طاغية من فساد الاعتقاد والتدين ، بعضها يهيم في عماء الجهل والتقليد الأعمى وعبادة الأهواء ، لأن الوثنية التي كانت من مواريث الجهل والتبعية العمياء، استحوذت على عقولهم وأفهامهم ، فدانوا بعقائدها وخرافاتها ، وعكفوا على عبادة الأصنام والأوثان .

وبعضها يرسف في أغلال الحجر العقلي ومضلته ، لأن القـادة الدينيين الذين استمدوا قيادتهم من وحي الأهواء وطغيان الشهوات ، كانوا يعلمونهم أن الدين لا يبيح لهم أن ينظروا في عقائده وتعاليمه بعقولهم وأفهامهم ، وإنما عليهم أن يتلقوها منهم بالتسليم والإذعان ، وإن كانت لا تقبلها العقول والأفهام ، فكان مبلغهم من العلم بالدين أنه مجموعة من العقائد والأعمال التي لا مجال فيها للعقل ، ولا متسع فيها للبحث والنظر ، وبذلك سيطروا على عقولهم وأفهامهم ، وسلبوهم حرية الفكر واستقلال الإرادة ، وفرضوا عليهم ما شاءوا من العقائد والشرائع التي اختلقوها بجهلهم وأهوائهم ، وبقي هذا الفساد مستحكماً في هؤلاء وهؤلاء ، حتى جاء الاسلام لإصلاح هذه الأوضاع الفاسدة ، وتحرير الانسان من هـــذه

الأغلال الجاثمة على عقله وفكره، وإعداده بهذا التحرير الفكري، للإيمان والعمل بمناهجه الإصلاحية عن فكر ونظر واقتناع، فأذّن فيهم بأنه دين التوحيد والفطرة، والبحث والنظر، والاهتداء بنور العلم والمعرفة، وتحكيم الحجة والبرهان، واستفتاء القلوب ومراجعة الضمائر، وأقام منهجه في تحرير العقل والفكر على ثلاث دعائم :

الدعامة الاولى : تحرير الانسان من أغلال الحجر العقلي وسيطرة التبعية العمياء وتربيته على حرية الفكر واستقلال الارادة، ليكمل بذلك عقله ويستقيم تفكيره وتكتمل له شخصيته وإنسانيته، فإن كمال العقل واستقامة التفكير واستقلال الارادة، هي أساس صحة العقائد واستقامة التدين، ومعرفة الحق الذي يجب أن يتبع، ومعرفة الباطل الذي يجب أن يجتنب، كما يشير إلى ذلك قوله ﷺ : « ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى، وما تمّ إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله » .

وقد عني الاسلام ببناء هذه الدعامة عناية كبرى .

فجعل البرهان أساس الإيمان الصادق والعقيدة الصحيحة، وبيّن أن كل اعتقاد أو عمل لا يقوم على دلائل الحق فهو مردود على صاحبه، وأنذر الذين يجادلون في الله وآياته بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، كما في قوله تعالى : « ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان[1] له به، فإنما حسابه عند ربه، إنه لا يفلح الكافرون » . « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ثاني عطفه[2] ليضل عن سبيل الله، له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » .

وكشف عن ضلال القادة الدينيين الذين انحرفوا عن العهود والمواثيق المأخوذة

(١) صفة كاشفة لبيان الواقع وليست للاحتراز .

(٢) أي لاوي جانبه تكبراً وإعراضاً عن الحق .

عليهم ، وافتروا على الله الكذب ، وانتحلوا لأنفسهم حق التشريع والتحليل والتحريم ، إرضاء لأهوائهم ، وإشباعاً لشهواتهم ، وتلبيساً على الناس في دينهم، كما في قوله تعالى : « وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون » ، « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » ، ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، متاع قليل ولهم عذاب أليم » ، « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » .

ودعاهم إلى كلمة الحق التي يستجيب لها كل ذي قلب سليم وعقل رشيد ، والتي لم يختلف فيها نبي مرسل ولا كتاب منزل ، كما قال تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون».

وطالب كل ذي عقل بالنظر في عوالم السموات والأرض ، وما فيها من الدلائل الواضحة على وحدانية الله تعالى في ألوهيته وربوبيته ، كما في قوله تعالى: « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » ، « قل أنظروا ماذا في السموات والأرض » ، « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددنا وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » ، « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » ، « وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .

واستنهض العقول، ووجه الأفهام، وأيقظ الحواس، ونبه المشاعر، بالتعقيب على بيان الآيات الكونية والتشريعية بمثل قوله تعالى : « إن في ذلك لآيات لقوم

يعقلون » ، « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ، « إن في ذلــك لآيات لأولى النهي » ، « إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون » ، « ويبين آياتــه للناس لعلهم يتذكرون » ، « إنما يتذكر أولوا الألباب » .

وبشر الذين يستمعون القول فينظرون فيه نظر الناقد البصير ، ويتبعون منه ما يدل على الحق ويهدي إلى الرشد، كما قال تعالى: « فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » .

وذم الغافلين ونعى [1] عليهم غفلتهم وإعراضهم عن دلائل الآيات الكونية ، التي يشاهدونها في كل لحظة وهم عنها غافلون ، وتطالعهم بدلائلها في كل آونة وهم عنها معرضون ، كما في قوله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور » ، « ولقد ذرأنا [2] لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بهــا ، أولئك كالأنعام بــل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » ، « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

وعاب على أسرى التقليد إعراضهم عن الحق الذي جاءت بــه أنبياء الله ورسله ، وجمودهم على أتباع مــا وجدوا عليه آباءهم ، وارتكابهم الفواحش باسم الدين تعصباً للجمود والتبعية العمياء ، كما قال عز وجل : « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون » ، « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » ، « وإذا

---

(١) نعى عليهم غفلتهم : أظهرها وشهرها – من باب نهى .

(٢) أي خلقنا .

فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بهـا ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون » .

وبين لهم عاقبة التبعية العمياء ، ومدى جنايتها عليهم ، كما قال تعالى : «يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً » .

فالتقليد الأعمى من شر ما تبتلي به الأفراد والجماعات ، لأنـه يميت مواهب الفكر والنظر ، ويوجب جمودها وركودها ، ولا يميز بـين الحق والباطل ، ولا بين الصواب والخطأ ، ولا يفرق بـين التقليد في الخير والتقليد في الشر ، ولا بين تقليد القادة الراشدين والقادة المضللين ، ويحمل أهــله على الإعراض عن الحق ومعاداة أهــله ، والوقوف في طريق الإصلاح والمصلحين ، والجمود على العقائد والمذاهب الموروثة والتعصب الجماعي لحمايتها ، لأن قيـام العقائد والمذاهب على أساس الوراثة وتقليد الآباء والأجداد يضفي عليها قداسة تستحوذ على عواطف الوارثين لها، وتصرفهم عن التفكير في صحتها أو بطلانها، وتدفعهم إلى التعصب الجماعي لحمايتها والإبقاء عليها ، ومعارضة كل إصلاح جديد يخالفها أو ينتقص من قداستها ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقائق في آيات كثيرة ، كقوله في شأن معاداة الأمم الماضية لدعوة رسلهم : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ، قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون» وقوله في شأن معاداة قريش للدعوة المحمدية : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقـال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد » .

وهكذا يفعل التقليد الأعمى وتقديس المعتقدات القائمة على الوراثة ، فهؤلاء كانوا يعرفون الرسول حق المعرفة ، ويعلمون صدقه وأمانته حق العلم ، ولكن

التعصب الجماعي القائم على التقليد الأعمى وتقديس ما وجدوا عليه آباءهم، حملهم على أن يعجبوا من دعوته ويتنكروا لها، ويقولوا فيه وفي دعوته ما حكاه القرآن عنهم، ويتواصوا فيما بينهم بالصبر والثبات على شركهم وضلالهم، ولو أنهم حرروا أنفسهم من سيطرة التقليد الأعمى والتعصب الجماعي، ورجعوا إلى تحكيم عقولهم وضمائرهم، وسلكوا الطريق الذي أرشدهم إليه القرآن بقوله: «قل إنما أعظكم بواحدة، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا، ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فخلا كل واحد منهم بمن يعرف فيه سداد الرأي واستقامة التفكير، واستطلع رأيه واستكشف ما في قرارة نفسه، أو خلا بنفسه واستوحى عقله واستفتى قلبه، لزالت عنهم تلك الغشاوة التي عقدها التعصب الأعمى على القلوب والأبصار، ولعرفوا أن صاحبهم -صلوات الله وسلامه عليه- ليس به ما يفترون، وإنما هو رسول من الله صادق أمين، ونذير لهم بين يدي عذاب شديد.

وهذه الحقيقة التي قررناها، وهي أن قيام المذاهب والعقائد على أساس الوراثة والتقليد الأعمى، يضفي عليها قداسة تستحوذ على عواطف الوارثين لها، وتصرفهم عن التفكير في فسادها وبطلانها، وتحملهم على التعصب الجماعي لحمايتها من كل دعوة تخالفها أو تنتقص من قداستها، هي السر في تمسك الأمم والطوائف بالعقائد والمذاهب الموروثة وجمودهم عليها، وإن كانت لا تستند إلى نظر صحيح، ولا تقوم على أساس من الحق، وقصارى ما تعتمد عليه هو التقليد القائم على التبعية العمياء، وتقديس مواريث الآباء والأجداد.

وبهذه الدعامة قضى الإسلام على سلطة المتألهين من أصحاب القيادات الضالة المضللة، وخلع عنهم رداء القداسة التي انتحلوها لأنفسهم، وموهوا على الناس بأنها رفعتهم فوق النقد والتجريح، وجعلتهم أرباباً من دون الله يحللون ويحرمون كما يشتهون، وأجرى عليهم من أحكام المسئولية والجزاء ما أجراه على سائر الأفراد، وبين أن ربوبية العبادة والتشريع إنما هي حق خالص لله وحده،

وأهاب بأسرى التقليد والتبعية العمياء ، أن يحرروا أنفسهم من هذه الأغلال الجاثمة على عقولهم وأفهامهم ، وتلك الأكنة المعقودة على أسماعهم وأبصارهم .

وقرر حق الإنسان في حرية الفكر واستقلال الإرادة ، وفتح له طريق التحرر الفكري والاستقلال الإرادي ، وبوأه المنزلة اللائقة بإنسانيته وكرامته ، وعرفه أن الله تعالى لم يخلقه عبداً يقادكما تقاد الأنعام ، ولا جعل لمخلوق حق السيطرة على عقله وفكره ، وإنما خلقه حراً مالكاً لقياد نفسه ، وعبداً خالصاً لربه ، يفكر بعقله ويسترشد بمواهبه ، ويعمل باختياره وإرادته ، ويهتدي بنور العلم في اختياره وعمله ، ولا يظهر بمظهر العبودية إلا لخالقه ، ولا يدين في عقائده وسلوكه إلا بدين الحجة والبرهان .

ولا يفوتني في هذا المقام أن أوضح حقيقتين قد يقع الخلط في فهمها :

أما الحقيقة الأولى : فهي أن التقليد الذي ذمه الإسلام وشدد النكير على أهله ، والذي سبق بيان مفاسده وآثاره السيئة في الأفراد والجماعات ، إنما هو التقليد الذي يقوم على التبعية العمياء ، والجمود على القديم الموروث ، ومحاربة كل جديد يخالفه ولو كان ذلك الجديد أقوم طريقة وأهدى سبيلا ، والذي لا يميز بين التقليد في الخير والتقليد في الشر ، ولا يفرق بين اتباع أهل الحق من الأئمة الراشدين والقادة المصلحين ، واتباع أهل الباطل من أصحاب القيادات الضالة والأهواء الجامحة ، هذا هو التقليد الذي ذمه الاسلام وشدّد النكير على أهله ، وأما تقليد أهل الحق من الأئمة الراشدين والعلماء الراسخين ، الذين استمدوا علومهم ومذاهبهم من هدى الكتاب والسنة ، واستقاموا على الطريقة المثلى والحجة البيضاء ، فليس من قبيل التبعية العمياء التي لا تنظر ولا تفكر فيما تقلد ، وإنما هو من قبيل القدوة الواعية المستبصرة ، واتباع غير العالم لأهل العلم والمعرفة ، كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى في سورة النحل : « فاسألوا أهل الذكر[1] إن كنتم لا تعلمون » وقوله ﷺ في حديث العرباض بن سارية : « فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى

(١) أي أهل العلم والفهم .

اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين ، فطريق العصمة من ضلال الرأي وطغيان الهوى ، والنجاة من شرور التفرق والاختلاف ، والخروج من ظلمة الجهل ومضلته ، هو الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ، والسير على سنن الخلفاء والأئمة الراشدين المهديين، وسؤال أهل العلم الذين عرفوا بالرسوخ والأمانة في العلم ، والاعتدال في القصد والتفكير .

وأما الحقيقة الثانية : فهي أن حرية الفكر التي جعلها الاسلام رائداً للتفكير الديني ، ونبراساً للعقول والأفهام في الاهتداء إلى معالم الحق ، هي الحرية التي تطلق العقول والأفهام من أغلال الحجر العقلي والكبت الفكري ، وتحررها من سيطرة التقليد والتبعية العمياء، وتُجلي لها معالم الحقائق التي كانت محجوبة عنها، وتجعل قيادة التوجيه قيادة بناء وإصلاح وإرشاد، لا قيادة هدم وإفساد وتضليل ، وتستمد مقوماتها العلمية من هدي الاسلام وتعاليمه ، ونضوج العقل واستقامة التفكير ، والاعتماد على قضايا الحق والمنطق ، وتحكيم الحجة والبرهان ، وتجري في فهم نصوص الكتاب والسنة والاستنباط منها ، والاستدلال بها على قوانين النظر والاستدلال وأوضاع اللغة العربية وخصائص دلالاتها ، إذ لو وُكل الأمر في ذلك إلى الناس يفهمونها ويستنبطون منها كما يريدون ويشتهون ، لاختلت موازين الصواب والخطأ في الفهم والاستنباط ، وغابت الحقائق عن الأفهام في غمرة الأهواء والنوازع ، وآل الأمر إلى فوضى لا ضوابط لها ولا حدود ، فإن العقول والأفهام متفاوتة ، والأهواء والنوازع متحكمة ، والكملة في كل زمان ومكان قليلون .

هذه هي حرية الفكر التي نادى بها الاسلام وجعلها نبراس العقل ورائد الفكر .

وأما حرية الفكر التي لا تتقيد بقضايا الحق والمنطق، ولا تلتزم قوانين النظر والاستدلال ، ولا تخضع لسلطان الحجة والبرهان ، ولا تعبأ بحرمة النصوص الشرعية وقداستها ، ولا تعتمد إلا على السفسطة والغرور العلمي ، إذ ليس لها

رائد من الحق تلتزم طريقه ، ولا هدف من الإصلاح تسلك سبيله ، وإنما رائدها وحي الأهواء ونوازع الشهوات، وسوء القصد واعتلال التفكير ، وهدفها إطلاق العنان للألسنة والأقلام تقول ما تهوى وتكتب ما تشتهي ، وتتهجم على قدسية الدين وتسخر من تعاليمه ، وتشكك الناس في اصوله ومصادره ، وتدعو إلى الحياة المادية القائمة على الإلحاد والفجور والتحلل ، فإنما هي حرية زائفة متحللة، لا يبيحها الإسلام ولا يرضى عن أهلها ، لأنها مَضلة للعقل ومَفسدة للمجتمع ، وسُبة للفكر وعار على العلم ، فيا من اصطنعتم لحرية الفكر معنى غير معقول ، وفتحتم لها مجالاً غير محدود ، حكّموا عقولكم وضمائركم فيما تعملون، لما هكذا تكون حرية الفكر وقيادة التوجيه ، وما هكذا تكون وسائـــل الإصلاح والتجديد ، واتقوا الله في أنفسكم وفي امكم وأوطانكم ، واعلموا أنكم مسئولون أمام الله عن كل ما تقولون وما تكتبون ، وأنه لا مَهرب من الحساب ولا مفر من الجزاء ، وتذكروا قول الله جل جلاله : « إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » .

الدعامة الثانية : تحرير الانسان من أصفاد الجهل وظلمته ، فإن الجهل يقتل مواهب الفكر والنظر ، ويطفىء نور القلوب ويعمي البصائر ، ويميت عناصر الحياة والقوة في الامم ، ويفسد على جماهير الناس مناهج الدين والتدين ، فإنه هو الذي يجعل النفوس مستعدة لقبول ما يحدث في الدين من خرافات وبدع ، لأن أهل الأهواء والبدع الذين يظهرون بين الناس بمظهر القادة والزعماء الدينيين، يجدون في الجهـــل بتعاليم الدين مجالاً واسعاً لنشر الخرافات والبدع باسم الدين ، فيسارع أكثر الناس بدافع الجهل والثقة العمياء إلى اعتناقها ، ويعملون بهـا على أنها من الدين وهم لا يعلمون أن الدين منها براء ، ولقد عُني الاسلام ببناء هذه الدعامة عناية كبرى .

فذم الجهل والجاهلين في مواطن كثيرة ، كما في قوله تعالى : « يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » ، « أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً

لقوم يوقنون » ، « قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون » ، « فلا تكونن من الجاهلين » ، « إني أعظك أن تكون من الجاهلين » .

وأنحى باللائمة على الذين يتبعون الظنون والأوهام في عقائدهم وتدينهم ، كما في قوله تعالى : « إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون »[1] ، « وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ، إن الله عليم بما يفعلون » ، « ولا تقف[2] ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولاً » .

وعظّم شأن العلم وحثّ على طلبه ، كما في قوله تعالى : « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » ، « وقل رب زدني علماً » ، وقوله ﷺ : « من يرد الله بـه خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده » ، « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة » .

ونوّه بفضل الحكمة وما فيها من الخير الكثير ، كما في قوله تعالى : « يؤتي الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » ، وقوله ﷺ : « لا حسد[3] إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس » .

ورفع منزلة العلماء ، وجعلهم أهل خشيته ، وقرن شهادتهم بشهادته تعالى وشهادة ملائكته ، كما في قوله تعالى : « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولوا الألباب » ، إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم » .

---

(١) أي يكذبون .
(٢) أي لا تتبع في عقائدك وأقوالك وأعمالك ما لا علم لك به .
(٣) أي لا غبطة ، وهي تمني المثل .

وجعلهم ينابيع العلم وموارد العرفان ، ورواد الحق ودلائل الهدى ، كما في قوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » وخصهم بالتعقل والفهم في مقام ضرب الأمثال وبيان آيات الله الكونية ، كما في قوله تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » ، « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين »[1] .

وهكذا عرف المسلمون الأولون منزلة العلم وفضله ، وأدركوا مبلغ الحاجة إليه في تدينهم وبناء مجتمعاتهم ودعم سلطانهم ، وأنه هو الذي يوضح لهم معالم السير على النهج القويم ، ويفتح لهم آفاق الحياة العزيزة الكريمة ، ويكشف لهم عن أسرار العوالم الكونية ونواميسها ، ويقيم لهم وسائل الحياة والقوة ، ويبني لهم قواعد السيادة والمجد ، عرفوا كل هذا فوجّهوا عزائمهم إلى طلب العلوم على اختلاف أنواعها ، ولم يشغلهم عن طلبها ترف الحضارة ونعماؤها ، ولا ثنت عزائمهم عنها بأساء الحياة وضراؤها ، وبحثوا عنها في آيات الله التشريعية وآياته الكونية ، وأقاموا لها في كل قطر إسلامي منارا عاليا ، وحملوا مشاعلها إلى مشارق الأرض ومغاربها ، ولم يقفوا بجهودهم عند نتاج عقولهم وأفهامهم ، بل اتجهوا بها أيضاً إلى علوم السابقين فاستخرجوها من زوايا الاهمال والنسيان ، وأخذوا إبريزها بعد أن زادوه نقاء وصفاء ، وردّوا زائفها بعد أن بيّنوا زيفه وفساده ، لأنهم كانوا يطلبون هذه العلوم طلب الناقد البصير لا طلب التابع المقلد ، واكتمل لهم من ملكات العلوم والفنون في جيل واحد ، ما لم يكتمل لامة من الامم الناهضة في عدة أجيال ، وفي ذلك يقول بعض المؤرخين الاجتماعيين من علماء الغرب : « إن ملكة الفنون لم يتم تكوينها في امة من الامم الناهضة إلا في ثلاثة أجيال : جيل التقليد، وجيل الخضرمة، وجيل الاستقلال والاجتهاد ، إلا العرب وحدهم ، فقد استحكمت لهم ملكة الفنون في الجيل الأول الذي بدأوا فيه بمزاولتها » .

(١) العالمون في الآية الاولى والعالمين في الآية الثانية : كلاهما جمع عالم – بكسر اللام – أي العلماء .

وإن تعجب لهذه النهضة العلمية التي تخطت مراحل النهوض في الامم ، فعجب أنهم قاموا بها على رغم الأحداث العاتية التي حملوا أعباءها ، والحروب الطاحنة التي خاضوا غمارها ، لأن الأحداث والخطوب وإن بلغت من العنف ما بلغت، لا تستطيع أن تقف في طريق العقائد التي انطوت عليها القلوب وانفعلت بها النفوس ، ولا أن تمنع العزائم القوية من الوصول إلى أغراضها وأهدافها .

وبهذه النهضة العلمية استطاعوا أن يعملوا عمل الأقوياء لدينهم ووطنهم ، لأن العمل لبناء المجتمعات القوية في دينها ودنياها ، لا يصدر إلا عن إرادة قوية دافعة ، والإرادة القوية الدافعة ، لا تنبثق إلا من العلم، فالامة التي أفقدها الجهل قوة الإرادة وصدق العزيمة ، لا يمكن أن تعمل لدينها ولا لوطنها .

الدعامة الثالثة : تحرير الإنسان من طاعة الأهواء والانقياد الأعمى لوحيها ، لأن طاعة الأهواء من أقوى عوامل إنحراف الإنسان في سلوكه ، والتوائه في نظره وتفكيره ، وضلاله في عقائده وتدينه ، فإن الهوى ما دخل في شأن من شئون الدين والدنيا إلا أفسده ، دخل في فهم الأديان والعمل بها فأفسدهما ، ودخل في سياسة الامم وتصريف شئونها فأفسدهما ، ودخل في استثمار المال وتسخيره لمصلحة الفرد والجماعة فأفسدهما ، ودخل في الرأي وقيادة التوجيه فأفسدهما ، لأن الهوى مضلة للعقل ، ومفسدة للرأي ، ومضيعة للحق ، فإذا ملك قياد صاحبه طغى على عقله وفكره، وحمله على الالتواء في تفكيره ونظره، وسد عليه منافذ التفكير السليم والنظر السديد ، وقلب له أوضاع الامور وعمى عليه معالم الحق ، فلا يرى في مجال النظر إلا ما يوحى به الهوى ولو كان واضح البطلان ، ولا يخضع لما يخالفه ولو كان حقاً قام عليه الدليل والبرهان .

فعُباد الأهواء لا تسلم لهم طوية ، ولا يستقيم لهم رأي ، ولا تعتدل لديهم موازين الحكم ، ولا يخضعون لحق ليس في جانبهم ، كأن الحق تابع لأهوائهم وأغراضهم ، فإذا سألوا عن حكم شرعي أو رأي مصلحي، سألوا عنه وصدورهم منطوية على هوى دفين ، فإن أجابهم المسئول بما يوافق ما انطوت عليه صدورهم

رضوا وقبلوا ، وإن أجابهم بما لا تهوى أنفسهم سخطوا وأعرضوا ، وإذا حاول إقناعهم بالتي هي أحسن ، ركبوا رؤسهم ولجّوا في عتوّ ونفور ، ودخلوا معه في جدال عنيف لا يقف عند حد ، ونقاش عقيم لا ينتهي إلى غاية ، لأنهم ليسوا طلاب حق يخضعون له ويسلكون سبيله، وإنما هم أصحاب هوى يسيرون وراءه ويبغون تحقيقه ، لأن طالب الحق يطلب ما يطلب من حكم ورأي ، وهو مجرد عن كل هوى يطاوعه أو غرض يتابعه ، مستعد لقبول الحق والرضا به متى ظهر له ، وذلك هو منطق العقل وطريق الوصول إلى الحق والاهتداء لأرشد الامور ، أما أن يضع طالب الحكم أو الرأي نصب عينيه أمراً معيناً ، ويطوي نفسه على هوى دفين، ويأبى إلا أن يكون الحكم أو الرأي موافقاً لرأيه وهواه، فذلك هو منطق الهوى وطريق الخداع والتضليل ، ومسلك القلوب العليلة والنفوس المريضة .

ولهذا عني الإسلام بالتحذير البالغ من أتباع الهوى والانقياد الاعمى لوحيه ، فذم العاكفين على عبادة الأهواء والأغراض ، ونعى عليهم ضلالهم وانحرافهم عن الحق إرضاء لأهوائهم ، كما في قوله تعالى : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوي الأنفس » ، « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكّرون » ، « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين » وقوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » ، « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

وهكذا طالبنا الإسلام بأن نطهر نفوسنا وسلوكنا من الأغراض الخفية والأهواء الدفينة ، ونحرر عقولنا وأفهامنا من الخضوع لسلطانها والانقياد الأعمى لوحيها ، وأن نجعل أهواءنا تبعاً لحكم الله وشرعه ، لا أن نجعل أحكام الله تبعاً لأهوائنا ، فإن ذلك من أكبر العوامل في اعتدال النظر واستقامة التفكير ، وصحة العقائد وكمال الأخلاق وصلاح الأعمال .

هـــذا هو منهج الإسلام في تحرير الفكر الإنساني ، ولقد تلقى المسلمون الأولون هذا المنهج التحريري من ينابيعه الصافية ، واستقرت دعائمــه في أعماق نفوسهم ، وانطوت عليها أفئدتهم وجوانحهم ، فكان رائـــداً أميناً لعقولهم وأفهامهم ، وغـــذاء روحياً لغرائزهم ومواهبهم ، وطبعهم على حرية الفكر واستقلال الإرادة ، وكره إليهم التقليد والتبعية العمياء ، ووجه عقولهم للبحث والنظر ، وفتح لهم ميادين العلوم والفنون ، فأقبلوا عليها سراعاً ودخلوها من كل باب ، واتخذوا من رياضها مسارح لعقولهم وأفهامهم ، وبذلوا في سبيلها كل مـــا تحتمله طاقة البشر من جهد عقلي واحتمال جثماني .

وبهـذه النهضة العلمية ، والثورة الفكرية المتحررة ، استطاعوا في سرعة لم يمهد لها مثيل في تاريخ البعث والنهوض ، أن ينتقلوا من امة الامية والإنطواء على النفس ، إلى أمة العلم والقيادة الفكرية العالمية ، وأن يصبحوا أساتذة العالم وقادة الفكر ورواد العلوم والفنون ، يدرسونها للأجيال المعاصرة كأحسن مـــا يكون الدرس والتعليم ، ويدونونها للأجيال المقبلة كأحسن ما يكون التأليف والتدوين ، وينشرونها في شعوب كانت تائهة في عماء الجهل وظلمته ، فقد كانت بعوث الامم تفد على العواصم الإسلامية من كل ناحية ، فيأخذون عن علمائها ما شاءوا من أفانين العلوم وألوان المعرفـــة ، ثم يعودون إلى بلادهم حاملين إليها مشاعل هذه العلوم التي أخرجتهم من ظلمة الجهل إلى نور المعرفة ، والتي نفخت فيهم روح الحيـــاة والبعث ، وفتحت لهم طريق الانتفاع بأصلين عظيمين من اصول الإصلاح الإسلامي ، وهما : حرية الفكر ، واستقلال الإرادة ، كما شهد بذلك المنصفون من علماء الغرب فيما كتبوه عن الإسلام والمسلمين ، واعترفوا فيه « بـــأن المسلمين كانوا منفردين بالعلم في تلك القرون المظلمة ، وأن الفضل في إخراج أوربا من ظلمة الجهل إلى ضياء العـــلم ، وفي تعلمها كيف تنظر وكيف تفكر ، راجع إلى المسلمين وآدابهم ومعارفهم التي حملوها إليهم عن طريق أسبانيا وإيطاليا وفرنسا ، وأن العرب هم أول من عـلم العالم كيف تتفق حرية الفكر مـــع استقامة الدين والعقيدة ، وان نشأة المدنية في أوربا قامت على أصلين

عظيمين ، وهما : حرية الفكر ، واستقلال الإرادة ، فلم تنهض العقول للبحث ، ولم تتحرك النفوس للعمل ، إلا بعد أن عرفت أن لهـــا حقاً في طلب الحقائق بعقولهم وأفهامهم ، وفي تصريف شئونهم بإرادتهم واختيارهم ، ولم يصل إليهم هـذا النوع من العرفان إلا في الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح ، حينما سطع عليهم شعاع من آداب الإسلام ومعارف المسلمين» إلى غير ذلك من أقوال الأحرار المنصفين من علماء الغرب وفلاسفته ، التي يعترفون فيها بمـا كان للاسلام والمسلمين من فضل عظيم في إحياء العلوم ونشرها في الشعوب والامم ، وأثر كبير في بناء صرح المدنية والحضارة في ممالك الشرق والغرب .

فوازنوا أيها المسلمون بين ماضيكم وحاضركم ، وبين حال هذه الامم التي سطع عليها شعاع من آداب الإسلام ومعارف المسلمين الأولين ، وانظروا كيف سهرت هذه الامم على تنمية هذه الآداب والمعارف حتى بنوا بها الأوطان وملكوا بهـا الأقطار ، وكيف نام عنها المسلمون حتى ضعفت قوتهـم وسلبت أوطانهم ، وأصبحوا يطلبونها ممن أخذوها عن آبائهم وسلفهم ، وهم لا يعلمون أنهـا تراثهم الذي أضاعوه بتقصيرهم وإهمالهم .

واتخذوا أيها المسلمون من هذه الموازنة أنفع الدروس وأبلغ العظات والعبر ، واعملوا عمـــل الأقوياء بعلومهم وعزائمهم واتحادهم ، فذلك هو سبيل النهوض بشعوبكم وتحرير أوطانكم واستعادة أمجادكم ، وتذكروا قول الله جـــل جلاله : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ؟

ليكن شعارنا :

المدرسة بجانب المسجد

لحضرة صاحب السماحة العالم الجليل الاستاذ محمد التقي القمي
السكرتير العام لجماعة التقريب

إن علاقة الدين بالمجتمع كثيراً ما تتعرض لأزمات وتطرأ عليها تطورات . فالمجتمع تارة يكون متمسكاً بدينه متحمساً له وكأن الدين عنده كل شيء. وتارة اخرى يقع — نفس المجتمع — في فوضى خلقية ، وكأن لم يك بينه وبين الدين صلة ، حتى انه ليسخر من معتقداته السابقة ، ويعتبر المـــادة كل شيء ولا شيء سواها .

إن الدين في الغالب يظهر في أحلك الأوقات وأشدها حيرة . فعندما تتحكم الفوضى ، وتسود المادية ، وتنبذ الفضائل، ويُتنكر للمثل ، يظهر الدين، فيجمع نفراً على عقيدة ، ويوحّد كلمتهم ويوجههم إلى الفضيلة وإلى الخلق وإلى المثل ، ويتخذ من مساوىء المجتمع أدلة على الحاجة إلى الأخذ بتعاليمه ، ويحرص في كل ما يأتي به على توجيه معتنقيه إلى قوة فوق البشر تجزي الخير بالخير والشر بالشر .

فإذا خرج بأتباعه من الحيرة والفوضى ، ونظم الصلات بينهم على اسس من الفضيلة ، كان من الطبيعي أن يتكون منهم مجتمع سليم يتمتع بقوة روحية

وأدبية ، وفي مثل هـــذا المجتمع تهدأ النفوس وتنصقل العقول ، وهدوء النفس وانصقال العقل يمهدان السبيل للمعرفة ، بل إن الدين نفسه يوحي بالمعرفة ويغري بها ، والدليل على ذلك أن رواد العلوم كانوا غالباً من رجال الدين .

والدين أولَ ظهوره فكرة تقدمية ، تلاقي — لمدة من الزمن — معارضة عنيفة من أنصار التقاليد البالية الذين يستمسكون بالقديم لأنه مألوف ، وفي المعارضة قوة ، وكم من أفكار إصلاحية تدين في بقائهـــا ونجاحها للمعارضة ، فإذا استقر الدين وعرفه الناس ، هدأت العواصف حوله ، وضعفت المعارضة له ، وعندئذ يطمئن رجاله ، فيبطئون في السير اعتماداً على سابق الفوز ، أو يقعدون عن العمل اغتراراً بما بلغوا من مكانة ، ويكتفون بالدفاع عن ماض مشرق بدل أن يهتموا بما يدور حولهم في حاضر له ما بعده ، فإن الدنيا بطبيعتها متطورة ، وكل لحظة منها يمكن أن تكون مولد فكرة جديدة ، ولكل فكرة — مهما كانت — نهجها وأنصارها ، كما أن للغرائز آثارها ، وللفوضوية عشاقها ومؤيديها ، فالظروف تتبدل ، والأفكار تتغير ، والمعارف قد تنطلق من مدارها الخلقي وتصطدم بالدين إن غفل رجاله عن سنة التطور أو تخلفوا عن ركب الحيـاة . وبمقدار ما تتقدم المعارف تتضاءل رقابة رجال الدين وتضعف آثار معارضتهم ، حتى ينتهي الأمر بتقسيم المعارف إلى مدنية ودينية ، ثم تطغى المدنية فتفرض أنظمتها على أخص شئون رجال الدين ، مثل الطلاق والنكاح وإجراء العقود ، وتجعلهـــا دنيوية بحتة .

بهذا الاسلوب يأخـذ العـلم طريقه إلى رجال غير دينيين ، وتلامذة اليوم هم رجال الغد ، وعلى هـــذا الأساس يقوم الفصل بين العلم والدين ، وبين الجديد والقديم ، ولا يقف الأمر عند هـذا الحد ، بل إنه يتطور إلى اعتبار الدين سداً في وجه التقـــدم العلمي ، ثم ينتهي بتحويل الفلسفة والأدب من خدمة الدين والعواطف الدينية إلى معاكسة الدين والنيل من رجاله ، وهنـا يظهر التدهور الخلقي ، والإستهانة بالقيم ، وإنكار المثل ، وجحد العقائد ، وبذلك يتم الفصل

بين القديم والجديد ، وينشأ التعصب للقديم ، والافتتان بكل ما هو جديد ، وتسود الفوضى الأبيقورية .

إن الدين من غير علم – إن صح هذا التعبير – لا ينمو في ظله إلا الخرافات ، والعلم من غير دين لا يجر سوى النكبات والاضطراب والفوضى ، والمجتمع اللاديني ينتهي دائماً بالسقوط في هاوية المادية ، ولكنه بكل أسف يجر معه الدين أيضاً .

هذه هي السيرة الطبيعية لازدهار الأديان وذبولها ، ما لم تجد عوامل لها تأثيرها تساعد الدين على النمو أو تسرع به إلى الاندثار كالحروب والسياسات ، ومن هذا يبدو جلياً أن نقطة التحول الحقيقية تبدأ عند فصل التعليم عن الدين ، وكم كان رجالنا الأقدمون حكماء حين بنوا المدارس بجانب المساجد ، فإنه مهما تطورت تلك المدارس بتطور العلوم ، بقي الدين في مركز الموجه وبقي السلطان فيها للفضيلة وللفضيلة وحدها ، والدين صمام الأمان للعلوم ، به لا تنحرف عن كونها نوراً يضيء البشرية ، ولا تنحرف إلى خدمة الشرور والآثام .

إن التجاوب بين الدين والمجتمع لا بد أن يأتي من دور التعليم ، وهناك حقيقة تؤيد ذلك لمستها بنفسي ورأيتها بعيني في آخر أسفاري إلى الخارج . ففي قرية كبيرة أو بلدة صغيرة هي إحدى المراكز الجبلية التي يؤمها المصطافون ، رأيت قس القرية هو صاحب الكلمة في مواطنيه وموضع التكريم والاحترام ، وكان كثير التودد إلى القادمين والمصطافين ، يزور كثير منهم ويعرض خدماته على الجميع ، سألته ونحن في أحد شوارع البلدة بعد أن لمست ترحيب الشيوخ والشبان به ، عن سر هذا الترحيب ، فما كان منه إلا أن أشار بيده إلى بناية قريبة وقال بالفرنسية ما معناه : هذه البناية كنيسة وبجانبها مدرسة كما ترى ، فنحن نربي هؤلاء صغاراً ونربطهم بالكنيسة فينشأون متدينين ، فهم تلامذتنا ومريدونا .

هذا ما رأيته في بلد لا ديني يكثر فيه السياح – وللسياح تأثيرهم – ورغم هذا فقد نجح الرجل أيما نجاح في ربط قلوب التلاميذ بالدين ، وهو فيما عمل لم يجاوز ما كان يعمله المسلمون قديماً من جعل المدرسة بجانب المسجد .

إن العالم الذي نعيش فيه مليء بالأفكار الهدامة ، مشحون بالسياسات المختلفة منها ما هي إلحادية صريحة ، ومنها ما تؤيد الدين في الظاهر وتهدمه في الحقيقة ، وقد يلبس الإلحاد مظهر الدين وتبرز الاخرى عداءها له حسب المصالح والأهواء .

وهذه السياسات هي التي ضخمت الخلافات بين المسلمين ، ولا تزال تغذي إلى الآن هـذه الناحية ، تارة بنشر البحوث باسم الاستشراق ، وتارة بتشجيع النشرات المفرقة ، كما تظهر الامة الاسلامية بمظهر الامم المختلفة والحال أنها امة واحدة .

فلماذا لا نتسلح نحن بهذا السلاح ، فنتناول بالبحث ما يتناولونه لكي يقف المسلمون على الحقائق فلا يتأثرون بما يقرأونه للمغرضين من عملاء السياسات المفرقة وبذلك ندفع عن ديننا ما يشوّه سمعته ، وندرأ عن امتنا ما يمزّق شملها ؟ .

لماذا لا ندرس أحوالنا ، ونتعرف شئوننا ، ونحدد موقفنا من العالم ؟ .

لماذا لا يقف الكثير منا في بحوثهم عن الطوائف الاسلامية عندما كتب قبل قرون عن الملل والنحل بما فيه من خبط وتشويه ، بدل أن ننظر حولنا ونتعرف ما في مجتمعنا ونأخذ عن الواقع الراهن ؟ .

إن خطر هـذه السياسات على مجتمعنا الاسلامي ظاهر واضح ، والحرب الأخيرة لا تزال آثارها – من انحلال خلقي وتحلل – تعمل عملها ، والدين هو القوة الفعالة التي يمكن أن تنقذ البشرية مما تردت فيه ، ولكن المثل وحدها لا تسود إلا إذا حملها دعاة مخلصون يجلونها للناس ، ويبرزونها للأعين . ورجال

الدين هم أهل هذه الرسالة ، والمسئولون عن هذه الأمانة ، فإن توانوا أو قصّروا فستظل السياسات تعبث بنا ،وتعمل عملها فينا ، وتفرق كلمتنا، وتحطم كياننا، وإذا كانت في الماضي القريب قد أوجدت فرقاً وألصقتها بالاسلام زوراً ، فإنها في المستقبل سترمينا بمـا هو أدهى وأمر ، ولن ينجينا من المصير المحتوم إلا أن نهب ونعمل لنصل ما انقطع بين العلم والدين ، وليكن شعارنا : المدرسة بجانب المسجد .

الاسلام ، الازهر ، التقريب

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الكبير
الشيخ محمد عبد اللطيف دراز
مدير الأزهر والمعاهد الدينية(١)

ثلاث كلمات يسيرات على السمع واللسان ، راجحات في القيمة والميزان ، يتلاقين غاية ومقصداً ، وإن اختلفن مدلولاً ومعنى ، وفيهن لو علم النـاس شفاء هذا الشرق الذي تحالفت عليه الأدواء ، وألحت به العلل والأسقام ، حتى أعياه الضنى ، وبرحت به الأوجاع والآلام .

★ ★ ★

بزغت شمس الهداية الاسلامية من هـذا الشرق على حين فترة من الرسالات ، وضلالة من النـاس ، واختلاف بالأهواء والشهوات ، وظلم من الأقوياء للضعفاء ، واستبداد من الحاكمين بالمحكومين ، وسيطرة لقوى الفساد ، وعوامل الضعف والانحلال ، وتردٍّ في مهاوي الرذيلة أصبح به الانسان الناطق أحط درجة من الحيوان الأعجم ، واضطربت به شئون الحياة ، واختلت موازينها ، ووقف به العالم على شفا حفرة من النار والدمار ، فلما بزغت هذه الشمس الساطعة بدّد الله

---

(١) حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الكبير الشيخ محمد عبداللطيف دراز هو أحد الأعضاء المؤسسين لجماعة التقريب .

بها هذا الظلام الدامس ، وأحيا بها تلك القلوب الميتة ، وسلّط شعاعها الوهاج على كل ناحية من نواحي الحيـاة ، وألّف بها بين المتنافرين ، وأصلح بين المتخاصمين ، واستل العداوات التي أنهكت القوى ، وانتزع السخائم التي عطّلت المواهب ، وطغت على العقول ، فإذا امة ناشئة فتية متحدة متعاونة ترفع بيمينها راية الإصلاح العالمي في العقيدة والشريعة والنظام والسياسة والعلم والخلق ، وتهدي للتي هي أقوم ، وتنادي بالحق والعدل ، وتحارب الفساد والظلم ، وتعلن لأول مرة حق الانسان في أن يعيش حراً كما خلقه الله ، وحق العقل في أن ينطلق حراً في مجال الكون ، يفكر ويتتبع ويستقرىء فيستدل ويستنبط ، وحق المجتمع في نعمة الأمن والطمأنينة والقرار .

انطلق المسلمون الأولون يحملون هذه الراية ، وينشرون هذه الرسالة ، ففتحت أمامهم أبواب العالم ، وانطوت فيهم المدنيات ، وتمثلت في ثقافتهم الثقافات ، كما تتمثل في جنى النحل أزاهير النبات ، وأعاصير الثمار ، وولجوا بالقرآن كل باب ، واستجلوا بالسنة المطهرة كل غامض ، وكانت عقولهم صافية ، وقلوبهم صافية ، فلم تعبث الأوهام والخرافات بالاولى ، ولم تفسد الأضغان والأحقاد أمر الثانية ، فكانوا في العلم والفكر هداة راشدين ، وفي التعاون والتضافر على الحق والخير مثلاً عليا للمتقين ، ووقف العالم ينظر إليهم مذهولاً مشدوهاً ، وأحسّ أرباب السلطان وأعوان الطغيان ، بالأرض تميد من تحتهم ، وتضطرب بهم ، وأدرك الباطل والفساد أن قوةً لا تقاوم تزلزل عليهما عرشهما ، وتقوّض بناءهما ، وأن مصيرهما أمام هذه القوة هو الإنهزام والإندحار ، أو التسليم والاستخذاء ، فآثر الاخرى على الاولى ، وخفضا رأسيهما إلى حين ، حتى إذا واتتهما الفرصة حين أثمرت عوامل التفرق الأول بين المسلمين ثمارها ، وتقطعت الأواصر ، واستُلّت سيوف الإخوة على الإخوة ، بدا قرن الفتنة ، وتحركت الأفاعي الكامنة المتلبدة ، وانطلقت من مكانها ، تلبس لباساً يواري سوآتها ، وتظهر في صور شتى ، وألوان مختلفة ، مرة في السياسة بإثارة الأحقاد ، وبثّ الفتن والمكائد ، وإذكاء نيران العصبية ، وتخويف كل فريق من الآخرين ، ومرة

بإفساد العلم والفكر ، عن طريق الوضع والإفتراء والتأويل الفاسد ، وإثارة الشبه ، والخوض فيما نهى الله ورسوله عنه ، وتحرج المسلمون الأولون منه ، وبهذا وجدت الأحزاب السياسية ، وانبعثت العداوات القديمة والإحن الماضية من مراقدها .

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

وبهذا وجدت الفرق الدينية ، واشتغل النــاس عن المثمر من العلم والنظر بالخلاف فيما لا يغني ولا يجدي ، وامتلأت البلاد من أقصاها إلى أقصاها بالفتن السياسية والعلمية ، وشحنت الكتب بآثار هذا الخلاف فاختلط الحق بالباطل، وشيب الصالح بالفاسد ، وتوالت على ذلك القرون والأجيال ، والضعف يتبع الضعف ، والداء يسري من جانب إلى جانب ، حتى أفضى الضعف السياسي إلى تلك النكبات التــي يلاقيها المسلمون على أيدي المستعمرين ، وأفضى الضعف الفكري إلى تبلبل أفكار الامة ، وتفاوت النظر فيها ، فمن عالم ينادي بأن كذا هو الحق ، وما سواه باطل ، بل هو الدين وما سواه كفر وإلحــاد ، ومن آخر يعكس القضية ويزري على الأولين ، ومن طائفة تعكف على نفسها ، وتؤمن بما عندها ، وتخاف من كل طائفة سواها ، إلى طائفة تظن بهـــا الظنون ، وتفرض فيها السوء ، وتحمل عليها ، وتنبذ علماءها ، وتحقر أهلها .

وقد غذيت هذه الخلافات ، وهذه السياسات بكثير من الروايات الملفقة ، والأحاديث الموضوعة ، والأخبــار المفتراة ، وامتلأت كتب التفسير والمغازي والمناقب بمــا لا يحصى من الأكاذيب ، وأصبح بجوار كل آية في كتاب الله رواية من الروايات تحمل عليها ، بل تلوي إليها ، وفسر القرآن بمـــا يوافق أصحاب الآراء ، وقبل من الأحاديث ما يؤيدهم ، وطعن فيما يخالفهم ، واشتبه الأمر فيما يقبل وفيما يرفض ، وفيما يصح وفيما لا يصح، ليس على الوسط من الناس فحسب، ولكن على بعض ذوي العقول الراجحة والذكاء الألمعي أيضاً ، ولم يسلم من ذلك إلا من عصم الله وقليل ما هم .

وقد شهدت الامة الإسلامية مع هذا نوعاً آخر من أنواع الخلاف والتفرق هو خلاف الأتباع والمتعصبين للأئمة الذين ظنوا التزام مذهب من المذاهب بعينه ديناً لا يجوز للمسلم أن يخالفه ، وأدرجوا ذلك في حكم العقائد ، ورتبوا عليه مسائل فقهية بحثوا فيها حكم من قلد غير الأربعة ، ومن قلد غير إمامه حتى من الأربعة ومن لفق في العبادة أو المعاملة بين مذاهب عدة ، ومن أفتى بغير الراجح أو المعول عليه أو المفتى به ، أو بتعبير أدق ، بغير ما وصف في الكتب بأنه كذلك ، إلى غير هذا من المسائل التي ما أثارها إلا العصبية المذهبية ، والتي قامت بنصيبها في تفريق الامة الإسلامية .

بات المسلمون من ذلك كله في ضعف ، وقاسوا منه أهوالاً شداداً ، وأدرك المخلصون من أبناء هذه الامة أن لا نجاة لها مما وقعت فيه إلا إذا عادت إلى ما كانت عليه في عهدها الأول ، حين كان الشمل مجتمعاً ، والعلم صافياً ، والدين واضحاً ، والمرجع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ التي صحت روايتها، واستقامت دلالتها ، ينزل على حكمها المختلفون ، ويصطلح عليها المتخاصمون . وذلك في نظرنا يستدعي أمرين عظيمين ، يجب على كل مؤمن أن يكون له مساهمة في نجاحهما :

الأمر الأول : إصلاح الحالة العلمية ، والعمل على إنشاء جيل من العلماء يكثر به سواد المصلحين ، وتعزز به جهود اولئك الدعاة إلى الحق ، المجاهدين للباطل والفاسد ، الذين يلاقون من خصومهم ما يلاقون من الرمي والنبز والتأثيم لمجرد أنهم تجرءوا على خلاف ما درجوا عليه وورثوه .

إن أعداء الإسلام ينظرون إلينا فرحين مستبشرين ، إذ يجدون التفاوت العقلي في معارفنا التي يغلو بعضنا فيسميها عقائد تفاوتاً واسع المدى ، من شأنه أن يجعل الدين الواحد أدياناً مختلفة ، وقد قالها بعض المستشرقين للمغفور له الاستاذ الأكبر الشيخ المراغي فضرب المثل في هذا التفاوت الواسع ببعض العلماء من القدامى والمحدثين ، وبعض الطوائف الحاضرة والماضية متسائلاً : مَن مِن

ؤلاء هو الذي يمثل الإسلام الصحيح ، وكلهم يدعى الإسلام الصحيح ؟

إن الأمل في تحقيق هـذا الأمر العظيم لمعقود بالأزهر تلك الجامعة الكبرى تي أنشأها المعز لدين الله الفاطمي ، فكان للشيعة فضل إهدائها للثقافة الإسلامية توالى عليها فضل الملوك والعلماء من أهل السنة فكان لهم فضل بقائها وازدهارها.

إن الأزهر هو الوارث الوحيد للثقافة الإسلامية ، منه نبتت ، وعلى أيدي شيوخه وتلاميذه ترعرعت ، وهو الذي آواها حين تنكر لهـا الناس ، وحفظ مانتها حين ضيعت الأمانات ، وفي أروقته ، وعلى بساطه ، نثر العلم ، واشتجر لرأي بالرأي ، وشهدت الحرية الفكرية أزهى عصورهـا ، وأمنع حصونها ، العالم الآن يرقبه فإن هو أدرك واجبه لهـذا العصر ، وقام بحق الدين والعلم الإصلاح والتقويم ، فقد أثبت أبناؤه أنهم وراث هذا المجد التليد عن جدارة فضل لا عن تشبه وتمثل ، وإن تكن الاخرى فإن العالم لا يمهل المتخلفين ، ولا مذر المقصرين ومـا واجبه إلا أن يعكف على درس علومه الدينية والعربية راسة قوية ، يكون الغرض منها الوصول إلى معرفة الحق دون تعصب ولا تحيز ، تجلية الإسلام وجميع معارفـه في الثوب الناصع القشيب ، الذي لم يغبر بغبار لأوهام ، ولم يصبغ بغير صبغة الله .

أما الأمر الثاني : فهو العمل على جمع كلمـة المسلمين في مشارق الأرض مغاربها وتصفية الخلافات القائمة بينهم بعرضها على كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه السلف الأول من المؤمنين ، وسوف يظهر أنهم في الحقيقة متحدون غير مختلفين فالاصول واحدة ، والوسائل واحدة ، وما الخلاف إلا في التطبيق ، لعمري إذا جاز اختلاف المسلمين في الفقه والفروع ، فكان منهم الحنفي والمالكي الحنبلي والشافعي والزيدي والإمامي ، وأزال الله في هذا العصر ما كان بينهم ن عداوة وبغضاء ، فلم لا يجوز بينهم اختلاف هادىء عفّ فيما هو وراء الاصول لمتفق عليها من ألوان المعارف الفكرية التي ليست من العقائد ؟

ولقد ندب الله لهذا الغرض الشريف ، والمقصد الأسمى ، تلك الجماعة الموقرة:

جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، التي تؤذن بتكوينها من جميع الطوائف المؤمنة بالقرآن والرسالة المحمدية ، بعهد جديد من التآلف والتآزر بين المسلمين سيكون إن شاء الله خيراً وبركة على العالم الإسلامي أجمع .

وإني أسأل الله جلت قدرته أن يهيء المسلمين من أمرهم رشداً ، وأن يوفقهم إلى صراطه المستقيم في الحق والعلم والدين ، وأن يجمع بين قلوبهم ، وينقذهم من نار الخلاف والشقاق ، كما أنقذ آباءهم الأولين ؟

من مضار التفرق

التفرق يوزع القوى ، فشخص يبني وشخص يهدم ، وشخص يهاجم وآخر يدافع . أما الوحدة فتجمع القوى ، وتوجد التعاون بين الأفراد لبلوغ الغايات وتسنم أرفع الدرجات . والتفرق إمارة من إمارات عدم النضوج ، فإن العقل الناضج يلازمه عادة حب الانصاف ، حتى إذا طرح شيء للبحث وكانت هناك عقول ناضجة واتجاه للحق لا تصده الأهواء ، لا يلبث الحق أن يظهر مشرقاً أبيض الوجه ، ولا يلبث الخلاف أن يزول .

وقد عمل الإسلام على الوحدة في كثير من المظاهر، فخليفة واحدة تتجه إليه الأنظار ويكون قبلة الجميع ، أفضل من خلفاء متعددين . وصلاة الجماعة خلف إمام واحد يضمهم ويوحدهم ، أفضل من الصلاة مع التفرق . وقد أمر المسلمين بالاجتماع في الجمعة والعيدين والحج . كل ذلك تنمية للوحدة وتقوية لها. وقد هدم نظام الجنسيات والعصبيات ، وساوى بين الجميع في الاخوة ، وجعل الفضل للتقوى . وهكذا عند التأمل نجده يرمي إلى الوحدة في جميع التكاليف ذلك لأن الوحدة أساس الإصلاح في الحياة الدنيا ، وأساس العزة والسلطان .

(الشيخ المراغي)

الازهر وفقه الشيعة

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد جواد مغنية

نشرت « رسالة الاسلام » في العدد الرابع من السنة الحادية عشر لفضيلة الأخ العلامة الشيخ محمد محمد المدني عميد كلية الشريعة في الأزهر، ورئيس تحرير المجلة، كلمة بعنوان : « رجة البعث في كلية الشريعة » .

تكلم فيها عن اتجاه الأزهر إلى الإصلاح باستكمال ما كان ينقصه من تدريس الفقه المقارن بين المذاهب الاسلامية ، وردّ على الذين يمارضون ، أو لا يرحّبون بإدخال فقه الشيعة في كلية الشريعة ، فذكر مزاعمهم ، وفندها بالعلم والمنطق ، وهو إذ يناصر تدريس الفقه الشيعي بالأزهر لا يفعل ذلك من أجل الشيعة، ولا يروّج لمذهب التشيع ، وإنما يعمل من أجل الأزهر نفسه ، ويخدم الاسلام قبل كل شيء .

إن الذي يعارض تدريس الفقه المقارن بالأزهر لا يسيء إلى الشيعة ، ولا إلى النجف ، وإنما يسيء إلى الأزهر بالذات ، وكيف يؤدي الأزهر رسالة الاسلام إذا تعصب لمذهب ضد آخر ؟! وهل يقدر الأزهر على توجيه الجماعة الاسلامية إذا جهل تراثها وأعظم مقدساتها ؟!

وإذا وجد في الأزهر أو غير الأزهر من لا يرحّب بتدريس الفقه الشيعي في جامعته فنحن الشيعة نتمنى أن يكون الأزهر موطن الثقافة العالمية، لا لتدريس

الفقه المقارن فقط ، لأنه يحمل شعار الاسلام ، ديننا وعقيدتنا ، وهـذا لوحده كاف لأن يحملنا على تقديسه وتعظيمه، حتى ولو لم يدرس الفقه الجعفري ... بل ولو وجد فيه ألف معارض وألف معاند .

ومهما يكن فقد استوقفتني جملة في مقال الأخ المدني ، وهي : « أن الفقه المقارن هو الفقه على الحقيقة ، وهو صناعة الفقيه على الحقيقة ، أما الحافظ للفروع الذي لا يعرف إلا سرد الأحكام ، فما ذاك بالفقيه » .

كلا ، إنه « شريط » مسجل نطق بما سجل به من ألفاظ ، فإذا سألته لماذا؟ أو ماذا تعني ؟ فكأنك تخاطب جماداً . أما الذي لا يكوّن لنفسه رأياً بمجرد السماع ، بل يتتبع جميع الآراء والأقوال ، وينظر إلى أدلتها من غير تحيز ، ثم يؤمن بما تستدعيه المقاييس الصحيحة ، فذاك هو الحاكم العادل ، والفقيه المجتهد الذي يؤجر إن أصاب ، ويعذر إن أخطأ .

هذا إلى أن دراسة الفقه المقارن تخلق في الطالب ملكة الاجتهاد والابداع ، وتوسع من مداركه ، وتعطيه قوة يدعم بها آراءه ، ويدافع عنها بالحجة الدامغة والبرهان القاطع . أجل ، إن الكسالى الذين يؤثرون النوم والقيل والقـال على سهر الليالي والاشتغال يتذرعون بحجج أوهى من عقولهم ، ويقولون : ما لنا وللأقوال وأدلتها ؟! إنهـــا مضيعة للعمر ... وينسون أو يتناسون أن ما من دليل ، وإن ضعف إلا ويفتح لك باباً من أبواب المعرفة ، أو يذكرك بحقيقة حرّفتك عنها مرور الزمن، أو يمرنك على التفكير ، ويرشدك إلى منهج التدليل.
واستمع معي الآن إلى الفقه المقارن وأقوال الفقهاء في استخراج الأحكام من هذه الآية :

« وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحـــد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم» المائدة ٥.

ولست أعرف آية من آيات الأحكام كثرت فيها أقوال المذاهب ، بل أقوال المذهب الواحد كهذه الآية الكريمة . فقد اختلفوا فيمن يجب عليه التيمم مع فقد

الماء : هل هو المريض والمسافر فقط ، أو كل من فقد المـــاء ، حتى الحاضر الصحيح ؟ وهل المراد بالملامسة الجماع أو ما يعم اللمس باليد ؟ وهل المراد بالمـاء خصوص المطلق أو كل ماء حتى المضاف ؟ وهل المراد بالصعيد التراب فقط أو وجه الأرض تراباً كان أو رملا أو صخراً ؟ وهل المراد بالوجه كله أو بعضه ؟ وهل المراد باليد الكف فقط ، أو هي مع الذراع ؟.

١ ـ قال أبو حنيفة : إن المسافر والمريض اللذين لم يجـــدا ماء يجب عليهما التيمم أما الحاضر الصحيح فلا يسوغ له التيمم مع فقد المـاء ، وليس عليه صلاة (كتاب المغني لابن قدامة ج ١ ص ٢٤٣ الطبعة الثالثة . وكتـاب بداية المجتهد لابن رشد ج ١ ص ٦٣ طبعة سنة ١٩٣٥) . أما الدليل الذي اعتمده الامام أبو حنيفة فظاهر الآية حيث دلت على أن مجرد فقد المـاء لا يكفي لجواز التيمم ، بل اشترطت مع ذلك أن يكون في حالة السفر أو المرض « فإن كنتم مرضى أو على سفر » .

وقال سائر المذاهب : على فاقد الماء أن يتيمم ويصلي مسافراً كان أو حاضراً سليماً ، أو سقيماً ، حيث تواتر الحديث عن الرسول بذلك ، والحديث مفسّر ومبيّن للكتاب ، وخرجوا ذكر السفر في الآية مخرج الغالب ، وإذا حمل الوصف على الغالب انتفت دلالته عما عدا الموصوف . هذا ولو تم ما نقل عن الإمام أبي حنيفة لكان المسافر والمريض أسوأ حالاً من الحـــاضر الصحيح ، حيث يجب التيمم والصلاة عليهما ، ولا يجب عليه .

٢ ـ فهم الشافعية من لامستم النساء المعنى العام حتى اللمس باليد ، ولكن خصصوه بالمرأة الأجنبية من غير حائل ، وقال الإمامية : المراد باللمس في الآية الجماع ، لأن العرب تطلق اللمس على المواقعة ، لأن به يتوصل إليها ، كما يطلقون المطر على السماء .

٣ ـ قال الحنفية : يجوز الوضوء بالماء المضاف ، لأن معنى « فلم تجدوا ماء » أي ماء مضافاً كان أو مطلقاً وعليه فمن كان عنده ماء مضاف لا يعد فاقداً للماء.

وقالت بقية المذاهب : أن لفظ المـاء ينصرف إلى المطلق ، فإذا قلت لصاحب المقهى آتني ماء ، فلا يأتيك بالعصير أو « الكازوز » .

٤ ـ قـال الحنفية وجماعة من الإمامية : المراد من الصعيد في الآية التراب والرمل والصخر دون المعادن . وقال الشافعية : المراد به الرمل والتراب فقط ، ولا يعم الصخر . وقال الحنابلة وبعض الإمامية : بل التراب فقط . وقـــال المالكية : الصعيد يشمل التراب والرمل والصخر والثلج والمعادن إذا لم تنقل من مقرها إلا الذهب والفضة والجواهر .

٥ ـ قال الأربعة : المراد بالوجه جميع الوجه تماماً كما في الوضوء . وقـال الإمامية: المراد بعض الوجه لا كله ، لأن الباء في آية التيمم دخلت على الوجوه ، ولم تدخل عليها في الوضوء ، فآية الوضوء قالت فاغسلوا وجوهكم ، وآية التيمم قالت فامسحوا بوجوهكم ، والباء تفيد التبعيض .

٦ ـ قال الأربعة : المراد باليدين الكفان والزندان مع المرفقين ، وعليــه يكون الحد في التيمم هو الحد بعينه في الوضوء . وقال الإمامية : المراد باليدين الكفان فقط ، لأن اليد إذا أطلقت لا يفهم منها إلا الكف ، فإذا قلت : هذان يدان وفعلته بيدي انصرفت إلى الكف وحدها. قال ابن رشد في «بداية المجتهد» ج ١ ص ٦٦ : « أن اليد في كلام العرب تقال على ثلاثة معان: على الكف فقط: وهو أظهرها استعمالاً ، وتقال على الكف والذراع ، وتقال على الكف والساعد والعضد » .

وكما تدلنا هذه الأقوال على أن الخلافات بين المذاهب إنمـــا هي لفظية لا معنوية ، وفي الفروع لا في الاصول ، تدلنا أيضاً على مرونة الشريعة الاسلامية ، ومجالها الواسع للاجتهاد والتيسير ، بالإضافة إلى ما في هذه الخلافات من الفوائد اللغوية والاصولية ، وما إلى ذاك مما أشرنا إلى بعضه فيما تقدم .

الموفّق الموفّق

الامام المصلح «محمود شلتوت»

للكاتب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد

في كتابات الإمام الفقيد – الشيخ محمود شلتوت – كلمات لها طابعها الذي تتميز به بين أمثالها من الكلمات في كتابات غيره، ممن ينهضون بأمانة الدراسة الدينية.

ولعل أبرز هذه الكلمات في كتاباته، وفي أحاديثه، كلمة « الشخصية ».

يلحقها بوصف العقيدة، ووصف الفرائض المقدسة، بل يجعل العقيدة – كما يجعل الفريضة – معلماً من معالم شخصية الامة، وشخصية الإنسان في حياته الباطنة وحياته الظاهرة.

قال رحمه الله في مفتتح مقاله عن رسالة الأزهر: « إن للانسان في هذه الحياة فرداً كان أم جماعة شخصيتين، حسية ومعنوية، ولا يحظى بالوجود الكامل إلا إذا نال حظه من الشخصيتين، وشخصية الفرد الحسية يكونها اللون والطول والعرض، وشخصيته المعنوية يكونها إيمانه ومبدؤه وهدفه في الحياة، وما له من عقل وتدبير وثبات ومثابرة في سبيل مبدئه وهدفه ».

ثم قال عن شخصية الامة الحسية: « إنها ترجع إلى إقامتها في الإقليم الذي

نشأت فيه ، وإلى الأصل الذي تنتسب إليه » ... أمـا شخصيتها المعنوية فهي ترجع إلى روابطها القلبية والعقلية والشعورية ، وعلى قدر ما يكون لها من التأثر بتلك الروابط المتفاعلة والحرص عليها وعلى معارفها التي تكونها ، وعلى الإيمـان بمصدر تلك المعارف .. يكون لها . بين الامم من آثار الوجود المعنوي .

وكتب عن الصلاة في فصل من فصول «الإسلام عقيدة وشريعة» فقال عنها: « إنها العنصر الثاني من عناصر الشخصية الإيمانية » .

وعلى هذه الوتيرة كانت كلمة «الشخصية» تتردد في أحاديثه للدلالة على قوام كل « وجود » حق يتميز به عقل الإنسان وضميره في حياته الروحية ، وهي لمحة من لمحات التعبير الباطني تدل على معناها ، وتدل مع هـذا المعنى على مقدار شعوره بكرامة الشخصية واقترانها بحـق الإنسان وواجبه ، وبالتبعة التي تناط بها الحقوق والواجبات ، وتقرر له موقفه من الشخصيات الإنسانية الاخرى في إبداء الرأي والاضطلاع بأعباء الدعوة والإقناع .

هذه واحدة من خصال العقل المجتهد ، بـل هي أولى تلك الخصال في كل ترتيب لكفايات المجتهدين . من كان له رأي وعلم ولم يكن له نصيبه الأوفى من هذه الخصلة فلا سبيل له إلى الاجتهاد ، لأنه يلقي العائق الأول عن أداء وظيفة الاجتهاد من قبل نفسه ، ويحجم عن العمل في سبيله قبل أن يصده غـيره عن تلك السبيل .

وتلك هي الخصلة التي توفرت للأئمة الأسبقين من أصحاب الرأي والقياس في الشريعة ، وبفضل الثقة التي كانت تملأ نفوسهم من هـذه الخصلة ، كانوا يقولون لمن يستكثر عليهم التعقيب على أهـل العلم من الصحابة والتابعين : إنهم رجال ونحن رجال .

★ ★ ★

وإذا اجتمع الاجتهاد في كلمات معدودات صح أن يقال إنـه هو القدرة على

الرجوع إلى روح القرآن الكريم ، أو أنه بعبارة اخرى : تفسير المذاهب بمعاني القرآن الكريم ، وليس هو تفسير القرآن الكريم بمعاني المذاهب أو بنصوصها أو بأقوال الرواة فيها .

ولقد كان هذا هو إيمان الإمام الفقيد بالكتاب المبين ، وكان هذا هو منهجه في الاحتكام بالمذاهب إلى آياته وأحكامه ، مستقلة عمـــا يضاف إليها من شروح المختلفين ، وتأويلات أصحاب الرأي أو أصحاب اللغة من المفسرين .

وقد لخص العالم الفاضل الدكتور محمد البهي هذا المنهج فيتقديمه لتفسير الإمام الفقيد فقال : « التفسير الذي نقدمه اليوم للمسلمين هو تفسير للمسلمين أجمعين ، لا لمذهب معين من المذاهب الفقهية ، ولا للون من ألوان العقيدة الكلامية ، ولا لاتجاه خاص من اتجاهات أهل الظاهر أو أهل الباطن » .

ثم قـــال عن المنهج الذي اختاره الاستاذ المفسر واقتدى فيه بالمعلم المصلح العظيم محمد عبده فقال : « إنه منهج جعل السورة وحدة واحدة، يوضح مراميها وأهدافها ومـــا فيها من عبر ومبادىء إنسانية عامة » وأنه لا يقحم فيه القرآن على القرآن من رأي خارج عنــــه ، أو مصطلح انتزع من مصدر آخر ، فجعل كلمات القرآن يفسر بعضها بعضاً ، كما أطلق الحرية للقرآن في أن يدلي بمـا يريد دون أن يحمل على ما يراد .

وبهذه المثابة يصبح تفسير القرآن تفسيراً للمسلمين جميعاً ، وعليه يقام أساس التوفيق بين المسلمين أجمعين ، وهي أمانة لا يضطلع بهـا غير أهلها من القادرين على الاستقلال بالفهم وعلى مواجهة الخلاف بمـــا ينبغي للمجتهد من الشجاعة الصادقة ، ووسائل الإقناع بإحسان، وما ينبغي للمجتهد المعلم خاصة منالصعود إلى غاية التعليم ، وغاية المعهد العلمي الذي يتولاه .

وصف الإمام الفقيد رسالة الجامع الأزهر معهد العلم الإسلامي الأكبر ، فقال في بضع كلمات : « إنه معهد الدين وحصن اللغة المكين » .

ومن أراد هـذه الرسالة للجامع الأزهر ، فقد عرف من قبل رسالة القرآن الكريم ، بل عرف المعجزة الكبرى لهذا الكتاب في ناحية إعجازه التي لا مراء فيها ، وهي معجزة الأثر الخالد التي نستطيع نحن - أبناء هذا العصر - أن ندركها ، وأن يكون إدراكنا لهـا أقوى وأوضح ممن سبقونا إلى العلم بمعجزة الكتاب المبين .

معجزة الأثر في ألف وأربعمائة سنة أقوى وأوضح من معجزته التي شهدها أبناء القرن الأول ، ثم شهدها أبناء القرون الاولى بعـد عصر الدعوة ... فإننا اليوم نستطيع أن ندرك تلك المعجزة التي لا نظير لهـا ، والتي تقاصرت عنها الهمم ، ووقفت دونها دعوات الأفراد والامم ، وتم بها ما يتم بعمل إله وقول إله ، وهيهات أن يتم بجهد الإنسان بغير معونة الله .

أربعمائة مليون من بني آدم فرقتهم الاجناس واللغات والبقاع والازمان ، وجمعتهم كلمات القرآن .

وكلمات حفظت اللغة التي نزلت بها ، وليست هذه اللغة هي التي حفظتها ، ولم يتفق قط للغة من اللغات أن عاشت بكتاب واحد مدى هذه السنين ، فلم تعش لغة اليونان خمسمائة سنة بكتاب هوميروس ، ولم تعش لغـة اللاتين بعض هذه السنين بلغة فرجيل وهوراس ، وذهبت لغـة فارس ولغة الهند وفيها من الكتب ما لا يقرأه اليوم غير كهان المحاريب ، وماتت لغات أخرى كانت تعيش قبل الإسلام ، وبقيت لغة القرآن حية في عالم الديانة ، وفي عـالم الكتابة ، وفي عالم الثقافة ، وستحيا غداً كما حييت بالأمس ، مـا شاء الله ، وصح فيها قول الاستاذ الفقيه : « إنهـا ليست في هذا المقام عربية الإقليم والجو ، ولا عربية النسب إلى أصل ينتسب إليـه الجنس ... وصارت عربية الشخصية المعنوية المكونة من عنصري العروبة والإسلام » .

ولمـا تكلم عن غايته من التعليم في المعهد الاكبر الذي تولاه قال : « نريد تخريج تبريز لأئمة في اللغة وفروعها ، وأئمة في الفقه وأصوله ، نريده تخريجاً أساسه

النظر العميق والاجتهاد العلمي الذي يكون الشخصية الفقهية والشخصية اللغوية العربية ، لا نريده تخريجاً نلتزم فيه مخلفات الماضي من آراء ومذاهب، بل يجب أن نجتهد وأن نؤمن بأن حاجة اليوم في الفقه واللغة وعقائد الدين غيرها بالأمس، وأن نؤمن بأن فضل الله في كل ذلك لم يكن وقفاً على الأولين » .

ونستعير من اسلوب الفقيد فنقول : إن الاجتهاد كما أراده هو الاجتهاد بعناصر « شخصيته » على تمامها كما ينبغي أن يضطلع به المجتهد في جميع العصور، وهو أتم من ذلك بالنسبة إلى عصرنا هـذا الذي نعيش فيه ، وبالنسبة إلى العصر المقبل الذي يواجهه المجتهدون عما قريب .

فما من عنصر من عناصر الاجتهاد إلا قد ظهر له في هذا العصر باعث يستدعيه لم يكن ظاهراً بهذا الجلاء وهذه الضرورة في عصر من عصوره الماضية .

فها هنا عنصر النظرة الموحدة إلى الكتاب المبين في العصر الذي ارتفعت فيه حواجز الاستعمار الاجنبي ، ووجب أن تحل في مكانها روابط القربى بين أمم الإسلام على تباعد الديار ، وتباعد الشيع والمذهب التي لا بقاء لهـا مع توحيد النظرة إلى كتاب المسلمين أجمعين .

وها هنا عنصر اللغة في عصر النهضة العربية وقوامها كله نهضة الثقافة العربية التي تتحد بها ثقافة الإسلام في جميع اللغات .

وها هنا عنصر « الاستقلال » في عصر الحرية الفكرية أو عصر «الإنسان» الحر في الجماعة الحرة ، وقد مضت الجماعات في طريقها إلى الخلاص من طغيان الاستبداد وطغيان الاستقلال .

وها هنا العصر الذي أصبح فيه معهد الإسلام الاكبر كما قال الشيخ رحمه الله: « يضم السوداني ، والمغربي ، والحبشي ، واليمني ، والشامي ، والفلسطيني ، والاندونيسي ، والتركستاني ، والسعودي ، والافغاني ، والتركي ، والروسي ، واليوناني ، واليوغسلافي ، والكردي ، والعراقي ، والكويتي ، والإيراني ،

والسيامي، والباكستاني، والفليبيني، والملاوي، والبرمي ، والاردني، واللبناني، والزنجباري ، والاوغندي ، والليبي ، والتونسي ، والجزائري ، والمراكشي ، والارتيري ، والسنغالي ، والصومالي ، والنيجيري » ... إلى غير هؤلاء ممن وفدوا إليه أو يتوافدون مع الايام بلا انقطاع ، لا جرم كان من بشائر الامل – كما أسلفنا في غير هذا الموضوع – أن ينهض الشيخ شلتوت بمشيخة الازهر في الزمن الذي تفتحت فيه الطرق بين البلاد الإسلامية بعد أن تحررت من الطغيان الأجنبي عليها وبين هـذا المعهد الذي لا معهد في العالم الإسلامي أولى منه بضم الشمل وتقريب مسافة الخلف بين المسلم والمسلم حيثما كان في أقاصي البلدان .

« ومن عرف الإمام الفقيد عرف أنه قد تزود لهذه الرسالة بزاد غير علمه الغزير وشجاعته الصادقة ، وهو زاد القلب الطيب والسجية الكريمة ، تجمع الخصوم على الالفة والثقة كما تجمع الأصحاب والأنصار » .

ولقد عرفنا الشيخ الأكبر سنوات في مجمع اللغة العربية ، فتعودنا أن نعرفه « قرآنياً » في دراسته لأسرار اللغة ، قبل أن نعرفه «لغوياً» في دراسته لأسرار القرآن ، وكنا نسمعه يقول : « إن القرآن معجز بما هو به قرآن ، ويعني بذلك نسقه الذي ينتظم ألفاظه ومعانيه، ويوحي من معانيها بما ليس في مفردات الكلم، ولا في أجزائه التي يقتضيها الإعراب في كل عبارة ... فليست الكلمة الواحدة هي محل الإعجاز ، وليس محل الإعجاز هو الكلمتين أو الكلمات الثلاث التي تتم بها جملة الفعل والفاعل، أو المبتدأ والخبر أو الجار والمجرور، أو المضاف والمضاف إليه ، ولكنه نسق دقيق يتخطى لوازم العلاقة بين الألفاظ في النحو والصرف إلى لوازم العلاقة بين المعنى والوجدان ، وبين الوحي والبصيرة ، مما لا تدركه ولا تبلغ إليه بلاغة الإنسان ، وبهذه البصيرة المتفتحة تسنى له أن يفهم القرآن كتاباً للمسلمين جميعاً يرجعون إليه فيرجعون إلى مصدر واحد يبطل فيه الخلاف، أو يختلف فيه المختلفون ولكن كما يختلف العقل الواحد بينه وبين نفسه في وجهات نظره بين حين وحين ، وبين اعتبار واعتبار .

وبهذه النظرة « القرآنية » عمل الشيخ الاكبر في تنظيمه للدروس بمعاهد التعليم ، كما عمل على هذه الهداية في علاقته بالامم الاسلامية ، وعلاقته ببلاد العرب أجمعين . والجديد في خطته على هذه الجادة القديمة أنه فهم أن اللغة العربية ، أو اللغة القرآنية ، شيء يتعلمه العربي المسلم كما يتعلمه المسلم غير العربي ، فلم يكن على المسلمين غضاضة في هذه المساواة الشاملة ، ولم يكن للعربي إيثار على غيره ، لأن عروبته في هذا المنهج هي عروبة القرآن الذي يتساوى فيه المسلم والمسلم من كل جنس ، وبكل لسان .

ولئن مضى الامام المجتهد ولم يعقب برنامجه المفصل للتطبيق الشامل «العملي» في المستقبل الذي سيواجهنا عما قريب — لقد عمل وعلم وأعقب المثال الذي يهتدي به من عمل معه ، ومن تعلم على يديه ، ومن يقدر على مجاراته في اجتهاده والزيادة عليه بما يتهيأ لهم من وسائلهم ولم يتهيأ له في حياته ، وإنهم لكثيرون بعون الله ، يجزيهم الله وإياه .

انشروا في المسلمين لغة القرآن
وابدأوا بالباكستان

لحضرة صاحب السعادة محمد علي علوبه باشا
رئيس جماعة التقريب

للمسلمين لغات متعددة تبعاً لتعدد شعوبهم واختلاف أقاليمهم ، ومن أهم الوسائل التي تقرب بينهم ، وتجعلهم متفاهمين متعاونين كما يوجبه عليهم دينهم ، أن يكون لهم إلى جانب هذه اللغات المتعددة لغة مشتركة بين جميع شعوبهم من أقصى المغرب إلى الصين .

ولا يمكن أن تكون للمسلمين لغة مشتركة غير اللغة العربية ، فإنها هي اللغة التي نزل بها القرآن ، وجاءت بها سنة الرسول ﷺ ، ودُوِّنت بها مؤلفات علماء المسلمين في مختلف النواحي الدينية والعقلية منذ أول الاسلام إلى وقتنا هذا ، وفوق ذلك هي لغة العبادة ، فالمسلمون على اختلاف لغاتهم يصلون بلغة القرآن الكريم ، ويتعبدون بلغة القرآن الكريم ، ويرى كثير من أئمتهم وجوب ذلك على كل مكلف ، فإن كان عاجزاً لعدم معرفته بها وجب عليه أن يتعلم منها القدر الذي يؤدي به صلاته ، بل قال الامام الشافعي رضي الله عنه في رسالته ما نصه : « فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ، حتى يشهد

أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك »[١].

هذا إلى أننا — ويشاركنا في هذا جمهرة أهل العلم من المسلمين قديماً وحديثاً — لا نرى ترجمة القرآن الكريم مستطاعة ، ولا نعتبر أي تعبير عن معانيه أو معاني السنة النبوية تعبيراً مقدساً صالحاً للاعتماد عليه في الاستنباط والاحتجاج .

ولقد كنت في «الباكستان» فرأيت في هذه البلاد لغات متعددة من الاوردية والباشتية والبنغالية والبلوجية وغير ذلك من اللغات المختلفة في بلاد واحدة ، وقد اضطر هؤلاء الناس إلى التفاهم فيما بينهم ، وقت احتلال الإنجليز لبلادهم ، باللغة الإنجليزية ، فكانت هي واسطة التخاطب بين ذوي اللغات المختلفة ، وعرفت أن ذلك مما يعز على المسلمين هناك ، ويؤلم نفوسهم ، كما يعز على كل فريق منهم أن تكون لغة إحدى المقاطعات هي اللغة العامة بين جميع أهل البلاد ، ولكنهم جميعاً يرحبون بأن تكون اللغة العربية ، وهي اللغة المقدسة التي نزل بها القرآن الكريم هي اللغة السائدة بينهم ، التي تقتلع لغة المستعمرين وتطردها من بلادهم .

ولقد صارحني كثير من أولي الأمر هناك ، من وزراء وغيرهم بأنهم يتقبلون أن تعم اللغة العربية بلادهم ، ويودون لو أنها انتشرت فكانت لغة الإتصال بين جميع المقاطعات ، وقد أنشأوا جمعية هناك للعناية باللغة العربية والدعوة لها وتيسير تعلمها ، ورئيس هذه الجمعية هو وزير المعارف ، وقد حضرت أحد اجتماعاتها ، وكم كانت دهشتي عظيمة عندما رأيت شباناً من أهل الباكستان يخطبون باللغة العربية ، ويحفظون كثيراً من شعر المتنبي وحافظ ابراهيم وأحمد شوقي وغيرهم ، وهم أقوياء الأمل في انتشار هذه اللغة ، وإقبال قومهم على

---

(١) ص ٤٨ — فقرة ١٦٧ من الرسالة المطبوعة بمصر سنة ١٣٥٧ هـ بتحقيق فضيلة الاستاذ العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر .

تعلمها ، وهناك بالفعل من يقوم بتدريس اللغة العربية للراغبين في تعلمها ، وإن يكن ذلك في نطاق ضيق ، وقد عني بعض كبار الباكستانيين بوضع مؤلفات لتسهيل فهمها باللغة الاوردية والعربية .

لذلك كان مما عرضته على ولاة الامور في مصر حين كنت سفيراً لها في هذه البلاد أن ينشئوا معهداً للغة العربية هناك يشرف على ثلاث مدارس ابتدائية تتدرج فرقها حتى تكمل أربعاً في كل مدرسة ، وهذا لا يكلف حكومتنا شيئاً كثيراً كما أنه ليس بدعاً ونحن نرى الجاليات الأجنبية في بلادنا وغيرها تنشيء معاهد ومدارس متعددة ، كمدارس الإرساليات الأمريكية والفرنسية والإيطالية والإنجليزية ، بل إن من سياسة مصر أن تمد البلاد الشقيقة بما تراه كفيلاً بتحقيق التعاون وتقريب التفاهم من معلمين وغيرهم كما تفعل مع العراق وسوريا ولبنان وأريتريا وغيرها ، على أن من الممكن أن نستعين بالباكستانيين الذين يعرفون العربية فنجعلهم من المعلمين الذين نعتمد عليهم في إنجاح هذا المشروع العظيم .

ومن رأيي أن تكون هذه المدارس الثلاث موزعة بين كراتشي عاصمة الباكستان ، ولاهور عاصمة البنجاب ، ودكّا عاصمة البنغال ، وأن ترعاها حكومتنا وتحترم شهاداتها ، وتجعل لها امتيازاً هنا بحيث لا يقبل في معاهدنا المصرية من طلبة الباكستان إلا من كان حائزاً لشهادة من إحدى هذه المدارس، على أن يتسع نطاق تعليمنا بعد ذلك فتنشأ مدارس ثانوية هناك يؤخذ المتخرجون فيها للدراسات العليا في كليات الأزهر والجامعات المصرية ، ولا شك أن هذا من شأنه أن يثمر ثمرات طيبة ، ويقضي على لون من ألوان الضعف التي نشاهدها في الذين يفدون إلى الأزهر والجامعات دون أن يكون لديهم الإلمام الكافي باللغة وعلومها ، فيتخرجون حاصلين على شهادات خاصة تعرف بشهادات الأغراب ، وشتان بين هذا النظام ونظام يجعل أبناء البلاد الشقيقة يسيرون مع أبنائنا جنباً إلى جنب ، ويمكنهم من أن يتفاهموا تفاهماً أعمق وأقرب إلى بثّ روح المودة

المشتركة ، وربط أواصر المحبة التي ينبغي أن تسود بين الإخوة، بل يمكنهم أن يؤسسوا بين بلادنا وبلادهم أنواعاً من العلاقات الفكرية والثقافية والمادية في التجارة والصناعة والشركات وغيرها .

ان الاوربيين قد سبقوا إلى هذه الميادين فاستطاعوا ببث لغاتهم وأفكارهم أن يؤسسوا بينهم وبين كثير من البلاد الشرقية الإسلامية كثيراً من المصالح العملية وأن يفتحوا لبلادهم أسواقاً رائجة ، وأن يجلبوا سلعاً طيبة ، وأن يكوّنوا لهم مراكز فوق ذلك في نفوس الشرقيين ، قائمة على أساس من تقدير الاوربيين واحترامهم واعتبارهم أهل العلم والحضارة والمدنية ، بينما ينظر الشرقيون بعضهم لبعض نظرة العاجز إلى العاجز .

ولقد تشرفت بمقابلة حضرة صاحب الجلالة مليكنا المعظم، فأبدى لي – حفظه الله – عظيم ارتياحه لتقاريري في هذا الشأن ، كما أظهر إعجابه بهذا المشروع الجليل ، فما على حكومتنا إلا أن تأخذ سبيلها إلى التنفيذ ، وستجد من كل ذي غيرة على الشرق والإسلام تأييداً وترحيباً ، ولقد أنبأني بعض ولاة الأمر في الباكستان أنهم على استعداد للمساهمة في نفقات هذا المشروع النافع ، ولكني أفضل أن تنفرد مصر ذلك ، وأعتقد أنها ستكسب به كسباً أدبياً عظيماً ، وتحقق بصفة عملية زعامتها وقيادتها ، مع أنه لا يكلفها إلا يسيراً ، لأن هذه المدارس ستلقي من الاقبال والرواج ما يجعل إيرادها يسد كثيراً من نفقاتها .

وإذا كنت أذكر الباكستان في هذا الشأن ، وأحض حكومتنا على نشر اللغة العربية فيها ، فإني لا أكتفي بهذه البلاد، بل إن آمالي – ويجب أن يكون أهل الغيرة جميعاً معي – لترنو إلى أن يكون لنا مثل هذا المشروع في بلاد إندونيسيا ، وفيها سبعون مليوناً من المسلمين ، وفي الملايو وفي الصين وفي الهند وفي إيران ، وفيها عشرات الملايين ممن يتمنون انتشار اللغة المقدسة فيما بينهم ، وأن تكون لسانهم المشترك حينما يلتقي مسلم منهم بإخوانه في أي بلد من بلاد الله .

لقد التقى بمكة في هذا العام ثلاثة من الحجاج الصيليين أتوا من بقاع مختلفة من هـذه البلاد المترامية الأطراف ، المختلفة اللغات ، فلم يتمكن هؤلاء الثلاثة من التخاطب فيما بينهم لأن كلا منهم يعرف لغة تخالف لغة صاحبه ، ولكنهم كانوا جميعاً يعرفون اللغة العربية ، فأنقذتهم هـذه اللغة من التقاطع وهم أبناء شعب واحد، أليس هذا دليلا على أن المسلمين في حاجة إلى أداة مشتركة للتفاهم؟ بلى وإن الفائدة التي يجب أن يجنيها المسلمون في كل سنة من المؤتمر العام الذي يجتمعون فيه حين يؤدون فريضة الحج ، لا تتحقق على الوجه الأكمل إلا إذا تعاونوا على أن يعرف كل منهم العربية إلى جانب لغته الأصلية فلنعمل على ذلك جاهدين . والله المستعان ؟

ما نعلم وما لا نعلم

لحضرة صاحب العزة الاستاذ الدكتور أحمد أمين بك
مدير الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية

وقف مرة الاستاذ آ ينشتاين العالم الكبير عند درج صغير في أسفل مكتبته وقال : « إن نسبة ما أعلم إلى ما لا أعلم، كنسبة هذا الدرج إلى مكتبتي » ولو أنصف لقال : إنه أقل من هـذه النسبة . فإنا لا نعلم أي شيء هو ؟ إنا نعيش في عالم مملوء بالحقائق والقوى، ولا نعلم أي شيء هي؟ وهذا في الدنيا التي نعيش فيها ، ونلمسها ونزاول شئوننا فيها، فكيف بالعوالم الاخرى البعيدة عنا ؟ نقول إن العالم مكون من ذرات ، ونقول إن الذرة مكونة من إليكترونات ، أو من نواة وشحنة كهربائية سالبة وموجبة ، ويتغير رأينا في تكوين الذرة بمعدل مرة في كل أربع سنوات ، ونتبجح فنعمل من الذرة قنابل ذرية ، ونحن لا نعلم عن حقيقتها شيئاً ، نقول إن الأجسام تسقط لقانون الجاذبية ، والمصباح يشتعل بالكهرباء ، ونسخر الكهرباء في إيجاد الحرارة والبرودة والحركة ، وإيجـاد الأمواج واستقبالها ، ولكن ما الكهرباء ؟ لا نعلم عن حقيقتها شيئاً ، وإنما نعلم كيف تستخدم ، بـل الحياة نفسها لم نعرف حقيقتها ، وإن كانت تسكن فينا . وكل ما حولنا لا نعلم حقيقته وإنمـا نعرف أعراضه ، وبعبارة أخرى نعرف « كيف » ولا نعرف « ما » و « لماذا » .

ما الحب ، ما الجمال ، ما القبح ، ما الحرية ، ما كل شيء معنوي ؟ كل هذه

لا نعرف عن حقيقتها شيئاً ، وكل مـــا يستطيعه العقل أن يعرف صفاتها . ما الدين ، ما الخوف ، ما الأمل ، ما الشجاعة ، ما الفضيلة ، ما الرذيلة ؟ لا شيء غير الصفات .

قد نعلم أن اثنين واثنين أربعة ، ثم نعلم أجزاءها ومضاعفاتها ، أمـــا سائر الأشياء فنعرف أعراضها ، ولا نعرفها ، وكأنا منحنا عـــقلاً ليس من طبيعته أن يعرف شيئاً عن الحقائق، وكل الذي يعرفه الإنسان لو كان ذكياً أن يوجه سلوكه في الحيـــاة حسب طبائع الأشياء وحقائقها . ولذلك أنصف أصحاب مذهب البَرّ اجماتزم إذ أنكروا قـــدرة العقل على معرفة الحقيقة ، وقصروه على معرفة الوسائل للغايات .

والذين يشتغلون بالعـــلوم ويقولون إنهم وضعوا قوانينها كقوانين الجاذبية وقوانـــين الطبيعة والكيمياء ، لا يزعمونها شرحاً للحقائق ، ولكن شرحاً لأوصافها ، وحتى هي شرح لصفاتها الظاهرة ، لا صفاتها الباطنة. إنك تقول إن فلاناً يحبني وفلاناً يكرهني ، ولكن ، ما حقيقة الحب والكره ؟ لا نعرف ! قد تكون معرفة الفن أسهل من معرفـــة العلم ، أو بعبارة أخرى أسهل من معرفة الحقيقة ، لأن الفن عمل ، والعلم فهم، ونحن على العمل أقدر منا على فهم الحقائق ، ولذلك سهلت الحياة ، لأنها فن ، وصعبت معرفـــة الحقائق ، لأنها علم ، إنك تستطيع أن تعلم أنك إذا صنعت القطار على نمط صحيح لا يصطدم ، ولا تخرج عجلاته . وتستطيع بقـــدر الإمكان أن تتقي الأحداث ، وتستطيع أن تترقب النجاح في عمل إذا سرت فيه سيراً حسناً، لأن هذه كلها فن لا علم، وحتى أنت في هذه عرضة للخطأ ، فقد يحدث مـــا ليس في الحسبان ، ويخرج القطار عن القضيب ، ويصطدم بجاموسة مرت عرضاً في الطريق ، وتصطدم سيارتك بما لم تقدّر مطلقاً أنها تصطدم به . فكيف الحقائق المجهولة !

إن كان ذلك كذلك، فكيف نأمل أن نعرف العقل والنفس وحقيقة الشعور وما إلى ذلك، كل ما نتحدث به عن هذه الأشياء ألفاظ جوفاء، وتشدق سخيف،

لا حقيقة وراءه ، ولو أنصف مؤلفو المعاجم ، ومحاولو التعريفات ، لكفوا عن ذلك ، لأنهم لا يصلون إلى حقيقته ، وإنما يدورون حول أنفسهم ، ولو دققت النظر في تعريفاتهم ، لوجدتها تعريفاً بالمثل لا تعريفاً بالحقيقة ، وأكثر الناس يعيشون بعقيدتهم لا بعلمهم ، وبخرافاتهم وأوهامهم لا بعقلهم ، فكيف وعقلهم لا يدرك حقيقة ما حوله ؟ إن كان هذا حقاً ، فكيف يحاول العقل الإنساني البحث عن الله ؟ إنه يكون كقوم لم يعرفوا أرضهم ، فبحثوا عن المرّيخ ، أو لم يعرفوا ما أمامهم ، فحاولوا أن يعرفوا ما فوقهم .

ويعجبني ما ينسب إلى الإمام علي كرم الله وجهه في الله تعالى : « إنه لا تدركه الشواهد ، ولا تحويه المشاهد ، ولا تراه النواظر ، ولا تحجبه السواتر ، لا بذي عِظَم تناهت به الغايات ، فعظمته تجسيداً ، ولا بذي كِبَر امتدت به النهايات فكبّرته تجسيماً » .

كما يعجبني قول ابن أبي الحديد :

والله لا موسى ولا عيسى المسيح ولا محمدْ
علموا ولا جبريل وهو إلى محل القدس يصعد
كلا ، ولا النفس البسيطة لا ، ولا العقل المجرد
من كنه ذاتك غير أنك واحديّ الذات سرمد
فلتخسأ الحكماء عن حرم له الأفلاك سُجّد
من أنت يا رسطو ومن أفلاطُ قبلك يا مُبلّد
ومن ابن سينا حين مرّ د ما بنيت له وشيد
هل أنتم إلا الفرا ش رأى الشهاب وقد توقد
فدنا فأحرق نفسه ولو اهتدى رشَداً لأبعد

★ ★ ★

وقوله أيضاً :

فيك يا أعجوبة الكو ن غـــدا الفكر قليلا
أنت حـــيرت ذوى اللب وبلبلت العقولا
كلما أقـــدم فكري فيــك شبراً فر ميلا
ناكصاً يخبط في عمياء لا يهـــدي السبيلا

★ ★ ★

وفي مثل ذلك من الحيرة — أقرّ — ابن سينا بعد طول مـــا أجهد نفسه في فلسفته ، وفخر الدين الرازي بعد مـــا أطال في تأملاته ، بالعجز عن معرفة الموجود الواجب الوجود ، بل أقرّا مع هذا بالعجز عن معرفة حقائق هـــذا الوجود ، وأسفا أنْ صرفا حياتهما في غـــير طائل ، ورجع كل منهما بعد طول السفر خاوي الوفاض ، وقالا : إنهما لو استقبلا من أمرهما ما استدبرا ، لما صرفا حياتهما في شيء باطل ، ووهم واهم .

ما أعجز الإنسان ، يجهل كل ما حوله ، ثم هو يؤلف كل هـــذه الكتب التي لا عداد لها ، ثم يفتخر بها ، ولو أنصف لخجل منها، وحرق أكثرها، والأعجب من ذلك هذا الغرور الذي يستولي على بعضهم ، فيزعم أنـــه العالم النحرير ، والفيلسوف الكبير ، أو يزعم أن عقيدته التي اعتقدها حق لا باطل فيهـــا ، وعقيدة غيره باطلة لا حق فيها. فما هذا الحق الذي يتباهون به ، ويتعصبون له ، ويملؤون الدنيا فخراً بـــه ، ويعيبون غيرهم بالصد عنه ؟ كلا ليس في أيديهم حق بحت وليس يعلم الحق إلا الله ، يعلم ما ظهر ومـــا بطن ، ويعلم السر والعلن . أما غيره فلا يعلم إلا سراباً بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً؟

الفهـــرســت

الباب الرابع : التقارب في مسائل هامة

الباب الخامس : الاجتهاد في السنة والشيعة

الباب السادس : مصادر الشريعة وأسباب الاختلاف فيها

الباب السابع : مقالات علمية واصلاحية